


دومينيك جونسون

# الثقة المفرطة والحرب

## الخراب والمجد الناتجان عن الأوهام الإيجابية

ترجمة: آية علي

# الثِّقَةُ المُفْرِطَة وَالْحَرْبُ

## الخَرَابُ وَالْمَجْدُ الناتِجَان عَنِ الأَوْهَامِ الإيجابِيَّة


بقلم

**دومينيك جونسون**

ترجمة

**آية علي**






الطبعة الأولى

٢٠٢٠

# الثِّقَةُ المُفْرِطَة وَالْحَرْبُ

ترجمة: آية علي

ⓒشركة دار تشكيل للنشر والتوزيع ، ١٤٤٢هـ

*فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر*

جونسون ، دومينيك
الثقة المفرطة والحرب. / دومينيك جونسون .- الرياض ، ١٤٤٢هـ
١٦٣ ص ؛ ..سم

ردمك: ٩-١٢-٨٣١٧-٦٠٣-٩٧٨

١- الثقة بالنفس ٢- النجاح أ.العنوان
ديوي ١٥٨,١ ١٤٤٢/١٠٤٥

رقم الإيداع: ١٤٤٢/١٠٤٥
ردمك: ٩-١٢-٨٣١٧-٦٠٣-٩٧٨











## إهـداء الـمؤلف:

لوالِدَيَّ: روجر وجيني، اللَّذَيْنِ أدينُ لهما بِكُلِّ شيْءٍ.

# المحتويات

**فــي أيّ لــونٍ مـن ألــوان النشـاط البشـري تجـدُ الجسـارة نفسهـا أكـثر ممّـا تجدهـا في الحـرب؟**

كارل فون كلاوزفيتز

# الفصل الأول

# الحَرْبُ والأَوْهَامُ

**«مهما كنتَ واثقًا من قدرتك على الفوز بسهولة، تذكّر دائمًا أنه لم تكن لتقوم حرب لو لم يعتقد الطرف الآخر أن لديه هو أيضًا فرصة.»**

**[وينستون تشرشل].**

**«يا ربَّ المعارك، اربط على قلوب جنودي، ولا تأخذَنَّهم بالخوف، أعمِ أبصارهم عن عدد عدوّهم، قبل أن يقذف في قلوبهم الرُّعب!»**

**[هنري الخامس، شكسبير].**

في 16 نوفمبر من عام 1532، هاجم المستكشف الإسباني «فرانسيسكو بيزارو» وقوّته المتواضعة المكوّنة من 168 رجلًا جيشًا من «الإنكا» قوامه 80 ألفَ جنديٍّ في مدينة «كاجا ماركا» في بيرو، وألحقوا به الهزيمة. وعلى الرغم من هذا التباين الهائل في القوة البشرية، إلّا أن الإسبانيين قد فازوا على ما يبدو بسبب الأسلحة المتفوّقة التي كانت لديهم، وبسبب الآثار الناجمة عن تفاجؤ خصمهم بالوسائل الحديثة المتمثّلة في المدافع، والخيول، والأبواق. لكنَّ الغموض الأكبر يكمن في السبب الذي جعل الغزاة يعتقدون أنهم بإمكانهم الفوز.

توجد روايات تتحدث عن امتلاء الوادي عن بَكْرَةِ أبيه بجنود «الإنكا» الذين كان معسكرهم الضخم يطفح بهم معظم ساعات الصباح. ما الذي أعطى الإسبان الجرأة على البقاء والقتال؟ كتب شاهد عيان إسباني أنهم عندما وصلوا، لم يكن بمقدورهم التراجع أو إظهار الخوف؛ لأن من شأن ذلك أن يجعلهم يبدون غير واثقين من النصر. وقد حاول «بيزارو» تعزيز الروح المعنوية لجنوده بإخبارهم أن تعداد جيش «الإنكا» لا يتجاوز الأربعين ألف جندي. يبدو أن الإسبان كانوا مصمّمين على الحفاظ على وهم أنّ النصر سيكون حليفهم.

من الجَلِيِّ أنَّ ثقة «بيزارو» قد خَدَمته على أكمل وجه، كان النصر حليفه. لكن في كثير من الأحيان، تجلب مثل هذه التقييمات المتفائلة الكوارث!

لنتأمَّلْ صيحة الجنرال (كاستر) في معركة «ليتل بيج هورن» في عام 1876: «مرحى يا أولاد، لقد نلنا منهم!» التي تلتها إبادة تامة لكتيبته.. حيث كانت تضم حوالي مائتي رجل؛ وذلك بسبب وصول معلومات مؤكّدة إليه تفيد بأن تعداد قوات قبيلتي سو وشايان سيكون 3000 شخص. لكن على ما يبدو أن (كاستر) قد حاول - كما فعل( بيزارو) من قبله - أن يرفع معنويات جنوده بإعطائهم معلومات مضلّلة عن العدو؛ إذ أبلغ جنوده بأن عددهم لا يتجاوز 1500 شخص.

ويضم تاريخ الحروب عددًا كبيرًا من الأمثلة الأخرى على الثقة المُفْرِطَة بوضوح، والتي تؤدِّي أحيانًا إلى النصر، رغم جسامة الاحتمالات المعاكسة، بينما تؤدِّي في أحيانٍ أخرى إلى الهزيمة النكراء. هل كانت تقديرات (بيزارو)، و(كاستر) المتفائلة بشأن فرصهما في الحرب مماثلة لتلك التي قدمها رئيس الأركان الإسرائيلي ديفيد إلزار، الذي قال عن القوات السورية قبل حرب أكتوبر عام 1973: «سيكون لدينا مائة دبابة ضد دباباتهم الثمانمائة... يتعيَّنُ أن يكون هذا كافيًا»؟ أو لتلك الخاصة بجنرال الاتحاد في الحرب الأهلية الأمريكية، (جون سيدجويك)، الذي صرّح بقوله: «لن يتمكَّنوا حتى من ضرب فيلٍ من على بُعْدِ هذه المسافة» مباشرة قبل أن تُرْدِيه نيران العدوِّ قتيلًا في معركة «سبتوسيلفانيا كورت هاوس» في مايو 1864؟ أو لتلك الخاصة بالفارس الإفرنجي الذي اندفع إلى بحرٍ من العرب في معركة عكا عام 1291، على الرَّغْمِ من أنَّ بَنِي جِلْدَتِه قد انقلبوا على أعقابهم، وفرّوا بالفعل؟ لقد أشار دوق (ولينغتون) على نحو شهير إلى الفَرْقِ المُبْهَمِ بين الشجاعة والحماقة، وما يصاحبهما من خرابٍ ومجد، عندما قال: «لا يوجد على الأرض من هو أغبى مِن جُنديٍّ شهم».

أَمِثلُ هذه الحكايات مجرّد حالات متفرقة تمثّل الغطرسة؟ أم أن الإفراط في الثقة يعتبر عاملًا رئيسِيًّا في فهم ما أطلق

(لورانس ليشان) عليه: «الحماس الذي نستقبل به بداية الحرب»؟ لسنا جميعًا من المتحمسين للحرب بالطبع، لكنَّ الأمرَ لا يتطلّب سوى بضعة متحمّسين من ذوي النفوذ لبدء واحدة. هل يقودنا الميل البشري للإفراط في الثقة إلى الحرب، في حين أن تقييمًا أكثرَ واقعيةً للأمور قد يحافظ على السلام؟

يرى علماءُ كثيرون أنّ هذا صحيحٌ بالفعل. ومن ذلك قول (جيوفري بليني): «إن اندلاع الحرب خلال القرون الثلاثة الماضية يكشف عن أدلّة متكررة توضّح أسباب الحرب والسلام كذلك. ويتمثّل أحد الأدلّة الكامنة - وهو دليلٌ حاسمٌ لفهم الحرب - في التفاؤل الذي يملأ قادة الدول مع بداية معظم الحروب.

يُعدّ التفاؤل المتكرر تمهيدًا حيوِيًّا للحرب، وأيّ شيء يزيد من هذا التفاؤل يعتبر أحد أسباب اندلاعها، كما أن أيَّ شيء يثبّطه يكون أحد أسباب السلام». وقول (روبرت جيرفيس): «كثيرًا ما يرتبط التفاؤل العسكري المفرط باندلاع الحرب». وقول (ألفريد فاجتس):«كانت الحروب المُندلعة خلال القرن من عام 1815 وحتى عام 1914، مع بضعة استثناءات قليلة، تنشب مع اعتقاد كل جانب بأنه سيخرج منتصرًا». وقول (ستيفن فان إفيرا): «لقد سبق التفاؤل الخاطئ، أو بعضه على الأقل، كلّ حربٍ كبرى منذ عام 1740، بالإضافة إلى بعض الحروب الأصغر والأقدم». كما وجد (نورمان نيكسون) أن: «الثقة المُفْرِطَة وغير الواقعية في اكتساب نصر سريع» كانت: «سِمةً بارزة في حرب البوير، والحربين

العالميتين الأولى والثانية، بل وحتى - من خلال ما أصبح الآن عجزًا استثنائِيًّا جِدًّا في القدرة على الاستفادة من التجربة - في أزمة السويس وغزو خليج الخنازير». كما استخلص سوميت جانجولي أنَّ التفاؤل المُفْرِطَ يعدّ سببًا جوهريًّا للحروب الهندية الباكستانية.

وهناك أدلّةٌ أيضًا على وجود توقُّعاتٍ غير واقعية في حرب فيتنام، والحملة الروسِيَّة في أفغانستان، وهجوم العراق على إيران، والفوكلاند، والصومال، وكوسوفو، بل وحتى في الغزو الأمريكي للعراق عام 2003؛ إذ وفقًا لعدد من المؤلفين. وقد وجدت دراسة أجرتها مؤسسة راند RAND أنه حتى الحروب المحدودة: «غالبًا ما تكون أكثر تكلفة، وتدوم لوقت أطول من المتوقّع». كما وجد ريتشارد نيد ليبو أنه في أزمات التصعيد التي أدَّت في الكثير من الأحيان إلى نشوب الحرب، فإن القادة «قد أساءوا، على نحوٍ فادحٍ، تقدير التوازن العسكري بينهم، وبين خصومهم. لقد كانوا واثقين في جميع الحالات من قدرتهم على الانتصار». وقد اكتشف جون ستوسنجر «اتِّساقًا ملحوظًا في الصور الذاتية لمعظم القادة الوطنيين الذين يكونون على شفير الحرب. فجميعهم يتوقّعون النصر بعد حملةٍ قصيرة، وظافرة بالنصر. هذا التفاؤل المتكرِّر... يفترض زخمًا قويًّا، وقوة دفع ذاتية، وبالتالي يصبح أحد أسباب نشوب الحرب». وعلى الرغم من الاعتقاد السائد بأن البشر يتَّخِذون عمومًا قراراتٍ عقلانية، إلَّا أن الواقع هو أنّه

في معظم الأحيان، وعلى حَدّ تعبير (هربرت أبرامز): «إنَّ ضبابَ الأمل، والتمنّيات يحجب الحقائق. إن الدول تخطئ في تقديراتها، وتذهب إلى الحرب باعتقاد أنها ستحقق أهدافها الوطنية بكلِّ تأكيد».

إذن، فغالبًا ما يتّسم النزاع الدولي بوجود طرفين متعارضين يعتقد كلٌّ منهما أنهما سيستفيدان من ذلك النزاع. وبالطبع، فعادة ما يكون واحدٌ منهما مخطئًا. ويحذر (ريتشارد بيتس) من أنه: إذا كان للحرب منتصر ومنهزم، فهذا يعني أن كلا مُصْطَلَحِي «التفاؤل الخاطئ false optimism»، و«التفاؤل الصالح valid optimism» صحيحان من حيث التعريف: «يثبت تفاؤل المنتصر بأنه صحيح، بينما يثبت ذلك الخاص بالمنهزم بأنه خاطئ». ومع ذلك، يمكن أن يجد المنتصر أن عملية النصر كانت أصعبَ، أو أطولَ، أو أكثرَ تكلفةً ممّا كان يتوقّع، تمامًا مثلما يمكن للمنهزم أن يجد أنّ الهزيمة كانت أسرع، أو أسهل، أو أكثر تكلفةً مِمّا كان يتوقّع. ويمكن لأيٍّ من الطرفين، في أيّ موقف، وبغضِّ النظر عن النتيجة، أن يكون مُفرطًا في ثقته. وكما يُقرّ بيتس، فإننا نجد التفاؤل غير الواقعيّ ضالعًا في انتصارات «بيروسيّة[1] (Pyrrhic)» باهِظة الثمن، وفي حالات الجمود (الوصول إلى طريق مسدود)

(1) نصر بيروسي، أو النصر باهظ الثمن: مصطلح عسكري يرمز للانتصار مع تكبُّد تكاليف مدمرة. كأنْ يفوز الشخص مع وجود خسائر وتكاليف توحي بعدم الإنجاز أو الربح. ويكيبيديا

stalemates[1]، وعندما ينتهي المطاف بخسارة المهاجمين الذين كانوا يتوقّعون الفوز. وتشير البيانات المأخوذة منذ حوالي عام 1500 إلى أن المهاجمين قد خسروا ربع إلى نصف الحروب التي بدؤوها (اعتمادًا على طريقة الحساب)، كما أتت العديد من نجاحاتهم بتكلفة غير متوقّعة. يبدو أن النظرة العقلانية، وهي أن جانبًا واحدًا يحارب، ويفوز «بتكلفةٍ مقبولة»، هو أمرٌ نادر الحدوث.

وهذا هو جوهر ما يسمَّى بأُحْجِيَةِ الحرب: يجب على الدول التي يقودها صنّاع قرار عقلانيون ألّا تتقاتل فيما بينها؛ لأن بمقدور كلا الجانبين تفادي تكاليف الحرب ومخاطرها من خلال التفاوض على صفقة ما قبل الحرب، بحيث تعكس القوّة النسبية لكلِّ جانب (أي أنه يمكن لكلا الطرفين الحصول على نتيجة مماثلة دون تحمّل تكاليف الحرب، ومخاطرها). لكن بما أن الحروب تحدث، فيبدو أن الدول تُبالغ في تقدير قوتها النسبية. يخبرنا التاريخ أنه عندما تكون الأمور على شفا الحرب، فإن تقديرات المتنافسين لفرصهم في الفوز عادة ما تزيد على 100%؛ على سبيل المثال: يعتقد كلا الفريقين أن لدى كل منهما فرصة فوز

(1) الرَّدب، أو الجمود، أو المات الضائع: هي وضعية في الشطرنج يكون فيها صاحب الدور غير متعرِّض لكش، لكنه لا يملك أيّة نقلة قانونية؛ لأن أية حركة للملك تجعله تحت الكش، ويوصف الملك حينئذ بالملك المخنوق، وتحسم النتيجة كتعادل بين الطرفين. ويكيبيديا.

تزيـد عـن 50% (أو يعتقـد أحدهمـا أن فرصتـه في الفـوز 80% بينما يعتقـد الآخـر أن فرصتـه 40%)، وهـو سـلوك يكشـف عـن ثقـة غيـر مُبـرّرة لـدى أحـد الجانبيـن، أو كلاهما. ويشـير بيتـس إلى أنـه «إذا لم يكـن أحـد الطرفيـن متفائـلًا بفرصه فـي الفوز، فـإنّ احتماليـة الحرب حينهـا سـتصبح أقـلّ، لأنَّ كلا الطرفيـن لا يريان الكثير من المكاسـب الناجمـة عـن اندلاعهـا». وحتـى إن كان الإفـراط فـي الثقة عشـوائِيًّا، فإنـه غالبًـا مـا كان يجنـح بالأمـور تِجـاه الحـرب فـي حالـة وجـوده. لكننـي أزعـم أنّه أبعد مـا يكون عـن العشـوائية: إنمّا هو نزعة أساسـية فـي السـيكولوجية البشـريّة، وهـي نزعـة تتبايـن بصـورة منهجيّة وفق ظروف محـدّدة.

وكمـا أوضحـت (باربـرا توكمـان)، فـإن تقييم الفـرد المبالـغ فيه لقدراتـه النسبية لا يقتصـر علـى الحـرب، فهنـاك أمثلـة وفيـرة علـى الثقـة المُفْرِطَة في السِّـياقات المِهْنِيّـة المتنوّعة؛ من الأعمـال التجارية إلـى النقابـات العماليـة، وحتـى الحكومـة. نجـد كذلـك الكثيـر مـن الأمثلـة عبْـر جميـع ثقافـات العالـم، وعلـى مـدار تاريـخ البشـرية المُـدَوّن، ومـن القـرارات الميدانية للقادة العسـكريين فـي المعارك.. حتـى القـرارات المتّخذة فـي الجماعات السياسـية. من أيـن يأتي هذا التَّحَيُّـز المُضلّـل للتفـاؤل؟ أعتقـد أنّ مثـل هـذا التَّحَيُّـز قد وفّـر مزايا كبيـرة فـي بيئـة أسـلافنا، وبالتالـي كان مـن ضمـن الصفـات المنتقـاة في تطوّرنا.

في هذا الكتاب، أقوم بثلاثة أشياء:

**أوَّلًا**: أجادل في أن الإفراط في الثقة في أوقات النزاع كان سِمةً تكيُّفيّة في ماضينا التطوّري، وكنتيجة لذلك، أصبح جزءًا لا يتجزّأ من النفسية البشرية.

**ثانيًا**: أجادل في أنه سواء أكان له أصل تطوّري أم لا، فإن الإفراط في الثقة يعد ظاهرة منتشرة لا يمكننا غضّ الطرف عنها في محاولتنا لفهم النزاع.

**ثالثًا**: أجادل في أن الإفراط في الثقة يساهم في التسبّب في الحرب. يعدّ كلّ واحدٍ من هذه الادّعاءات الثلاثة قائمًا بذاته، لكنّ مهمتي تتمثل في إظهار أنها مترابطة، حيث أجادل في أن الانتقاء الطبيعي في التطوّر البشري كان يفضّل المَيْزَة الاستراتيجية للروح الواثقة، وبالتالي فهي شائعة في سيكولوجيتنا اليوم؛ ولذا فهي تعزّز نشوب الحرب (انظر الشكل 1). (لكنني لا أجادل في أن الثقة المُفْرِطَة هي السبب الوحيد لاندلاع الحرب).

**الشكل 1. العناصر الثلاثة لنظرية الأوهام الإيجابيّة للحرب.**

| (1) | (2) | (3) |
|---|---|---|
| الإفراطُ في الثِّقَة يُعَزِّز نشوبَ الحَرْب | كانَ الإفْرَاطُ في الثِّقَة تكيّفيًّا | الإفراطُ في الثِّقَة شائعٌ في سيكولوجيتنا |

# فرط الثّقة التّكيّفي

يعـدُّ فرط الثّقة المنهجيّ سِـمةً بشـريّةً واسـعة انتشـار، وهي سِـمَةٌ أعتقـد بأنهـا كانت تكيّفيّـة في ماضينـا التطـوّري. (أسـتخدمُ مصطلح تكيّفـي بالمعنـى البيولوجـي التطـوري، مشـيرًا إلـى سـمةٍ توفّـر مَيْـزة البقـاء، أو المَيْـزة التكاثريـة، وبالتالـي فقـد انتشـرت بواسـطة الانتقاء الطبيعـي). وعلـى الرغـم مـن أن هـذا قـد يبـدو غيـر متوقَّـعٍ، إلَّا أنـه يمكـن للثقـة المبالـغ فيهـا أن تحقِّـقَ مزايـا عديدة:

**أوَّلًا**، يمكـن أن تؤتـي ثمارهـا على المـدى الطويـل؛ لأنَّ تكاليف الفشـل الناتـج عـن الإفـراط فـي الثقـة تعتبـر أقـلّ بعشـر مـرات مـن تكاليـف الفـرص الضائعـة الناتجـة عـن الدقـة، والإفراط فـي الحذر. (انظـر القسـم 2 مـن الملحـق، والأعمـال المذكـورة هناك للاسـتزادة بشـأن هـذه الظاهرة).

**ثانيًـا**: ثبـت في العديـد من السِّـيَاقات مسـاعدته على تحقيـق أداء عقلـيّ، واجتماعيّ، وجسـديّ أكثـر فعاليّة.

**ثالثًـا**: يمكنـه رفـع الأداء فـي أوقـات النـزاع - حتـى ضـد أعتـى الخصـوم، وأكثرهـا قـوة - لأنـه يقـوّي العـزم و/ أو يخـدع العـدو ليجعلـه يستسـلم. تقتـرح هـذه النتائـج أن الإفـراط فـي الثقـة يمكـن أن يوفـر مزايـا كبيـرة فـي المواقـف الصعبـة، أو التنافسـية، أو القتالية. ونظـرًا لأن المعارضيـن يمكنهـم اسـتغلال نفـس التكتيك، فسـيكون هنـاك تصعيـد تنافسـيّ، وسـباق تسـلح بيـن الخصـوم للتغلـب علـى

بعضهم بعضًا. وفي حال كانت جميع العوامل الأخرى متساوية بين الطرفين، فإن الغَلَبَةَ في سباقات التسلح هذه تكون للأطراف التي تتمتع بثقة عالية على حساب تلك التي تكون ثقتها منخفضة.

غير أن الإفراط في الكارثة قد يؤدّي إلى وقوع الكوارث: إذ قد ينكشف الخداع الذي تقوم به الأطراف المُفْرِطَة في ثقتها، وفي هذه الحالة، فإنهم قد لا يخسرون النزاع فحسب، بل سيتكبّدون كذلك تكاليف عالية نتيجة استخدامهم لموارد إضافية من أجل تهيئة مشهد الخداع، وتدبيره. من الواضح إذن أنّ هنالك شيئًا من التوازن، بحيث يصبح مستوًى معيّنٌ من الثقة المُدبّرة «استراتيجيًّا»، بينما تأتي المبالغة فيها بنتائج سيئة. فبالنسبة للحلفاء الغربيين في القرن العشرين، «يقال إن الدرس المستفاد من الحرب العالمية الأولى كان: تجنّب استفزاز مُعتدٍ باستخدام قوّة مبالغٍ فيها، بينما الدرس المستفاد من الحرب العالمية الثانية كان: تجنّب تشجيع معتدٍ بإظهار ضعفٍ مُبالغ فيه». وعلى الرغم من وجوب تحقيق توازنٍ دقيق، إلّا أنّ وجود قدرٍ معيّن من الخداع يعدّ حاسمًا من أجل النجاح، في عالم يمارس فيه الآخرون الخداع أيضًا (انظر القسم 4 من الملحق للاستزادة بشأن هذه النقطة).

وقد جادل عالم الأنثروبولوجيا (ليونيل تايجر) في أن التفاؤل يّعد أحد أكثر السّمات التي تميِّز الجنس البشري، وتجعله قادرًا على التكيّف. ولسنا نبالغ في تقديرنا لـ «علم النفس الإيجابي»،

الـذي انبثـق لأول مـرة مـن أعمـال (مارتـن سـليجمان) حـول العلوم السـلوكية فـي السـنوات الأخيـرة. وتوثّـق رُزم المقـالات الصحفيـة حاليًـا دلائـل التحيّـزات المتفائلـة وجدواهـا فـي أيّ سـياق يمكـن أن يتخيَّلـه المـرء تقريبًـا. ومنـذ سـتينيات القـرن الماضـي، أثبتـت التجـارب النفسـية الضابطـة علـى نحـوٍ مُحكـم أن اللغـة والذاكـرة، والفكـر متحيّـزون بطريقـة منهجيّـة للاتجـاه الإيجابـي. علـى سـبيل المثـال، يسـتخدم النـاس كلمـاتٍ إيجابيـة أكثـر مـن اسـتخدامهم للكلمـات السـلبيّة، ويتذكـرون الذكريـات الإيجابِيَّة على نحو أسـهلَ مـن الذكريـات السـلبية، ويقيّمـون أنفسـهم بطريقـة إيجابيـة أكثـرَ مـن تقييمهـم للآخريـن، ويُعْـزون النّجـاح لأنفسـهم لكنّهـم ينسـبون الفشـل للآخريـن، كمـا أنهـم يكونـون أكثـر تفاؤلًا بشـأن المسـتقبل. وفـي مراجعـةٍ لرُجْحـان كِفَّـة التفـاؤل فـي سـيكولوجية البشـر، علّـق (كريسـتوفر بيترسـون) قائلًا: «علـى ما يبدو أننـا نعتقد داخـل أذهاننا، أننـا جميعـا أطفال مدينـة بحيرة وويبجـون[1] (مدينة خياليـة من تأليف غاريسـون كيلـور)، وجميعنـا أعلـى مـن المعـدل المتوسّـط».

ووفقًـا لـ(شـيلي تايلـور، وجوناثون براون)، وهمـا باحثان كبيران فـي التحيّـزات التفاؤلية، فـإنَّ الأدلّـة المتراكمة توضـح لإظهار معظم

(1) هـي مدينـة خياليـة ابتكرهـا (جاريسـون كيلـور) Garrison Keillor كإعـداد لجـزء «News from Lake Wobegon» مـن البرنامـج الإذاعـي A Prairie Home Companion. Lake Wobegon، وهـي أيضًـا مـسرح للعديـد مـن قصـص، وروايـات كيلور.

الناس لثقة مُفْرِطة في ثلاثة مجالات رئيسية، وهي: «(أ) ينظرون لأنفسهم بشكل إيجابي غير واقعي، (ب) يعتقدون أنّ لديهم سيطرة أكبر على الأحداث البيئية مِمَّا عليه الواقع بالفعل، (ج) لديهم رؤية مستقبلية وردِيَّة للغاية، وهي رؤية لا يمكن تبريرها وفقًا لبيانات المعدّل الطبيعي». وتشير الدراسات في العادة إلى أن 67% إلى 96% من الناس يقيّمون سِمَاتهم الشخصية على أنها أفضلُ من سِمَات نظرائهم، وبما أنه «من المستحيل منطِقِيًّا أن يكون معظم الناس أفضل من الآخرين» فقد أُطلق على هذه النزعة «الأوهام الإيجابِيَّة». لاحظ أنه على الرغم من أن بعض الأشخاص قد يصنّفون أنفسهم بشكلٍ صحيح على أنهم متفوّقون على معظم الآخرين، إلَّا أن الأغلبية التي تفعل ذلك لا يمكنها أن تُمثّل الواقع. ويشير (تايلور، وبراون) أيضًا إلى أن: «التفاؤل كوهم illusion» يختلف عن التفاؤل: «كضُلال delusion»: «فالأوهام تستجيب - ولو على مضض - للواقع، في حين أن الضلال لا يستجيب». إن الأوهام الإيجابِيَّة لا تعمينا، بل تضع على أعيننا غشاوة.

وهنالك العديد من المصادر المحتملة للثقة المُفْرِطَة، مثل الجرأة الزائدة بعد تحقيق سلسلة من النجاحات، والاعتقادات التي تقول بوجود قوًى خارقةٍ توفّر قوًى وحمايةً فائقين، وأنواع معينة من الاضطرابات الشخصية، ومحفّزات كيميائية عصبية كالهرمونات (انظر القسم 1 من الملحق). غير أنني أركّز على

الأوهـام الإيجابِيَّـة positive illusions باعتبارهـا مصـدرًا جديدًا، وشـائعًا جِـدًّا للثقـة المُفْرِطَة. يبدو أن الأوهـام الإيجابِيَّـة ظاهرة قويّة، وواسـعة النطـاق، ويعـود هذا تحديـدًا إلى وجـود عدد مـن التحيّزات النفسـية «المعرفيّـة»، و«الدّافعة» التـي تضاعف التأثير بطـرق مختلفة، لكنهـا تكـون مُكمّلـة لبعضهـا بعضًـا. وتسـمح التحيّـزات المعرفيـة، والتـي تتكـوّن نتيجـة وجـود عقبـات تعرقل طريقـة عمل الدمـاغ، بأن تتعـرض عمليـة اتخـاذ القـرارات لدينـا للتشـوّه والانحـراف بأمـور مثـل: مـدى الدرايـة بالمصطلحـات والمفاهيـم، وتوافـر المعلومات المخزنـة فـي الدمـاغ، وتأطيـر القـرارات. لـذا فهنـاك مجموعـة مـن التحيّـزات المعرفيـة التـي تعزّز الثقـة المُفْرِطَـة. أما التحيـزات الدّافعة Motivational biases، والتـي «تحمينـا» عاطفيا من أي معلومات متضاربـة أو مزعجـة أو غيـر مألوفـة، فإنّهـا تجعلنـا نفسّـر المعلومات الجديـدة بطريقـة تتـلاءم مـع مفاهيم مُسـبقة أو لعقلنة وتسـويغ مسـار عمـل يفضّلـه المـرء بالفعل. ومـن الأنـواع المعروفـة للتحيّـز الدّافع: «التفكيـر الجماعـي» و«الإنـكار». وهنالـك العديـد مـن التحيـزات الدافعـة التـي تشـجّع كذلك علـى الثقـة المُفْرِطَـة. ولعلّ أكثـر الأمثلة شـهرة على هـذا الأمر هـو رفض سـتالين للاعتقـاد بأن الألمـان كانوا علـى وشـك خيانتـه وغزو روسـيا عـام 1941، على الرغـم من وجود «مـا لا يقل عن تسـعين تحذيرٍ مُنفصل وقاطـع ينبئ بهجومٍ وشـيك».

لقد باتت السِّمات المتأصلة في البيولوجية البشرية، ووظائف الدماغ، التي تؤثر على عملية اتّخاذ القرارات، أمرًا معروفًا وثابتًا، إذ اكتشف العلماء حالات خروج مُمَنْهجة عن تنبُّؤات «نظرية الاختيار العقلانيّ» التقليدية في الكثير من السِّياقات (معظمها على يَدِ علماءِ الاقتصاد والنّفس التّجريبيِّين). ويُعتقد أنَّ هذه التحيُّزات يعود مَنْشَؤها في الأصل إلى الطريقة التي شكّل بها التطوّر آليَّات الدِّماغ البِنْيَويَّة (القيود «المادّية hardware» لدينا إن جاز التعبير)، وإلى قواعد الحَدْس المِهْنِيّ[1] heuristic المَبنِيّة على التجربة والخبرة، والتي يستخدمها الناس لاتّخاذ القرارات ضمن إطار تلك القيود (برمجيّاتنا software). إنَّ حالاتِ الانحراف عن العقلانية منتشرة على نطاق واسع عبر جميع الثقافات، فهي ليست مجرد حالات شاذّة غرائِبيّة تخصّ المجتمع الغربي وحده. لقد تبيّن أنَّ للعديد من هذه التحيُّزات أصول جلِيَّة في العمليات البيولوجيّة العصبية، وعمليات الغدد الصَّمَّاء.

ويذهب عالم الأحياء التطوُّرِيّ (روبرت تريفرز) إلى القول إنَّ الأمر لا يقتصر فحسب على وجود مثل هذه التحيُّزات لدينا، بل إنَّ عملية التطوُّر قد أخْفِيَ العديد منها عنّا بواسطة آليّات

(1) حَدْس مِهْنِيّ: مصطلح يشير إلى الطرق المستخدمة في حلِّ المشاكل الإنسانية، والآلية باللجوء إلى التجارب، أو الخبرات التقنية. ويعرّف معجم اللغة العربية بالقاهرة الحَدْس المِهْنِي بأنه المقدرة النامية للفرد لحلِّ المشاكل عن طريق الخبرة الطويلة. ويكيبيديا

مُدمجـة، ومتأصِّلـة للخداع الذاتِـيّ. في الواقـع، يجـادل (تريفرز) في أن الخـداع الذاتـي يلعـب دورًا رئيسِـيًّا فـي فاعليّـة هـذه التحيُّزات في جوانـب متعـدِّدة مـن السـلوك البشـري، وعملية صنـع القرار. وتشـير العديـد مـن الأمثلـة الموجـودة علـى خـداع الـذات، والآخريـن لدى الحيوانـات غير البشـرية (وبالأخص فـي حالات الصراع) إلـى أنّ لها أصـلًا قديمًا فـي تطوُّر الدِّمَاغ. إنَّ البشـرَ كائنـاتٌ حسّاسـةٌ للغاية تِجَاه الإشـارات السـلوكيّة، وتعابيـر الوجـه المرتبطـة بالكـذب والخـداع؛ الأمـر الـذي يشـير إلـى أن هـذه القـدرة كانـت تحـت ضغـطٍ انتقائِـيٍّ كبيـر فـي عمليـة تطوُّرنـا. وكمـا هـو الأمـر مـن منظـور (تريفـرز)، فإنّـه مـن أجـل تخريـب آليـات الكشـف هـذه التي تتطـوَّر باسـتمرار، أصبحـت العديـد مـن جوانب سـلوكياتنا خادعـة ذاتيًّا؛ لأنَّ هـذا يزيل احتماليّـة أنْ نخونَ أكاذيبنا الشـخصية بواسـطة تصرفاتنا (أو ما يسـمَّى بالتَّسْـريب السُّـلُوكيّ behavioural leakage). وقد يكون الخداع الذاتـيّ تكيُّفيًّـا بدرجـةٍ كبيـرة إذا زاد مـن مصداقيّـة الخدعـة. ويبـدو أن الأوهـام الإيجابِيَّـة سِـمةٌ مـن سِـمَات خـداعِ الـذّات، إذ تُشـير عدّة دراسـات تجريبيـة إلـى أنّ المعلومـات الدقيقـة متوفرة بالفعـل، لكنها تظـلّ مَخْفِيّـة في العقل الباطـن. هذا يعنـي أن الأوهـام الإيجابِيَّة تمثل انحيـازًا يخـدم المصلحـة الذاتيـة من خلال الخـداع الذاتي، وليسـت خطأ ينشـأ عـن بعض القصـور فـي المعالجـة الذهنيّة. بعبـارة أخرى، لا بُـدّ مـن أنَّ هـذه الأوهـام كانـت تكيُّفيَّـة فـي تطوّرنا بطريقـةٍ ما.

## مزايا الأوهام الإيجابِيَّة

هنـاك أدِلَّـةٌ تجريبِيّـة دامغـةٌ علـى أن الأوهـام الإيجابِيَّـة تـؤدّي وظائـفَ مفيدة. إنها تتيـح للأفراد، أو الجماعات أن تكـون أكثرَ فاعليّة في السـعي مـن أجل الأهـداف العقليـة، أو الجسـدية، وتحقيقها، كما لـو أنهـا نبـوءاتٌ ذاتيّـةُ التّحقُّـق self-fulfilling prophecies. إن فـرص نجاح الأشـخاص الذيـن يملكون تصـوُّرات عاليـة لذواتهم - حتـى وإن كان ذلـك الإدراك مبالغًـا فيـه - غالبًـا مـا تكـون أعلـى من فـرص أولئـك الذيـن يملكـون تصـوُّراتٍ ذاتِيّـة متواضعـة. وقد وجد كلٌّ مـن (شـيلي تايلـور، وجوناثـون بـراون) أنَّ الأوهـام الإيجابِيَّـة تـؤدّي إلـى وجود «دافـعٍ أعلى، ومثابرةٍ أكبـرَ، وأداءٍ أكثـرَ فعاليّة، وإلى نجـاح أعظـم في نهاية المطـاف». وكما أشـار (روي باومايسـتر)، فإنّ «عـدم وجـود أوهـام قـد يجعـل النـاس متردّديـن فـي الشـروع بتنفيذ بعـض المشـاريع الطموحـة، والمحفوفـة بالمخاطـر، والتـي غالبًـا مـا تُـدِرُّ علـى صاحبها أعظـم النجاحـات... لكـن عندما يتعلـق الأمر بـالأداء الفعلـي، فإنـه يتعيَّـنُ على الواقعـيّ العمل مسـتغنيًا عـن فوائد الثقـة، كآثـار النبـوءات ذاتيّـة التّحقّـق الناتجة عـن تفكير المـرء في أنّ بمقـدوره تحقيق شـيءٍ عظيـم». كما يقـرّ الخبير الاقتصـادي (روبرت فرانـك) أيضًـا «بأن الثقة بالنفس تعـزّز أداء الشـخص، وأن التصوُّرات الذاتيـة الإيجابِيَّـة، حتى وإن كانـت توهّمية إلى حدٍّ مـا وفقًا للمقاييس الموضوعيـة، فإنهـا تعـود بالنفـع الكبير علـى الناس، وتسـاعدهم في

حياتهـم». وقـد أشـار تقريـرٌ صـادر عـن المعهـد الوطنـي الأمريكـي للصحـة العقليـة حـول حالـة علـم السـلوك إلـى أنّ: «هنـاك أدلـة كثيـرة تشـير إلـى وجود فوائـد نفسـية إيجابية لـدى الأشـخاص الذين يعتقدون أن مسـتقبلهم سـيكون أفضـل، وأكثر وردِيَّة، علـى الرغم من انعـدام مـا يوحـي بذلك فـي واقعهـم. مثل هـذا التفـاؤل يُبقـي الناس فـي حالـةٍ مزاجيّـة إيجابيّـة، ويدفعهم إلـى العمل على تحقيـق أهداف المسـتقبل، ويعـزّز العمـل الإبداعـي والإنتاجـي، ويمنحهـم شـعورًا بأنّهـم يتحكمـون فـي مصيرهم».

وقـد اقتـرح (ريتشـارد رانغـام) أنـه علـى مـدى تاريخنا التطـوُّرِيّ الطويـل مـن الصـراع بيـن المجموعـات، فـإنَّ الأوهـامَ الإيجابِيَّـة قـد عـزَّزَتِ الأداءَ فـي الحـروب. وتكمـن أهميـة هـذا الادّعـاء فـي اكتشـاف أن الأوهـام الإيجابِيَّـة تكـون مُتضخّمـة في الظـروف المليئة بالتهديـدات (انظـر الفصـل الثانـي). وإذا كانـوا قـد حسَّـنوا قدرتهـم القتاليـة، فـإن مـن شـأن الأوهـام الإيجابِيَّـة أن تحسّـن فـرص النجاح فـي البقـاء والتكاثـر، وسـتكون مُفضّلـة فـي عمليـة الانتقـاء الطبيعـي علـى مـدار التطوُّر البشـرِيّ. ويعـدُّ هذا الأمر بـارزًا على نحـوٍ خاص؛ نظـرًا لأنـه علـى مـا يبـدو أن الحـرب فـي مجتمعـات الصيـد، وجمع الثمـار قـد نجـم عنهـا عواقـب وخيمـة علـى البقـاء، والوصـول إلـى المـواد والمـوارد، وفُـرص التكاثـر (أحيانًـا ما كانـت تُشـنّ الحروب بهـدف سَـبْيِ النسـاء). والحقيقـة أن نظريـة (رانغـام) الأصليّـة المبنيّة

علـى حالـة الحـرب تعتبـر مُعتدلـة؛ لأنهـا تسـتبعد تأثيـر القتـال بيـن الأشـخاص، والنزاعـات الفرديـة، والمسـاومة، وجـذب الحلفـاء، وردع المنافسـين، والتـي كانـت جميعهـا أكثـر شـيوعًا مـن الحـرب، وجميعهـا حـالات يُحتمـل أن تكـون الأوهـام الإيجابِيَّـة مفيـدةً فيها.

غيـر أن (رانغـام) يجـادل فـي أن درجـة الضغـط الانتقائـي علـى القـدرة القتالية كانت كبيرة بشـكلٍ غيـر اعتيـادي؛ لأنَّ الحروب كانت متكرّرة، وقاسـية طوال رحلة التطوُّر البشـري. ووفقًا لمراجعة موسّـعة أجراهـا (لورانـس كيلـي)، فـإن 8% إلـى 59% مـن وَفَيَـات الذكـور بيـن مجتمعـات الصيـد، وجمع الثمـار القبليّـة كانت بسـبب الحرب. يتبايـن ذلـك مـع نسـبة 1% لوَفَيَـات الذكـور الناجمة عـن الحرب من الولايـات المتحـدة، وأوروبـا مجتمعيـن في القـرن العشـرين، وذلك قـرنٌ كان يُعتبـر دمويًّـا. وتجمـع أدلة (كيلي) بيـن البيانـات الأثريّة عن مجتمعـات مـا قبـل التاريـخ، والبيانـات المتعلقة بمجتمعـات الصيد، وجمـع الثمـار التـي خضعـت للدراسـة فـي الآونـة الأخيـرة. ويشـير كلاهمـا إلـى أن القتـال كان أحد أهـم الضغـوط الانتقائية فـي تاريخنا التطـوُّريّ، فعلـى حَـدِّ وصـف (رانغـام)، فـإن «نظامًـا انتقائِيًّـا يـدوم لعِـدّة ملايين من السـنين، يُعَـدّ مؤثرًا على سـلوكٍ مسـؤولٍ عن مصدر رئيسـي للوفيـات، والنجاح فـي التكاثر، فمـن المُرَجّـح بطبيعة الحال أن يكـون قـد أثّـر بشـكلٍ كبير علـى التطوّر النفسـي».

هنـاك عمليّتـان منفصلتـان يمكن للأوهـام الإيجابِيَّة مـن خلالهما أن تمنـح بعـض المزايـا فـي الحـرب، وبالتالـي تزيـدان ممّـا يُعـرف باسـم «الفعاليّـة العسـكريّة»: على حَدّ تعبيـر (رانغـام)، فإنهما يكونان إمَّـا «عـن طريق قمـع الأفكار والمشـاعر الضَّـارّة، أو من خلال سـباق تسـلّح بالخـداع». ويطلـق علـى هاتيـن الاسـتراتيجيتين التكميليّتيـن «تعزيـز الأداء»، و«تضليـل الخصم». (توحي كلمة «خـداع» بالتضليل الواعـي، لكـنَّ فَرْضِيَّـة الأوهام الإيجابِيَّة تشـير إلـى أن الخداع يحدث دون وعـي؛ أي أن المـرء لا يكـون مُـدركًا لتقديره المبالغ فيه لنفسـه). وتعمـل هاتـان العمليتـان علـى خفـض دِقّـة التقييمـات المتبادلـة، وبالتالـي تزيـدان مـن المجازفة؛ لـذا فبينما تزيـد هاتـان العمليتان من الفعاليـة العسـكرية، فإنهمـا تميـلان كذلـك إلى تعزيـز النـزاع. دعونا ننظـر إلـى منطق هاتيـن الاسـتراتيجيّتين عـن كثب.

إن تقييـم الفـرد المُبالَـغ فيـه لقدراته قـد يُعزّز مـن أدائـه، وبالتالي يزيـد مـن احتمـالات فـوزه مـن خـلال خداعـه لنفسـه. وقد ثبـت أن الأوهـام الإيجابِيَّـة تعمـل علـى قمـع الأفـكار والمشـاعر التـي مـن شـأنها عرقلـة التقـدم نحـو الهـدف، وبالتالـي فهـي تزيـد مـن فرصـة النجـاح. «يـؤدي التفـاؤل إلـى اسـتمرار المـرء فـي جهـوده الحثيثـة لتحقيـق الهدف، بينما يؤدِّي التَّشَـاؤمُ إلى الاستسـلام». وتـزداد فعاليّة هـذا الأمـر إذا كان الفـرد يؤمـن حَقًّا بـأن الهـدفَ قابلٌ للتحقّـق. وكما أوضـح (شـيل تايلـور، وبيتـر غولويتـزر)، فـإن هـذا الخـداع الذاتـي

«قد يمكّن الناس من السعي لفترةٍ أطولَ، وبعزمٍ أكبرَ في سبيل بلوغ أهدافهم». ووفقًا لهذا المنطق، فإنه يمكن للأوهام الإيجابِيَّة أن تزيد من احتمالية نجاح الفرد من خلال تعزيز أدائه، عبر زيادة عَزْمِهِ، ومثابَرَتِهِ. ويمكن أن نجدَ جوهرَ هذه الفكرة متمثِّلًا في القدرة التنافسية والروح العدوانية الهجومية لدى جنود مشاة البحريّة، أو الطيّارين الحربيين.

ويمكن للتقييم الذاتي المُبَالَغ فيه كذلك أن يحسِّن من احتمالية فوز الفرد عن طريق خداع الخصم؛ نظرًا لِكَوْن السلوك الواثق يزيد من فرصة الفرد في خداع عدوِّه، وجعله يعتقد بأن فوزه غير محتمل. إذا كنتَ نفسك غير مدركٍ إلى أنَّ ما تفعله مجرّد خداع، فلنْ يكون هنالك «تسريبٌ سلوكِيٌّ» يفضحُ أمرَكَ، وبالتالي ترتفع احتمالِيّة تصديقِ العَدُوّ للخُدْعَة. هذا يعني أن الخداع الذاتي «يقلّل من الإشارات غير المقصودة التي يفعلها المرء فتفضح ضعفه»، وهو ما قد يؤثر على التدميرية، وعلى وقوع النزاعات كذلك: «نظرًا لأنَّ الخداعَ الذَّاتي يقلّل عدم التكافؤ المُتصَوّر للخصم، وهذا ما يجعل المعارضين يقاتلون بشراسةٍ أكبرَ». إن التَّنَبُّؤَ بنتائج مثل هذه الصراعات يكون أكثرَ صعوبةً؛ وذلك لأنَّ اعتمادَهَا على القوى المادية فحسب يصبح أقلّ.

وبالطبع، يمكن لهاتين الآليَّتين من الأوهام الإيجابِيَّة؛ وهما تعزيز الأداء، وخداع الخصم، أن تكونا متعمَّدتَيْن، وألَّا تقتصرا

على كونهما آليّاتٍ غير واعية. فقد يقرّر الناس التظاهر بالثقة، واستغلال هذه الاستراتيجيات عن قصد، بغضِّ النَّظر عمَّا إذا كانوا يختبرون أيضًا بعض التأثير اللّاواعي للأوهام الإيجابِيَّة أم لا، ويمكن أن تعمل العناصر الواعية واللَّا واعية في آنٍ واحد. وفي العلاقات الدولية، تُعَدّ الصورة الخارجية التي تقدّم عزمًا قويًّا، وقدرة عسكرية أمرًا ضروريًّا لردعٍ ذي مصداقية مثلًا. وغالبًا ما يمكن تحسين المواقف التفاوضِيَّة، والدعم الشعبيّ، والمكانة في الأزمات والحروب من خلال البيانات، والاستعدادات، والالتزامات الواثقة؛ ومن دون اتّخاذ أيّ إجراءٍ فعليّ.

لكن يجب أن تكون العناصر الواعية واللَّا واعية متمايزة: فإذا كانت الاستراتيجية واعية ومُتعمّدة، فيتعيّن أن يظهر انعكاسها على العام، لا الخاص. وأوضّح هذا التمييز في دراسات الحالة خاصّتي، عن طريق الفصل بين إشارات العزم، والخداع «الاستعراضية» المُتعمّدة، والمقصود بها خداع الآخرين بطريقة واعية، وبين المعتقدات التي كانت أكثر تفاؤلًا ممّا أوحت به المعلومات المتوفِّرة. والحقيقة أن الخط الفاصل بين السلوك الواعي واللَّا واعي قد يكون غير واضحٍ في بعض الأحيان، أي أنَّ الأوهام الإيجابِيَّة قد تُعزّز قناعة الفرد بشأن بعض الحقائق، حتى وإن كان تفسير تلك الحقائق قد خضع لتحريفٍ كبير لأهدافٍ سياسيّة. من ذلك أنه قبل الحرب العالمية الثانية، بدأ موسوليني

يصدّق «البروباغندا» حول القوة الإيطالية، والتي كان قد دبّرها هو شخصيًّا بهدف خداع الآخرين. كما نجد مثالًا آخرَ في الفترة الأخيرة في قناعة الزعماء الأمريكيين، والبريطانيين بأن عراق صدّام حسين كان يمتلك أسلحة دمار شامل.

وتوجد أيضًا طرق غير مباشرة يمكن من خلالها توظيف الأوهام الإيجابِيَّة في أوقات النزاع:

**أوَّلًا**: يمكن لأطراف ثالثة ملاحظة العزم والخداع، الأمر الذي يردع المنافسين المحتملين في المستقبل: ليس على الهيمنة أن تكون تنافسيّة، إذ يمكنها أن تنشأ من الخصائص الشخصيّة القويّة التي تملأ الآخرين بالإعجاب والاحترام.

**ثانيًا**: قد تؤدي مراقبة الأطراف الثالثة إلى جذبِ حلفاءَ مُحتملين يأملون الاستفادة من شريكٍ يبدو لهم قويًّا.

**ثالثًا**: إن إيمان المرء بتفوّقه قد يشجّعه على اتّخاذ إجراءٍ وقائيّ، الأمر الذي يُضفي - في الغالب - ميزة تنافسيّة: أخذ زمام المبادرة، والمفاجأة، وفرض الأمر الواقع، وشنّ الهجمة الأولى، وامتلاك «تحيُّز هجومي offensive bias»؛ كلّ هذه مزايا ورد ذكرها كثيرًا في الاستراتيجية العسكرية، والعلاقات الدولية.

**رابعًا**: إذا كان الخداع مُفيدًا ولكنه يفشل في بعض الأحيان، فيمكن حينها للأوهام الإيجابِيَّة التي تعزّز الأداء أن تكون حاسمة في كفاح الفرد لخروجه من المأزق عند انكشاف خدعته.

خامسًا: إن ميل الفرد لمواجهة التحدّيات قد يسمح له باستغلال نقاط الضعف الخَفِيّة لدى المنافسين. وبطبيعة الحال، فإن المرء قد يُخاطر بمواجهة خصوم أعتى وأشدّ قوة، ولكن كما توضّح أعمال دانيال نيتل (انظر القسم 2 من الملحق)، فإنّ صافي المكاسب الناتجة عن المبالغة في التقدير يمكنها أن تتفوَّق على تلك الناتجة عن الدقة، أو الاستهانة بالنفس.

إن من شأن التقييم العقلاني الذي لا يتحدَّى مُطلقًا الخصوم المتساوين في القوة، أو الأقوى ظاهريًّا أن يترك المكاسب المحتملة دون استغلالها، أو الاستفادة منها.

ولكي تكون الأوهام الإيجابِيَّة تكيُّفِيّة، فإن الشرط البسيط كما يقول (رانغام) يتمثّل في: «أن يميل أولئك الذين يمتلكون أوهامًا إيجابِيَّة إلى تحقيق ما يكفي من النجاح (على المدى الطويل) الذي يجعل هذه الأوهام ذات جدوى؛ وحينها تكون الأخطاء في التقدير ناجمةً عن المُفاضلة بين الخداع الناجح والفاشل، وليس عن العجز المتأصِّل عن إعطاء تقييمات صحيحة». وعلى الرغم من الخراب الذي يحدث أحيانًا نتيجة مثل هذه التقييمات الخاطئة، فإن الأوهام الإيجابِيَّة تظلُّ مفيدةً في أوقاتِ الصِّراع؛ لأنَّ انعدامَ وجودها سيجعل الأطراف الفاعلة مُفْرطةً في الحذر، أو مخدوعة، وينطبق هذا الأمر كذلك على العالم الواقعيّ، فعلى الرغم من أنَّ الحرب قد تكون بلاءً على المجتمع، إلَّا أنّه قلَّما كان هناك نقصٌ

في الأشخاص المستعدِّين لاستغلال الآخرين الذين يشيحون بوجوههم عنها، وكما كتب (كلاوزفيتز): «يتعيّن على الجرأة في الحرب... أن تُمنح قوّة معينة تتجاوز الحسابات الصحيحة التي تشمل المكان والوقت وحجم القوّات؛ لأنه أيًّا يكن المُتفوّق، فإنه لن يتردَّدَ في استغلال نقاط الضعف لدى خصمه. بعبارةٍ أخرى، إنها قوّة إبداعيّة بحقّ».

لطالما حظيَت ثقة الجنود، والقادة، والسّاسة، والدّول بالتقدير، والاحتفاء لكونها عنصرًا من عناصر النجاح، فقد كان نابليون يعتقد بأنَّ الرُّوح المعنويَّة أهمّ في الحرب من القوة البدينة بثلاثة أضعاف. وبعد مرور قرنٍ ونصف على ذلك، أشار كلٌّ من (ليزلي غيلب، وريتشارد بيتس) في كتابتهما عن حرب فيتنام إلى أنَّ الرُّوح المعنوِيّة العالية ظلّت سِمَةً أساسِيَّة: «إنَّ التَّفاؤلَ ضروريٌّ من الناحية النفسِيّة، فهو يكفل أداءً حيويًّا، ومُتفانِيًا».

إنَّ الاختلافات في الروح المعنوية قادرة حقًّا على تغيير مجرى الحروب، إذ يمكن أن يؤدِّيَ انخفاض الرّوح المعنويَّة إلى حدوث انقلاباتٍ عسكريةٍ، أو ثوراتٍ داخليَّةٍ لإسقاط الحكومة المحلِّيَّة (كما حدث مع ميلوشيفيتش في صربيا)، كما يمكن للمعنوِيّات العالية أن تسمحَ للدول بالاستمرار لسنوات، ودون استسلام، في خَوْضِ معاركَ يبدو النصر فيها ميؤوسًا (مثلما كانت الحال مع المقاومة ضدّ الغزو السوفييتي في أفغانستان).

أحيانًا ما يكون النصر في الحرب حليفَ الأطرافِ الأضعف - حتى ضدّ القوى العظمى - ويُعْزَى هذا في الغالب إلى مُثابرة المستضعف، وعزمه الكبيرين. وفي حالات قصوى، يمكن لعزيمة القوى الأضعف أن تجعل أعمال القمع العسكرية الهائلة التي يمارسها الطرف الأقوى عديمة النفع تمامًا. من ذلك فشل الولايات المتحدة في كسر عزم الفيتناميين الشماليين، على الرغم من سنوات المذابح، وأطنان القنابل التي ألقيت عليهم، والتي فاقت عدد القنابل المُلقاة في الحرب العالمية الثانية بالكامل! وكما توّعد هو تشي منه[1]: «اقتلوا عشرةً من رجالنا، وسنقتل واحدًا منكم. أنتم من سيتعب في النهاية». وقد ذكر رئيس أركان الجيش الأمريكي، الجنرال (هارولد ك. جونسون)، أنه «كان هناك افتراض غير مدروس بأنّ عرض القوة الأمريكية سيجعل العدو يلوذ بالفرار». وتشير حقيقة كونه «غير مدروس» إلى أنّ تقديرات التفوّق في زمن الحرب لا تحدث دائمًا بطريقة واعية، بل تنشأ من معتقداتٍ أعمقَ قد تُؤخذ على أنَّها من المُسَلّمات.

وتتميَّز العديد من التهديدات التي تشكّل خطرًا مباشرًا، ومُلِحًّا على الأمن الوطني بأنَّها تأتي من دول أضعفَ بكثير، لكنها تقوم فقط باتّخاذِ خطواتٍ جريئةً، أو مواقفَ قويَّةً (مثل تحدِّي العراق للتّحالفات الغربية في عام 1999 وعام 2003، وتحدّي طالبان في

(1) رئيس فيتنام الأسبق.

عـام 2002، وطموحـات كوريـا الشـمالية النووية). ويتميّـز الإرهاب أيضًـا بضمّـه لأفـرادٍ يحملـون مثـل هـذه القناعـة، لدرجـة أنهـم مسـتعدّون للقتـال، والمـوت في حرب ضـدّ أعـداء أقوياء؛ لـذا فإنني أرى- اسـتنادًا إلـى علـم النفـس البشـريِّ - أنّ علينـا أن نتوقّـع تمامًـا وجـود انحيـاز للثقـة المُفْرِطَـة لَـدَى جميـع أطـراف النِّـزَاع فـي وقتنا الحالـيّ؛ سـواءً أكانوا قـوًى عُظمـى، أم دُولًا صغيـرة، أم مناضلين من أجـل الحريـة، أم إرهابيين.

## أمـا تزال تكيفيّة في وقتنا الحالي؟

مـا البشـر إلّا أسـماكٌ خـارج الميـاه. إنَّ الحيـاة الحديثـة بعيـدةٌ كلَّ البُعْـدِ عـن بيئتنـا «الطبيعيـة» للتكيُّـف التَّطـوُّرِيّ، التـي قضت فيها سُـلالتنا 99% من سـنواتها الخمس إلى سـبع ملايين سـنة مـن التطوّر المُسـتقلّ. إن الحضـارات الحديثـة والتعـدادات السـكانية المسـتقرّة الكبيـرة حديثـةُ العهـد جِـدًّا، إذ لا يتجـاوز عمرهـا الثمانـي آلاف عام فقـط. لقـد تطـوَّرتْ أدمغتنـا مـن أجـل التَّعامل مـع تجارب، ومشـاقّ العيـش فـي مجموعـات صغيـرة مـن الصياديـن، وجامعـي الثمـار. ويعمـل التطـوُّر ببـطءٍ علـى إخماد السـلوك الـذي لا يتعـرّض لضغطٍ انتقائِـيٍّ مُمنهـج؛ لـذا فـإن العديـد مـن الصفـات البشـرية تعكـس ماضينـا، لا حاضرنـا. ربمـا تكـون الأوهـام الإيجابِيَّـة مسـتمرّة اليـوم حتـى وإن لـم تعـد تكيُّفية.

ولكـي تظـل الأوهـام الإيجابِيَّـة تكيُّفِيّـة مـن الناحيـة التطوُّرِيّة في الحيـاة الحديثـة، فإنـه يجـب أن يكون هنالـك ضغـطٌ انتقائِـيٌّ مُمنهجٌ يفضّلها، ويدعمها لكونها تعـزّز النجاح في التكاثـر. لا نعـرف إن كان هـذا الأمـر صحيحًـا أم لا، لكنّه يبـدو غيـر مُحتمـل: هـل لـدى الأشـخاص الذيـن يحملـون أوهامًـا إيجابيـة أعلـى ذريـةً أكثـر حقًّا؟ مـن ناحية أخـرى، لا يوجد سـببٌ وجيـه لتوقّع وجـود ضغـطٍ انتقائِيٍّ مُمنهـج ضدّ الأوهـام الإيجابِيَّـة؛ فالنـاس لا يموتون بطريقـة منهجية، أو يفشـلون فـي التكاثـر كنتيجـة لمثـل هـذه الأوهـام (قـد ينطبـق هذا علـى البعـض، لكنّه علـى الأرجـح تأثير غيـر منتشـر). ومن ثـمّ، فأنا أجـادل فـي أنه مـن غير المرجّـح أن تكـون الأوهـام الإيجابِيَّـة تكيُّفِيَّة تطوّريًّـا evolutionarily adaptive فـي عالـم اليـوم. وبـدلًا مـن ذلـك، فإنها «تكيّف adaptation»؛ وهي سـمة بشـريّة نشـأت؛ لأنها كانـت تكيُّفِيّـة فـي مرحلة ما فـي ماضينـا التطـوُّرِيّ. إذا كنّـا نواجه في وقتنـا الحالـي بعـض المواقف التـي توفِّر لنـا فيهـا الأوهـام الإيجابِيَّة بعـض المزايـا، فربَّما تظل «تكيّفيـة» بالمعنى الاسـتراتيجيّ، أو العامّيّ (كمـا يُقـال كثيـرًا فـي أدبيـات علـم النفـس)، ولكـن ليـس بالضرورة بالمعنـى التطـوُّرِيّ. ولتجنُّـب هذا اللَّبس في المناقشـة التالية، سأشـير إلَـى الأوهـام الإيجابِيَّـة علـى أنهـا «مفيـدة advantageous» بـدلًا من «تكيّفية».

كثيـرًا مـا تكون الأوهـام الإيجابِيَّـة مفيدةً فـي العديد من سِـيَاقات الحيـاة الحديثـة. وكمـا سبق ورأينـا، فإنّهـا تعـزِّز السّـلوك الإيجابِيّ، والمثابـرة، والنجـاح فـي العديـد مـن التَّحدِّيـات، والصحة الجسـدية (وذلـك مثـلًا عـن طريـق تخفيـف التوتـر الـذي قـد يُعـرّض دفاعات الجسـم المناعِيَّـة للخطـر). وقـد أظهـرت الدراسـات أنّ الأوهـامَ الإيجابِيَّـة تُعـزّز الأداء فـي الرياضـة، والعمـل الأكاديمـيّ، والتأليـف الموسـيقيّ، والمهـام التعاونِيَّـة، وحتـى العلاقـات، التـي قـد تسـتمر لفتـرة أطـول نتيجـة الأوهـام الإيجابِيَّـة عنهـا - وإلـى حـدٍّ مـا - فـإنَّ الأوهـام الإيجابِيَّـة «ذاتيـة التحقُّـق؛ إذ إنهـا تخلـق العالم الـذي نعتقد أنـه موجـود بالفعل».

لكـنَّ الأدِلّـة تتضـارب فـي بعـض الأحيـان. وكمـا يشـير كلٌّ مـن (ريتشـارد روبينـز، وجنيفـر بيـر): «تظلُّ مسـألةُ مـا إذا كانـت الأوهام الإيجابِيَّـة تكيُّفِيّـة [اليـوم] مفتوحـة أمـام البحـث التجريبـي». ويُلقـي (دانييـل جولمـان) باللَّـوْمِ علـى الأوهـام الإيجابِيَّـة لتشـجيعها للنّاس علـى الاسـتهانة بالكـوارث البيئيـة، أو تجاهلهـا؛ لـذا «فعلـى الرغـم مـن الـدور الحيـويّ الـذي تلعبـه فـي نفسِـيَّة الفـرد السـليم» إلَّا أنهـا «تُعتبـر سـامّة بالنسـبة لنـا كنـوع». ويضيـف (جولمـان): «إنَّنـا نخدع أنفسـنا بسـهولةٍ شـديدةٍ بشـأن الأخطار التـي تهدِّد جنسـنا؛ وذلك لأن أوهامنـا تعمـل علـى نحوٍ جيِّـد للغاية. لكن علـى الرغم مـن أنَّ رفاهنا العاطفـي، والجسـدي يعتمـد جزئِيًّـا علـى براعـة الإنـكار والوهـم،

إلَّا أن حالة العالم قد بلغت درجة لم يعد بوسعنا معها تحمُّل ثمن تلك الحيلة».

وينوّه (روي باومايستر) إلى أنّ العديد من السلوكيات المحبطة للذات، أو المهزومة ذاتِيًّا self-defeating behaviors التي عُثر عليها بين أوساط البشر تتضمّن إساءة تقدير الذات، أو البيئة الاجتماعية بطريقة أو بأخرى: «يمكن أن تؤدّي مبالغة الفرد في تقديره لقدراته، واحتمالية نجاحه إلى أن تجعله يقوم بمهامّ مختلفة تستهلك الوقت، والطاقة، وتُنتج الفشل»، كما يقرّ أيضًا «بأن العمليات العسكرية تقدّم أوضح تصويرٍ لمخاطر اتِّخاذ القرارات بناءً على الأوهام؛ وذلك لأن تكاليف الفشل تكون جليّة ومدوِّية».

لكن سؤال ما إذا كانت الأوهام الإيجابِيَّة مفيدة، أم ضارّة في الحرب الحديثة سؤالٌ معقّد، فبالنسبة للغالبية العظمى من تطوُّرنا، كانت المعارك تقع بين مجموعات صغيرة من الصيادين، وجامعي الثمار. وتتمثَّل إحدى مُميّزات الحرب البدائية في أن المقاتلين من الجانبين كانوا غالبًا ما يجتمعون، ويكشفون أنفسهم أمام بعضهم بعضًا قبل المعركة، وذلك على ما يبدو لتقييم قوّتهم النسبية. ولعلّ القدرة على التخويف هي أحد العوامل الرئيسية المحدِّدة للنجاح. لكن هذه العوامل البصرية تعدّ غائبة بالكامل تقريبًا في الحرب الحديثة.

إنَّ نطاقَ الحرب الحديثة، والفصل الموجود بين الأسلحة الحديثة يجعل من عمليات القتال، والقيادة، والتخطيط أكثر تجريدًا وانعزالًا عن ردود الفعل المباشرة.

بالنسبة للجنود في ساحات القتال، فربَّما ما يزال كلّ من العزم، وإظهار الثقة للعدو يتمتّعان بمزاياهما التقليدية. أما بالنسبة للبيروقراطيين ذوي الرُّتَب المتوسطة المسؤولين عن السياسة العسكرية، الذين يكونون بعيدين عن ميدان المعركة، فقد تؤدي الثقة المُفْرِطَة إلى إساءة تخصيص الموارد دون أيٍّ خداع تعويضِيٍّ للعدو؛ لذا فبالنسبة لأولئك القابعين وراء مكاتبهم، فإن احتمالية أن يرفع التقييم الدقيق من فرصة انتصار جانبهم تكون أكبر من احتمالية الإفراط في التفاؤل (إنهم ينظرون إلى الأوهام الإيجابِيَّة على أنها لن تقود في الغالب إلَّا إلى الفوضى). وفي أعلى مراتب السلطة السياسية، يكون مستوى التواصل مع العدو أشبه ما يكون بمستوى الجنود، لا البيروقراطيين: تعدُّ مظاهر العزم، والخداع بين قادة الدول عناصر أساسية، وجوهرية للغاية في السياسة الدولية.

إننا نرى القناعة والثقة الأصيلين، بالإضافة إلى الوضع الواعي للاستراتيجيات، في الخطابات العامة، والمفاوضات، والمساومات السياسية، والديبلوماسية، والسعي إلى إقامة تحالفات، وإبرام المعاهدات، وتطوير القوة العسكرية ونشرها، بل وحتى في المشاجرات بين أعضاء البرلمان. مثل هذه الإشارات قد تحمل

رسائل مهمة؛ لا للدول المنافسة فحسب، بل ولجمهور الدولة المحلّي كذلك؛ لذا فإن التأثير المحتمل للأوهام الإيجابِيَّة بين هؤلاء القادة يعدُّ بالغَ الأهمية؛ سواء أكان ذلك التأثير للأفضل، أم للأسوأ. قد يعمل كلٌّ من العزم، والخداع على تعزيز الأمن القومي، لكنهما قد يقودان بالتّضارب في المصالح إلى هاوية الحرب.

ويبدو أن الأوهامَ الإيجابِيَّة، مثلها في ذلك مثل العديد من الاستجابات النفسية، قد تطوَّرت لتصبح «قيد التشغيل»، أو لتتغيَّر وِفْقَ محفِّزات محدّدة في البيئة. تعدُّ هذه الطريقة رائعة لإثارة استجابة مطلوبة؛ طالما أنَّ الكائن الحَيّ في بيئته الأصلية للتكيُّف التطوُّرِيّ. وحينها فقط، سوف تتوافق المحفِّزات «المباشرة proximate» توافقًا موثوقًا مع المَيْزة «النهائية ultimate» للاستجابة.

وكان (نيكولاس تينبرغن) قد أوصانا بألّا نغفل عن التمييز التحليلي بين السببيّة المباشرة والنهائية، إذا كُنّا نرغب في فهم السلوك. والآن، وحتى بعد ابتعادنا - نحن البشر- عن بيئتنا الطبيعية، فإن الاستجابات القديمة المباشرة لا تزال تحدث في الدماغ نتيجة محفّزاتٍ معينة، حتى وإن كانت النتيجة سلوكًا غير مناسب. غالبًا ما يكون هذا خارجًا عن إرادتنا، لكن ليس بالضرورة أن تخدم تلك الاستجابة الوظيفة النهائية.

والأنكى من ذلك أن المحفِّزَات في عالم اليوم قد تكون نُسخًا مُضخّمة من تلك الموجودة في بيئتنا الطبيعية؛ ما يمكن أن نطلق عليه «المحفِّزات الفائقة super-stimuli» التي تثير استجابات غير متناسبة. على سبيل المثال: قد تعمل رؤية آلاف القوّات التي احتشدت استعدادًا للحرب على تفعيل الأوهام الإيجابِيَّة، أو مضاعفتها، وهي أوهام - بغضِّ النظر عن المنطق العقلاني - تتجاوز أيّ تقارير عن نقاط قوّة العدو، وتمنح الشعور بأن جيش المرء لا يمكنه أن ينهزم قطّ أمام ذلك العدو. وقُبيل الحرب العربية الإسرائيلية عام 1967، قيل إن الرئيس المصري جمال عبد الناصر «قد أسكَره ما رآه من مجموعات الرجال، والعتاد المُنتشرة أثناء جولته التفقّدية للمواقع المصرية في سيناء». ويُعتقد أنّ ثقته العسكرية المُفْرِطَة، وما يصحب ذلك من نزعة قتالية، كانت سببًا مُهِمًّا من أسباب الحرب

## الدلائل التجريبية على الأوهام الإيجابِيَّة

### ■ الأوهام الفردية

تعدُّ الأوهام الإيجابِيَّة ظاهرةً واسعةَ الانتشار، وعامّة في جميع الثقافات، وقوية، ويمكن العثور عليها في سياقات متنوعة تنوّعًا مذهلًا. يتميّز الناس بمبالغتهم المستمرة في صفاتهم الفردية المختلفة، كالصحة، والقدرات القيادية، والكفاءة المِهْنِيّة، والقدرة

الرياضيـة، والأخـلاق، وغالبًـا مـا يميـل النـاس إلـى اعتبـار أنفسـهم أفضـل مـن الآخريـن مـن حيـث الـذكاء، أو الجاذبيـة، أو النزاهـة، أو المهـارات. كمـا أنهـم يعتقـدون أنهـم يتمتّعـون بمعـدّلاتٍ أعلـى من المتوسـط العـام في الأخلاق، والصحـة، والمهـارات الإدارية، إضافة إلـى ميلهـم للاعتقـاد بأنّ لديهـم احتمالية أكبـرَ من غيرهـم في إنجاب أطفـالٍ موهبيـن، والحصـول علـى وظيفـة جيـدة، وتأديـة المهـامّ المسـتقبلية أداءً ممتـازًا، وأنهم سـيكونون أكثر سـعادةً، وثقـةً، وجدّيَّةً فـي العمـل، وأقـلّ وِحـدة وتعاسـة مـن نُظَرائِهـم. حتـى أنَّ إحـدى الدراسـات وجـدت أن 94% مـن أسـاتذة الجامعـات يعتقـدون أنهم يـؤدُّون عمـلًا أعلى مـن المتوسـط. كما يشـعر النـاس أيضًـا بالتفاؤل المُفْـرِط حيـال الأحـداث السـلبية، حيث يميلـون إلى الاعتقـاد بأنهم سيعيشـون لفتـرةٍ أطولَ من المتوسـط، ولـن يكونوا ضحايـا لحوادث السـيارات، أو الجرائـم، أو الـزلازل، ولـن يمرضـوا، أو يعانـوا مـن الاكتئـاب، أو مـن حـالات الحمـل غيـر المرغـوب فيها. وقـد ذكرت مراجعـة لهـذه الدراسـة فـي عـام 1994 أنّ: «الدلائـل علـى التفـاؤل غيـر الواقعـي لدى العيّنـات العاديّة هائلـة الحجم، وفي نموٍّ مسـتمرّ».

أضـف إلـى ذلـك، أن النـاس يبالغـون فـي تقديـر قدراتهـم علـى التحكُّـم فـي الأحـداث، أو فـي سـلوك الآخريـن. مـن ذلـك أن المشـاركين فـي تجربـة «ألعـاب مُعْضلـة السـجينين» يتصرَّفـون كمـا لـو أنهـم يسـتطيعون التّحكّـم فـي القـرار المُتَزامـن للطـرف الآخـر.

وفـي مواقـف المسـاومة، يميـل النـاس إلـى ترجيـح وجهـات النظـر التـي تميـل لكفّتهـم، وإلـى الإفـراط فـي التفاؤل بشـأن نوعيـة النتائج التـي يمكـن تحقيقهـا، والإفراط فـي الثقة فـي قدرتهم علـى تحقيقها. وبعـد الحـدث، يميـل النـاس لعَـزْوِ الفشـل إلـى الممارسـات غيـر المتعاونـة، وغيـر الأخلاقيـة مـن قِبَـلِ الخصـم، وليـس إلى أنفسـهم. كمـا تنـزع تقييماتهم التـي تخدم مصالحهـم الذاتية إلى زيـادة تكاليف الصـراع عـن طريق منع المكاسـب المُجمَّعـة، وتأخير الاتفـاق؛ الأمر الـذي يـؤدِّي إلـى التصعيـد. يميل النـاس كذلـك «إلى الاعتقـاد بأنهم يسـتغلّون مصـادر معلومـات أكثر مـن المصـادر التي يسـتفيدون منها فـي الحقيقـة، وإلـى المبالغـة فـي تقديـر الدرجـة التـي يجمعـون بهـا الأدِلّـة بطـرق مُعَقّـدة، ويغتـرُّون بأنفسـهم، ويبالغـون في الثنـاء عليها مـن خـلال الاعتقـاد بأنهـم يبحثون عـن دلائـلَ خادعـةٍ، ومراوغة في سـلوك الآخرين».

وتتبايـن الأوهـام الإيجابِيَّة بين مختلـف النـاس، والثقافات (انظر الفصـل الثانـي)، لكـن «الأدلـة تشـير بوضـوح إلـى أن معظـم النـاس يتوقَّعون أن مسـتقبلهم سـيكون أكثرَ إشـراقًا ممَّا يمكـن تبريره بمنطقيّة بنـاء علـى أُسـسٍ إحصائيـة». وحاليًـا، باتـت مثـل هـذه الآثار شـائعةً للغايـة فـي الأدبيّـات، لدرجـة أنهـا دُمِجَـتْ معًا لبنـاء نظريـة عامّة عن السـبب الـذي يجعـل الأوهـام الإيجابِيَّـة ضروريـةً للصحـة النفسـية، وكيف أنهـا تـؤدّي وظائـفَ مفيدة.

أحيانًا ما يتمُّ التشكيك في قابلِيَّةِ تطبيق التحيُّزات النفسية على الظواهر السياسية؛ نظرًا لأنَّ التحيُّزات تُكتشف في تجارب معمليّة تتضمّن أحجام عيّنات صغيرة نسبِيًّا. ومع ذلك، وبالإضافة إلى تكرار دراسات الأوهام الإيجابِيَّة التي لا نهاية لها، وجد مسح لمليون طالب بالمرحلة الثانوية آثارًا مماثلة: حيث صنّف 70% أنفسهم على أنّ لديهم مهارات قيادية أعلى من المتوسط (2% فقط صنّفوا أنفسهم دون المتوسط)، كما بالغ 60% كذلك في تقدير قدراتهم الرياضيّة (6% فقط صنّفوا أنفسهم دون المتوسط). أمّا مِن حيث القدرة على الانسجام مع الآخرين، فقد صنّفوا أنفسهم جميعًا على أنهم على الأقلّ في المستوى المتوسط، كما وضع 60% منهم أنفسهم ضمن الـ 10% الأعلى، بينما وضع 25% أنفسهم ضمن أوّل 1%.

وهناك نقدٌ آخر يتمثّل في أن التجارب المعمليّة تستخدم الطلاب الجامعيين في معظم الأحيان كمواضيعَ لدراستها، ومن ثمَّ تفترض أنهم يمثّلون البشر بشكلٍ عام. غير أن الكثير من الأدلة على وجود أوهام إيجابية جاءت من الأبحاث التي أُجريت على الرياضيين، والأشخاص المصابين بأمراضٍ مختلفة؛ أي على شريحةٍ أوسعَ بكثير تضمُّ مُختلف أنواع الشخصيات، ومستويات التعليم، والأعمار، والخبرة، والمهن. وباجتماعها معًا، تشير الدراسات المتكررة، وعيِّنات الاختبار الكبيرة، ومجموعات

الدراسة المتنوعة إلى وجود درجةٍ عالية بشكل غير طبيعي من متانة ظاهرة الأوهام الإيجابِيَّة وقابليَّتِها للتعميم.

## ■ الأوهام الجماعيّة

لا يبالغ الناس في تقدير أنفسهم وحسب، بل يبالغون كذلك في تقدير الجماعات والمجتمعات التي ينتمون إليها. حتى أن الناس يحكمون على الآخرين الذين في مجموعتهم على أنهم أفضل من متوسط المجموعة، ويستمرون في فعل ذلك حتى عندما يكون أعضاء مجموعتهم مجرد غرباء مجهولين عُيّنوا عشوائِيًّا للمجموعة. «المجموعة جيّدة الأداء»، على حدِّ تعبير (دانييل جولمان)، «هي مجموعة مرتبطة ببعضها بعضًا بنرجسيةٍ جماعية؛ مجموعةٌ تشترك في الأوهام الإيجابِيَّة المألوفة: الشعور الإيجابي غير الواقعي عن نفسها، والإحساس المتعاظم إلى حدٍّ ما بمدى قدرة المجموعة على إحداث فرق... والشُّعور المُفْرِط في التفاؤل بأنَّ الأمور ستؤول إلى خير ما يرام».

إن مثل هذه التحيُّزات التي يتَّخذها الفرد لمجموعته الداخلية، وضدّ المجموعات الخارجية تعدُّ راسخةً تمامًا في نموذج علم النفس الاجتماعي المعروف باسم «نظرية الهوية الاجتماعية»، والتي بُنيت على أساس عمل كلٍّ من (هنري تاجفيل، وجون تيرنر). وتعتمد نظرية الهوية الاجتماعية على مجموعةٍ من الأدلّة التجريبية التي تُثبت أن الناس يتماهَوْنَ بسرعة مع مجموعات حُدِّدتْ

على نحوٍ أكثرَ اعتباطية، ويبالغون في تقدير أداء مجموعتهم، وخصالها. ويجادل (تاجفيل) في أنَّ هذه النزعات ناتجة عن رغبة الناس العميقة في الحفاظ على تقديرٍ إيجابيٍّ للذّات، وأن الناس يستحضرون مقارناتٍ بين المجموعات في محاولة منهم - كما يقول (ماركو سينيريلا) - لتفسير مجموعاتنا الخاصة على أنها مُختلفة عن المجموعات الخارجية التي لسنا أعضاء فيها، ومتفوّقة عليها». وقد أظهرت التجارب أيضًا أن الناس يبالغون في تقدير الفرق الأيديولوجي بين مجموعاتهم الخاصة، وتلك المعارِضة، ويرون وجهات نظر خصومهم على أنّها أكثر تطرُّفًا ممَّا هي عليه في الواقع.

ويبدو أن الأوهام الإيجابِيَّة للمجموعة مرتبطةٌ بالعنف الجماعِيّ. فقد أظهر استعراض (روي بومستر) لدراسات العدوان الإنساني أن «الجماعات التي يُظهر أعضاؤها مستوياتٍ أعلى من احترام الذات تُظهر كذلك مستويات أعلى من العداء والعنف»، وأن «العنف الجماعي يميل إلى الارتباط بمعتقداتٍ صريحة تؤمن بتفوّق المجموعة العنيفة». كما وجدت دراسة أخرى أن جميع الطّغاة تقريبًا في التاريخ الحديث، وكثير من رعاياهم، كانوا يؤمنون بشدّة بتفوقهم الثقافي (النازيّون كأكثر الأمثلة بداهة).

وقد جادل عالم النفس (إيرفينج جانيس) في أنّ اتّخاذ القرارات ضمن مجموعات من شأنه أن يؤدِّيَ إلى تفاقم التحيّزات المتفائلة،

وذلك لأنّ «التفكير الجماعي» يعمل على تعزيز تصوّرات التفوّق، بما في ذلك:

- وهمٌ مشترك بالحصانة.
- إيمانٌ راسخ لا جِدَال فيه في الأخلاق المتأصِّلة لدى المجموعة.
- محاولاتٌ جماعية للحفاظ على الافتراضات المهزوزة لكنها تعدّ مصدر اعتزاز للمجموعة.
- التصوير النَّمَطِيّ للمجموعات الخارجية على أنها شريرة لدرجة أنّها لا يصلح معها التفاوض، أو ضعيفة لدرجة أنها لا تشكّل تهديدًا.
- فرض الرقابة الذاتية على مباعث الشكّ، أو الحجج المضادّة لجعلِها تتماشى مع المجموعة، وتمتثل لها.
- وهم جماعي بالإجماع في وجهة نظر الأغلبية (بناءً على الافتراض الخاطئ الذي يقول إن الصمت علامة الرضا).
- الضغط المباشر على المعارضين للحفاظ على ولاء المجموعة.
- حُرّاس عقل حملوا على عواتقهم مهمّة حماية المجموعة والزعيم من المعلومات التي قد تُضعف العزيمة.

(وفقًا للعالمة السياسية «كارين ألتر»، فإنه يمكن العثور على جميع هذه المعايير في تقييمات إدارة بوش للعراق قبل حرب عام

2003؛ انظر الفصل الثامن). إن من شأن كلٍّ من التفكير الجماعيّ، والأوهام الإيجابِيَّة أن يعزّزا من بعضهما بعضًا تعزيزًا كبيرًا. فكما أشار (جولمان)، فإن «الشعور بأن كلَّ ما تخطّط له المجموعة ناجحٌ لا محالة» لهو « وهمٌ يُمثّل فعليًّا مجموع الأوهام الإيجابِيَّة الثلاثة» الموصوفة للأفراد (الإفراط في التفاؤل بالذات، وتحكّم الفرد بالأحداث، ومستقبل الفرد).

وقد يتفاقم تأثير الأوهام الإيجابِيَّة على الأفراد، والجماعات عند المستوى المجتمعي، إذ يبدو أن للأوهام الإيجابِيَّة عند هذا المستوى أهميّةً خاصّةً في أوقات الحرب. فكما يجادل (فلاديمير فولكان)، فإنه «يتعيَّن على أيّ شخص يحاول التعامل مع الصراع بين الأعراق، أو الصراع الدولي أن يُدرك حجم الفاعليّة النفسية لحاجة المرء لأن يكون له أعداء علاوةً على الحلفاء، ولتمسّكه العنيد بالتَّمَاهي مع جماعة عند مواجهته للمشاقِّ والمخاطر». وخلال الحرب العالمية الثانية، لاحظ العالم النفساني (نورمان ماير) أنّ «النزعة القومية المُكثَّفَة، مثلها مثل الأنانية المُفْرِطَة، ميّالة لأن تقود نحو السلوكيات التي تَنِمّ عن الشعور بالتفوّق والتّعالي، مع ما يقابلها من تصنيفات دونِيّة للآخرين... إن معظم الدول - كونَها تتألَّف من بشرٍ غير معصومين من الخطأ - تعدُّ مُدانة إلى درجةٍ ما باعتناقها لهذا الوَهْمِ الذَّاتِيّ».

لقد أكّدت عقود من البحث هذه النتيجة: من المُرجّح أن تستسلم مجتمعات بكاملها لأوهام إيجابية يعزِّز بعضها بعضًا، بسبب الاختلافات الكامنة في ردود الفعل بشأن التفاعلات «داخل المجموعة»، و«خارجها». ففي داخل المجتمع، تكون عدم دقّة تصوُّرات الآخرين محدودة بسبب المصالح المتداخلة، والتفاعل المتكرِّر، والمعلومات التصحيحِيَّة. أما بين المجتمعات، فإنَّ تفاعل الأفراد يكون أقلّ بكثير عمَّا هو عليه في المجتمع الواحد، كما أن تحدِّي الأفكار الخاطئة يكون هو الآخر أقلّ من نظيره، وغالبًا ما يتفاقم الوضع نتيجة الاختلافات في الأيديولوجيات والقيم؛ لذا فإن الآراء السلبية حول القيمة الأخلاقية «للأجانب»، وقوتهم البدنية، وشجاعتهم تظلّ دون ضابط يردعها من ردود الفعل، أو الاهتمامات المشتركة، وهذا ما يجعل حدوث النزاع مرجَّحًا أكثر؛ لأنَّ كلا الجانبين يحملان أوهامًا مُعزّزة باستمرار، مفادها أن مُجتمع كلّ طرف يتمتّع بأخلاقيّات، أو آلهة أو تطلعات وطنية، أو جنود أكثر تفوُّقًا من الآخر. ويجادل (ستيفن فان إفيرا) في أن مثل هذه التصوُّرات تُعزَّز بشكلٍ منهجِيٍّ من خلال «خلق الأساطير الشوفينية»؛ وهي «علامة مميِّزة للتعصّب القومي» تتضمن «تمجيد الذات، وتجميل صورتها من خلال إخفاء الجرائم، أو الفضائح، والتمويه عليها self-white washing، وتشويه سمعة الآخر، والافتراء عليه»، ويتم ذلك عَبْرَ المناهج المدرسية، والتاريخ

الشعبي، والأدب والنُّخْبَة السياسية. من الأمثلة على ذلك شعور البريطانيين بالرِّضا الذَّاتِيّ، والاستهانة بقدرات العدو قبل غزو اليابان لـ «ملايا» خلال الحرب العالمية الثانية. كانت الدفاعات قد تُرِكَتْ حتى اللحظة الأخيرة، ويعود سبب ذلك - جزئيًّا على الأقل - إلى أن كبار القادة كانوا يعتقدون بأن الجنود اليابانيين صغار البِنْيَةِ، وضعفاء جسديًّا، ويملكون نظرًا ضعيفًا، ويعانون من قيادةٍ تدنوهم منزلة، ولا يستطيعون قيادة المدرَّعات عَبْرَ الغابة. وبالطبع، سرعان ما اكتشفوا أن كلَّ ذلك عارٍ من الصحة.

وتؤدِّي أوقات الأزمات إلى تفاقم الأوهام الإيجابِيَّة داخل المجموعة، وانتقاص المجموعات الخارجية. ويصف (لورانس ليشان) «ميلًا قويًّا فينا نحن البشر إلى تحويل أسلوبنا في تقييم حالة دولية من الواقع الحسِّيِّ إلى الواقع الأسطورِيّ عند تصاعد التوتّرات».

وتكون النسخة الأسطورية من الأحداث مُدعّمة بالعديد من المفاهيم الخاطئة المشتركة: اختزال الوضع لعقليّة «نحن وهم»، و«خير وشر»، والتقليل من قيمة العدو، والاعتقاد بأن «حلفاءَنَا» صالحون، و«حلفاءَهم» فاجرون، وبأن الله «معنا»، وأن النصر مصيرِيٌّ والهزيمة غير واردة، وأنَّ أفعالَ العدُوِّ تُحرِّكها دوافعُ شرِّيرة بينما نحارب «نحن» في سبيل الدفاع عن أنفسنا، أو بدافع الخير، والإحسان، أو الأخلاق، وأن العدو ميَّالٌ إلى الكذب؛

لـذا فلا فائـدة تُرجى مـن التواصل معـه، وأن الأفعـال المتطابقة تكون خيّـرة عندمـا نفعلهـا «نحـن» بينمـا تكـون شـريرة حينمـا يفعلونهـا «هـم». كذلك تتعـرّض الآراء المُخالفـة للقمع، ويُوسـم أولئك الذين يشـكّكون فـي الآراء المسـلّم بهـا باللّا وطنيّـة، وتتلاشـى المخاوف مـن الأسـباب الكامنـة أمـام أهمّيـة النتائـج. وكمـا يشـير ليشـان، فـإن: «التقييـمَ الأسـطوريَّ للواقـع» قـد يكـون الطريقـة الأكثـر فعاليّة لخـوض حـربٍ مـا بمجـرد وقوعهـا، «لكن قـرار خوض الحـرب من عدمـه يجـب أن يُتّخذ بنـاء على الواقـع الحسّـي، دون أن تلوّثه عناصر أسـطوريّة». ولسـوء الحـظ، فـإن جوانب الأوهـام الإيجابِيَّـة قد تكون مبنيّـة بالفعـل، ومندمجـة فـي مؤسسـات الدولة، ونفسـيّتها.

## مـاذا عن القادة؟

مـن الأهميـة بمـكان أن نكتشـف أن لَـدَى الأشـخاص الطبيعييـن أوهامًـا إيجابِيّـة منهجِيّـة. غيـر أن القـادة العسـكريين والسياسـيين، وخاصـة أولئـك الذيـن يصلـون إلـى مناصـبِ صُنْـعِ القـرار العليـا، ليسـوا بالأشـخاص العاديـن - بسـبب الانتقـاء الذاتـي للأشـخاص الذيـن يريـدون أن يصبحوا قـادة، والانتقـاء المؤسَّسِـيّ، والجماهيريّ لأولئـك الذيـن يصبحـون قـادة، والانتقـاء غيـر العشـوائي للأتبـاع بواسـطة من هم قـادة. ومن المفهـوم أن تجربة القـادة، وحصافتهم قد تجعلهـم أقـلَّ عُرْضَـةً للتحيُّزات في صنـع القرار مـن المواطن العادي (قـد يكونـون مثـلًا أكثـر اعتيـادًا علـى اتّخـاذ قـرارات مُعقّـدة) لكـن

ما من دليلٍ على ذلك، بل إنني أزعم أن القادة، في حالة الانحياز نحو التفاؤل، يكونون عُرْضَةً بشكلٍ خاصّ لإظهار مستويات عالية فيه. ولسوء الحظ، فليس هناك من أدلةٍ تُذكر على هذا أيضًا: ما تزال هناك حاجة إلى إجراء أعمال تجريبية تقارن بين الأوهام الإيجابِيَّة التي لَدَى القادة، وتلك التي لَدَى الشخص العادي. ومع ذلك، فهناك العديد من الأسباب التي تجعلنا نعتقد بأن الأوهام الإيجابِيَّة قويَّة على نحوٍ خاصّ بين أولئك الذين يتمتّعون بأكبر قدرٍ من القوّة؛ وهذا الاحتمال، وإن كان مبدَئِيًّا، يعتبر مهمًّا في النظر في تأثير مثل هذه الأوهام على الحرب.

لنتذكّر العناصر المؤلِّفة للأوهام الإيجابِيَّة: التصوُّرات الذاتِيَّة المُبَالغ فيها، وأوهام التحكم بالأحداث، والتوقُّعات المُفْرِطَة في التفاؤل بشأن المستقبل. والآن، لننظر إلى المسيرة المِهْنِيّة لكبار السياسيين.

يميل الأشخاص الذين يصلون إلى قِمَّة التسلسلات السياسية إلى أن يكونوا من أولئك الذين يملكون على نحوٍ خاص اعتدادًا واضحًا بالذات، وثقة في قدرتهم على تغيير الأشياء، وتفاؤلًا بأنّه بإمكانهم إحداثُ فَرْقٍ. إن الوصول إلى هذا المنصب يتطلّب شخصيّة قادرة على تحمّل الأعباء الكبيرة، وقبول الانتكاسات العديدة، وتحمّل الانتقادات المستمرة، وتظل قادرة مع ذلك على النهوض كلّ صباح وهي مؤمنةٌ بأنها على حق. قليلون هم من

يبلغـون السـلطة دون ثقتهم بقدرتهم على سـلوك هـذا الطريق الطويل الشـاق، وغيـر المتعاطـف من أجـل الوصـول إليها.

وفـي كتابـه الـذي يتنـاول الرؤسـاء الأمريكييـن، ذكـر (ريتشـارد شـينكمان) أن الطمـوح المتيـن يُعـدُّ سِـمةً شـخصيةً أساسـيّة؛ بـدءًا مـن (جـورج واشـنطن) ووصولًا إلـى (بيل كلينتـون). وحتـى الأمثلة الفرديـة مثـل لينكولـن الـذي بـدأ حياته فقيـرا وغيـر متعلّم، فيبـدو أنه كان قـد بـدأ حياتـه المِهْنِيّـة «ممتلئًـا بالتفـاؤل». وعلـى مـدار تاريـخ الولايـات المتحـدة، كانـت المنافسـة الشـديدة للوصول إلى السـلطة تعنـي أنـه «فـي الصـراع مـن أجل الفـوز؛ وحـده مـن يملـك الطموح الأعظـم ينجـو». ويخلُـص (شـينكمان) إلى قـول إنّنـا: «نـودّ التظاهر بأنـه ينبغـي انتخـاب الأشـخاص العادييـن للمناصـب الرئاسـية؛ أي أشـخاصٌ يملكـون قـدرًا عاديًـا مـن الطمـوح. لكـن الحقيقـة أن الأشـخاص العادييـن لا يملكـون مـا يتطلّبـه الأمـر؛ ذلـك الدافـع الاسـتثنائي لتحقيـق النجـاح».

كذلـك أشـار( آلان إهرنالـت) إلـى تأثيـر اختيـار الشـخصيات الطموحـة، واصفًـا الحكومـة الأمريكيـة بأنهـا: «يهيمـن عليها بشـكلٍ متزايـدٍ فئـة حديثـة مـن السياسـيين المحترفين؛ أنـاس يعملـون بدوام كامـل فـي الوصـول إلـى المناصـب، وشـغلها. وفـي الكثيـر مـن الحـالات، نجـد أنّهـم لـم يحققوا أيّ شـيءٍ آخرَ فـي حياتهم الراشـدة بكاملهـا». والنتيجـة هـي أنّ مـن هـم فـي السـلطة – ليـس فـي البيت

الأبيض وحسب، بل في جميع أنحاء الحكومة - «يشكّلون نخبة وصوليّة قد فَصَلهم اهتمامهم بالسياسة طوال حياتهم عن معظم الناس». إن طول الانتخابات الرئاسية، وحجمها وصرامتها «ما هي إلَّا مبالغة مُشوَّهة في الوظيفة التي تواجه السياسيين الطموحين على جميع مستويات النظام». ويطلق (إهرنهالت) على هذه الظاهرة مصطلح «الترشيح الذاتي self-nomination»: حيث يقوم المرشّحون للرئاسة بترشيح أنفسهم ببساطة من خلال استعدادهم الاستثنائي لبذل الجهود الهائلة، والتضحيات المطلوبة لبلوغ المنصب، وعلى الناخبين الاختيار من بين هذه المجموعة الفرعِيَّة من الشخصيات الطموحة.

ومن المُرَجَّحِ أن تكون تأثيراتُ الانتخاب سائدةً في كلٍّ من الأنظمة الديمقراطية، وغير الديمقراطية. يعدُّ التدقيق العام، والبرلماني، والإعلامي للعملية السياسية في الديمقراطيات مناسبًا تمامًا للتخلُّص من الأنواع غير الواثقة، ولعلّ بمقدور المرء أن يتصوّر كذلك أنْ يميل الزعماء في الأنظمة غير الديمقراطية لأن يكونوا أصحاب شخصيات تتمتع بثقة أكبر: عادة ما يكون القاسي الضروس هو من يكتسح الآخرين ويبعدهم عن طريقه في سبيل بلوَغ السلطة.

ويقترح (كلاوسويتز) أن تأثيرات الاختيار هذه تنطبق كذلك على القادة العسكريين: «لا يمكننا تصوُّر قائد مُميَّز لا يمتلك

الجرأة. لا يمكن لأيِّ رجلٍ لم يولد جريئًا أن يلعب هذا الدور، وإننا لنعتبر هذه الصفة أول الشروط الأساسية للزعيم العسكري الكبير». بالإضافة إلى ذلك، تُظهر البيانات أن معدلات اضطرابات الشخصية، والمشاكل النفسية تكون أعلى بين الزعماء عنها في عموم السكّان، وتأتي العديد من هذه الاضطرابات مصحوبة بأوهامٍ إيجابِيَّة قوِيّة.

وقد ينشط لَدَى القائد عددٌ من التأثيرات المُعزِّزَة بمجرد أن يُمسك بزمام السلطة. كتبت (باربرا توكمان) عن فريق مستشاري جون ف. كينيدي: «لقد أبهَجَت السلطة والمكانة هؤلاء الرجال وزملاءهم؛ إذ كانوا يستمتعون بالضروريات المُلِحَّة لسلطة الحُكم، بل وحتى بما تُسبّبه من تعبٍ وإنهاك».

لقد عزّزت نجاحاتهم - مثلما حدث في أزمة الصواريخ الكوبية - إيمانهم بقدرتهم على إنجاز أشياءَ عظيمة. قد يكون هذا النوع من الثقة مُبرَّرًا في بعض الأحيان، إذ يمكن للزعماء أحيانًا تحقيق إنجازات عظيمة بالفعل، لكن يظل هناك أيضًا خطر أن تصبح ثقةً مُفْرِطَة. «فعندما يصبح الناس أكثرَ قوَّةً»، كما يشير (روي بوميستر)، «فإنهم قد يميلون إلى سماع جرعات متزايدة من الإطراء، والتملّق والموافقة، ما قد يدفعهم نحو وجهات نظر أكثر إيجابية، ومواءمة لأنفسهم». إن الفكرة المتبصِّرَة القديمة التي تقول إنّ السلطة مُفسدة، وتؤدِّي إلى زيادة الشعور بالجبروت، والحصانة

ضد كلّ شيءٍ، كثيرًا ما أثبتت صحّتها عبر التاريخ؛ من نابليون حتى هتلر.

وعلى الرغم من أنه سيكون هناك استثناءات بالطبع، إلّا أنني أزعم أن عمليّات الاختيار هذه - جنبًا إلى جنب مع زُخرف السلطة ورغدها- قد ينتج عنها فرطٌ في تمثيل الأشخاص الواثقين بالتحديد من الذين يشغلون الرُّتب العليا في الحكومة. وعلاوة على ذلك؛ ونظرًا لأن الأشخاص الذين يصلون إلى هذه المناصب يكونون الأشخاص أنفسهم الذين يملكون أقوى تأثير على السياسة الوطنية حتى لو لم يزد مستوى ثقتهم المُفْرِطَة عن المستوى الذي لدى المواطنين والجنود العاديين، وحتى لو كان لديهم نفس مقدار الميل نحو التحيُّزات المتفائلة التي لَدَى عامّة الشعب، فإنَّ من المرجَّح أن يكون لثقتهم المُفْرِطَة عواقبُ وخيمةٌ.

## الآثار المترتبة على النظرية

يقدّم لنا الاعتراف بالأوهام الإيجابِيَّة المُمَنْهجة، وواسعة النطاق فرصةَ تحسينِ فهمِنا وبنائنا للنظريات في العلاقات الدولية تحسينًا كبيرًا. هناك موجةٌ مُتضخِّمةٌ من النظرية والأدلة التجريبية (من كلٍّ من الدراسات التجريبية، والدراسات الواقعيّة) التي تدرس دورَ مُختلفِ التحيُّزات النفسِيّة في العلاقات الدولية. لكن ما ليس شائعًا هو البحث عن أصول هذه التحيُّزات. نحن نعلم غالبًا أنها

تحـدث من خـلال التجـارب، ودراسـات الحالة التـي نجريهـا، لكننا فـي معظـم الأحيـان لا نعـرف سـبب حدوثهـا. إن الأبحـاث علـى الأوهـام الإيجابِيَّـة لا تقـدّم ظاهـرة تجريبيـة مُوثّقة جيِّدًا فحسـب، بل تقـدّم كذلـك نظريـة حـدس intuitive theory أُعدّت بشـكل جيّد لأصلهـا البيولوجـي، ووظيفتهـا التكيّفيـة، ومصـادر تنوعهـا. وتقودنا الظاهـرة التجريبيـة للأوهـام الإيجابِيَّـة إلـى توقـع أن يستسـلم صُنّـاع القـرار بشـكلٍ منهجِـيٍّ للتقدّيـرات المُفرِطَـة فـي الثقـة، وهـو كشـف لـه انعكاسـات مُهمّـة علـى فرعيـن أساسـيّين مـن فـروع النظريـة فـي العلاقـات الدوليـة، ألا وهمـا: نظريـة الاختيـار العقلانـي، والواقعيـة الجديدة.

## ■ نَظَرِيّة الاخْتِيَارِ العَقْلَانِيّ

تنظـر النُّهُـج «العقلانيـة» لفهـم الحـرب إلـى الـدول علـى أنهـا - مثلهـا مثـل صُنَّـاع القـرار الذيـن يديرونهـا - تتصـرَّف كمـا لـو أنها تحسـب الاحتمـالات، والمنافـع لجميـع النتائـج المحتملـة، ثـم تصطفـي أفضـلَ خيارٍ متـاحٍ «لتعظيـم المنفعـة». وتُشـير الظواهر التي خضعـت للملاحظـة التجريبية، مثل الأوهـام الإيجابِيَّة، إلـى أن النُّهُجَ العقلانيـة تمثـل نمـاذجَ شـديدةِ التبسـيط للواقـع. إلَّا أنهـا تظـل نقطة انطـلاق أساسـية لتفسـير سـلوك الدولـة. وتُعـزّز الأوهـام الإيجابِيَّـة التـي لم تخضـع للتمحيص، والموجـودة بين الأفـراد، والمجموعات والـدول، مـن التقليـل مـن شـأن الآخريـن إلـى جانـب المبالغـة فـي

تقدير الذات. ويزيد هذا من فرصة أن يعتقد الخصمان أن بمقدور كلٍّ منهما هزيمة الآخر، وبالتالي يخوض كلاهما الحرب طواعية؛ لذا فإن الأوهام الإيجابِيَّة تقدّم حلًّا لأحْجِيَة الحرب؛ السبب وراء كَوْن معظم الدول غير قادرة على تحديد نتيجة بديلة يُفضّلها الطرفان على القتال.

وتجدر الإشارة إلى أنه يتعيّن حتى على الفائزين - إن كانوا عقلانيين- أن يفضّلوا التفاوض من أجل توفير تكاليف القتال، ومخاطره. لكن لا يمكن التوصل إلى تسوية إلَّا إذا اتفق الجانبان على النتيجة المحتملة للحرب، وبالتالي على مقدار ما يجب على كلٍّ منهما التنازل عنه لتجنُّب القتال. تتنبَّأ نظرية الأوهام الإيجابِيَّة بأنَّ صُنَّاعَ القرار لن يحسبوا النتائج الصحيحة بطريقة عقلانية، بل سيميلون إلى المبالغة في تقدير احتمالية و/ أو سهولة انتصارهم، وبالتالي سيفضّلون الحرب على أيّة تسوية مُتفاوض عليها يقبلها الخصم.

تعتمد الحروب على حالة عدم اليقين إزاء النجاح، ولكي تبدأ الحرب، يحتاج الطرفان عمومًا إلى الاعتقاد بأنهما سيتفيدان منها (بغضِّ النظر عن مدى السهولة التي يعتقدون أنهم سيحصدون بهَا الفوز). ومن المُهِمّ استراتيجِيًّا أن يظْهرَ الطرفُ بمظهر الواثق (أي المبالغة في إظهار القوة التي قد تردع المنافسين، وتكسب التنازلات)، ويخفي كلّ ما يوحي بالعكس. ومن ثَمَّ، فإن (جيمس

فيرون) يجادل في أن السبب الرئيسي للحرب في إطار الاختيار العقلانِيّ هو امتلاك الزعماء لمعلوماتٍ خاصّة تتعلّق بحجم عزيمة جانبهم أو قوّته، بالإضافة إلى امتلاكهم «لحافز يحثّهم على المبالغة في رغبتهم الحقيقية في الحرب، أو في قدرتهم على القتال». ويشير (فيرون) إلى أن قادة الدول يقرّون هذه العملية بوعيٍ منهم (وتعمل الممارسات المؤسساتية على تعزيزها). كما تشير فَرْضِيَّة الأوهام الإيجابِيَّة إلى أنَّ المَيْزَة الاستراتيجية نفسها الناتجة عن المبالغة في استعداد الفرد الحقيقي للقتال، أو قدرته على خَوْضِه قد اختارت تحيُّزا نفسِيًّا لا واعيًا تُجاه ادِّعاء الثقة؛ لذا فقد يأتي الإفراط في الثقة كنتيجة لاستراتيجية واعية و/ أو استراتيجية لا واعية. غير أن الأوهام الإيجابِيَّة توفّر قوة توضيحيّة، وتتمتع بمزايا لا نجدها في المحاولات التفسيرية الأخرى للحرب؛ كالتَّوافق مع الطبيعة البشرية، ووجود مصادر مُحدّدة للتباين.

ويستند إطار الاختيار العقلاني برمّته على افتراض أن عقول البشر، والدول عبارة عن حاسبات منطقية، التي تقيس بدقة إجمالي الاحتمالات، والمنافع لكلِّ الخيارات المُمْكِنة. ومن المُسَلَّم به أن هذ الإطار «مثاليٌّ»، لكنْ له أهمية كبيرة في فهم العلاقات الدولية. غير أنّ من المعروف عن السلوك البشري اليوم انحرافه الواضح عن هذه المثاليّة. إذ يبدو أن الاستجابات الفعلية تنشأ من مزيجٍ من الحساب المعرفي، والتحيُّزات النفسية، والعواطف. ويلتقي العلماء

من تخصُّصَات مختلفة - بما في ذلك علم الأعصاب والاقتصاد، وعلم الأحياء التطوُّرِيّ، وعلم النفس - عند استنتاجٍ مفاده أنّ إرثنا التطوّري ضروريّ لفهم السلوك البشري المرصود. أضف إلى ذلك أنّ العديد من هذه الصفات تتخلّل سلوك المجموعة، والسلوك التنظيمي، والوطني كذلك. خلاصة القول إذن هي أنه يبدو أن حَدْسَ (فيرون) بشأن الحافز الاستراتيجي لمبالغة الفرد في استعداده للقتال، أو قدرته على خوضه حدسٌ صائب، لكنه قد يتعزّز بواسطة آليّات تطورية، كالأوهام الإيجابِيَّة، وليس من خلال الوضع الواعي للاستراتيجيات فقط.

## ■ الوَاقِعِيَّةُ الجَدِيدَةُ

من النماذج الأخرى المركزية في نظرية العلاقات الدولية نموذج «الواقعية الجديدة»، الذي يقول إنَّ أسباب الحرب موجودة في بِنْية «النظام الدولي الأناركية» للعالم. ويجب على الدول أن تسعى جاهدة لامتلاك القوّة من أجل حماية نفسها، وذلك لعدم وجود سلطة أعلى لحراستها، ولكونها تجهل نوايا الدول الأخرى. لكن في حين أن الأناركية وعدم التيقّن من نوايا الآخرين ثابتين، فإن الحرب ليست كذلك، فهي تحدث أحيانًا، وأحيانًا لا؛ لذا فالسؤال الرئيسي هو: ما الذي يفسّر التباين في الحرب والسلام؟ تقدم الواقعية الجديدة سردًا للأسباب الكامنة، أو التي «تبيح» الحرب. غير أنها لا تقدّم سردًا للأسباب المباشرة؛ أي الشرر الذي يُشعل

فتيل الصراع. ويمكن للواقعية الجديدة تفسير التغييرات الواسعة في احتمالية الحرب (بما أن هذا قد يتفاوت وفقًا للتغيّرات في القوة بين الدول، ولـ «قُطبيّة» النظام؛ هل هو عالم أحاديّ القطب؟ أم ثنائي القطب؟ أم متعدد الأقطاب؟)، لكن لا يمكنها التنبُّؤ بموعد حدوث الحروب.

وفي حين أن التباينات الأصيلة في القوة توفّر في بعض الأحيان فُرصًا جليّة للدول القوية لاستغلال مميزاتها - اختيار الحرب لاكتساب القوة والنفوذ - فإن أنصار الواقعية الجديدة (مثلهم في ذلك مثل مُنظّري الاختيار العقلاني) يميلون إلى اعتبار الحرب مُكلفة للغاية بالنسبة لكلا الجانبين؛ لذا فإنهم عادة ما يستحضرون تصوُّرات الدول المغلوطة وأخطائها في تقييم الاختلافات في السلطة على أنها الأسباب المباشرة للحروب. لكن منظورَ كلٍّ من أنصار الواقعية الجديدة، ومُنظّري الاختيار العقلاني يعتبر ناقصًا، إذ لا يفسر أيّ منهما مصدر هذه التصوّرات المغلوطة. تقدّم نظرية الأوهام الإيجابِيَّة مصدرين.

**أوّلًا**، على الرَّغمِ من أن التَّصوُّرات المغلوطة، أو الأخطاء قد تحدث في أيٍّ من الاتجاهين (دفع الدولة أما باتجاه الحرب، أو بعيدًا عنها)، فإنَّ أحدَ العوامل التي يُحتجّ بها باستمرار في الأعمال التي تُؤرِّخ الحرب هو ما يُسمَّى بالتفاؤل الخاطئ. ووجد العديد من الباحثين الذين يدرسون أسباب الحرب، وأبرزهم:

(جيوفري بليني، وجون ستوسنجر، وستيفين فان إيفيرا، وسوميت جانجولي)، أن هذه سِمة مشتركة. وقد خَلُصَ كل واحد منهم إلى الآتي: على الرغم من أن الرغبة في الحصول على القوة قد تكون دائمًا القوّة المُحرّكة، إلَّا أنّه عادة ما يكون الاندلاع الفعلي للحرب مُرتبطًا بالتفاؤل والثقة المُفْرِطَيْن: تميل الدول إلى المبالغة في تقدير نفسها، أو حلفائها، أو منافع الحرب وسرعتها، وإلى الاستهانة بقدرات خصومها، أو حلفائها، أو نواياهم، أو تكاليف الحرب ومدّتها.

**ثانِيًا**، جادل (فان إيفيرا) في أن الحروب تنتج عن اختلافات فعليّة، أو مُتصوّرة في أربعة جوانب مُحدَّدة من القوّة النسبِيّة: توازن الدفاع، والهجوم بين دولتين (أو تحالفين)، وحجم «ميزة صاحب الخطوة الأولى»، وتقلبات السلطة التي تخلق الفُرص السانحة، وفرصة الحصول على مزيد من الموارد بشكلٍ تراكمِيّ (عندما يؤدِّي الحصول على مورد إلى تسهيل الحصول على آخر). ويتمثّل استنتاجه الأساسي في أن الحروب لا تبدأ في العادة عندما تحدّد الدولة هذه الفرص على نحوٍ صحيح، بل عندما تبالغ فيها؛ أي عندما تخطئ الدولة في تصوُّرها بشأن الغزو، وتعتقد أنه سيكون سهلًا، أو تعتقد بوجود مَيْزَةٍ في أن تكون الطرف الذي يبدأ الصراع (مَيْزَة صاحب الخطوة الأولى)، أو أنَّ هناك فُرصة سانحة يمكن استغلالها، أو أن خوض الحرب سيكسبها المزيد من

المـوارد علـى نحوٍ تراكمـيٍّ. إنَّ البِنْيَةَ الأساسِـيّة للنظام هـي التي تُهيّئ للحـروب، لكنهـا تشـتعل نتيجـة الثقـة المُفْرِطَـة للدولة فـي واحد، أو أكثـر مـن هـذه المجـالات الأربعة.

وعلـى الرغـم مـن هـذه الإدانـة المتكـرّرة للتفـاؤل المغلـوط، والفـرص الخاطئـة كأسـبابٍ للحـرب، إلَّا أنّـه لـم تُقدِّم أيّ تفسـيرات جيّـدة للسـبب الـذي مـن أجله تُبالـغ الـدّول في قوّتهـا النسـبية مبالغة منهجيّـة. وكما يذكر (فان إيفيرا)، فإن النظرية ليسـت بالكافية الشـافية «إذا كانـت تدعنا نتسـاءل عمّ يُسـبّب السـبب الـذي تقترحـه النظريّة». أمـا فَرْضِيَّـة الأوهـام الإيجابِيَّة، فإنها تضيف شـيئًا لا يمكـن أن تخبرنا بـه مُقاربـات الواقعيّـة الجديـدة، أو الاختيـار العقلاني. إنهـا تتوقع أن تكـون التصـوُّرات المغلوطـة متحيّزة بشـكل منهجـيّ لاتجـاهٍ إيجابيٍّ يخـدم المصلحـة الذاتيـة، وهـذا ما يفسّـر سـبب ارتبـاط التصـوُّرات المغلوطـة فـي كثيـرٍ مـن الأحيـان بالحـرب. بالإضافـة إلى أنهـا توفّر مصـادر محـدّدة للتبايـن (انظـر الفصـل الثانـي)، وأصـلًا لمثـل هـذا التحيّـز، باعتبـاره نابعًـا مـن اسـتراتيجية تكيُّفيـة فـي ماضينـا التطوري (وربّمـا مـن مَيْـزَةٍ انتقائِيَّـة فـي التاريـخ الحديـث كذلك). وفـي حين أن الأسـباب الكامنـة وراء حـروب، وأزمـات معينـة - بمـا فـي ذلـك تلـك التـي ناقشـها لاحقًـا فـي هـذا الكتـاب - راسـخة بالفعـل، فإنَّ مراعـاة الأوهـام الإيجابِيَّـة قد يعـزّز من فهمنـا للأسـباب التي جعلت القـادة يختـارون المجازفـة بخـوض الحـرب، أو ينـادون بالسـلام،

في الأوقات التي فعلوا فيها ذلك. وأزعُم هنا أنَّ الرغبة في الأمن، والسلطة التي يفرضها النظام الدولي الأناركي تشكل جزءًا كبيرًا من السبب الكامن، وأنّ هذا يُعدّل بواسطة السياسات الداخلية، والتحيُّزات التنظيمية. تُساعد الأوهام الإيجابِيَّة في الضغط على الزناد، أي أنها تُعتبر تفسيرًا مباشرًا. وكما أشار (ريتشارد ليبو): «قد يكون القادة الذين يُمنّون أنفسهم بانتصارات سهلة على استعداد لتحمّل قدرٍ أكبر من المجازفة؛ لأن احتمالية الحرب لا تؤثر عليهم بحيث تكبح جماحهم. كما أنهم قد يستنتجون أن احتمالية الحرب ضئيلة؛ لأنهم يتوقعون من خصومهم التراجع... بدلًا من مواجهة هزيمة مُحقّقة».

## أمْثِلَةٌ مِنَ التَّاريخِ

وفقًا لـ (ليبو)، فإنَّ الحرب الرُّوسِيّة اليابانية عام 1904 تعدّ مثالًا صارخًا على «آثار الثقة العسكرية غير المبرَّرة على اتّخاذ القرارات المتعلّقة بالأزمات». ويواصل قائلًا: «لقد أتت هزيمة روسيا لتشكل تعارضًا صارخًا لتوقُّعات قادتها بالنصر، فمنذ بداية الأزمة، كان الرّوس في غاية الثقة من تفوّقهم لدرجة أنهم كانوا على يقين بأن اليابان لن تخاطر حقًّا بتجربة أسلحتها البَتَّةَ». لقد سمحت لهم «أوهامهم العنصرية بالتفوّق» بأن ينظروا إلى القوّات اليابانية على أنها «مجرَّدُ جيشٍ من فراخ البط» الذي «لا يمكن مقارنته

بـأيّ جيـش أوروبي كبيـر، وبالأخـصّ الجيـش الروسـي». وكان أحد أعضـاء هيئـة الأركان العامـة الروسـية قـد صـرّح قائـلًا: «ليـس علينا سـوى رمـي قبّعاتنا عليهم، وسـيولّون الأدبـار». لقد كانت هنـاك زُمْرة كبيـرة مـن صُنَّـاع القـرار، والمستشـارين الـروس الذين كانـوا واثقين مـن قدرتهـم علـى هزيمـة اليابانييـن، حتـى دون تلقّـي مسـاعدة مـن الحلفـاء، وعلـى الرغـم مـن أن اليابـان كانت تمتلـك جيشًـا، وبحريّة متفوّقيـن، الذيـن كان يفـوق عددهـم عـدد الـروس بنسـبة ثلاثـة إلـى واحـد. وبالمثـل، فقد عـزا (غوردون مارتـل) الحرب فـي جانب منها إلـى «ثقـة روسـيا - التي كانـت في غير محلهـا - في قوّتها في الشـرق الأقصـى». وقـد أشـار (جيمـس فيـرون) إلى أنه «فـي عشـيّة الحـرب، كان القـادة الـروس مؤمنيـن بـأن جيشـهم قـادرٌ علـى هزيمـة اليابـان بـكلِّ تأكيـد»، بينما على الجانـب الآخر، قـدّر رئيـس الأركان الياباني «احتماليـة سـيادة بنسـبة 50% فـي حالة بـدؤوا هجومهم علـى الفور. وهكـذا، اختلـف القـادة اليابانيون، والـروس حول القوّة النسـبية: كان مجمـوع تقديراتهـم لاحتماليـة النصر يزيد عـن 1. وفضـلًا عن ذلك، تديـن الروايـات التاريخيـة هذا الاختلاف باعتبار أنه كان سـببًا رئيسـيًّا مـن أسـباب الحرب».

ويُحـدّد (سـوميت جانجولـي) الإفـراط فـي التفـاؤل بوصفه أحد الأسـباب الجذريّـة للحـروب بيـن الهنـد وباكسـتان. وعلـى الرغـم مـن أن اختـلاف الأيدولوجيـات، والنـزاع علـى كشـمير قـد يفسّـران

العداء الكامن، إلَّا أنهما يفشلان في تفسير اندلاع الحروب الهندية الباكستانية الأربعة. ويؤيد( جانجولي ) التفسير الذي يُرجع الحروب إلى الفرص السانحة المُتصوَّرة «والتي عزّزها التفاؤل الخاطئ». وبالأخص في حروب 1947-1948 و1965 و1999، «فإن صُنَّاعَ القرارِ الباكستانيين كانوا قد قلّلوا كثيرًا من شَأنِ البراعة العسكرية الهندية، والاستجابات الهندية المُحْتملة للتَّحدِّيات العسكرية. لقد ساهمت الأيديولوجية المناهضة للهند، والشوفينية لدى الدولة الباكستانية الاستبدادية مرارًا وتكرارًا في تقييمٍ معيبٍ لإرادة الهند، وقدراتها العسكرية». كما كان للهند نصيبها هي الأخرى من الجينغويّة jingoism[1]، لكن يبدو أن ثقتها المُفْرِطَة كانت مقيّدة إلى حدٍّ ما بواسطة نقاشٍ مُعلن وديمقراطي داخل نخبة صنّاع القرار والشعب ككُلّ.

أما فيما يتعلق بالحرب الكوريّة، فقد كتب (ماكس هاستينغز) يقول: « في صميم الفعل الأمريكي يكمن ازدراءٌ - واعٍ أو غير واع- لقدرات أمة (ماوتسي تونغ) وقوّاته المسلّحة». وعلى حد تعبير (ليبو)، فإن صُنّاع القرار الأمريكيين «عانوا من رضا عن الذات ناشئ عن صُورٍ نمطيَّةٍ عنصرية للعدو». وعلى ما يبدو أن القائد الأمريكي، (الجنرال ماكارثر)، كان لديه تقديرات إيجابية خاصة لقدراته بالنسبة لقدرات الخصم، وقد أثّر بقوَّة على قرارِ إرسالِ

(1) الجينغوية: وطنية في شكل سياسة خارجية عدوانية. ويكيبيديا.

القوات بناءً على ما يصفه (جون غاروفانو) بـ «تقييمٍ جريء لكنّه غير واقعي». كان يُنظر إلى عمليات الهبوط البرّمائية الضخمة في إنشون على أنها تحفة فنّية تُمثّل الجسارة والجرأة؛ باجتياحها المواقع الخلفية لجيش كوريا الشمالية ومحاصرته. ولكن مع تقدُّم الحرب، دفع (ماكارثر) ثمنًا باهظًا لثقته المُفْرِطَة، ولاستهانته بـ «القدرة العسكريّة الشرقية».

كان الصينيون قد أوضحوا اعتزامهم التدخل في حال عبرت قوّات الأمم المتحدة خط العرض الثامن والثلاثين. شكّك العديد من صنّاع القرار الأمريكيين في هذه النية، وبالأخصّ (ماكارثر) الذي «رفض مرارًا وتكرارًا، وبكلٍّ عجرفة، قدرة بكين على تنظيم وتنسيق هجوم في كوريا». وفي حال تدخّلوا حقًّا، كما صرّح (ماكارثر)، فإن أيّ دعم من حلفائهم الروس سيكون بلا جدوى «فعدم كفاءتهم ستجعلهم يقصفون الصينيين كلما أرادو قصفنا». وكما نعلم الآن، ففي نوفمبر من عام 1951، هاجم 180 ألف جندي صيني قوات التحالف عند اقترابهم من نهر يالو، ودفعوهم في النهاية إلى العودة إلى خط العرض الثامن والثلاثين. والنتيجة كانت (إلى جانب وفاة 450,000 كوري جنوبي و33,000 أمريكي و3 آلاف من جنود حلفاء من دول أخرى، وحوالي 1,5 مليون كوري شمالي وصيني) هدنة أعادت وحسب وضع الحدود التقريبية التي كانت موجودة قبل الحرب. وكما قال

(شاول ديفيد): «كان من الممكن تحقيق مثل هذه النتيجة قبل كريسماس عام 1950 إذا لم يكن (ماكارثر) والحكومة الأمريكية على أتم الاستعداد للتقليل من شأن الإرادة السياسية والقدرة القتاليّة للصينيين».

كانت الأوهام الإيجابِيَّة واضحة أيضًا قبل حرب أكتوبر العربية الإسرائيلية عام 1973. فقد خلص جون هيوز - ويلسون إلى أن «إسرائيل قد قللت من شأن عدوّها على جميع الأصعدة». وكما ورد من قبل، فإن رئيس الأركان الإسرائيلي كان قد علّق قبل الحرب بعشرة أيام قائلًا: «سيكون لدينا مائة دبابة ضد دباباتهم الثمانمائة... يتعيّن أن يكون هذا كافيًا». لقد كانت القوات الإسرائيلية متفوقة حقًّا في القتال ضدّ أعدائها، وذلك وفقًا للتحليلات الكَمِّيَّة التي أجراها المؤرخ (تريفور. ن. دوبوي) في وقت لاحق؛ لكن بمعامل اثنين... لا ثمانية. وكان (بيليس توماس) قد كتب عن «رضا إسرائيل عن حصانتها، وعن افتراضٍ عنصريّ مُعيّن بشأن دونيّة الجنود العرب».

على الجانب الآخر، كانت هناك بعض التصريحات المُثيرة للاهتمام حول الثقة العربية بالنفس. يصف (دوبوي) «ميلًا ثقافيًّا عربِيًّا للسّماح بالعاطفة، والتَّمَنِّي بالتأثير على التخطيط، والتقييم، والقيادة التنفيذية». وعلى حَدِّ قول أحد الفلسطينيين العرب: «نحن عاطفيّون لا محلّلين باردين، فالشرف لدينا مُعظَّم على

حساب الحاجة الحقيقية. إننا نحب رؤية بعض الأشياء، ونعتقد أنها كذلك بالفعل». ويذكر (دوبوي) بأن جنرالًا مصريًّا قد عرَّف هذا الميل «بكلمات تكاد تكون متطابقة». لكنْ بغضِّ النظر عن هذه الانطباعات القصَصِيّة، فإنَّ أهدافَ الحرب المصريّة في حدِّ ذاتها تدلّ على الثقة العظيمة التي كان يتمتع بها القادة المصريّون، وذلك، كما يشير (بيبليس توماس)؛ لأن «عبور مصر لقناة السويس من أجل تأسيس رأس جسرٍ على الضفة الشرقية كان يُعتبر أمرًا مستحيلًا بالنسبة لجميع المراقبين العسكريين (في الخارج)».

لا أقترح أنَّ الأوهام الإيجابِيَّة قد أثّرت بالضرورة على نتائج هذه الحروب، لكنْ ربّما أنّها لعبت دورًا في قرار الطرفين بخوض الحرب. وفي هذه الدراسات، وفي دراسات الحالة خاصّتي، لا أزعم أن الأوهام الإيجابِيَّة هي التفسير الشامل للحرب، بل إنها تقدم قطعة إضافية دامغة من أُحْجِيَةِ الحرب.

# الفصل الثاني
# البَحْثُ عَنِ الأوْهَامِ

**«يعدُّ التفاؤل المتكرّر تمهيدًا حيويًّا للحرب، وأي شيء يزيد من هذا التفاؤل يعتبر أحد أسباب اندلاعها، كما أنَّ أيّ شيءٍ يثبِّطه يكون أحد أسباب السلام».**

**[جيوفري بليني].**

**«يمكن للعوامل الظرفية تفسير التباين في الدرجة التي يُظهر بها الأشخاص أوهامًا إيجابية بنسبة 100%... ويمكن لـ (مثل هذه العوامل) أن تعزِّزَ من وجودها بشكلٍ كبيرٍ أو أن تمحوها بالكامل تقريبًا».**

**[شيلي تايلور، وديفيد أرمور].**

الأوهام الإيجابِيَّة متباينة. فهي تتباين أوَّلًا بين الأفراد، وثانيًا مع السياق. من ذلك مثلًا أنها تكون أكبرَ عندما تكون التقييمات أقلّ دقّة، أو عندما تُجْرَى في ظروفٍ تهديدية. وثالثًا أفترض أنه، وبالإضافة إلى مصادر التباين هذه، فإن تأثيرات الأوهام الإيجابِيَّة - أيْ أشكال الثقة المُفْرِطَة التي تولّدها - ستتفاقم في الدول غير الديمقراطية، والدول التي تكون عمليات صنع القرار فيها سِرِّيَّة. وتذهب التوقُّعات إلى أن احتمالِيّة أن تتسبَّبَ الأوهام الإيجابِيَّة في

نشـوب حـربٍ فـي الـدول الديمقراطيـة التي تتمتـع بوجود مناقشـات علنيّـة تعـدّ أقـلّ، بينمـا تعـدّ أكبـرَ فـي الـدول غيـر الديمقراطيـة التـي تطبّق مناقشـات سِـرِّيَّة. وسـوف نختبر هـذا الأمر في دراسـات الحالة الأربـع التـي أُجريها.

## نظريَّة الأوهام الإيجابِيَّة للحرب

تقـول فرضيّتـي المركزية إنَّ وجـود الأوهام الإيجابِيَّة لـدى صُنَّاع القـرار في الدولـة يزيد من احتماليـة اندلاع الحرب. أما هـذه الفَرْضِيَّة الرئيسـية، فإنهـا تُغفـل سلسـلة الأحداث التي تنقل المشـهد مـن أفراد يحملـون أوهامًـا إيجابيـة إلى نتيجـة الحـرب المُعقّدة. ونجد سلسـلة الأحـداث هـذه مُفَصَّلـة فـي الفَرْضِيّـات التوضيحيـة، التـي تقتـرح أنَّ الأوهـام الإيجابِيَّـة، وفـي سـياقاتٍ معيَّنَة، تتسـبّب فـي أنـواعٍ مختلفة مـن الثقـة المُفْرِطَـة بيـن صُنَّـاع القـرار، وأنَّ مثـل هـذه الثقـة المُفرِطَة تتسـبَّبُ، فـي بيئـات ومؤسّسـات معيَّنـة لصُنْـعِ القـرار، فـي التشـجُّع علـى الحـرب (انظر الشـكل 2). وتعـدّ الظـروف، والعوامل السـابقة Antecedent conditions حاسـمة؛ وذلـك لأنَّ الحـربَ حـدثٌ متقطّـع، ووحـده العامـل السـببيّ المُتغيِّـر يملـك القـدرة على تفسـير سـبب حدوثهـا فـي أوقـاتٍ مُعَيَّنـة دون الأخـرى. (للحصـول علـى عـرضٍ تقديمِـيٍّ مُوجَـزٍ للفَرْضِيَّـات، والتنبُّؤات الخاصّة بي في شـكل جـدول، راجـع القسـم 5 مـن الملحق).

متغيّر مستقلّ:
أوهام إيجابية

X

الظروف السابقة:
- نوع النظام
- علنيّة النقاش

>

الظواهر الدخيلة
Intervening phenomena:
- مبالغة الطرف في تقدير نفسه (أو حلفائه
- التقليل من شأن العدو (أو من حلفائه)
- مجموع تقديرات النصر للأطراف المتعارضة > 1

X

الظروف السابقة:
- إمكانية التحقق
- العمومية
- ردود الفعل
- مرحلة المُهمّة
- مستوى التهديد

>

المتغيّر التابع:
الحرب

الشكل 2: نظرية الأوهام الإيجابِيَّة للحرب. وتخلق الأوهام الإيجابِيَّة، في ظل ظروف سابقة محدّدة (علاقة يشار إليها بـ X)، أربع ظواهر رئيسية دخيلة من الثقة المُفْرِطَة في عملية اتِّخاذ القرارات في الدولة. وقد تؤدِّي تمظهُرات الثقة المُفْرِطَة هذه، في ظل المزيد من الظروف السابقة، إلى زيادة احتمالية الحرب (بالإضافة إلى أيِّ مبرِّرٍ أساسِيٍّ كامنٍ لحربٍ معيّنة).

## مصادر التبايـن

كمـا ذكرنـا سـابقًا، فالأوهـام الإيجابِيَّـة تتبايـن فيمـا بيـن الأفراد، والسـياقات (يبـدو أنهـا تتبايـن أيضًـا فيمـا بيـن الحـالات الذهنيـة، والأجنـاس والثقافـات؛ انظر القسـم 3 مـن الملحق). وكثيـرًا ما تُهمل التفسـيرات السـلوكية للحـرب فـي الدراسـات المُتعمّقـة للعلاقـات الدوليـة؛ لأنـه ينظـر إلـى الطبيعة البشـرية على أنهـا ثابتة، فـي حين أن الحـرب ليسـت كذلك. لكن هذا الـرأي خاطئٌ، وقد عفـا عليه الزمن، فكمـا كتب (ديفيد ويلـش): «إذا اطّلعت على النصوص، والدراسـات القديمـة المُتعلّقـة بنظريـة العلاقات الدولية، فلن تشـكّ لوهلـة في أنَّ البشـر يملكـون دماغين: أيسـر وأيمن، وأنهـم بالإضافة إلـى أنانيّتهم، فإنهـم يحبّـون ويكرهـون، ويشـعرون بالإحبـاط واليـأس، وأنهـم في بعـض الأحيـان لا يتصرَّفـون بدافـع خدمـة مصالحهم الشـخصية، بل بدافـع الشـجاعة، أو التهذيـب، أو الغضب». إن السِّـمَات التي تشـكل الطبيعـة البشـرية (كالغضـب) تتباين علـى نحوٍ كبيـر فيما بيـن الأفراد (يعبّـر مختلـف الأشـخاص عـن الغضـب بكَمِّيـات، وتمظهُـرات مختلفـة عـن بعضهـم بعضًـا)، وفيمـا بيـن السـياقات (يُثـار الغضب، أو يُكبـح جماحُـهُ بشـكلٍ مختلـفٍ تبعًـا للموقـف). إننـا لا نتوقَّـع من بعَـض «السّـمات» السـلوكية الجامدة أن تفسّـر لنـا الظواهر السياسـية المتنوعـة؛ لكـن الحالـة المُتغيرة للسـمة قـد تتبايـن فـي الواقـع، بالترابـط مـع التبايـن فـي الظواهـر السياسـية (ضمـن أمـور أخـرى)؛

الأمر الذي يوفّر تفسيرًا سببيًا مُحتملًا. وفي مراجعته للأبحاث المتعلّقة بالتفاؤل؛ حذّرنا (كريستوفر بيترسون) من أن «نركّزَ بشكلٍ كبيرٍ على التفاؤل باعتباره خاصّيةً نفسِيّةً لدرجة تجعلنا [نتجاهل] مدى تأثّره بالظروف الخارجيّة». وقد أظهرت الأبحاث أنَّ هناك ظروفًا سابقة مُحدَّدة تغيِّر قوّة الأوهام الإيجابِيَّة (انظر الشكل 2)؛ وسأبيّنها بإيجاز خلال لحظات.

وحتى في حال غياب مصادر التباين، فإنه يمكن لأيَّة سِمَةٍ من سماتِ «الطبيعة البشرية» أن تترك آثارًا سياسيّة مختلفة بناء على مختلف البيئات التي يُعبِّر عنها فيها، فبالنسبة للإسكندر الأكبر، فيمكن أن يكون للغضب نتائج سياسية فورية (مثل تسوية بلدة كاملة بالأرض)، لكن هناك العديد من الآليات لتخفيف حِدَّة التأثير على سياسة رئيس وزراء بريطاني، أو رئيس أمريكي غاضبين: قد تؤدِّي نفس السِّمَة في حكومتين مختلفتين إلى سياسات مختلفة تمامًا بمجرد اقتحامها طريق المرور عبر الآلية المحلّية لصنع القرار والموافقة عليه؛ لذا فهناك أيضًا ظروف بِنْيَوِيَّة سابقة تُغيِّر من تأثير الأوهام الإيجابِيَّة على السياسة، أو بشكل أكثر تحديدًا، على أشكال الثقة المُفْرِطَة التي تولّدها. أركّز هنا على اثنين من هذه الظروف: نوع النظام، وعلنيّة النقاش.

«من المُرَجَّح أنْ تتباينَ (الأوهام الإيجابِيَّة) بوصفها وظيفةً للشخص، وللوضع، وللتفاعل بينهما». وأفترض أنَّ التباينَ في

الأوهـام الإيجابِيَّة نفسـها، بالإضافـة إلـى أيِّ تباين تفرضـه البِنَى التي يعبّـر عنهـا (أي الأوهـام الإيجابِيَّـة) مـن خلالهـا، ترتبـط باحتماليـة نشـوب الحـرب. وبطبيعة الحـال، هناك بعـض الاحتمالات لنشـوب الحـرب حتـى في غيـاب الأوهـام الإيجابِيَّـة (نتيجة مجموعة أسـباب أخـرى متنوّعـة). لكـنَّ الأهـمّ مـن نوعيـة تلـك الاحتماليّـة هـو أنَّ الأوهـامَ الإيجابِيَّـة المتزايـدة ترفـع مـن احتماليـة الحـرب، وبالتالـي يمكـن لنظرية الأوهـام الإيجابِيَّـة أن تضيـفَ إلى فهمنا لسـبب اندلاع الحـرب حـال اندلاعها.

## ■ التبايـن الفـردي

يشـدّد (بيترسـون) علـى أنَّ «طبيعتنـا البشـرية توفّـر خـطَّ تفـاؤلٍ أساسِـيٍّ، بحيـث يظهـر الأفـراد أكثـر مقابـل أقـلّ»، وقـد يعـود ذلـك مثـلًا إلـى اختلافـات في حجـم تقدير الـذات، أو فـي التجربـة؛ ونظرًا للاختـلاف الفـردي فـي التفاؤل، فقـد نتوقّـع توزيعًـا طبيعيًـا بمنحنى جَرَسـيّ للأوهـام الإيجابِيَّـة لـدى مجموعـةٍ ما، تمامًـا كمـا يتّبع طول الأشـخاص، أو معـدَّلات ذكائهـم مثـل هـذا التوزيـع (انظـر الشـكل 3). وكمـا كتـب (ليونيـل تايجـر) فـي كتابـه عـن الأهميـة التكيّفيـة للتفـاؤل، «فإنـه فـي التعامل مـع الأنظمـة الطبيعيـة، تعدّ أقصرُ مسـافة تحليليـة بيـن نقطتيـن منحنًـى طبيعيًّـا». يعدُّ هـذا المنحنى مفيـدًا؛ لأنّه وبالإضافـة إلـى توضيـح الظاهـرة التجريبيـة بـأنّ توقعـات الشـخص العـادي تتجـاوز التقييمـات الواقعيـة، فإنّـه يسـلّط الضـوء أيضًـا على

نقطـة أنَّ العديـد من الناس سـيتجاوزون المتوسـط؛ وبعضهم بشـكلٍ هائل.

وقـد ناقشـتُ فـي الفصـل الأول احتماليَّـةَ أنْ يشـكّل الأشـخاصُ الذيـن يكونـون فـي المسـتويات العليا مـن هـذا التوزيع يُحتمل نسـبة مُفْرِطَـة مـن القـادة، وصُنَّـاع القـرار، بـل ويُحتمـل أن يشـكّل هـؤلاء الأشـخاص نسـبةً مُفْرِطـة من الشـخصيات سـيِّئة السُّـمْعة التـي تكون ثقتهـا بنفسـها فـي غايـة التطـرّف لدرجـة أنّهـا تقودهـم نحـو هلاكهم فـي النهايـة؛ النابليّـون والهتلريـون، والصدّامـون[1] على مـرّ التاريخ. ولأغـراض دراسـات الحالـة، يكفـي أن نأخذ فـي الاعتبـار أن الأفراد يتباينـون فـي الأوهـام الإيجابِيَّـة؛ لـذا فنحـن لا نتوقـع تمظهرها لدى جميـع القـادة بالطريقة نفسـها.

**الدقيق - متوسط تقييمات الناس**

**التكرار | الأشخاص الذين يعانون من الاكتئاب - النساء - الرجال - القادة؟ - صدام، هتلر؟**

**سلبي منخفض مرتفع**

**الأوهام الإيجابِيَّة**

(1) نابليون وهتلر وصدام حسين، ومن اتّسم بسماتهم عبر التاريخ (المترجمة).

الشكل 3: مخطَّط تصوُّرِيّ للتَّباين في الأوهام الإيجابِيَّة بين السكان ككُلّ. يميل معظم الناس إلى المبالغة في تقدير قدراتهم، وسيطرتهم على الأحداث، وعلى المستقبل، وبالتالي، فإن متوسط السكان يتجاوز التقييم الواقعي لهذه الأشياء.

## الظُّروفُ السَّابقةُ للأوهامِ الإيجابِيَّة

كما لاحظت (شيلي تايلور) وزملاؤها، فإنّ «الأوهام الإيجابِيَّة تكون في أقصى تجلّياتها من الناحية النظرية عندما تكون لديها القدرة على الإلهام والتحفيز، لكن وضوحها يخفُت عندما يكون بالإمكان دحضها مباشرة بواسطة ردود الفعل الخاصة بحالاتٍ محدَّدَة». وفقًا لهذا المنطق، فقد نتوقّع سيادة الأوهام الإيجابِيَّة على نحوٍ خاصّ في الفترة التي تسبق الحرب مباشرة، لكن نتوقع انخفاضها بعد ذلك مع تراكم الإفادات وردود الفعل بشأن تكاليف الحرب. ويقدّم المؤلفون أنفسهم أيضًا تنبُّؤات أكثرَ دقَّةً حول الأوقات التي تنحسر فيها الأوهام الإيجابِيَّة، وتتدفق: «تقلّ الأوهام الإيجابِيَّة مع زيادة إمكانية التحقُّق verifiability... وتكون أكثرَ وضوحًا في المستوى العام عن المستوى المحدّد، وأكثر تجلِّيًا فِي بداية مشروعٍ ما عن نهايته، وفيما يتعلَّق بالخصال الشخصية المُبْهَمة أكثر مِمَّا يتعلّق بتلك الخصال الشخصية الملموسة التي تتميَّز بوجود مراجع سلوكية واضحة، كما تتجلَّى أكثر عندما يكون

الاختيار قد وقع على مسار عمل محدَّد أكثرَ مِمّا لو أنه ما يزال قيد المناقشة». من المتوقع أيضًا أن تزيد الأوهام الإيجابِيَّة في أوقات الخطر. دعونا نُعايِنْ كلَّ ظرفٍ من هذه الظروف السابقة على التوالي.

## ■ إمكانِيّةُ التّحقُّقِ العالية مقابِل المُنْخَفِضة

لا تُعتبر الأوهام الإيجابِيَّة حالاتِ انحرافٍ جامح عن الواقع، فالناس لا يصدّقون في العادة الأشياء التي يتبيّن بوضوح عدم صحتها، لكنهم يميلون عوضًا عن ذلك إلى صَبْغِ الأمور بالتفاؤل. أضِفْ إلى ذلك أنّ الأوهام الإيجابِيَّة تستجيب للمعلومات، فعندما يتلقَّى الأشخاص إفاداتٍ بشأن أدائهم في مهمّةٍ ما، فإن أوهامهم بشأن هذه المهمّة ستقلّ. في المقابل، فإن التقييمات التي لا يتلقّى المرء أيّ تعليقات عليها ستكون عُرْضَةً لأوهامٍ إيجابية كبيرة؛ لذا فإن المدى الذي سيكون فيه التقييم «قابلًا للتحقق» يؤثر على درجة الأوهام الإيجابِيَّة.

وفي الحرب، يحتمل أن يكون هذا المتغيّر مُهِمًّا على نحوٍ خاصّ. من ذلك أن السياسيين نادرًا ما يتلقّوْن تعليقاتٍ مباشرة بشأن سياساتهم؛ لأنه يمكن للنتائج السيئة أن تُعْزَى إلى العديد من العوامل، والأشخاص، والمشاكل الأخرى في شجرة صنع القرار. وينطبق هذا بشكلٍ خاص على القرارات المتعلّقة ببدء النزاع، أو تصعيده، فالنتيجة الكارثية لا تعني بالضرورة اتّهام

السياسة نفسها، ولكنها قد توحي فقط بأنها، ولسببٍ ما، لم تَسِرْ على النحو المنشود. في المقابل، يمكن للقرارات التي يتَّخذها الضباط العسكريّون أن تعرّض صُنَّاع القرار لمخاطر مباشرة (مثل فشل المهمة، وفقدان المُعدّات، والإصابات). وفي مثل هذه الظروف، يُحتمل أن يتلقَّى القادة مزيدًا من التعليقات المباشِرة، وأن يكونوا أكثرَ قدرةً على عَزْوِ تلك التعليقات إلى عواقبِ قراراتٍ مُحدّدة. ولهذا ينبغي أن تميل الأوهام الإيجابِيَّة إلى الانخفاض من السياسيين، إلى صنّاع القرار المحليين، إلى أفراد الجيش على أرض الواقع بسبب زيادة قابلية التحقّق من القرارات. فكلّما اتَّجهنا ناحية الأسفل في التسلسل الهَرَمِيّ قلّتِ الخطوات التي يتعيّن على الفرد قطعها ما بين الفكرة، والتنفيذ في عملية صنع القرار، وبالتالي تزيد احتمالية أن تُعْزَى التعليقات المباشِرة إلى قراراتٍ مُحدَّدة. يتمثّل التَّوقُّع في أنّ الأوهام الإيجابِيَّة تتناقص مع تزايد القابلية للتحقُّق من نتائج السياسات.

## ■ السِّمَاتُ العامّة مقابل السِّمَات المُحَدّدة

تكون الأوهام الإيجابِيَّة أكبرَ عندما تتشكّل على مستوى عام، وليس على مستوى محدَّد، فمن المرجّح أن تُثير تقييمات بعض المَفاهيم العامة للغاية، مثل نوايا الفرد، أو خططه المستقبليّة، أوهامًا إيجابية؛ وذلك لأن الناس لا يملكون ما يكفي من المعلومات المُباشرة التي تتعارض مع تلك الأوهام. أما التقييمات

المتعلقـة بأمـور أكثـر تحديـدًا، مثـل مـا إذا كان شـخص مـا يسـتطيع عـزف البيانـو، فـلا يمكـن لهـا أن تخضـع للمبالغـة بسـهولة، إذ يمكـن لـكلٍّ مـن المقيّم، ومـن أيّ شـخصٍ آخـرَ أن يتأكّد منهـا. وفي الحـرب، فإنـه غالبًا مـا تكون القرارات الاسـتراتيجية رفيعة المسـتوى عامـة جِـدًّا، وتتضمـن عـددًا مـن التقييمـات التـي لا تسـتند، أو ليـس بمقدورهـا الاسـتناد، علـى معلومـات مفصلة حـول كلِّ جانـب (مثل نوايـا العـدو). والحقيقـة أن المسـتوى الاسـتراتيجي يظـلّ بالضرورة عامًّـا؛ وذلـك لأنـه لا يمكـن للمـرء تقديـر الصـورة الأوسـع إلَّا مـن خـلال اسـتبعاد كل التفاصيل المحـددة. أما القرارات ذات المسـتوى الأدنـى، فإنهـا تتضمن بالضـرورة المزيد مـن الحقائق المحـددة؛ مثل المـوارد اللازمـة لإنجـاز بعض الأهـداف المحليـة. كما يمكـن أيضًا جمـع الحقائـق التفصيليـة بشـأن كلٍّ من المنطقـة، والقـوّات المعنيِّين (وعلـى مـدى فتـرة زمنية أقصـر) للمهمـة المطلوبـة خصِّيصًـا. وهنا، يتمثـل التوقُّـع فـي أن الأوهـام الإيجابِيَّـة تكـون أكبـرَ على المسـتوى الاسـتراتيجي عندمـا تخضع السِّـمات العامّة واسـعة النطـاق للتقييم.

### ردود الفعل: بداية الفترة مقابل نهايتها:

يتضـاءل التفـاؤل غيـر المبـرّر بعـد الأحـداث السـلبية، أو عندمـا يـرى النـاس أن الآخريـن يتنافسـون علـى الهـدف نفسـه، أو يحاولون منعهـم مـن تحقيقـه. وتجـادل (شـيلي تايلور) فـي أن «الأوهـام قادرة علـى الاسـتجابة للمعلومـات السـلبية، واسـتخدامها عندما تسـتدعي

الحاجة، مع الحفاظ في الوقت نفسه على المعتقدات الإيجابِيَّة بشكل عام». وقد تأتي المعلومات السلبية من التجربة المباشِرة للبيئة، أو من أشخاصٍ آخرين. أضف إلى ذلك أنه عندما يكون من المقرَّر كشف النتائج المَرْجُوَّة لقرارٍ ما في وقت معيّن، فإن التوقعات المتفائلة تنخفض مع اقتراب الوقت (كتاريخ نتائج الاختبار مثلًا). في مثل هذه الحالات، تبدأ التقييمات بالتفاؤل، ومن ثَمَّ تصبح أكثرَ دِقّة، وأحيانًا ما ينتهي بها المطاف سلبيّة. أي أن التقييمات تصبح أكثر واقعية بالتدريج، وذلك مع تراكم المعلومات، وزيادة القلق بشأن المساءلة (شيء من قبيل: «لقد تسبّبت في دخولنا هذه الحرب، وها نحن نخسرها، والآن؛ سيجعلونني أدفع ثمنها)؛ ونظرًا لأن ردود الفعل، أو التعليقات تصبح وشيكة أكثر، فقد ترجح كفّة المخاوف المتشائمة على كِفّة الدقة، إذ يبرز باعثٌ على خفض التوقعات من أجل تجنّب خيبة الأمل. قد يكون الدافع وراء هذا التحوُّل نحو التشاؤم زيادة في الاهتمام، أو القلق، أو الأهمية، أو معالجة المعلومات، لكن يبدو أن القلق يبدو هو أكثر هذه العوامل أهمية (من المعروف أنّه تربطه بالتفاؤل علاقة عكسية). بينما إذا كان القلق منخفضًا (بسبب الإفراط في الثقة بالنفس، أو المعلومات الخاطئة، أو المخدرات، أو الكحول)، فسيستمر التفاؤل بلا هوادة.

كل هـذا يشـير إلـى أنـه ينبغـي أن يتراجـع التفـاؤل المُفْـرِط مـع مـرور الوقـت (علـى الأقـلّ فـي الحـالات التـي تكـون فيهـا ردود الفعـل متراكمـة، أو مُتوقّعـة). غير أن هنـاك أربعة عوامل قـد تقلل من احتماليـة مسـاهمة مـرور الوقـت في خفـض تأثيـر الأوهـام الإيجابِيَّة علـى الحرب.

**أوَّلًا**، عـدم وجـود ردود فعـل فـي فتـرة ما قبـل الحـرب، وبالتالي افتقـار التقييمـات الأوليـة والقـرار الرئيسـي بخـوض الحـرب لهـذا الضابط.

**ثانيًا**، إذا كانـت ردود الفعـل هـذه فـي المسـتقبل البعيـد، أو تعرضـت للتجاهـل، أو لـم يُنظر إليهـا على أنهـا ذات صلة، فسـتكون السّـيادة للأوهـام الإيجابِيَّـة.

**ثالثًـا**، قـد تكـون ردود الفعـل فـي أوقـات الحـرب مختلفـة نوعِيًّا عـن الموضوعـات فـي التجـارب النفسـية؛ إذ نـادرًا ما يُتوقّـع حدوث ردّ الفعـل المتمثـل فـي «كلِّ شـيءٍ أو لا شـيء» فـي لحظـة معينـة (باسـتثناء ربمـا توقّـع النتائج العامة لحـدثٍ مُعيّن، مثـل عملية الإنزال فـي نورمانـدي D-Day landings).

**رابعًـا**، فـي التجـارب، وُجِـدَ أن التقليـل التدريجي للتفاؤل بشـأن أحـداثٍ مُعيّنـة (مثـل نشـر نتائـج الامتحانـات) لا يحـدث إلَّا لـدى الأشـخاص الذيـن يعانـون من تدنٍّ فـي تقدير الـذات؛ لا أولئك الذين يكـون تقديـر الـذات لديهـم مرتفعًـا. وبالتالـي، فـإن كبار السياسـيين

والقـادة العسـكريين ممَّـنْ يُتوقّـع تمتّعهـم بتقديـر مرتفـعٍ للـذات قـد يبقـون علـى التحيُّـزات المتفائلـة برغـم ردود الفعـل المتوقّعـة، بـل إن الأفـراد الذيـن يتمتعـون بتقديـر مرتفـع للـذات يميلـون، علـى حَدِّ تعبيـر (روي بوميسـتر)، إلـى أن تزيد أوهامهـم الإيجابيَّة بعد الفشـل؛ لـذا فقـد يكـون هـذا النـوع مـن التبايـن ضعيفًـا إلى حـدٍّ ما فـي حالة الحـرب؛ لكـن علـى الرغـم مـن ذلـك، يقـول التوقّـع إنّ الأوهـام الإيجابِيَّـة تنخفـض عمومًـا كلما زاد اقتـراب ردود الفعـل، أو تراكمها مـع مـرور الوقت.

## ■ السِّمَاتُ المُبْهَمَة مقابل السِّمَات الوَاضِحَة

تتفاقـم الأوهـام الإيجابِيَّـة حـول التقييمـات الذاتيـة عندمـا تكون السِّـمَةُ الخاضعـة للتقييـم مُبهمـة. وفـي مثـل هـذه الحـالات، يميـل النـاس إلـى خلـق معاييرهـم الخاصـة التـي تخـدم مصلحتهـم الذاتية مـن أجـل الحكـم على مـا إذا كانـوا جيّدين في مهمـة مُعيّنـة أم لا. من ذلـك: أنـه عندمـا يُطلب مـن الناس تقييـم قدرتهـم القياديّـة، فإنهم قد يبنون اسـتجابتهم علـى جوانب من القيـادة يعرفون حـقّ المعرفة أنهم متفوِّقـون فيهـا (مثـل إدارة الوقـت)، بينمـا يتجاهلـون الجوانـب التي يكونـون سـيِّئين فيهـا (مثـل تفويض المهـام). أضف إلى ذلـك أنه إلى جَانـب ميلهـم للتركيـز على نقاط القـوة لديهم، فإنهـم لا يركّزون على نقـاط القـوة التي لـدى الآخرين.

وقد أظهرت التجارب التي أجراها (ديفيد دونينج، وزملاؤه) أنه كلّما زاد إبهام السمات الشخصية، زاد إفراط التقييمات الذاتية في التفاؤل، وأن هذا التباين يعود إلى استخدام الناس لمعايير تمييزيّة idiosyncratic، وعندما طلب من الخاضعين للدراسة استخدام معايير الآخرين، كانوا أقلّ تحيّزا. ويخلُص المؤلفون إلى التالي:

إن تأثير «الأعلى من المتوسط» لا يُعدّ بحَدِّ ذاته دليلًا واضحًا على التحيّز، والتحريف في الحكم الاجتماعي. وحقيقة الأمر أنه عندما يراعي الناس تعريفاتهم الخاصة، وربما تلك التي تكون أكثر صلة بالمهام اليومية التي يواجهونها، فإنهم قد يكونون على قدرٍ كبير من الدقّة. لكن حتى وإن كانت هذه طبيعة الأمر، فإنه ما يزال بإمكاننا تخمين أنّ تأثير الأعلى من المعدّل المتوسط، وأن استغلال الغموض الذي يحيط بالسّمات لخدمة المصلحة الذاتية، قد ينتج عنهما تكاليف اجتماعية مُقلقة. وتحدث هذه التكاليف عندما يرى الفرد أن تعريفه/ــا الخاص التمييزي هو التعريف الوحيد الجدير بالاعتبار، بينما يفشل في إدراك التعريفات الأخرى المحتملة عندما تكون ذات صلة... إلى الحَدّ الذي يفشل فيه الناس في إدراك التعريفات الأخرى للقدرة عندما تكون ذات صلة بالنجاح والإنجاز، وستكون تقديراتهم المتعلّقة برفاههم المستقبلي مُبالغًا فيها.

ووجد دونينج أيضًا أنّه عندما يحكم الناس على الآخرين، فإنهم لا يخترعون معايير مُصمّمة خصِّيصًا لصالح الآخرين، كما يفعلون مع أنفسهم. ولو فعلوا ذلك لكان الآخرون سيُعتبرون أعلى من المتوسط. لكن عِوَضًا عن ذلك، يبدو أنهم يفرضون معاييرهم الشخصية التي خصّصوها لأنفسهم على الآخرين، بحيث يرون الناس على أنهم أسوأ ممّا هم عليه في الواقع. وبالتالي يكون هناك تأثير مضاعف السّبب يعزّز من تصوّرات الناس حول تفوّقهم الشخصيّ.

وفي التعقيد الذي تتّسم به الحرب، يُرَجّح أن تكون كل من السمات التي يتعيّن تقييمها والمعايير الملائمة للحكم مبهمة، ويزداد ذلك تأكيدًا لامتلاك الأطراف المتعارضة لدوافع يخفونها عن بعضهم بعضًا. ومثل الرجال المكفوفين في الحكاية الهندية، الذين يصف كل واحد منهم فيلًا على أنه («ثعبان»، «شجرة»، «مكنسة»، «جدار»)؛ فحتى الخبراء من شأنهم الاختلاف على القدرات النسبية للخصوم؛ لأنهم سيرجّحون عوامل مختلفة على أخرى خلال إجرائهم لعمليّة التقييم الشامل. وكما يشير (مايكل هاندل)، فإن هذا المُتغيّر قد يصيب في الغالب قائدًا سياسيًّا «يتعامل في معظم الأحيان مع نوايا الخصم [الأكثر غموضًا]، والسياسات بعيدة المدى بدلًا من الصور الجوِّيَّة، ومواقع تركيز الدبابات والقوات، والأدلة الملموسة الأخرى». ويتمثّل التَّوقّع في أنَّ الأوهام الإيجابِيَّة تزداد مع ازدياد غموضِ الشَّيءِ المراد تقييمه.

## مرحلة المُهمّة: التداول/ التشاور مقابل التنفيذ:

أظهـر كلٌّ من (شـيلي تايلور، وبيتـر غولويتزر) من خـلال التجربة أنـه عندما ينخـرط الناس فـي وضع الأهداف، فـإن الأوهـام الإيجابِيَّة تتضـاءل (ممَّا يسـمح لهـم بوضع أهـدافٍ أكثر جدوى). فـي المقابل؛ عندمـا يخططـون للأهـداف أو ينفذونهـا، فـإنَّ الأوهـام الإيجابِيَّـة تتفاقـم (الأمـر الذي يسـمح، في الظـروف العاديـة، باتِّخـاذ إجراءات أكثـر فعاليـة). كان هذا مجـرّد تغيير نسـبي؛ فحتى الأفراد المشـاركين فـي الدراسـة الذين كانـوا يضعون أهدافًـا - وكذلك أفـراد المجموعة الضابطـة الذيـن كانـوا لا يضعـون الأهـداف، ولا يطبقونهـا - أظهروا تصـوُّرات ذاتِيّـة منحـازة بشـكلٍ إيجابِـيّ. لكـن النقطة المهمّـة هي أن مسـتوى الأوهام الإيجابِيَّـة قد تباين بيـن المجموعات. فعند التشـاور حـول كيفيـة حـلِّ المشـكلات، يبـدو النـاس أكثـر ميـلًا إلـى التفكيـر فـي الإيجابيـات، والسـلبيات بطريقـةٍ متوازنـة. لكـن عندمـا تُفسـح المـداولاتُ المجـالَ للتركيـز علـى المشـاريع المقصـودة، يختفـي الإنصـاف. أمـا الأشـخاص الذين كانـوا في مرحلـة التنفيـذ للمهمَّة - أولئـك الذيـن كانـوا مـا يزالون فـي طـور التخطيـط للتنفيـذ، وأولئك الذيـن شـرعوا فيـه - فإنهم لـم يحاولـوا اسـتيضاح الأمور، وتسـبّبت أفـكار غيـر ذات صلـة فـي تشـتيت انتباههـم، ولـم يفكّـروا كثيـرًا في الإيجابيـات، والسـلبيات (وفـي حـال فكّـروا، كان تفكيرهـم تفضيليًّا للإيجابيـات)، وركّـزوا حصـرًا علـى إنجـاز المهمّـة. كمـا أظهـروا كذلـك مقاومـة قويَّـة للعـودة إلى الـوراء، وإعـادة النظر فـي القرارات

التـي اتَّخذوهـا بالفعـل. وهكـذا، «يبـدو أن تنفيـذ مسـار عملٍ مـا يعدُّ الوقـت الـذي تُحشـد فيـه الأوهـام الإيجابِيَّـة، بـل ويُبالـغ فيهـا، فـي سـبيل خدمـة هـدفٍ واضح».

أمـا الاختلاف الأكثـر تطرُّفًـا، فكان فـي الحصانة المُتصـوَّرة ضد المخاطـر. فعلـى الرغـم مـن أن هـذا لـم يختلـف بيـن مجموعـات التـداول، والمجموعـات الضابطـة (أي أن التـداولات لـم تقلِّلْ هـذا النـوع مـن الأوهـام الإيجابِيَّـة)، فقـد كانـت متضخِّمة بشـدّة في مجموعـات التنفيـذ، الأمـر الـذي يشـير إلـى أن «التنفيـذ قـد يُعمـي النـاس علـى نحوٍ خـاص عـن المخاطـر». ويضيـف الباحثـان: «ربَّما تكـون هـذه التصـوُّرات تكيّفيـة، بحيـث تسـاعد النـاس علـى تعزيـز الأهـداف التـي اختـاروا تنفيذها عن طريـق منعهم مـن الانحراف عن غايتهـم أو القلـق بشـأن المخاطـر المُحتملـة».

تشـير هـذه النتائج إلـى أن الأوهـام الإيجابِيَّة تعمل بشـكلٍ انتقائيٍّ عندمـا تكـون عظيمة الفائـدة: عندمـا «يحـاول الناس تنفيـذ الأهداف المُختـارة (المشـاريع المقصـودة) بأكبـر قـدرٍ مُمكـن مـن الفعالية... فإنه يُسـتعاض عن تذبـذب مرحلة ما قبـل اتّخاذ القـرارات بالتصميم. إنَّ فُـرص التفكيـر الأكثر واقعية تسـنح بالفعل: عندما «تُسـتخدم ردود الفعـل لتحديـد مسـارات عمـل عنـد نقـاط الاختيـار»، لكـنَّ الخطـر يكمـن فـي أن «الأشـخاص الذيـن يحوّلـون مشـكلة لـم تحـل إلـى مشـروعٍ غير مقصـود، من خـلال اتِّخاذ قرارٍ مـا، قد يصُمُّـون عقولهم

عـن هذه الفرصـة، وذلـك لافتقـار الأفـراد الموجودين فـي مرحلة ما بعـد اتِّخـاذ القرار للوصول السَّـهل إلـى التفكيـر التداولِـيّ المُحايد».
إن النّظـر فـي عددٍ محـدودٍ فقط من الخيـارات، ثمّ اختيـار أحدها قبل الأوان قـد يـؤدّي إلـى إغـلاقٍ كارثِـيٍّ للعقـول. وقد أظهـرت تجارب المتابعـة أن التفكيـر التداولـيّ، والتنفيـذيّ لهما تأثيـرات مختلفة على السـلوك، وكذلـك علـى الإدراك، وأن الأشـخاص الذيـن يتمتعـون بعقليـة تنفيذيـة يتفوّقـون فـي الأداء علـى أولئـك الذيـن لديهـم عقلية تداوليَّـة. يبـدو أن التحيُّـزات المتفائلـة أثنـاء التنفيـذ «تقـوم بـدور بوليصـة تأميـن تضمـن السـعي الحثيث، والشـرس لتحقيـق الأهداف بمجـرد انتهاء المـداولات».

وعليـه، فإنـه يحتمـل أن تزيـد الأوهـام الإيجابِيَّـة فـي الحـروب التـي تَقـرّر أمرهـا بالفعل. غيـر أن المـداولات قد لا تعمـل دائمًا على إضعـاف الأوهـام الإيجابِيَّة بشـأن مـا إذا كان يتعيَّن خـوض الحرب أم لا؛ وذلـك لأن العقليـة التنفيذيـة قد تظهـر حتى قبل اتِّخاذ هـذا القرار.
مـن الصعـب الحكـم علـى مـا إذا كانـت السياسـة الخارجيـة تحديدًا تداوُلِيّـة، أم تنفيذيّـة. فـإذا كانـت المصلحـة الوطنيـة لدولـة مـا مثـلًا تتمثّـل فـي السـعي لتحقيق الأمـن والازدهار، فقـد يكون هـذا بالفعل هدفًـا ضمنيًا، وقـد تكون جميـع قرارات السياسـة الخارجيـة اللَّاحقة أشـبه مـا تكـون بالتنفيذ (تخطيـط كيفيـة تحقيقيـة، والمُضِـيّ قُدُمًا في تحقيقـه). وأمـا عـن هذه الخطـوات، ومـا إذا كانت كلّ خطوة تُشـكّل

مهمّـة تداوُلِيّـة جديـدة، وليســت تنفيـذًا مسـتمرًّا، فهذا غيـر واضح.

علـى سـبيل المثـال: بمجـرد أن التزمـت الولايات المتحـدة بمنع انتشـار الشـيوعية فـي جنـوب شـرق آسـيا خـلال الحـرب البـاردة، أصبـح السـؤال: كيـف؟ ربمـا كان (أيزنهـاور) قـد خـاض مـداولاتٍ بشـأن مـا إذا كان يجـب اسـتثمار الدعـم الأوَّلِـيّ للحـرب فـي فيتنـام أم لا، لكـن ربمـا كانـت قـرارات (جونسـون) حـول ما مـدى ضرورة التصعيـد أقـرب مـا تكون إلـى مشـكلة تنفيذيـة؛ كان عليـه أن يضطلع بالمهمّـة المحـدَّدة مسـبقًا، والمتمثلـة فـي القتـال، والنصـر. كانـت أمريـكا ملتزمـة سياسِـيًّا بالفعـل، وكان الهدف راسـخًا بالفعـل. يمكن أن يسـاعد هذا في تفسـير سـبب إحجام أيزنهاور النسـبي عن الالتزام، وتصعيـدات جونسـون المهولة. بيـد أن التوقّـع يتمثل فـي أنَّ الأوهام الإيجابِيَّـة تـزداد بشـكلٍ كبير من مرحلـة التَّداول إلى مرحلـة التخطيط لمُهمّـةٍ مـا، وتنفيذها.

### مستوى التهديد: وجود الخطر مقابل انعدامه

علـى الرغـم من شـيوع الأوهـام الإيجابِيَّة حتى في أوقـات الأمان والسـلام، إلَّا أن الظـروف التهديديـة تزيـد مـن احتماليـة ممارسـتها، والتطـرف فـي ذلـك. وكما كتـب (دانييـل جولمـان): «يبدو أننـا أكثر عَرَضـة للّجـوء إلـى أوهامنا عنـد مواجهتنـا لتهديدٍ سـاحق». من ذلك مثـلًا انتشـار الأوهـام الإيجابِيَّة بيـن الأفـراد المصابين بأمـراض تهدّد حياتهـم. وعلـى نحـو أكثـر تحديـدًا فيمـا يخـصّ الصـراع، يجـادل

(ريتشارد رانغام) في أنه عند وجود تهديدٍ بالعنف، وأثناء القتال نفسه، فإن الأوهام الإيجابِيَّة قد تتحفَّز، أو تتعاظم كاستجابةٍ تكيّفية (وقد تميل بالتالي إلى مفاقمة الأزمات، والحروب بمجرد وجود الناس فيها). ويشير (روي بمويستر) إلى أنّ العدوان يتحفّز بالأخصّ عند تعرُّض التصوّرات الذاتِيَّة المتضخّمة للتهديد. كما يشرح (لورنس ليشان) كيف أن المجتمعات تتحوَّل من التصوّرات الواقعِيَّة إلى المفاهيم الخاطئة التي تخدم مصالحها في أوقات الحرب: عندما تتعرّض دولةٌ ما للتهديد، فإن شعبها يُقلل من شأن خصومه، ويفترض أنَّ لدى الأعداء نوايا شريرة، ويتكاتف معًا، ويدَّعي امتلاكها لأخلاقيّات، وفضائل أسمى.

تختلف الأوهام الإيجابِيَّة عن الآليات النفسية الدفاعية كالإنكار أو القمع، تلك التي ترتفع في مواجهة الخطر المتزايد: «يُنظر إلى الأحداث التي تكون في غاية التهديد، لكنها مُحتملة الوقوع على حقيقتها: تهديدات مُحتملة، كما يُنظر إلى احتمالية وقوعها - على الرغم من كونها مشوَّهةً بطريقةٍ متفائلة مغلوطة - على أنّها واقعية بالنسبة للتهديدات الأقلّ احتمالًا»؛ لذا فمع أن الأوهام الإيجابِيَّة قد تنشأ كاستجابةٍ للخطر، إلَّا أنَّها لا تصبح مُفْرِطةً أكثرَ من ذي قبل مع اشتداد التَّهديد. ويتمثّل التَوقُّع في أنَّ الأوهامَ الإيجابِيَّة تزداد في أوقات التهديد.

## الظروف السابقة للثقة المُفْرِطَة

يعدُّ فرط الثقة المتغيّر الدّخيل الذي أقترح أنّه يكمن بين الأوهام الإيجابِيَّة والحرب، وهو يتضمن أربع ظواهر دخيلة رئيسية تنتج عن الأوهام الإيجابِيَّة:

مبالغة الطرف في تقدير نفسه (أو حلفائه)، والتقليل من شأن العدو (أو من شأن حلفائه)، وإهمال المعلومات الاستخباراتية، والمبالغة في تقديرات فرص النجاح، بحيث يكون مجموع تقديرات فرص الطرفين أكبر من 1 (انظر الشكل 2). من المتوقع أن تؤدِّيَ هذه الأشكال من فرط الثقة إلى زيادة احتمالِيَّة الحرب؛ شريطة ألَّا تخضع لتقييمٍ تصحيحيٍّ قبل أن تؤثِّرَ على السياسة.

وأرى أن الظرفين السابقين الرئيسيين اللَّذَيْن يؤثّران على ما إذا كان فرط الثقة سيقود إلى الحرب هما «نوع النظام» (الضوابط والموازين الرسمية في عمليّة صنع القرار، والتي تتباين بين الدول، وتكون أفضل في الديمقراطيات)، و«علنيّة النقاش» (الضوابط والموازين غير الرسمية التي تُفرض على عملية صنع القرار، التي تتباين بين الدول، وتكون أفضل عندما تكون أكثر علنيّة)؛ لذا فبغضِّ النظرِ عن المستويات الأوّلِيّة للأوهام الإيجابِيَّة، فإنَّ توليفات مُختلفة من هذين المتغيِّرَيْن ستُنتج مُختلف مخاطر الحرب المُتوقّعة من خلال السماح بكمِّيَّاتٍ مختلفةٍ من الثقة المُفْرِطَة بالبقاء في النظام، والتأثير على السياسة.

## ■ نـوع النظـام

أصنّـف الأنظمـة على أنهـا «ديمقراطيـة» أو «غيـر ديمقراطية» بناء علـى مـا إذا كانـت الحكومـات قـد وصلـت إلـى السـلطة عـن طريق التصويـت الحـرّ أم بدونـه. ففـي الديمقراطيـات الحديثـة الخاضعـة للتمحيـص، ينبغـي أن يكـون الشـعب ووسـائل الإعـلام، والممثّلون المُنتَخبـون، وأعضـاء الحكومـة قادريـن علـى كشـف التقييمـات السـيئة، أو المنحـازة التـي يُطلقهـا القـادة، ومعارضتهـا، ومنعهـا بكلّ سـهولة. فـي المقابـل، يمكـن تحويـل معتقـدات طاغيـة، ورغباتـه إلـى سياسـة دون مواجهـة تحـدٍّ يُذكر. وفـي حقيقـة الأمـر، يُرجّح أن يكـون الكثيـر مـن كبـار مسـاعدي الطاغيـة، وقادتـه العسـكريين إمّـا مـن أقاربـه، وإمّـا مـن أتباعـه المُفضّليـن، الذيـن يفتقرون إلـى وجود الدافـع، أو حتـى الـرأي المخالف للتشـكيك فـي حُكم ولـيّ نعمتهم. وعـلاوة علـى ذلـك، نجـد أن احتماليـة الطعـن فـي الثقـة المُفْرِطَـة لـدى الزعمـاء فـي الـدول الديكتاتوريـة أقـلّ ممّا هـو عليه فـي الدول الديمقراطيـة، ويعـود ذلـك إلـى كـون «البروباغنـدا» لا تواجـه الكثير مـن التحـدّي النّاتـج عـن ردود الفعل مـن المصـادر المعارضـة، التي قـد تكـون شـحيحةً، أو حتى خاضعـة للرقابـة. وإذا تعرَّضـت للطَّعنِ، فقـد يتعـرّض مُرتكبـو الجـرم للعقوبة.

يتمثَّـل التَّوقُّـع فـي أنّـه يمكـن مواجهـة الثقـة المُفْرِطَـة للزعمـاء بسـهولة أكبـر في الـدول الديمقراطيّة. ولا بُدّ مـن أنَّ حكومة الولايات

المتحدة بارعةً على نحوٍ خاص في عرقلة الثقة التي لا أساس لها؛ وذلك لأنها مصمَّمة لزيادة الضوابط، والموازين، والتشجيع على وجود حكومة مُنقسمة.

## ■ عَلَنِيَّة النِّقَاش

أصنِّفُ النِّقاش على أنّه «علنِيّ»، أو «مغلق» وفْقًا للدرجة التي يشجِّع بها القادة وجود آراء متنوعة، وغير حزبيّة، ويأخذون بعين الاعتبار الخيارات المتعدّدة، ويستغلون التحليل الاستخباراتي، ويحفِّزون المزيد من عمليّات جمع المعلومات الاستخباراتية، ويتعاونون مع أجهزة المخابرات، ويستجيبون للمشورة. (يفترض هذا المتغيّر مسبقًا توفّر المعلومات ذات الصلة؛ إنه يركِّز على استخدام هذه المعلومات. وعلى الرغم من أنَّ المعلومات لن تكون مثاليّةً قطّ، إلّا أنّه يمكن تصنيف وحدات صنع القرار تقريبيًّا بواسطة انفتاحها النسبِيّ في التَّعامل مع المعلومات). وتعتبر المعلومات عديمة الجدوى إذا كانت مغلوطة، أو غير ذات صلة، أو أسيءَ فهمُها، أو تعرّضت للتّجاهل؛ لذا فإن طريقة استخدام المعلومات، والاستشارات لا تقلّ أهمّية عن جهاز المخابرات نفسه .

وكما كتب بول كويرت: «إن مجرد اكتساب المعرفة لا يشكِّل في حَدِّ ذاته دليلًا على التعليم، إذ يتعيَّن على المرء أيضًا أن يتساءل عمَّا إذا كان القادة يستخدمون هذه المعلومات لإعادة تقييم

خيارات سياساتهم، حتى إذا كان في فعل ذلك تَحَدٍّ للافتراضات المتعلقة بالعالم التي تكون موضع اعتزاز لَدَيْنا».

وينبغي أن يسمح المزيد من النقاش العلني بتمحيصٍ أفضلَ، وتوفير خياراتٍ بديلة، والكشف عن نقاط الضعف في التقييمات المُتحيِّزة التي يطلقها الزعماء. أمّا النقاش المُغلق، فيُحتمل أن ينظر في خيارات محدودة فقط، وألَّا يطعن في فاعليّة سياسة مُختارة، أو في المنطق ورائها، وأن يتجاهل المشورة الخارجية، أو يتقاعس عن طلبها. ويمكن لعلنيّة النقاش أن تكون مستقِلَّة عن نوع النظام، بما أنّه يمكن حتى للطغاة أن يتمتّعوا بوجود عمليات صُنع قرار فعَّالة للغاية، ومستشارين فعّالين، وتعامل فعّال مع المعلومات الاستخباراتية. ومع ذلك، وكما أشار (إرنست ماي) في تصنيفه لمجموعات اتِّخاذ القرار «الجماعية collegial» (الأكثر علنيّة) مقابل تلك «المتمركزة centralized» (الأكثر انغلاقًا)، فإنَّ التقييمات الاستراتيجية في تلك الأخيرة «تكون تحت رحمة الشخص المُسيطر». ويتمثّل التَّوقُّع في أنَّه يمكن تبديد الثقة المُفْرِطَة بسهولةٍ أكبرَ عندما تكون عملية صنع القرار شاملة (علنيّة، وغير متحيّزة)، وواسعة النطاق (تأخذ مختلف الآراء، ووجهات النظر بعين الاعتبار).

# اختبارُ النَّظَرِيّة

تتأرجح الدول في معظم الأحيان على شفا هاوية الحرب، لكنها تجد بعد ذلك وسيلةً لتفاديها. وعليه، فإذا ما بحثتُ عن دلائل على العوامل التي تشجّع على الحروب، مقتصرًا في بحثي على الحالات التي يُفترض أنها مسؤولة عنها؛ أي الحروب، فلن أكون حينها قادرًا على دَحْضِ الادّعاء العكسيّ بأن احتمالية حدوث الحروب ستكون أقلّ لو لم يكن لدى صُنّاع القرار أوهامٌ إيجابِيَّة. ومن أجل تفادي هذا الانحياز المُحتمل، فأنا لا أحلّل الحروب وحسب، بل أشمل في تحليلي الأزمات التي حُلّت بشكلٍ سلميّ، وهو إجراء يتيح لي اختبار ما إذا كان انخفاضُ الأوهام الإيجابِيَّة قد ساهم في حلِّها سلْمِيًّا. وتوفّر الأزمات اختباراتٍ جيِّدة على نحوٍ خاصّ؛ لأنها حالات يمكن للحرب أن تندلعَ فيها بسهولة؛ لذا يُخبرنا تفادي الحرب في أزمة أكثر ممَّا يخبرنا به تفاديها في أوقاتٍ أكثر هدوءًا.

أمّا فيما يتعلق بالأوهام الإيجابِيَّة، فتمثّل الأزمات أهمية خاصة؛ لأنّها أحداث تفرض على صُنَّاع القرار إعادة تقييم مُلِحَّة لمصالح دولتهم، وللقدرات النسبِيَّة للجانبين، ولاحتمالية النصر، أوَ الانتفاع من أيِّ صراعٍ وشيكٍ.

## دِرَاسَاتُ الْحَالَةِ

تعمَّدت اختيار الحالات وفقًا لمعيارَيِ اختيارِ مُنفصلَيْنِ، ولكنهما مُعزِّزان؛ أولهما: الحالات التي ينبغي أن يكون من غير المُرجَّح حدوث التأثير المفترض فيها، وثانيهما: الحالات التي يبدو فيها التأثير المفترض غير ضروري، وذلك لوجود تفسيرات قائمة جيِّدة للأحداث (وإن لم يُجمع عليها المؤرخون بالضرورة). وتعني هذه التوليفة أن مثل هذه الحالات توفِّر تحدِّياتٍ صعبةً على نحوٍ خاص لفَرْضِيَّة جديدة. في كلِّ دراسة حالة، أختبر فرضيتي الجديدة ضد الفَرْضِيَّة المنعدمة null hypothesis التي تقول بعدم وجود علاقة سببيّة. بيد أنني لا أقتصر على مجرَّدِ إلغاء الفَرْضِيَّة المُنعدمة لاختبار ما إذا كانت نظريتي توفِّر قوَّةً توضيحِيّة إضافية تفوق التفسيرات القائمة الحالية لكلِّ حالة.

كما أنني اخترت الحالاتِ على أساسِ ثراء البيانات؛ القِيَم المتطرِّفة للمتغيِّرِ التَّابع (الأزمات التي أدَّتْ إلى الحرب، وكذلك الأزمات التي أدَّتْ إلى السلام)، والقِيَم المتطرِّفة للظروف السابقة (أنواع النظام المختلفة اختلافًا كبيرًا، وعلنيّة النقاش)، والتغيُّرات الكبيرة داخل الحالة في متغيّرات الدراسة (السماح بعمليات رَصْد متعددة، في ظلِّ الظروف المُمَاثلة، حول ما إذا كانت المُتغيِّرات مَوْضِع الاهتمام مرتبطة ببعضها بعضًا كما هو مُتوقّع). وقد تعمَّدَت اختيار حالتين تتعلّقان بالولايات المتحدة الأمريكية؛ نظرًا

لأهميـة السياسـة الخارجية الأمريكيـة الحالية، وانخراطها العسـكري فـي جميـع أنحـاء العالـم. وأخيـرًا، اختـرتُ الحـالات التـي تُمثّـل نقـاطَ تحـوُّل رئيسـيّة فـي تاريخ القـرن العشـرين، والتـي تُعـدُّ بالتَّالي مـن الأرْضِيَّـات الرئيسِـيّة التـي يقـوم عليهـا إثبـات فَرْضِيَّـة الأوهـام الإيجابِيَّـة الجديدة.

ووفقًـا لذلـك، طبّقـتُ «نظريـة الأوهـام الإيجابِيَّـة» علـى حربين، وأزمتيـن: الحـرب العالميـة الأولـى، وحـرب فيتنـام، وأزمـة ميونيـخ عـام 1938، وأزمـة الصواريـخ الكوبيـة عـام 1962. وفـي نهايـة الكتـاب، أنظـر بشـكلٍ تخمينِـيٍّ إلـى دراسـة حالـة غيـر رسـمية: غزو العـراق عـام 2003.

## ■ إلغاءُ العَوَاملِ المُبَاشِرَةِ البَدِيلَة

بالنسـبة لـكلّ الحالـة، فأنـا أضمن فـي بـادئ الأمـر إمكانية رفض ثلاثة عوامل مباشـرة بديلة للقـرارات المُتَّخَذَة (أي العوامل المسـتقلّة عـن مصـادر الصِّـراع الأساسِـيّة). تقـدم هـذه العوامـل افتراضـات ستجعل- فـي حـال كانـت دقيقـة - نظريتـي غيـر ضروريـة؛ لأنه لن تكـون هنـاك حاجـة إلـى قـوة توضيحيـة إضافيـة لاسـتكمال فهمنـا لسـبب نشـوب الحرب، أو عدم نشـوبها. إنها ليسـت نظريات متنافسة عَلـى هـذا النحو؛ بـل تقترح أن شـرارة الحرب أو الأزمـة، بغضِّ النظر عـن الدافـع، حدثـت نتيجة للقيود الأساسـية علـى الوقـت المتاح، أو الخيـارات المتاحـة، أو المعلومـات المتاحة.

## ■ عدمُ تَوَفّر الوَقْتِ الكَافِي للتَّقييم

بالنسبة لكلِّ حالة، فأنا أتحقَّق من أن وقت التقييم كان طويلًا، بما يكفي لإلغاء احتمالية أن تكون القرارات قد استندت ببساطة على ردود فعل «متسرّعة، وغير محسوبة». قد تندلع الحروب نتيجة عدم امتلاك صُنّاع القرار لما يكفي من الوقت لتقييم خياراتهم على نحوٍ ملائم، وفي هذه الحالة، فإن القرارات المُفْرِطَة في التفاؤل قد تمثّل عملية صنع قرار مَعِيبة، لا ثقة مفرطة بحَدِّ ذاتها. كان وزير الدفاع الأمريكي السابق (روبرت ماكنمارا) قد كتب، في كلٍّ من إدارتي كينيدي وجونسون، ما يلي: «كُنّا نفتقر في معظم الأحيان إلى ما يكفي من الوقت للتفكير بشكل سليم». وأشار إلى أن هذه المشكلة شائعة في جميع الإدارات والبلدان والأوقات، لكنه «لم يسبق أن رأى دراسة مُتعمّقة للمشكلة. لقد كانت موجودة آنذاك، وهي موجودة اليوم، ويجب الاعتراف بها، والتخطيط لها عند تنظيم الحكومة».

## ■ عَدَمُ وُجُودِ خِيَارَاتٍ أُخْرَى

بالنسبة لكلِّ حالة، فأنا أتأكد أيضًا من أن الحرب لم تكن المسار الوحيد الممكن للأحداث. قد تحدث الحروب مثلًا لأن الدولة واقعة في مأزق عَصِيٍّ، بحيث لا يكون أمامها خيار سوى القتال (في الحالات المتطرفة، فإنه لا يُتوقع من الدولة أن تفعل أي شيءٍ آخرَ سوى القتال في حال تعرُّضها للغزو). والمشكلة هنا

هـي أنَّ مـا يشـكِّل خيـارًا بديـلًا قابـلًا للتطبيق يكـون فـي الغالب غير موضوعِيٍّ.

قـد ينظـر بعـض صُنَّـاع القـرار إلـى الحـرب علـى أنهـا ضرورية، بالنظـر إلـى تفضيلاتهـم، ودرجـات حساسـيّتهم لتكاليف القتـال (أو عـدم القتـال)، بينمـا يجادل آخـرون فـي أنّ القيود ليسـت مُحكَمة إلى تلـك الدرجـة. قـد يبـدو الجانبـان علـى صـواب مـن داخـل إطارات الاختيـار لـكلٍّ منهمـا، وأفضـل مـا بوسـعنا فعله هو السـعي لدراسـة الخيـارات كمـا رآها صُنّـاع القـرار ظاهريًّـا حينئذٍ.

### ■ عَدَمُ تَوَفُّرِ الْمَعْلُومَاتِ الْكَافِيَةِ

بالنسـبة لـكلٍّ حالة، فأنـا أتأكـد أيضًا مـن أن المعلومـات المتاحة كانـت جيِّـدةً على الأقلّ بما يكفـي لإلغاء احتماليَّـةِ أنَّ القرارات كانت فـي الواقـع جيِّـدة، غيـر أنَّ المعلومـات التـي اتُّخِـذت علـى أساسـها كانـت قليلـة، أمـا كيـف اسـتُخدمت هـذه المعلومـات فـي الحقيقـة، فهـذه مسـألةٌ أخـرى - أكثر أهمِّيـة بكثير - نناقشـها في القسـم التالي.

## دَلَائِلُ الْأَوْهَامِ الإِيجَابِيَّةِ

تُعـدّ هـذه المرحلة هـي المرحلة الأساسية من تحليلنا لدراسـات الحالـة: هـل عكسـت القـرارات توقّعـاتٍ أكثـرَ تفـاؤلًا ممَّـا تكفلـه المعلومـات المتاحـة برغـم توفُّـر الوقـت الكافـي للتقييـم، ووجـود خيـارات بديلـة؟ إنَّ اسـتيفاءَ هـذه المعاييـر يعنـي تـورُّط الأوهـام

الإيجابِيَّـة. ويكمـن التَّحَـدِّي فـي تحديـد العوامـل التي على أساسـها صـارت التوقعـات مُفرِطَةً في التفـاؤل. يتضمّن تحليلـي للدلائل على الأوهـام الإيجابِيَّـة مُهمَّتَيْـن رئيسـيَّتَيْن للتغلّـب علـى هـذا التَّحَـدِّي. تتمثَّـل المهمَّـة الأولـى فـي كلِّ دراسـة حالـة فـي بحـث مـا أسـمِّيه «المعلومـات وردود الفعـل»، وهـذا يحـدِّدُ مـا إذا كانـت المعلومـات ذات الصلـة - وفقًـا للجهـات الفاعلة حينئـذ، والتحليـلات التاريخية اللَّاحقـة - متاحـة، وبلغت صُنّـاع القـرار، وردود فعلهـم تُجاهها. أمّا المُهمَّـة التاليـة، فتتمثـل في سـؤال: هل أظهـر صُنَّاع القـرار، في ضوء هـذه المعلومـات، توقّعـات مُفْرِطَـة فـي التَّفَاؤُل؟

## المَعْلُومَاتُ وَرُدُودُ الْفِعْلِ

تفتـرض النظريـة أن صُنَّـاع القـرار يتصرّفـون علـى نحـوٍ سَيِّئٍ بالرَّغـم مـن المعلومـات الجيِّـدة والمتاحـة؛ لذا فبالنسـبة لـكلِّ حالة، أتأكَّـد مـن أنّـه بالإضافـة إلـى كَـوْنِ المعلومـات جيِّـدة بمـا يكفـي علـى الأقـلّ لإلغـاء احتمالِيَّـة «القـرارات الجيِّـدة المَبْنِيّـة علـى قِلَّـة المعلومـات»، فـإنَّ المعلومـات قـد اسـتُخْدِمَتْ فـي الحقيقـة بشـكلٍ فعَّـال. إنّنـي لا أنسـب إلـى الأوهـام الإيجابِيَّـة سـوى الحـالات التي كانـت فيهـا المعلومات جيِّـدة ومتاحـة، لكنَّ صُنّـاع القـرار أهملوها، أو اتّخـذوا قـراراتٍ تتعـارض معهـا.

وللقيام بذلك، فأنا أدرس ردودَ فعلِ صُنّاع القرار على المعلومات الواردة. هل لديهم نزعة لتجاهلها؟ وإن لم يكن الأمر كذلك، فهل يستوعبونها حقًّا؟ هل يبحثون بجَدِّيَّة عن معلوماتٍ جديدة؟ يعدُّ هذا الجزء من التحليل حاسمًا، وبالغ الأهمية؛ نظرًا لأنَّ الحقيقة البسيطة المتمثلة في تزامن القرارات التي تبدو سيِّئةً مع المعلومات المتعارضة لا تحقق كلّ ما يلزم في اختبار نظرية الأوهام الإيجابِيَّة.

على المرء أن يثبت أن صُنّاع القرار كانوا يؤمنون حقًّا بأن سياستهم ستنجح؛ على الرغم من وجود أدِلّة موضوعِيَّة ضِدّها. ولهذا أختبر أيضًا ما إذا كان صُنّاع القرار يغيّرون معتقداتهم، أو يحدّثونها عند تلقّيهم معلوماتٍ تصحيحِيّة.

من شأن التحديث أنْ يعني تقلُّص الأوهام الإيجابِيَّة تدريجِيًّا من خلالِ العمل على عمليةٍ متوازنَةٍ لصُنْعِ القرار، فالأوهام الإيجابِيَّة لا تجعلنا مُحصَّنين من إدراك الواقع في النهاية. بيد أننا قد نقاوم التغيير، أو نكون بطيئين في إجرائه؛ «لأنّ الناس قادرون على استحضار وسيلة تفسير للتعليقات السلبية، أو تجزئتها، أو رفضها، أو التقليل من أهميتها».

## الْعَوَامِلُ الّتِي تَقْتَضِي وُجُودَ الْأَوْهَامِ الإِيجَابِيَّة

تشمل الأوهام الإيجابِيَّة التصوُّرات الذاتية المُبَالغ فيها، والإحساس المُبَالغ فيه بالسيطرة على الأحداث، والتوقُّعات المُفْرِطَة في التَّفاؤل بالمستقبل. وكما ذكرتُ سابقًا، فأنا أفترض أن مثل هذه الأوهام تولّد أنواعًا مُعيّنة من الثقة المُفْرِطَة: مبالغة الطرف في تقدير نفسه (أو حلفائه)، والتقليل من شأن العدو (أو من حلفائه)، وإهمال المعلومات الاستخباراتية، والمُبَالغة في تقديرات فُرَصِ النَّصْر، بحيث يكون مجموع تقديرات فرص الطرفين أكبر من 1 (انظر الشكل 2). ويُمكن تبيُّن مثل هذه الثقة المُفْرِطَة من خلال أربعة معايير:

- الأحكام الصادرة عن الجهات الفاعلة الأخرى في ذلك الوقت، وما خلص المؤرّخون والعلماء السياسيون إلى وضوحه حينئذ (أي مراعاة مدى الاستفادة من التجارب السابقة).
- تصريحات صُنّاع القرار التي تُعرب عن معتقداتٍ مُفْرِطَةٍ في الثقة (وحبَّذا تلك التي تكون خاصة، بما أن بعض التصريحات العامة قد تكون مجرد «بروبغاندا»).
- الحقائق التي تشي بوجود مُعتقدات مُفْرِطَة في الثقة (السياسات، أو القرارات، أو الالتزامات، أو الإجراءات الفعلية).

- مقارنة التوقُّعات بالنتائج الفعلية (هل كانت التوقُّعات مُفْرِطَةً في التَّفاؤُل مقارنةً بما حُقّق بالفعل على أرض الواقع؟).

ومع وجود عدد قليل من الحالات، فإنَّ هذا المعيار الأخير يعيبه إصداره للأحكام بعد وقوع الأحداث. لكنْ يمكن للمرء إجراء عمليات رَصْدٍ مُتعدّدة داخل الحالة بُغْية تحسين الصلاحيّة (وكذلك السؤال عَمَّا إذا كانت القرارات المُتسلسلة تُبيّن معلومات جديدة)، غير أنها تنصّ على أنه: «إذا كان الأداء المتوقَّع يتجاوز الأداء الفعلي، فيمكن اعتبار التَّنَبُّؤُ متفائلًا». وفي أمثل الأحوال، نريد أن نرى دلائلَ على كلّ المعايير الأربعة.

وتتكوَّن السياسة في الغالب من سلسلة من العروض، والخدع المُصمَّمة لإخفاء النوايا الحقيقية. وبمعنى آخر؛ فإن تحليل ما يقوله صُنَّاع القرار (خاصة ما يقال بشكلٍ عَلَنِيٍّ، وما يقال أحيانًا في التصريحات الخاصة) قد لا يُظهر الكثير، نظرًا لاحتمالية وجود مصالح مكتسبة لهم في التظاهر بالاعتقاد بشيءٍ معيَّن، بينما يسعَوْنَ في الواقع لتحقيق شيءٍ آخرَ. وفي أمثل الأحوال، يكون المرءُ بحاجةٍ لمعرفة ما كان يؤمن به صُنّاع القرار ويصدّقونه حقًّا. وقد حاولتُ تحديد ذلك، حيثما أمكن، من خلال تفضيل البيانات الخاصَّة على البيانات العامة، ومن خلال البحث عن مصادر كاليوميات، والوثائق الداخلية، والتي تعكس، من الناحية النظريّة،

المُعتقـدات الشـخصية. وحتـى هـذه الطريقة قـد تمثّل إشـكالية؛ لأن النـاس كثيـرًا مـا يكتبـون مذكراتهـم، وهـم يضعـون فـي اعتبارهم أن المؤرخيـن اللّاحقيـن قـد يحكمـون عليها.

غنيٌّ عن التوضيح أن البحث عن الأوهام مُهمّة شائكة.

هنـاك طريقـة أفضـل للبحـث عـن التفـاؤل المُفْـرِط، وهـي النظر فـي القـرارات المُتّخـذة فعليًّـا، بـدلًا مـن مجـرد ما قـال صُنّـاع القرار إنهـم يتوقَّعـون حدوثـه، أو إنّهـم سـيفعلونه. ويمكـن القـول إنَّ هـذه القـرارات تُمثّل إشـاراتٍ أصـدقَ على النوايـا، والتوقُّعـات، والآمال؛ نظـرًا لأن الأفعـال (مثـل إرسـال قـوات إلـى الحـرب) تُعتبـر وسـيلة مُكلفـة لإظهـار نوايا الشـخص، ولا يمكن تزويرها بسـهولة. وبالطبع، فحتـى هـذه الأعمـال المتطرفـة (كحشـد قـوات الاحتيـاط) يمكن أن تُنفّـذ رغمًـا عـن التكاليـف، وحتـى مـع عـدم وجـود نِيَّـةٍ للقتـال، كإشـارة واعيـة، ومُتعمّـدة للجهـات الفاعلـة الأخـرى. ومـع ذلـك، فـإن القـرارات السياسـية الكبيـرة، مثـل التصعيد المسـتمر، والواسـع للولايـات المتحـدة في فيتنام، تشـي بالمعتقـدات، والتوقُّعات الكامنة علـى نحـوٍ أفضـل ممَّـا تفعلـه مُجـرَّد التصريحـات عـن المعتقـدات والتوقُّعـات.

## الاختبارات

تسمح كلُّ دراساتِ الحالة الأربعة باختباراتِ توقّعات الفَرْضِيَّة الأساسية، والفرضيات التوضيحِيّة، والظروف السابقة. ويستخدم تحليلي الطرق الرئيسية الثلاثة لدراسة الحالة، وهي: المقارنة المنضبطة controlled comparison، وتحليل التطابق congruence analysis، وتتبُّع العملية process tracing. في المقارنة المنضبطة، تقارن «طريقة الفروق method of difference» بين الحالات ذات الخصائص العامة المتشابهة، لكنها تضمُّ قِيمًا متغيِّرة مختلفة؛ وذلك للبحث عن العلاقات المتبادلة correlations بين الأوهام الإيجابِيَّة، والحرب (على سبيل المثال، عندما كانت الولايات المتحدة طرفًا فاعلًا ثابتًا عبر الحالات، لكن النتائج كانت مختلفة).

أمَّا «طريقة الاتفاق method of agreement»، فهي تقارن بين الحالات ذات الخصائص العامة المختلفة، لكنها تضمُّ القِيَمَ المتغيّرة نفسها (عندما اختلفت الدولة عَبْر الحالات، لكنْ حدثتِ النتيجةُ عينُها). كما أجريتُ أيضًا هذه المقارنات المزدوجة باستخدام جوانب متعارضة من نفس الحرب أو الأزمة (حيث يكَون لكلِّ جانبٍ مرّة أخرى خصائص عامّة مختلفة، لكن النتيجة هي نفسها).

وفي تحليل التَّطابق، يقارن «النوع الأول» قِيَمَ مُتغيّراتِ الدراسةِ بمعدّلٍ أساسِيّ. وفي دراستي، فإنّ المعدلَ الأساسِيَّ هو عدم وجود حرب (أي السَّلام). بعد ذلك، أختبر ما إذا كانت القيمة العالية (أعلى من المعدل الأساسِيّ) للمتغيِّر التَّابع؛ الحرب، مرتبطة بقيمة عالية للمتغيِّر المستقلّ؛ الأوهام الإيجابِيَّة (هل هي أيضًا أعلى من المعيار؟). أمَّا «تحليل التَّطابق من النَّوْع الثاني»، فإنّه يختبر ما إذا كانت المتغيّرات المستقلّة والتّابعة تعتمد على ظروف مختلفة داخل الحالة نفسها. بإمكاني القيام بذلك في جميع الحالات إلى حدٍّ ما، وخاصة بالنسبة لألمانيا خلال عامي 1938-1939، والولايات المتحدة خلال حرب فيتنام.

أمّا بالنسبة لطريقة تتبُّع العملية، فإنها تدرس التسلسل الدقيق للأحداث في عملية صنع القرار التي تمتدُّ من الظروف الأوَّلِيّة، وحتى النتيجة. إنها تستفيد استفادةً تامَّةً من مَيْزَةِ استخدام دراسة الحالة لشهادات مكتوبة، وشفوية مُفصَّلة لصُنّاع القرار، والجهات الفاعلة حينئذ، وفي وقتٍ لاحق.

توفّر هذه الطريقة روابط دقيقة بين السبب والنتيجة؛ لذا فبرغم أنّها قد تكون دائمًا عُرضة للتأويل، إلَّا أنَّ التوقُّعات قويَّة، وفريدة من حيث المَبْدَأ. لا تهدف دراسات الحالة بالطبع إلى تقديم حسابات تاريخية شاملة للأحداث، بل تركّز بدلًا من ذلك على الجوانب المُتعلّقة بنظرية الأوهام الإيجابِيَّة.

كما أختبر - حيثما أمكن - توقّعات الظروف السابقة الستة للأوهام الإيجابِيَّة في دراسات الحالة. بيد أنَّ الفحصَ الرسمِيّ لتأثير جميع الظروف السابقة السِّتَّة للأوهام الإيجابِيَّة ليس هو المحور الرئيسي للتحليل: الأمر الأكثر أهمّية هو الطريقة التي - بالإضافة إلى أيّ مستويات أوَّلِيّة من الأوهام الإيجابِيَّة - يعمل بها كلٌّ من نوع النظام، وعلنيّة النقاش على ترشيح (تصفية) الثقة المُفْرِطَة الناتجة عن الأوهام الإيجابِيَّة لمنع تلك الأوهام من التأثير على عملية صُنْعِ القرار، وعلى نتائج السياسة.

ولدراسة ما إذا كان بمقدور نوع النظام، وعلنيّة النقاش تفسير التباين في الأوقات التي تُساهم فيها الثِّقَةِ المُفْرِطَة في اندلاع الحرب، أجري مقارنة منضبطة للحالات لمقارنة كلِّ ظرفٍ من هذين الظرفَيْن السَّابقَيْن مع نتائج الحرب مقابل السلام. وأستخدمُ أيضًا تحليل التطابق لتقييم - بشكل عام - ما إذا كانت الحالات المتطرّفة لكلّ متغيّر تؤدّي إلى تفاقم الثقة المُفْرِطَة والحرب. يمكنني أيضًا دراسة هذا الأمر داخل الحالات نفسها لاختبار ما إذا كان التَّباين في نوع النظام والعَلَنِيّة - على الرغم ربَّما من عدم وجود تباين في المستوى الأساسي للثقة المُفْرِطَة - يرتبط بالتغيّرات في المتغيّر التَّابع: (التصعيد، أو التغيّرات من السلام إلى الحرب). كما أستخدم هنا أيضًا طريقة تتبّع العملية لتحديد ما إذا كانت الظروف السابقة تتسبَّب في إظهار متغيِّرات الدراسة

لبعض الاختلافات المترابطة، على النحو الذي تنبّأت به النظرية.

وفي أثناء تحليلي لدراساتِ الحالة، وضعتُ في الاعتبار العديد من المَزَالِقِ المُحتملة، ولتجنُّب الوقوع فيها، حرصت على القيام بما يلي: التمييز بين الأوهام الإيجابِيَّة الواضحة، وبين التفسيرات البديلة للأحداث (لا سِيَّما من القيود الدولية، والمحلية والمؤسّساتية، والبيروقراطية التي تعمل في الوقت نفسه)، وتقييم القرارات من منظور خيارات السياسة التي أُخِذت بالفعل بين الاعتبار، على عكس كلِّ تلك الخيارات المتاحة المحتملة؛ وهو اختلاف يمكن أن يكون له عواقبُ وخيمةٌ على السياسة، والأخذ بعين الاعتبار الأدِلّة التوكيديّة، والمُتناقضة على حدٍّ سواء، وتجنُّب أيِّ ميلٍ إلى «انتقاء واختيار» أدِلَّةٍ تثبت الفَرْضِيَّة قيد الاختبار، وتجنُّب الاعتماد على الإدراك المتأخّر الذي قد يدعم مواقفَ مسبقة، ويؤدِّي إلى تركيزٍ لا مبرِّرَ له على أمثلةِ انعدامِ الكفاءة.

# الفصل الثالث

# الْحَرْبُ الْعَالَمِيَّةُ الْأُولَى

«لقـد توقّع كلٌّ من الوفاق الثلاثي: (بريطانيا، وفرنسا، وروسيا)، وقوى المركز: (ألمانيا والنمسا، والمجر) انتصارًا سريعًا في عام 1914.»

[ستيفن فان إفيرا]

«كان التفاؤل الذي سيطر على عَشِيَّةِ الحرب العالميّة الأولى يعود إلى تقليدٍ عريقٍ، لكنه غير ملحوظ. كان ذلك إلى حدٍّ ما غير طبيعي. ربّما كانت تلك الحرب أول حرب منذ عام 1803 تشمل- منذ بدايتها - أكثر من قوّتَيْنِ رئيسِيَّتَيْن؛ لذا كان من المتوقَّع أن يكون القتال خطيرًا ومُدمِّرًا. ولمّا كانت توقُّعات تلك الحرب تحمل خيطًا متشائمًا، فلا بُدّ من أنَّ الخيوط المتفائلة كانت أكثرَ سماكةً منه بكثير لكي تنسجَ ذلك الشعور السّائد.» [جيفوري بليني]

كان ينبغـي ألَّا تلعـب الأوهـام الإيجابِيَّة دورًا في الحـرب العالمية الأولـى، إذ كان لـدى الجانبيـن مُتّسـعٌ مـن الوقـت لتقييـم أعدائهـم المحتمليـن (مسـتبعدين بذلـك فَرْضِيَّـة أنّ القـرارات كانـت مجـرد ردود أفعـال متسـرِّعة)، وكانـت هنـاك خيـاراتٌ أخـرى غيـر الحـرب، علـى الرغـم مـن أنهـا كانـت مقيّـدة إلـى حَدٍّ مـا بسـبب الضـرورات

العسكرية المتصوّرة (مستبعدين بذلك فَرْضِيَّة أن القرارات لم تكن سوى المَسار الوحيد الممكن للأحداث)، وكانت المعلومات الاستخباراتية معقولة (مستبعدين بذلك فَرْضِيَّة أن القرارات كانت جيِّدةً بالنظر إلى المعلومات الخاطئة). (انظر الجدول 1). وتعدُّ الحرب العالمية الأولى كذلك حالة اختبار صعبة؛ كونها واحدة من أكثر الحالات المدروسة على نحوٍ مكثّف في التاريخ، بالإضافة إلى أنّ لها مجموعة وفيرة من التفسيرات الحالية. لقد كان هناك العديد من العوامل الاقتصادية، والاجتماعية، والدبلوماسية، والعسكرية التي عبّئت القوى المختلفة للنزاعات المسلحة. أضف إلى ذلك أن الناس لم يكونوا غافلين عن الخطر. كان على أيّ تفاؤل أن يكون كبيرًا بشكلٍ خاصّ؛ كي يفوق الدمار والرعب المُتوقَّعين للحرب «الحديثة».

بيد أن المعلومات المتاحة لم تُستخدم بالشّكل الكافي لتشكيل توقّعات واقعية. وقد أبدى صُنّاع القرار الرئيسيين، والجيش، والجمهور من كلا الجانبين أوهامًا إيجابيّة حول الفوز. كما اعتقد كلا الجانبين أن الحرب ستكون قصيرة، وأنهم سيفوزون، وأنهم سينتفعون منها. أضف إلى ذلك أن الألمان استخفّوا كثيرًا باحتماليّة أن تتحالف الدول الأخرى ضدهم، وبقوّة أولئك الأعداء المحتملين. وبشكل عام، كانت هناك حماسة شعبية استثنائية للحرب.

| الجدول 1. الحرب العالمية الأولى: استبعاد التفسيرات البديلة الأساسية، ونظرة عامة على الاستنتاجات. | | |
|---|---|---|
| | قُـوَى المركـز | الوفَـاق الثلاثِـيّ |
| فرْصَةُ التّقييم | طويلة (على الرغم من وجود نافذة مُتصوّرة للفرصة) | طويلة |
| الخيَاراتُ البَدِيلة | نعم (على الرغم من بعض القيود المُتَصوَّرة) | نعم (على الرغم من بعض القيود المُتَصوَّرة) |
| توافر المعلومات | معقول | معقول |
| الأوْهامُ | نعم | نعم |
| العاملُ الرَّئِيسِيّ | توقُّعُ حرب، ونصر سريعَّيْن | توقُّعُ حرب، ونصر سريعَّيْن |

# خَلْفِيَّةُ البَحْثِ

كانتْ أسـبابُ الحـربِ العالمية الأولـى موضعَ نقاشٍ سـاخنٍ منذ اليـوم الـذي بـدأت فيـه. وحتـى الآن، لا يوجد إجمـاعٌ علـى العوامل الأكثـر أهميـة التـي تسـبَّبت في صـدامٍ محـا، أو شـوَّهَ جيـلًا كاملًا من الشـباب. لعـلَّ الإجمـاعَ الوحيـدَ كان علـى أنَّ العوامـلَ الاقتصاديـةَ والاجتماعيـةَ، والدبلوماسـيةَ، والعسـكريةَ المتنوِّعـةَ تآمـرتْ فـي مصادفـةٍ مؤسـفةٍ لجَـرِّ كلّ قـوى أوروبـا العظمـى إلـى الحرب.

عندما خرجت أزمة يوليو عام 1014 عن السيطرة في أعقاب اغتيال (الأرشيدوق فرانس فرديناند)، ولي عهد الإمبراطورية النمساوية المَجَرِيّة، على يد قوميٍّ صِرْبِيٍّ، كانت الفكرة المقبولة على نطاق واسع والتي تقول إنَّ البدءَ بالهجوم يمثّل ضرورةً عسكريةً في الحرب الحديثة قد بدأت تميل لصالح الحرب؛ سواءً أَأَعجب ذلك صُنّاع القرار الرئيسيين أم لا. بدأ تشابك التحالفات بين الدول في إجبارهم على التحرُّك، «وبحلول 28-30 يوليو، كان الجنرالات قد تسلّموا دفّة القيادة من السياسيين، وقد جعلت طبيعةُ خططهم الحرب العامّة بين القوى العظمى شبه مؤكّدة».

إلّا أنَّ هذا التركيز على أنَّ الحربَ كانت غير مقصودة إلى حَدٍّ ما يُغفل بالكامل أجواءً استثنائية من النزعة القتالية، والحماسة العسكرية عَبْر أوروبا في السنوات التي سبقت عام 1914. كان الألمان مُهتمّين بشكلٍ خاصٍّ بالنصر، وقد ظلوا طوال سنوات يطوِّرون خطة (شليفن المبجّلة)، التي من شأنها أن تسمح لهم بتحطيم فرنسا التي كان جيشها - كما زعمت السلطات العسكرية الألمانية - «لم يكن مستعدًّا للقتال». لكنَّ الأوهام الإيجابِيَّة كانت منتشرةً على نطاقٍ واسع: «كان لدى الروس أيضًا أحلامٌ موازيةٌ تَتمثل في الانتصار السريع، ويتحدثون عن النصر خلال شهرين، أو ثلاثة أشهر. حتى أن بعض الخبراء الروس تباهوا بأنهم سيصلون إلى برلين في غضون ستة أسابيع. توقّع القادة الفرنسيون كذلك

فوزًا سريعًا، وصرَّح مسؤولٌ بريطاني أن ألمانيا ستكون «فريسة سهلة» لبريطانيا وفرنسا. وتوقّعت النمسا وروسيا أن يهزم كلٌّ منهما الآخر. حتى الأتراك ركبوا المَوْجة: ففي وقتٍ لاحق من عام 1914، أسرّ وزير الحرب التركي بقوله إنّه بعد حصاد النصر في القوقاز، فإنَّ تركيا قد تزحف عَبْرَ أفغانستان إلى الهند».

## التَّفْسيراتُ التَّقْليدِيّة

يرى العديد من المؤرّخين أن الحرب العالمية الأولى حدثت كنتيجةٍ لسلسلة من الظروف المؤسفة، وهي ظروف كانت متنوّعة بقدر ما كانت متعدّدة. وقد اقترح المؤرخ الألماني (فريتز فيشر)، و«مدرسة فيشر» التي اتّبعت حجّته، أن السبب الرئيسي كان التوسُّعِيّة النمساوية الألمانية، وأن ألمانيا خطَّطتْ منذ فترة طويلة لحرب وقائيّة طموحة، وأن تكتيكات ألمانيا في البلقان دفعت القوى الأخرى عمدًا باتجاه الحافّة (خلق هذا الادّعاء عاصفة من النقاش في ستينيات القرن العشرين). جادل فيشر في أنه كان هناك «سعيٌ واعٍ، ومُتعمّد للاستحواذ على القوَّةِ العالمِيّة، تُحرّكه الثقة المُفْرِطَة لحاكم ألمانيا». بينما يركّز كتّابٌ آخرون على نظام التحالفات المعقّد بين الدول العظمى، الأمر الذي كان يعني أن أزمة البلقان ستُوقع في النهاية جميع الدول الأوربية الكبرى في شِراكها. أضف إلى ذلك أنه كانت هناك سباقات تسلّح طويلة

الأمَد جعلت الدول تشتبه في أنَّ الأطراف الأخرى ستستخدم ترساناتها المتنامية. كانت هناك أيضًا مشكلة المذاهب العسكرية غير المَرِنَة، وكذلك خُطط الحرب الروسية والألمانية التي دعت إلى شَنٍّ هجماتٍ على جبهاتٍ متعددة لتوجيه ضربات قاضية إلى أيٍّ شخص يهدّدها (وبالتالي جَرّ دولٍ إضافِيّةٍ إلى الحرب).

كان لخُطط التعبئة قبل الحرب (بغضِّ النظر عن خطط الحرب الفعليّة) عواقب وخيمة كذلك. يجادل بعض الكتّاب في أن التعبئة الروسية الاستفزازية هدَّدتْ كلًّا من النمسا وألمانيا إلى حَدٍّ أنه لم يكن أمامهما خيارٌ سوى الرَّدِّ. كان القادة المدنيّون الروس يريدون في البداية التعبئة في الجنوب فقط، وهو ما لم يُقلق ألمانيا كثيرًا، لكن القيود اللُّوجستية كانت تعني أن التعبئة يجب أن تحدث بشكل كامل، أو ألّا تحدث على الإطلاق. حاولت روسيا بعد ذلك الحفاظ على سِرِّيَّةِ التعبئة العامة، لكن ألمانيا اكتشفتها بعد يومين. أشعلت التعبئة الألمانية الحرب مباشرة؛ لأنها أدّت إلى هجومٍ فورِيٍّ على مدينة «ليبج» في بلجيكا للاستيلاء على الحصون، وتقاطعات السكك الحديدية، وهي الأهداف التي قرّرت ألمانيا الاستيلاء عليها قبل أن يعلم البلجيكيّون بتعبئة ألمانيا (وهو ما سَيستغرق عدّة أيام).

كان هذا جزءًا من خطة (شليفن) الشهيرة للتغلب على الدفاعات الفرنسية عن طريق التوغُّل في بلجيكا، والتوجّه إلى

فرنسا. كما يلقي البعض باللوم على بريطانيا؛ لفشلها في ردع ألمانيا، أو كبح جماح روسيا. لو أنّ بريطانيا أوضحت أنها سَتردّ على غزو بلجيكا، لربّما أعادت ألمانيا (وخاصة القيصر) التفكير، ولما شعرت روسيا بالعزلة تحت التهديد النمساوي الألماني. لسوء الحظ، لم يُدرك البريطانيون أن التعبئة الألمانية تعني حربًا مؤكدة، ولهذا لم يدركوا الحاجة إلى منع التعبئة الروسية التي من شأنها إثارة شرارة التعبئة الألمانية.

كانت هناك أيضًا ضغوطٌ اجتماعيةٌ، وأيديولوجية كامنة وراء هذه التشابكات التنظيميّة المُعقّدة، حيث كانت النزعات القومية، والعسكرية، والإمبريالية من العوامل المهمَّة المساهمة التي أدَّتْ إلى تأسيس التحالفات الاستفزازية، والترتيبات العسكرية الموضّحة أعلاه. وعلى الرغم من أنه قلّما يتحدث أحد عن هذه العوامل، إلَّا أنّ المؤرّخ (جوردون مارتيل) يطلق عليها «مشاكل لن تختفي».

قد تشير هذه التفسيرات مُجتمعة إلى أنّ الحرب العالمية الأولى كانت في الأساس غير مقصودة. لكن الطريق إلى الحرب لم يكن معبَّدًا بأخطاء فادحة بقدر ما كان معبَّدًا بالتصوُّرات الخاطئة عن الخصوم المحتملين، ونواياهم. وفي دراستها الاستقصائية الأخيرة لنظريات نشوء الحرب العالمية الأولى، لم تجد (أنيكا مومباور) أيّ إجماعٍ على أسباب الحرب، لكنها «وجدت بعض الإجماع»

على أن غالبية المؤرخين اليوم «باتوا لا يدعمون رأي (لويد جورج) المأثور بأن الدول الأوروبية قد انزلقت إلى الحرب عن طريق الخطأ».

## عَقِيدَةُ الْهُجُومِ

لعلّ أكثرَ النظريات انتشارًا بشأن الحرب العالمية الأولى اليوم هي ما تسمّى بعقيدة الهجوم، وهي ظاهرة معروفة على نطاق واسعٍ بأنّها كانت موجودةً في جميع الدول الأوروبية حينئذٍ. ببساطة، كان يُنظر إلى العمل العسكري الهجومي باعتباره الطريقة الوحيدة لتحقيق نصرٍ سريع، ومنع الآخرين من أن تكون لهم اليد العليا. اكتسبت هذه الرؤية قوّتها بعد عام 1890، وبلغت ذروتها بحلول عام 1914. كانت المزايا الظاهرية للهجوم تستند إلى توقّع أن الجيوش الحديثة، التي كانت ضخمة، ويمكن نقلها – للمرّة الأولى– عَبْرَ السكك الحديدية، ستكون قادرة على توجيه ضربة مُدمّرة، وسريعة، بحيث يكون الدفاع ضدّها عقيمًا. «كان الاستراتيجيّون ملتزمين بوجهة نظر مفادها أن الوقوف في موقف دفاعي من شأنه أن يؤدّي إلى الخراب». ومن ثمّ، فحتى لو لم يرَغب أحد الأطراف في القتال، كان التصوُّر السائد يرى أنه من أجل تفادي الوقوع في كارثة تحت هذه الظروف، فإنه يجب مع ذلك الهجوم من أجل منع العدو من فعل الشيء نفسه.

ويقال إن التأثير قد تفاقم بسبب سوء العلاقات بين صناع القرار السياسيين، والعسكريين في مختلف الدول الأوروبية:

وإجمالًا، يميل الهجوم إلى تلبية احتياجات المنظَّمات العسكرية أفضل من الدفاع، وعادةً ما تُبدي الجيوش تفضيلًا يعدُّ معتدلًا على الأقلّ للاستراتيجيات والمبادئ الهجومية لهذا السبب. ما كان مميّزًا في الفترة التي سبقت الحرب العالمية الأولى هو أن حالة العلاقات المدنية العسكرية في كلّ واحدةٍ من القوى الكبرى كانت تميل إلى مفاقمة هذا التحيُّز الهجومِيّ العادِيّ؛ إمّا لغياب سيطرة مَدَنِيّة، الأمر الذي سمح لها بالنُّمُوّ دون رادِعٍ، وإمَّا بسبب درجة غير طبيعية من النِّزَاع المَدَنِيّ العسكرِيّ، وهو ما زاد الحاجة إلى أيديولوجية تحمي نفسها بنفسها.

على ما يبدو أن مثل هذه النزاعات المَدَنِيّة العسكرية كانت سببًا شائعًا للتقييمات الخاطئة؛ آنذاك والآن. ولعلّ تعزيز هذا التصوُّر قد زاد عام 1914؛ لأنَّ المنظَّمات العسكرية «لم تكن لتعترف مطلقًا بأنَّ المشكلات التي واجهَتها كانت غيرَ قابلةٍ للحلّ، وأنها لن تكون قادرة على إدارة الحروب بشكلٍ فعَّالٍ، وحاسمٍ في المستقبل بقدرِ ما كانت تفعل في الماضي» على حَدِّ قول (مايكل هاورد).

وأيًّا تكن أسباب نشوئها؛ فإنّ التصوُّر بأنَّ الهجوم هو السبيل الوحيد لاكتساب مَيْزَةٍ قد ساهم بشكلٍ مباشرٍ، وقوِيٍّ في الحرب

في عام 1914. أمّا في الواقع، وعندما وقفت الاستراتيجية الهجومية أمام المَيْزَةِ الدِّفاعية الهائلة التي كانت موجودة بالفعل (باعتبارها نتيجة لعمليات التحميل السريعة، والبندقيّات الدقيقة، والمدافع الرشاشة، والأسلاك الشائكة، والتحصينات، وقنابل المدفعية الضخمة)، فإنّ ما حدث كان مذبحة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الحرب. وحتى السكك الحديدية التي كان يُعتقد في البداية أنها في صالح الهجوم، اتّضح أنها نعمة، ونقمة: كان بمقدور المدافعين تخريبها أثناء الانسحاب، كما كان لدى مُختلف البلدان اتّساعات مختلفة للسكك track-gauges، لذا لم يكن بمقدور قطارات دولةٍ ما الدخول دائمًا إلى أرض دولة أخرى. لم يكن الخلل الهجومي الدفاعي المتصوَّر واضحًا في جميع النواحي والأوقات، لكنه يمثل تفسيرًا سائدًا للحرب، ويوفّر منطقًا أساسِيًّا يساعد في شرح العديد من الظواهر الأخرى المعروفة بمساهمتها في نشوب الحرب.

## الأحْجِيَةُ الْمُتَبَقّيَة

حتى وإن كانت عقيدة الهجوم تمثّل جزءًا كبيرًا من الحرب، فإنّ لها ثلاثة قيود:

**أوّلًا**، إنّها لا تتنبّأ بسبب تحمُّس جميع الأطراف (بمن في ذلك المدنيّون والعسكريّون والسياسيّون) للحرب. نحن نعلم أنّ

مَيْزَةَ الهجوم كانت فكرةً واسعة الانتشار بين القادة والمدنيين في أوروبا، وبالأخصّ في ألمانيا وفرنسا. لكن إذا كان الناس يعتقدون أن شَنَّ الهجوم استراتيجية رابحة، كان ينبغي عليهم خشيتها كذلك؛ لقد كان الاحتلال السهل فرصة، لكنه شكَّل أيضًا تهديدًا خطيرًا لجميع الدول ومواطنيها؛ لأنه يمكن أن يُقلب عليهم. فلماذا إذن رحَّبوا بالحرب؟

**ثانيًا**، إنها لا تفسر سبب ظنِّ الدول أنها متفوّقة على الآخرين، واعتقادها أنَّ بمقدورها الفوز (قد نتوقَّع منهم ذلك إذا كانوا يعتقدون أنهم سينجحون في البدء بالهجوم، والتغلّب على الجميع، لكن هذا يطرح سؤالًا: لِمَ عساهم يعتقدون ذلك؟)، فحتى العديد من المخطِّطين الألمان، ممَّن كانوا قلقين من أنَّ القوة المتصاعدة للخصوم لن تَدَعَ لهم سوى فرصةٍ وجيزةٍ للتحرُّك، اعتقدوا رغم ذلك أنهم سيفوزون في حربٍ شُنّت عام 1914.

**ثالثًا**، يعدُّ هذا التفسير ضيّقًا إلى حَدٍّ ما، ويقتصر على الحروب التي تندلع عند وجود عقيدة الهجوم. إنّه لا يفسر سبب حدوث الحروب في أوقات أخرى. لقد وجد (ستيفن فان إفيرا) دعمًا كبيرًا للنظرية القائلة بأن الإيمان بمَيْزَةِ البَدْءِ بشَنِّ الهجوم يؤدِّي إلى الحرب، وذلك في دراسته لأوروبا، والولايات المتحدة، والصين القديمة، لكنّه لا يجزم بأنّه يمثّل جميع الحروب.

يشير (فان إفيرا) أيضًا إلى أنَّ هذه النظرية «لا يمكنها تفسير كلّ عاملٍ مؤثِّرٍ في عام 1914. من الأسباب الأخرى المحتملة: التخليق المسعور للأساطير القومية الذي أصاب المجتمعات الأوروبية بعد عام 1870؛ التفاؤل الخاطئ الغريب الذي دخل به جميع المتحاربين الحرب، والذي لا يمكن تفسيره بشكلٍ كاملٍ من خلال الإخفاء النابع من عقيدة الهجوم؛ والاعتقاد العام الغريب بأن الحرب كانت نشاطًا إيجابِيًّا وصِحِّيًّا». قد تساعد الأوهام الإيجابِيَّة على تقديم تفسير، فعلى الرغم من توافقها مع الاعتقاد بمَيْزَةِ الهجوم (على الأقلِّ لصالح الطرف نفسه)، فإنها تفسِّر كذلك هذه العوامل الأخرى، والإيمان المتزامن بالنصر. كما تتنبَّأ الأوهام الإيجابِيَّة بـ «الأسباب المهمّة الأخرى» لفان إفيرا: الاعتقاد المنتشر داخل الجماعة بالتفوق، والتفاؤل الخاطئ، والنظرة المتفائلة للحرب.

وتشير هذه الصعوبة في تحديد أسباب الحرب العالمية الأولى إلى الآتي:

**أوَّلًا**، كان هنالك العديد من العوامل التي تعمل في وقت واحد (وبالتالي، فإن وجود أيِّ تفسير واحد لها يعدُّ غيرَ كافٍ).

**وثانيًا**: لا يزال هناك مجال لتفسيرات إضافية قد تساعد في ربط هذه العوامل المتنوعة معًا. لقد ساهمت الأدبيّات الهائلة الموجودة حول هذا الموضوع في إشعال النقاش، بدلًا من حلِّهِ؛

«هنـاك مئـات الكتـب والمقـالات التي نُشِـرت حـول هـذا الموضوع على مـدار عقـود، وآلاف الوثائـق التـي اكتُشِـفت فـي الأرشـيف، وأصبحـت متاحـةً للمؤرِّخيـن، لكـن مع ذلك، مـا تزال هناك مشـاكل رئيسـية أبعـد ما تكون عـن الحلِّ، ومـا تزال المنشـورات التـي تتناول الحـرب العالميـة الأولى، وأصولها مسـتمرة فـي التكاثر»؛ لـذا بالنظر إلـى هـذا اللغز المتواصـل وغير المُنجز بعـد، فإنَّ من المثيـر للاهتمام النظـر إلى الأوهـام الإيجابِيَّـة باعتبارهـا عاملًا مُسـاهمًا.

وكمـا سـأبيّن لكم، فهنـاك دليل قـويٌّ علـى أنَّ الأوهـامَ الإيجابِيَّة قـد لعبـت دورًا كبيرًا. وجـد (جيفري بلينـي) أنَّ التفـاؤل المفرط كان عامـلًا رئيسِـيًّا: في عشـيّة الحرب التـي كان مقدَّرًا لهـا أن تقتل جنودًا، وتشـمل دولًا، أكثـر ممَّـا قتلته وشـملته أية حـرب أخرى سـابقة، كان هنـاك عـزاءٌ واحـد يؤمنـون بـه. كان مـن المتوقّـع أن تكـون الحـرب القادمـة قصيـرة. كمـا كان هنـاك عـزاءٌ أكبـرُ للقـادة الذيـن أدركـوا أنَّ الحـرب - رغـم كونهـا قصيـرة - سـتكون مرعبـة. كان ذلـك العـزاء هـو النصر. لقـد توقّـع كلٌّ مـن التحالفَيْنِ النصـر». وبعد ربـع قرن من الزمـان، خلـص (فـان إفيـرا) إلـى الشـيء نفسـه: «لقـد توقّـع كلّ من الوفـاق الثلاثـي (بريطانيا، وفرنسـا، وروسـيا) وقوى المركـز (ألمانيا، والإمبراطوريـة النمسـاوية المجرية) انتصارًا سـريعًا فـي عام 1914».

كان يتشـاطر الاعتقـاد بهـذا التوقُّـع أفـراد الجيـش، والعديـد مـن السياسـيين، والمدنيِّـن علـى حَـدٍّ سـواء، وبشـكل ملحـوظ.

وقد أشار (ألفريد فاجتس) إلى أن النصر كان «اعتقاد جنود وبحّارة جميع الدول ورجال الدولة الذين يتصرّفون بناءً على مشورتهم»، كما وافقه (جون ميريمان) الرأي، حيث قال: «في برلين وباريس خلال أوائل أغسطس من عام 1914، احتفل مئات الآلاف من الناس بحماسة باندلاع الحرب التي بدأ كثيرون يرونها أمرًا لا مَفَرَّ منه. لقد توقَّع الجميع في كلا الجانبين حربًا قصيرة مُنتصرة. كانت قوّاتهم المنطلقة نحو ساحات القتال في أوائل أغسطس ستعود قبل تساقط أوراق الأشجار، وعندها سيكون هناك المزيد من الهتافات والاحتفالات». من الصعب أن نتخيَّل حجم انتشار هذا الشعور العام: «كان هناك رقصٌ في الشوارع، ومسيراتٌ عَفْوِيّة لدعم الحكومات في جميع أنحاء أوروبا. وقد تجمَّع الرجال كأسرابٍ أمام مكاتب التجنيد، خوفًا من أن تنتهي الحرب قبل أن يتسنّى لهم المشاركة فيها. كانت هناك روحٌ احتفالية وإحساسٌ بالانتماء للمجتمع في جميع المدن الأوروبية، حيث استُبدلت الانقسامات الطبقية القديمة، والتنافسات السياسيّة بحماسةٍ وطنية». كلّ هذا التفاؤل سيُقتلع من جذوره في الشهور، والسنوات التي تلي ذلك. وبحلول عيد الميلاد من عام 1914، كانت ألمانيا وفرنسا قد فقدت 300,000 من شبابهم الذين قُتلوا في المعارك، مع 600,000 غيرهم من الجرحى. وستستمرّ الحرب لأربعِ سنواتٍ إضافيةٍ.

## الوفاق الثلاثي

استمتع العديد من الفرنسيين بفرصة الانتقام من عدوِّهم الرئيسي الذي واجهوه آخر مرة في استعراضٍ على طول «الشانزليزيه» بعد الحرب الفرنسية البروسِّيَّة في عام 1871. وعلى الرغم من تلك الهزيمة، إلَّا أنَّ «القادة الفرنسيين كانوا واثقين من النصر» عام 1914، حتى أن البعض تحدّث عن «حربٍ جميلة»، كما صرّح الجنرال (كاستيلنو) (نائب رئيس الأركان، الجنرال جوزيف جوفري): «أعطني 700,000 جندي، وسأغزو أوروبا». وهناك الكثير من الأمثلة والحكايات عن توقُّعات النصر المُفْرِطَة في التفاؤل. ويعكس انتشارها، ومصادرها المتنوعة تفاؤلًا واسع الانتشار في الأوساط العسكرية، والسياسية، والإعلامية، والشعبية. وعلاوة على ذلك، كانت الثقة المُفْرِطَة الظاهرة تتطابق مع الحقائق، والالتزامات الواضحة في التخطيط العسكري، والسياسي.

ووفقًا لبليني، فقد «بدا الجنود الفرنسيون الأعلى مرتبةً واثقين وهم يواجهون العدو نفسه الذي أذلَّهم في عام 1870. وفي فبراير من عام 1914، أصدروا سِرًّا الخطة 17، والتي تصوَّرتْ ضرباتٍ فرنسية قوية في ألمانيا في حالة نشوب الحرب.

وبينما تَنَبَّأ الجنرالات الألمان بأنه في غضون ستة أسابيع من اندلاع الحرب، فإن طليعتهم ستكون على مَقْرُبة من باريس؛ توقّع العديد من الجنرالات الفرنسيين أن يكون جنودهم قد بلغوا نهر

الرايـن، أو عبـروه». كان هنـاك قلقٌ كبيرٌ مـن أنَّ ألمانيا قد تغزو فرنسـا عَبْـرَ بلجيـكا (كما سـتفعل بالفعل)، لكـنّ (جوفري) «رفـض كلَّ هذه التحذيـرات». فسّـرت «مكابرتـه» علـى أنّهـا كانـت نابعـة مـن ثقتـه الكاملـة فـي الخطـة 17. كان مقتنعًـا بـأنَّ هجومًـا فوْرِيًّا شـاملًا، وهو هجـومٌ لا يعـرف العـدوُّ نواياه، ولا موقعـه، ولا أسـلحته، كان أفضل اسـتراتيجية للمتابعـة». ويؤكـد (جـون ميريمان) هذا التفسـير:

لـم تعتقـد القيـادة العليا الفرنسـية - التـي كانت تعرف أساسِـيّات خطـة (شـليفن) لسـنوات - أنّ بمقـدور الجيـش الألمانـي التحـرُّك بسـرعة عَبْـرَ بلجيـكا، ويرجـع ذلـك جزئِيًّا إلـى أنّ القـوات المهاجمة سـيتعيَّن عليهـا التغلـب علـى الحِصْن الضخـم في «لييـج». كما عرف الفرنسـيّون أيضًـا أن الخطـة تطلّبت دمـجَ جنودِ الاحتيـاط في الجيش الألمانـي الرئيسـي، وشـكّكوا فـي إمكانيـة تحوُّلهـم سـريعًا إلـى قوّة قتاليـة مُقتدرة... كان للقيادة العليا الفرنسـية خطتهـا الخاصة للحرب، فقـد تصـوَّرَتْ هي الأخـرى هجومًا سـريعًا معتمدًا على الحماسـة، أو القـوة الوطنيـة، للقـوات... لكـن وبعـد أن أخطـؤوا فـي تقديـر حجم القـوة القتاليـة الألمانيـة الفعّالـة؛ قلّـل الفرنسـيون كذلـك مـن شـأن السـرعة التي يمكن بهـا لعدوِّهـم التعبئـة للحـرب، والهجوم.

كان القائد الفرنسـي (المارشـال فوش) «يعتقد أنَّ الـرُّوحَ المعنويّة أقـوى مـن قـوّة الأسـلحة الثقيلـة»، وقـد ذهـب الجيـش الفرنسـي «إلـى الحـرب فـي عـام 1914، وهـو يعتقـد أنّ المهمّـة الموكلـة إلى

صفوف المشاة المدعومة بالمدفعية قادرة على أن تجعلهم يتغلّبون على الذخيرة البندقية، والأسلحة الرشاشة». اعتبر كلا الجيشين الفرنسي والبريطاني أنّ «الروح المعنوية الأعلى لدى الجانب المُهاجم قادرة على التغلب على الأسلحة الثقيلة للجانب المدافع المتفوّق عليهم، وأنه يمكن رفع الروح المعنوية من خلال تولّي دور المهاجمين؛ كون الهجوم يرفع من معنويات الجنود. حتى أنّ أحد القادة الفرنسيين زعم أنَّ الهجوم يُضاعف من طاقة القوّات المحارِبة»، بل حتى أن بعض البلجيكيين، على الرغم من قوّتهم العسكرية الضئيلة، واحتمال تحوُّل بلادهم بكاملها إلى منطقة حرب، كانوا متفائلين بشأن الحرب. وعند سماع إنذار ألمانيا الأخير، صرخ أحد القادة البلجيكيين: «الحرب، يا لها من شيءٍ مجيد!».

لقد أظهر الفرنسيون أوهامًا إيجابِيّةً جديرةً بالملاحظة حول تفوُّقهم على الألمان، في ادِّعاءات كهذا الادِّعاء: «نحن - الفرنسيين - لدينا جنود مقاتلون متفوّقون بما لا يدع مجالًا للشكِّ على أولئك القابعين وراء بلدة «فوج»، بخصالهم العرقيّة، ونشاطهم، وذكائهم، وروحهم، وقوة تمجيدهم، وتفانيهم، ووطنيَّتهم». وحتّى الكتب المدرسية الفرنسية أكّدت على أن «فرنسيًّا واحدًا يساوي عشرة ألمان»، وكما يشير (فان إيفرا): «فإن الرَّواج الكبير لمثل هذه الوطنية المتغطرسة، والمتفاخرة في أوروبا ما قبل الحرب

تتجاوز لتشمل التفاؤل الوردي الذي أعدَى كلا الجانبين أثناء انطلاقهم إلى الحرب في عام 1914».

وعلى الرغم من خشية الروس من ألمانيا، إلَّا أنهم كانوا واثقين كذلك، إذ قلّلوا أيضًا من شأن المذبحة التي ستحدث، وهو أمرٌ استثنائِيٌّ، وغريب على نحوٍ مفاجئ؛ نظرًا لهزيمتهم الأخيرة نسبِيًّا على يد اليابان في 1904-1905، وهو ما أعطى روسيا تجربة قاسية، ومريرة لواقع الحرب الحديثة. ربّما كان ينبغي أن يكون لروسيا - من بين جميع القوى العظمى في عام 1914- أقلّ أوهامٍ عن النصر. لكن مع ذلك، كان وزير الحرب (الجنرال سوكوملينوف)، «واثقًا» في المواقف الخاصة والعامة على حَدٍّ سواء، و«مؤمنًا بأن النصر سيكون حليفهم خلال بضعة أشهر، وهو ما وافقه عليه معظم الوزراء الروس». كان أحد الديبلوماسيين الروس في «سانت بطرسبرغ» أثناء تعبئة روسيا للحرب «واحدًا من الكثيرين الذين لاحظوا انتشار الإيمان بانتصارٍ مجيد في الأوساط العسكرية العليا». ونجد هذا التفاؤل واضحًا كذلك في حقائق التخطيط الروسي، حيث استقرَّتْ روسيا على «استراتيجية طموحة للغاية» تتضمَّن هجومًا ثلاثيَّ المحاور على ألمانيا والنمسا في وقتٍ واحد.

وفي بريطانيا، «توقّع معظم الوزراء كذلك حربًا قصيرة»، ووفقًا لـ (جوردون مارتل): «فقد قيَّم البريطانيّون أنفسهم تقييماتٍ تفوق

بكثير ما قيَّم به الألمان أنفسهم». ووجد (بول كينيدي) «أن جميع التقييمات النوعيّة التي أطلقها البريطانيّون كان واضحًا عليها التأثر بالتحيّزات الثقافية والسياسية، وأنه ما من جُهدٍ حقيقيّ بُذل لمناقشة، أو تحدّي الإفادات المتعلقة بنوعيّة قوّات الأعداء، أو الحلفاء المُحتملين». كان هذا الشعور بالتفوق منتشرًا انتشارًا واسعًا بين المدنيين البريطانيين. وقد أشار (فيسكاونت إشر) إلى أن المجتمع البريطاني الرفيع «كان ينظر في الغالب إلى الحرب على أنها نزهة»!

ووصف أحد الكُتَّاب الحروب بأنها: «مشروبات منعشة، ومُقَوِّية للصِّحَّة الوطنية»، كما أشار (اللورد لانسداون) إلى أنَّ الحربَ مفيدةٌ «لتقوية الالتزام الأخلاقِيّ للأمة». لم يُجبر الشباب الأوروبّي - في البداية - على الذهاب الى جبهة القتال عام 1914، وكانت مشاهد الرجال المتجمهرين من أجل التّطوّع من بين أكثر صور الحرب انتشارًا. ويقترح (مارتيل) أنه من الممكن تصوُّر أنّ «المَدَّ الشعبيّ للحماس الحربيّ بين شعوب أوروبا قد غمر رجال الدولة الذين لم يتمكّنوا من إيقاف موجة القوّات التي أطلقوا لها العنان».

وبشكل عام، تُعَدُّ التقييمات البريطانية جيِّدةً نسبيًّا، على الرغم من وجود بعض المشكلات. بيد أن البريطانيين قلّلوا كثيرًا من فرصة الزحف الألماني إلى بلجيكا ونجاحه المحتمل. وقد كانت

القوة الاستكشافية البريطانية - على الرغم من أنَّ إنشائها كشفَ عن شيءٍ من بُعْدِ النظر بشأنِ اعتقادهم بأنَّ الحاجةَ ستستدعي وجودَ مثل هذه القوَّة - كانت صغيرةً للغاية، مقارنة بالمُهِمَّة الموكلة إليها؛ وهي منْع انقضاض الجيش الألماني (كما أخطأت القوات البريطانية، والفرنسية في تحديد مكان الهجوم الأساسي). كان القادة العسكريّون مسؤولين جزئيًّا عن تركهم للتفضيلات التنظيميّة تفرض نفسها على التخطيط، لكنَّ القادة السياسيين أساءوا قراءة الموقف الاستراتيجي في «اعتقادٍ ساذجٍ منهم بأنّه لن تكون هناك حاجة سوى لقدرٍ محدود من الدعم». أضف إلى ذلك أن هيئة الأركان العامة «قلّلت من شأن العديد من الجوانب المادية، والتقنية للحرب الحديثة، إذ لم تُخفق في إعطاء القدرة الألمانية على سحق الحصون المنيعة بمدافع حصار كروب وسكودا الهائلة حقّ قدرها فحسب، بل أخفقت كذلك في إدراك أهمّية المدافع الرشاشة». ومثل الفرنسيين؛ اعتقد الضباط البريطانيون أن «ظروف [الحرب] الحديثة رفعت كثيرًا من قيمة الجودة المعنويّة»، وأن «السِّمَات الأخلاقية [هي] الأسباب الرئيسية وراء كلِّ نجاحات عظيمة»؛ لذا، وعلى نحوٍ كارثيٍّ، كان الرأي السَّائد يتمثَّل في أنّ: «الغلبة ستكون للعقل على المادة، وأنّ الروح المعنويّة ستنتصر على المدافع الرشاشة».

لقد أظهر الوفاق الثلاثي نزعة منهجيّة إلى التقليل من شأن خصومه، والإفراط في تقدير حلفائه. وكثيرًا ما كان مدير العمليات العسكرية البريطاني (الجنرال هنري ويلسون) يدعم الفرنسيين، ويُمجّد فضائلهم، وتجربتهم المُكتسبة من الحروب الاستعمارية الفرنسية. أما بالنسبة لروسيا، فقد أشار البريطانيّون إلى نقاط ضعفها (كافتقارها المُفترض إلى الضباط المدرّبين تدريبًا كافيًا)، لكنهم مع ذلك استطاعوا تقدير قوّتها على أنَّها كبيرة بما يكفي «لتعزيز الافتراض المريح لبعض الشخصيات السياسية بأنّ أيَّ التزامٍ قارّيٍّ قد يكون محدودًا ومؤقّتًا». كان من المُتوقّع أن تسحق الموارد البشرية الضخمة لروسيا ألمانيا من جهة الشرق. وكان (فيسكاونت إشر)، «وهو مراقب عسكري لا يُستهان به»، قد صرَّح في الخامس من أغسطس عام 1914 بقوله: «ما لم يكن لدى القيصر مواهب نابليون، فسينتهي أمره في غضون شهر من تقدّم روسيا».

نجد الأوهام الإيجابِيَّة واضحةً كذلك في الطريقة التي بَنَى بها البريطانيون خططهم على مذاهبهم العسكرية، والتي اعتبروها متفوِّقَةً، وافترضوا أنَّ الألمان سيسمحون لهم ببساطة بالعمل في إطار تلك المذاهب. «تَظهر قوّة التحيُّزات والتصوُّرات المُسبقة في تقديرات الأميرالية البريطانية لاستراتيجية البحريّة الألمانية؛ فنظرًا لأن العقيدة البريطانية تطلّبت صِدامًا حاسمًا بين أساطيل

المعارك؛ كان يجب ترجمة الخطط الألمانية على أنها تؤدِّي لمثل هذه النتيجة». لكن هذا كان غير واقعيٍّ بالمرة، والأهم من ذلك أنه كان يجب أن يكون واضحًا حينئذ؛ نظرًا لما كانت تضمُّه التقارير الاستخباراتية البريطانية نفسها من معلومات بهذا الصَّدَد. لقد توقّعت البحرية الملكية حدوث الاشتباكات بعيدًا عن مخاطر الساحل الألماني، و«مع مثل هذا السيناريو الموات الذي تصوَّرته الأميرالية، ودونما وجود أيّ تصوّرٍ للتفوُّق الألماني في المدرّعات والطوربيدات، والقذائف، والألغام، فليس من المستغرب أن يتطلّع البريطانيون إلى القتال في معركة «ترافلغار» Trafalgar[1] حديثة في عرض بحر الشمال. كلّ ما كان يحتاجه الأمر هو أن يلتزم الطرف الآخر!» كما اعتقد كبار القادة في البحريّة أن الغواصات ستكون عديمة الفائدة نسبِيًّا، لكن ما حدث في الواقع كان تقويض الغواصات الألمانية يو U-boats «لكلٍّ من استراتيجية البحرية الملكية المتمثلة في عمليات الاجتياح الهجومِيّة في بحر الشمال، وافتراضاتها المريحة بشأن أمن النقل البحري».

عانى الجيش كذلك من الافتراضات الإيجابِيَّة، فقد طوَّر هو الآخر «تقييمًا صافيًا كان في معظمه توظيفًا لتصوُّرات سابقة بشأن كيفية خوض الحرب». ويبدو أنَّ جزءًا من الفشل في تقييم الوضع

(1) معركة بحرية وقعت عام 1805 قبالة الساحل الجنوبي الغربي لإسبانيا؛ حيث هُزِمَ الأسطولان الفرنسي، والإسباني على يد الإنجليزيين بقيادة نيلسون. المترجمة.

تقييمًا دقيقًا يعود إلى «الصراع من أجل القيادة الاستراتيجية ضمن سياسة الدفاع البريطانية، والمنافسة ذات الصّلة على حصص الميزانية». غير أن القادة العسكريين كانوا يعتقدون بتفوُّق استراتيجياتهم على استراتيجيات أعدائهم، بالإضافة إلى تفوُّقها كذلك على تلك التي يقترحها المنافسون من بَنِي جِلْدتهم. وقد خلص (بول كينيدي) في دراسته للتقييم البريطاني قبل الحرب إلى الآتي:

رغم استعداد البريطانيين استعدادًا جيّدًا على المستويين التكتيكي، والتقني لنزاعٍ قصير؛ إلَّا أنهم فشلوا - كما فشل الجميع - في توقّع الجوانب الاستراتيجية الكبرى لحربٍ تنخرط فيها جميع الدول العظمى. قد يبدو هذا من النظرة الأولى مُلخّصًا شحيحًا إلى حدٍّ ما. فبعد كلِّ شيء؛ جرى احتواء التهديد الألماني في أعالي البحار، وضبط التهديد العسكري الذي شكّله الجيش الألماني ناحية الغرب في حقول بلجيكا، وشمال فرنسا؛ وكمكافأة إضافية، تم القضاء فعلِيًّا على المستعمرات، والتجارة الخارجية الألمانية؛ وفوق كلِّ شيءٍ، كان النصر من نصيب الحلفاء! لكنَّ المسألة هي أنَّه ما من جانبٍ واحدٍ من جوانب هذا النصر النهائي كان قد خضع لتقييم صحيح بواسطة البريطانيين قبل عام 1914.

كانت أول وحدة من سلاح المشاة هي الوحدة السابعة البريطانية، والتي «وصلت إلى فرنسا في أكتوبر بـ 400 ضابط،

و12,000 جنـدي: وبعـد ثمانيـة عشـر يومًـا مـن القتـال حـول مدينـة «إبيـر»، لـم يبـقَ منهـا سـوى 44 ضابطًـا، و2,336 جنديًّـا».
والبريطانيـون، «مثلهـم مثـل أيَّـة دولـة محارِبة أخـرى، خاضـوا حربًا لـم يكونـوا ليتصوَّروهـا قـط». وكمـا كانـت الحـال مـع المتحاربيـن الآخريـن، فقد أخطـأت توقُّعاتهم بسيرها في اتجاهٍ إيجابـيٍّ مفرطٍ في التَّفـاؤل. لـم تؤدِّ هذه الثقـة المُفْرِطَـة إلى اندلاع الحرب فحسـب، بل إلـى اسـتمراريّتها، وتوحّشـها، وفشـل مقاتليهـا فـي التكيُّـف كذلـك.

## قـوى الـمركـز

كان هنالـك أيضًـا قـدرٌ كبيـرٌ مـن الثقـة، والحمـاس الجَلِيّيْـنِ في الجانـب الآخر مـن الحرب الوشـيكة، فمع مغـادرة القـوات الألمانية إلـى سـاحة المعركـة فـي أغسـطس مـن عـام 1914، ظهـر القيصـر (فيلهلـم الثانـي) فـي درع لامـع أمامهـم لإلقـاء خطـابٍ مثيـر، حيـث صـرّح قائـلًا: «سـتعودون إلـى الوطـن قبـل تسـاقط الأوراق من على الأشـجار». وكان يقابـل التفـاؤل الـذي أبـداه «تعبيـراتٌ مماثلـة عـن الثقـة المُفْرِطَـة، والعظمـة العسـكرية فـي النمسـا وروسـيا، والـدول الأخـرى التـي كانت على شـفا الحـرب». كانـت هيئـة الأركان العامة الألمانيـة «تتوقّع أن تسـحقَّ فرنسـا في غضـون أربعة أسـابيع، وتقضي علـى بقيـة أعضـاء الوفـاق الثلاثـي خـلال أربعـة أشـهر. وقـد عبَّـر ضابـطٌ ألمانِـيٌّ عـن وجهـة النظـر التقليديـة هـذه بقولـه: « إن فرصـة

تحقيق انتصار سريع في حرب أوروبية كبرى ... مواتية جِدًّا لألمانيا». كما صرَّح (كونت هايسيلر) Haeseler مُعيّن أنه «توقّع تناول وجبة الإفطار في مقهى دي لا بيه في باريس في يوم سيدان Sedan Day[1] (الثاني من سبتمبر)»، كما أن الكونت هوشبرغ « كان قد قال لزميلٍ له في أوائل أغسطس: سنجتمع مُجَدَّدًا، أنا وأنت، في إنجلترا». ويُلخّص (فان إفيرا) تقييم جنرال ألماني بأنه «توقّع أن يمشّط الجيش الألماني أوروبا كما تُمشّطها حافلة مليئة بالسياح»! وقد صرّح الجنرال: «سوف نهزم فرنسا في غضون أسبوعين، ثم سنستدير ونهزم روسيا، وبعدها سنزحف نحو البلقان ونُرسي النظام هناك»!

لم يكن هذا التفاؤل مجرّد هوسٍ يختصُّ به أشخاصٌ دون أشخاص، حيث لم يكن الشعب الألماني بكامله يتوقّع بالضرورة انتصارًا سهلًا، ولكن خلال أزمة يوليو، كانت الثقة المُفْرِطَة متفشّية في أكثر المؤسسات أهمية: «لاحَظ مراقبٌ بريطاني انتشار حالة مزاجِيّة عامّة من الثقة الفائقة في الدوائر العسكرية في برلين، كما ذكر مراقبٌ ألماني أنَّ هيئةَ الأركان العامة الألمانية تتطلّع إلى خوض حربٍ مع فرنسا بثقةٍ كبيرة، وتتوقّع هزيمة فرنسا في غضون أربعة أسابيع». وقد استبصر بعض المخطّطين العسكريين

(1) كان يوم عطلة تذكارية شبه رسمية في الإمبراطورية الألمانية، حيث يحتفل بها في اليوم الثاني من شهر سبتمبر للاحتفال بالنصر في معركة سيدان عام 1870.

المَيْزَة التي ستكون إلى جانب المدافعين في المعركة، لكنّ «معظم الضبَّاط، والمدنيين الألمان اعتقدوا أنهم قادرين على تحقيق نصرٍ مذهل وحاسم إذا ما هاجموا في اللحظة المناسبة... أضِفْ إلى ذلك أن النصر سيكون حاسمًا ونهائِيًّا».

لم تكن الأوهام الإيجابِيَّة منحصرةً في تقييمات الأداء العسكري. فقد أدَّى التفاؤل الذي تخلّل تفكير الألمان إلى «الاستهانة بكلٍّ من الأخطار التي تشكّلها الحرب، وخطر أن يتسبَّبَ العدوان الألماني النمساوي في إشعالها». كان المخطِّطون الألمان يميلون أيضًا إلى المبالغة في تقدير مرونة حلفائهم وتعبئتهم لجيوشهم، بينما يقلِّلون في الوقت نفسه من هذه الصفات لدى خصومهم المحتملين. كان من الإفراط في التفاؤل، كما فعل «العديد من الألمان»، توقُّعُ «أن تتقبّل قوى الوفاق بكلِّ هدوء سحق النمسا لصربيا». وفي 26 من شهر يوليو، كان وزير الخارجية الألماني، (غوتليب جاغو)، «واثقًا من حياديّة إنجلترا».

كان هذا افتراضًا حاسمًا. فبمجرد اندلاع الحرب، صرَّح القيصر آسفًا: «لو أنّ أحدًا أخبرني مُقدَّمًا بأنّ بريطانيا ستُشهر في وجوهنا السلاح». وحتى في حالة محاولة بريطانيا التدخل، فقد ظَنّ المخطّطون الألمان أن الجيش الألماني سيكون قادرًا على هزيمة فرنسا قبل أن يتسنّى للبريطانيين كسب موطئ قدم. لقد «اعتقدوا أن الجيش البريطاني الصغير المتطوّع لا يشكل تهديدا

كبيرا». بل وعلى العكس؛ سيكون مصير القوات البريطانية السحق إلى جانب القوات الفرنسية. وكان رئيس هيئة الأركان العامة، الجنرال (فون مولتك)، «مقتنعًا بأنه حتى وإن دخل البريطانيون الحرب، فإنه ما يزال بالإمكان هزيمة الفرنسيين بسرعة وحسم؛ ولن يُحدث رجال القوة الاستكشافية البريطانية البالغ عددهم 150,000 جندي أيّ فرق». لقد كان تهديد بريطانيا حينئذ غامضًا، «ولم يكن أحد؛ لا الروس ولا الفرنسيون ولا قوى المركز، يعرف ماهيّة ردّ بريطانيا على الأزمة»؛ ونظرًا لعدم وضوح ما إذا كانت بريطانيا ستحارب، كانت ألمانيا متفائلة تفاؤلًا مذهلًا بافتراضها أنها لن تدخل الحرب. كان هنالك عبءٌ هائلٌ مُعلّقٌ على عاتق ذلك التقييم المتفائل؛ لأن خطة الحرب الألمانية بكاملها كانت تستند على القدرة على تدمير فرنسا في الأسابيع القليلة قبل أن تصبح روسيا بكامل قدرتها، وحينها سيتعيّن على ألمانيا تحويل قوّاتها الرئيسية إلى الجبهة الشرقية.

وقال المستشار الألماني (تيوبالت فون بتمان هولفيغ) بعد إرساله الإنذار النهائي إلى روسيا وفرنسا تصريحه الخالد: «إذا دُحرج النَّرْد الحديدي الآن، فليساعدنا الرَّبّ». لكن كما يذكر بيني: «مع أن الحرب كانت لعبة نَرْد، إلَّا أنها كانت أيضًا لعبة شطرنج، وكان القادة الألمان يعتقدون أنهم بارعون في تلك اللعبة». بتمان هولويغ نفسه «اعتقد أن الحرب ستنتهي خلال أربعة أشهر على

الأكثر». كما توقّع مولتك هزيمة فرنسا في ستة أسابيع. وقد أفاد الكونت (فون ليرشنفيلد) أن هيئة الأركان العامة تتوقَّع أن تُهزم فرنسا في غضون أربعة أسابيع، وأشار في وقت لاحق إلى أن «الدوائر العسكرية في برلين كانت واثقة تمامًا، على الرغم من أن ألمانيا والنمسا ستواجهان العالم بأسره».

لم تعبّر جميع الدول الأوروبية عن ثقة مُفْرِطّة غير واقعية على نطاق واسع. فعلى الرغم من أن الإمبراطورية النمساوية المجرية لم تتوقع الهزيمة بالتأكيد، إلَّا أنها لم تتوقّع أيّ نصر سريع كذلك. كانت القوة العسكرية للإمبراطورية النمساوية المجريّة أقلّ من تلك التي كانت لدى الدول العظمى الأخرى، وقد كانت مُحِقّة في توقّعها بأن الحرب ستكون كفاحًا صعبًا. غير أن ألمانيا واصلت حيويتها. وحتى بعد أن مضى على الحرب أول شهرٍ لها، كانت القوات الألمانية تتوقع عودتها إلى الوطن بحلول عيد الميلاد، ولم يُكلّف الدبلوماسيون الألمان أنفسهم عناء الحصول على دعم إيطاليا، لاعتقادهم أنهم ليسوا بحاجةٍ إليه. وفي غضون أسابيع قليلة، وجد الجيش نفسه أمام توقّفٍ دموي عند خطٍّ مواجهة شاسع يمتدُّ من بلجيكا إلى سويسرا. وكما يصف جون ميَريمان الأمر: «فإنَّ هذين الخَطّيْن الطويلين الرفيعين من الخنادق تسبَّبا» أخيرًا «في اختراق أحلام النصر السريع القائم على البراعة في التكتيكات الهجومية».

وفي البحرية الألمانية كذلك، كان هناك قدرٌ كبير من الثقة المُفْرِطَة التي تكاد تبلغ الرِّضا عن الذَّات، فقد كان الأدميرال باخمان «واثقًا جِدًّا من قُدرة الغوَّاصات على إغراق السفن التجارية التي تعتمد عليها بريطانيا، لدرجة أنه توقّع إصابة بريطانيا بالهلع، واستسلامها في غضون ستة أسابيع». وكان قد أدلى بهذا التعليق في وقت كانت فيه ألمانيا نفسها تعاني من نقصٍ في المواد الخام والمواد الغذائية، و«لم تكن قد استعدّت بشكلٍ كافٍ لحربٍ استمرّت حتى اللحظة للنصف عام، ناهيك عن حرب تستمرُّ أضعاف تلك المُدّة بثماني مرات».

كان أعداء قوى المركز يُظهرون إفراطًا متطابقًا في الثقة في الوقت نفسه. ففي لندن، كان هناك «غياب ملحوظ للتحقيق في الكيفية التي يُمكن أن تتضرَّرَ بها بريطانيا اقتصادِيًّا نتيجة وقف التجارة الأنجلو - ألمانية» (ناهيك عن الحصار البحري). كانت بريطانيا تعتمد على ألمانيا في جزءٍ كبير من صادراتها ووارداتها، وبرغم إدراك ذلك، فقد قدّم تقرير مجلس الإدارة «افتراضاتٍ مُبهجة حول حجم الخسائر التي سيتكبّدها الألمان إذا لم يعد بإمكانهم استيراد كمّياتٍ هائلة من الإمبراطورية البريطانية، بل إنه جعل النتيجة تبدو مرغوبة من خلال تفصيل المجالات التي سيتفيد منها المنتجون البريطانيون في حالة إقصاء المنافسة الألمانية». وقبل الحرب، زعم الأدميرال البريطاني أن «العدو سوف يتأذّى بشكلٍ

كبيرٍ جرَّاء الحصار [البريطاني]»؛ وهذا افتراض لم يطعن فيه أحد، حتى بعد أن دُعمت تقارير عن «الحصانة النسبية للاقتصاد الألماني» بدراسة ألمانية أرسلها المُلحق البحري البريطاني في برلين «توضّح مدى قدرة ألمانيا على أن تكون مكتفية ذاتيًّا تقريبًا».

كما غذّى الألمان كذلك أوهامًا إيجابِيَّةً كبيرة بشأن تفوُّق ثقافتهم «أعلن القوميون الألمان في عصر (ويلهيلمين) أن الألمان كانوا أعظم شعب مُتحضّر عرفه التاريخ، وأنّ على الألماني أن يشعر بسُمُوِّه فوق جميع الشعوب التي تحيط به، الذين يُنْظَرَ إليهم من على ارتفاعٍ شاهقٍ يجعلهم قابعين في أعماق سحيقة تدنوه. لقد تلقّى الألمان تأكيداتٍ على أنّ الجيش الفرنسي يفتقر إلى ... الروح الموحَّدة التي تميّز الجيش الألماني، والقوة المتينة للجنس الألماني، وروح الانتماء، والتضامن التي تميِّز المسؤولين». وحتى المثقفون مثل: (راينر ماريا ريلكه وتوماس مان) اعتبروا الحرب دفاعًا أساسيًّا ضد قوى مُعادية تمثّل ثقافات أقلّ ثراءً، وتقنيات أقلّ تقدمًا. وفي السونيتات الخمس «Fünf Gesänge» لريلكه، احتفل الشاعر الغنائي الرائد في اللغة بانبعاث إله الحرب بدلًا من رمز سلامٍ أبله. وفي دفاعه عن الثقافة الألمانية الأصلية **Kultur**، ذَهب مان إلى بلجيكا المُحتلّة لمراقبة المستقبل. وقد بدا تعرُّضه للانتقاد على أنه من برابرة شعب الهون، في الوقت الذي كانت تزعم فيه ألمانيا أنها تمثل الحضارة العليا انقلابًا سخيفًا للقيم؛

وهو ما كان شعورًا مشتركًا بين أوساط الشباب المثقفين المحاربين في الطليعة مِمّن قَدِموا من خَلْفيَّاتٍ مِهْنِيّة.

كما أظهر كلا الجانبين أوهامًا إيجابِيَّةً استثنائية بشأن تكاليف الحرب، وفوائدها. وكما يصف (فان إفيرا)، فالعديد من الأوروبيين كانوا يعتقدون أنَّ «الحرب العظيمة ستكون بمثابة تمرين صحّي، ومفيد للشعب»:

حيث شدّد الإعلاميُّون الألمان على: «حتميّة الحرب، ومثاليّتها، ونعمتها»، وأعلنوا أن الحرب هي: «المُنقذ والمعالج» وأنها: «الحلّ الدوري الذي لا غنى لنا عنه» للمشاكل الوطنية، وهي تجلب: «النهضة والمغامرة، والبسالة والزيادة، والمداولات المجرّدة والمثاليّة المتوهّجة». كما دعت صحيفةٌ ألمانية إلى «حربٍ سريعة ومرحة»... وكتب مؤرّخ ألماني بارز عن «فخامة الحرب». كما قيل للشباب الألمان أن «الحرب جميلة». وقد جادل مسؤول ألماني في أنّ: «الحرب مروّجٌ قويّ للحضارة» وأنها: «تُخاض لصالح التقدم البيولوجي، والاجتماعي، والأخلاقي»، وعندما اندلعت الحرب، دعا ولي العهد الألماني مواطنيه إلى «حربٍ مُشرقة ومَرحة».

وللتلخيص، فإن نسبة كبيرة من الناس من جميع المستويات والأدوار في المجتمع، وعلى جانبي الصراع، تطلّعوا إلى الحرب، ولم يتوقّعوا سوى النصر. وأنا أجادل هنا في أنّ الثقة المُفْرِطَة

كانـت عامـلًا مهمـا في إشـعال الحـرب (لنتذكـر أنّنـي أجادل فـي أنّ الأوهـام الإيجابِيَّـة تقـدِّم عامـلًا إضافِيًّـا فـي شـرح الحـرب، لا بأنّهـا العامـل الوحيد).

## هل ساهمت الأوهام الإيجابِيَّـة؟

كتبـت (أنيـكا مومبـاور) فـي دراسـتها الاسـتقصائيّة حـول تاريخ الحـرب العالميـة الأولـى: «قـد يبـدو الأمـر كمـا لـو أنَّ المؤرخيـن حلّلـوا كلَّ زاويـة ممكنة، وقدَّمـوا كلَّ النَّظريات المعقولـة، بل وبعض النظريـات غيـر المعقولـة، فيمـا يتعلـق بأصـول الحـرب. أيمكـن أن هنـاك أيّ شـيءٍ متبقٍّ للنقـاش؟ من المؤكـد أن المؤرِّخين قـد توصَّلوا إلـى إجمـاعٍ يُمكـن أن يقبلـه معظمهـم؟» لكـنَّ الحقيقـة - كمـا تُتابع حديثهـا - أنَّ العكـس قـد يكـون صحيحًـا، إذْ تستشـهد بــ: «ميـلٍ عالمـيٍّ للنِّقـاش المكثّف حـول الحرب العالميـة الأولـى ككلّ، بينما تظـلّ الأسـئلة الأساسـية، وبالأخـصّ فيمـا يتعلـق بالنظـر فـي أصول الحـرب، دون حـلٍّ رغـم كلّ الجهـود».

وقـد أشـار (جيفـري بلينـي)، الـذي كتـب فـي سـبعينيات القـرن الماضـي، عـن الإفـراط فـي التفـاؤل باعتبـاره سـببًا رئيسـيًّا للحـرب العالميـة الأولـى، وللعديـد مـن الحـروب الأخـرى كذلـك. وقـد كتَـب: «لـم يكـن التفـاؤل عَشِـيَّة الحـرب عـام 1914 اسـتثنائِيًّا... إذ يكشـف تحليـلٌ للآمـال والمخـاوف فـي عشـيّات حروب سـابقة عن تفـاؤلٍ مماثـل». ويجـادل أنـه فـي عـام 1914: «كان الطرفـان واثقين

من النصر. حتى روسيا وفرنسا والنمسا، التي خسرت كل دولة منهم حربها الأخيرة، كانوا يتوقّعون النصر. لقد كان تفاؤل القادة الأوروبيين عام 1914 مستندًا على أمرٍ أقوى من معرفتهم بالتاريخ العسكري والمالي الحديث».

كذلك وجد (ستيفن فان إفيرا)، الذي كتب بعد خمسة وعشرين عامًا، تفاؤلًا «غريبًا» صحب العديد من الحروب على مَرِّ التاريخ، ومرة أخرى في عام 1914 بشكل خاص. إن نظرية «عقيدة الهجوم» بالرغم من كونها مقنعة، إلَّا أنها لا تفسّر تمامًا حجم الثقة المُفْرِطَة على جميع الأصعدة. لعلّه ليس من قبيل الصدفة إذن أن تخلص (مومباور) إلى أن أسباب هذه الحرب ما تزال دون حلٍّ، بينما في الوقت نفسه تظلّ رؤى (بليني وفان إفيرا) متّسقة، لكنها رغم ذلك غير مفسّرة إلى حَدٍّ كبير؛ لماذا أبدى الناس هذا التفاؤل المفرط؟ تتمثل إحدى الوسائل الشحيحة لملء الفَجْوات الموجودة في التفسيرات الحالية لأسباب نشوء الحرب العالمية الأولى في إيجاد نظرية تتنبَّأ بوجود صلة بين الثقة المُفْرِطَة والحرب. وهذه النظرية هي نظرية الأوهام الإيجابِيَّة.

كانت الثقة المُفْرِطَة جَلِيّةً؛ ليس فقط في التخطيط الاستراتيجي الذي سبق الحرب، بل وفي الحرب نفسها كذلك. كانت قصص الثقة المُفْرِطَة المُذهلة، والمذابح المُرَوِّعة في الجبهة الغربية شائعة، فـ «عامًا بعد عام» كما كتب (وينستون تشرشل)، كان الجنرالات

«يشنّون حملات هجومية عنيدة، وواثقة على نحوٍ هادئٍ، وهي هجمات نعرف الآن أنها كانت يائسة بقدر ما كانت كارثيّة». كذلك عانى غزو تركيا في «جاليبولي» في أبريل 1915 من فرطٍ خطير في الثقة. وكما وصف كلٌّ من (إليوت كوهين، وجون غوتش) الأمر، فقد كانت هناك حالة مزاجيّة عامَّة من التفاؤل البهيج الذي هيمن على جميع المستويات قبل حدوث أوّل إنزال؛ وهو مِزاج مسؤول عن الكثير من الفشل في التفكير بتمعُّن فيما قد يستلزمه بالضبط إجراء عمليّة برّمائية، بالإضافة إلى مساهمته الكبيرة في سلوكٍ متجذّرٍ من التفوُّق العنصري تُجاه الشعب التركي بشكل عام، والجيش التركي بشكل خاص. كان مفهوم تفوُّق القوات البريطانية - أي قواتٍ بريطانية - على خصومها الأتراك... واسع الانتشار في جميع مستويات المجتمع البريطاني، وكان قائد الحملة مُتشرِّبًا جِدًّا له. «دعوني أضعْ رفاقي في مواجهة مباشرة مع الأتراك في العراء،» كتب متوسِّلًا في مذكراته قبل ثلاثة أسابيع من إنزال «خليج سوفلا». «فنحن لا بُدّ هازموهم في كلّ مرة، فالجنود المتطوّعون البريطانيون أفرادٌ متفوّقون على شعوب الأناضول، أو السوريين أو العرب [و] مفعمون بذهنيّةٍ متفوقة تقابلها مُتعة فيَ خوض المعارك». لقد كان يرى أن قيمة جنديٍّ بريطانِيٍّ واحدٍ تساوي عشرات الأتراك؛ بينما في الإحصاءات المجرَّدة في إنزال «خليج سوفلا»، كان كل جندي تركي يساوي عشرة بريطانيين.

وكان قائد القوات البحرية البريطانية في البحر الأبيض المتوسط قد حذّر بشِدَّة من خطة الهجوم، وأوصى بدلًا من ذلك بـ «عمليةٍ أطول أجلًا» بكثير تضمّ قصفًا مُكثَّفًا للدفاعات التركية ومَسْحًا شاملًا للألغام.

في البداية، قدَّر المارشال الميداني (اللورد كتشنر) أنَّ العملية تتطلب 150,000 جنديٍّ، لكنهم لم يتمكنوا من جلب سوى 70,000 من الجبهة الغربية. في الوقت نفسه، توسّعت المهمَّة الموكلة لهم توسُّعًا هائلًا؛ لأنه «ومع مرور الأسابيع، تبيّن أن الآمال المُفْرِطَة التي عُلّقت على فعاليّة القصف البحري كانت مُفْرِطَةً في التفاؤل بدرجةٍ مهولة»؛ لذا كان لِزامًا أن يتغيّر دور الجيش في العملية من مجرد تقديم الدعم للقوات البحرية (بتدمير بطاريّات المدفعية على طول الساحل) إلى تولّي الهجوم البرِّيّ على شبه الجزيرة؛ وكل هذا بأقلّ من نصف القوَّات التي كانت تُعتبر في البداية ضرورية لتنفيذ المهمَّة الأصلِيَّة الأصغر.

لقد تسبَّبت الثقة المُفْرِطَة في مشاكل تشغيلية لدى جميع الأطراف. فقد ألزمت ألمانيا نفسها بـ «استراتيجية هجومية طموحة أكثر بدرجة أكثر من اللَّازم» كما كانت استراتيجية روسيا «طموحة لأبعد الحدود». ووفقًا لجاك سنايدر، فإنّ «كلّ هجومٍ حدث» على كلٍّ من الجبهتين الشرقية والغربية «قد فشل في تحقيق أهدافه الطموحة، خالقًا بذلك مساوئ كبيرة للدولة التي شنّته»:

لـم تكـن أيٌّ مـن هـذه الكـوارث مباغتـة، أو غيـر متوقّعـة. ولـم يكـن وحدهـم العرّافون من أمثـال إيفان بلـوك [الذي قوبلـت توقّعاته المبكـرة للأهـوال القادمـة بالتجاهـل] الذين تنبَّـؤوا بحـربٍ موضعيّة تصـل إلـى طريـقٍ مسـدودٍ، بـل إن اسـتراتيجيِّي هيئـة الأركان العامـة أنفسـهم توقّعـوا هـذه النتائـج بدقّة فـي أكثر لحظاتهـم صفـاءً وتجلّيًا. هـذا لا يعنـي أن مخطّطـي الحـرب الأوروبييـن قـد أدركـوا المزايـا الغامـرة للخطـة الدفاعيـة إدراكًا كامـلًا، إذ قلّـل بعضهـم مـن شـأن هـذه المزايـا بينمـا تحدَّاهـا البعـض الآخـر. النقطـة المهمّـة هنـا هـو أن إدراكنـا المتأخـر للماضـي لا يختلـف نوعيًّـا عـن الفهم الـذي كان بمقـدور الأبطـال التاريخييـن بلوغـه.

يمثّـل هذا أهمية كبيـرة لــ «نظريـة الأوهام الإيجابِيَّـة»؛ إذ يمكننا، إلـى حَـدٍّ ما، اسـتبعاد احتمالِيّـة أنَّ الأحداث تبـدو مُفْرِطَة فـي التفاؤل لمجـرّد أننـا ننظر إليهـا الآن بعـد أن صـارت ماضيًا، بل علـى العكس مـن ذلـك، فكمـا هو موضَّـح في الأمثلـة العديـدة أعلاه، وفـي تحليل (سـنايدر)، فـإنّ الافتراضـات التـي سـبقت الحـرب، والاشـتباكات الأولـى فيهـا لـم تحـدث نتيجـة فشـلٍ فـي المخابـرات، أو نقـصٍ في المعلومـات. كانـت المعلومات متاحـة، غير أن التوقُّعات لم تعكسـها وَحسـب. وحتى فـي حالة عـدم وجود معلومـات حول مسـألة معينة؛ كانـت التقييمـات الأوليـة مُتحيِّـزة بشـكلٍ ممنهج فـي اتّجـاه إيجابِيّ. وبالنظـر إلـى كل هـذا؛ يسـأل (سـنايدر): «لمـاذا إذن اعتُمِـدت هـذه

الاستراتيجيات المُحبِطة للذات، والمسبِّبة للحرب؟» ومرّة أخرى، توفّر نظرية الأوهام الإيجابِيَّة حلًّا مُحتملًا.

## الاسْتِعْدَادُ لِلْمُجَازَفَةِ بِالْحَرْبِ

قد يقال إنَّ السبب الأكثر أهمية للحرب هو أنّ كلَّ دولة لم يكن أمامها خيارٌ آخرُ سوى القتال: لم يكن خيار عدم فعل شيءٍ مطروحًا على الطاولة. وكما يشير (مارتل)، فربّما «لم يكن نظام التحالف هو ما دفع الدول العظمى إلى الوقوع في الحرب عام 1914، بل الاعتقاد بأنَّ البقاء بمنأى عن حربٍ ما يعدُّ أخطرَ من خوضها». ويكمل بقوله: «ولو أنهم توقّعوا حجم المذبحة، ومدَّة الحرب، والفوضى السياسية، والاجتماعية التي تسبَّبَتْ بها؛ لربّما اتّخذوا خياراتٍ مُختلفة. لكن حتى هذا مشكوكٌ فيه. فبشكلٍ عام، كان الرجال الذين اتَّخذوا القرارات... يؤمنون بأن الموت بشرف أفضل من النجاة بخِزْيٍ، وكان هذا ينطبق على دولهم بقدر ما كان ينطبق على أنفسهم».

توجد عوامل أخرى تقيّد الخيارات السياسية كذلك، فعلى سبيل المثال: من الممكن أن الحكومة الروسية توقعت «تعرّضها لزلزلةٍ شديدة من المعارضة في حال لم تردّ على الإنذار الأخير الصادر من الإمبراطورية النمساوية المجرية باستخدام القوّة». ويمكن للمرء أيضًا أن يجادِلَ في أنه سواء غزت ألمانيا بلجيكا

أم لا، فإنَّ بريطانيا «كانت ستتدخّل على أيّة حال، معتبرةً ذلك ضروريًّا للحفاظ على توازن القوى، ومنع الهيمنة الألمانية على أوروبا». وهكذا، ربَّما فضَّل صُنّاع القرار المجازفة بقيام حرب بدلًا من المجازفة بعواقب عدم القتال؛ لذا قد يُنظر إجمالًا إلى يوليو من عام 1914 على أنّه «أزمةٌ في سياسة حافَّة الهاوية، أدَّتْ إلى حربٍ كان الجميع مستعدًّا للمجازفة بخوضها، لكنَّ أحدًا لم يكن يرغب حقًّا بها».

غير أن هذه الحجّة تفشل في تفسير حماس كلِّ طرف، وتوقّعاته للحرب. والأنكى من ذلك أنه لو اعتقدت دولةٌ ما أنها لا تملك خيارًا سوى خوض الحرب، فإنَّ هذا يقتضي ضمنًا أنها تعتقد بأنها ستكسب بالقتال أكثر ممَّا ستكسبه بالبقاء في سلام. ويجادل مارتيل نفسه في أنه حتى لو بدت الحرب على أنها البديل الوحيد، فإنَّ الدول «كانت تأمل وتفترض» النصر بها؛ لذا فالحرب في نظرهم لم تكن خيارًا سيِّئًا بعد كلِّ شيء. ونجد هذا واضحًا في التبرير الألماني للحرب:

في حين أنَّ معظم صُنّاع القرار السياسيين، والعسكريين في برلين لم يريدوا في الواقع نشوب حرب أوروبية [أي أنهم كانوا يأملون عدم انتشارها بعد هجومهم على فرنسا وروسيا]، إلَّا أنهم كانوا مستعدين تمامًا للمجازفة بها. وكان يشجّعهم على ذلك كبار المستشارين العسكريين الألمان، والذين كانوا يروِّجون للحرب

«كلّما كانت أقربَ، كان ذلك أفضل» في عِدّة مناسبات، وأكّدوا للسياسيين أن لدى ألمانيا فرصة كبيرة لهزيمة أعدائها. كان القادة العسكريّون الألمان يستحضرون صورة لروسيا تكون ألمانيا قادرة على هزيمتها حينئذ، لكنها ستكون في المستقبل أقوى من أن تتمكن من القضاء عليها بنجاح. إن حقيقة استعدادهم لقيام حرب في عام 1914 تتوافق مع - إن لم تكن تقتضي - وجود فكرة أنه حتى الدول التي شعرت بأنها محاصرة، ولا خيار أمامها سوى الحرب كانت متفائلة بالفوز حينئذ. وصف (أوتو فون بسمارك) مثل هذه الحروب بأنها «الانتحار خوفًا من الموت».

## فرط الثقة الجامح

إن التساؤل حول سبب اندلاع الحرب في عام 1914 وليس أثناء الأزمات الأخرى العديدة التي وقعت بين القوى الأوروبية نفسها في السنوات السابقة (الأزمتان المغربيّتان الأولى والثانية، وحربا البلقان الأولى والثانية) يوحي بوجود عوامل فريدة تخصُّ يوليو من عام 1914 ساهمت في نشوب الحرب. من العوامل التي يبدو أنها دفعت الأوهام الإيجابِيَّة إلى مستوياتٍ عالية بشكلٍ خاصٍّ حينئذ هو افتقار كلِّ دولة إلى نقاشٍ مفتوح حول الحرب، ففي السنوات التي سبقت عام 1914، فإنّ الخطط العسكرية لم تكن معروفة في كثيرٍ من الأحيان حتى لوزراء خارجية الدولة نفسها، ودبلوماسيِّيها. ففي ألمانيا؛ لم يكن كلٌّ من المستشار،

ووزير الخارجية، والأدميرال تيربيتز، و«ربّما» حتى القيصر على علم بأن التعبئة الألمانية ستؤدِّي إلى هجوم فوري على «ليبج». كانت خطة (شليفن) نفسها «مخطَّطًا معيبًا» كان سيخضع لتعديلات تصبُّ في مصلحة ألمانيا لو أنه كان موضع نقاشٍ أفضلَ، لكنَّ «لا منطقيّته كانت مَخْفِيّة وراء مبدأ السِّرِّيّة».

وحتى في بريطانيا الديمقراطية، التي كانت لديها أنظمة مُحدَّدة لتعزيز التشاور السياسي العسكري؛ كان العديد من حالات التفرّد في اتّخاذ القرارات تُعرقل التقييم الاستراتيجي. فقبل الحرب، كان وزير الخارجية البريطاني، السير (إدوارد غراي)، قد أبقى «أعضاء مجلس الوزراء الذين كانوا معروفين بمعارضتهم لأيّ تدخل بريطاني مسلّح جاهلين بتفاصيل الأزمة وتوقّعات الدعم في فرنسا وروسيا». في الوقت نفسه، كان غراي غير مدركٍ البتَّةَ لخطط الجيشين البريطاني والفرنسي بالتعاون. وفي النمسا وروسيا كذلك، كان هناك عِدَّة أمثلة على حجب المسؤولين العسكريين «بيانات مصيريّة عن المدنيين». خلق هذا الأمر مهزلةً مأساويّة يتنافس فيها الدبلوماسيون على التوصُّل إلى تسويات سلمية دون أن يدركوا أن مؤسساتهم العسكرية قد فخّخت القارّة بالفعل بأسلاك الحرب.

وكما سنرى أيضًا في دراسات الحالة اللَّاحقة، فغالبًا ما تبدو علنيّة النقاش حاسمة في كبح ذلك النوع تحديدًا من التقييمات

المُفْرِطَـة التـي سُـمح لهـا بالمـرور دون ضابـطٍ، أو رادع فـي عـام 1914. ربَّمـا كانـت المعلومـات ذات الصلـة موجـودة، وكان حَـذَر الدبلوماسيين المتأصِّل قائمًا، لكـنَّ الجهات الفاعلة الرئيسـية خرَّبت النظـام بتقييدهـا للنقـاش واستبعادها لـلآراء المُخالفـة، بحيـث لـم تتعـرض مرجعيـة الثقـة المُفْرِطَة لـدى صُنّـاع القرار للطعـن على نحوٍ فعّـال. ووجـد (إرنسـت مـاي) أنَّ الافتراضـات الخاطئـة لـم تخضـع للتصحيـح، أو حتـى التدقيق، فـي كلٍّ مـن بريطانيا، وألمانيا، وروسـيا علـى حَـدٍّ سـواء. ويبـدو أن مقـدار الضـرر الناجم عـن هـذا الأمر قد زاد مـع درجـة التفـرّد فـي اتِّخاذ القـرارات.

وعلـى الرغـم مـن كلِّ مـا لديهـم مـن فوضـى، إلَّا أنَّ البريطانييـن فهمـوا كيـف كانت القـوى المختلفة متوائمـة. وبينما قد يسـتخدم كلّ روسِـيٍّ خريطته الخاصـة للعالم الخارجـي، إلَّا أن كلَّ واحد منهم كان يسـتخدم الخريطـة نفسـها تقريبًـا معظم الوقـت. أما القيصـر - وعلى النقيـض من ذلـك - كان يمكـن أن يتغيَّـرَ موقفه في غضون سُـوَيْعاتٍ مـن تصـوُّر ألمانيـا مركـز الولايـات المتحـدة الأوروبيـة إلـى رؤيتهـا مطوّقـة، ومحاصـرة بواسـطة الأعـداء. ولـم يوفـر هيـكل الحكومـة حمايـة تُذكـر ضِـد وجـود تصـوُّر خاطـئ بالكامـل يحكـم السياسـة الوطنيـة، وكان كلُّ شـيء يعتمـد علـى حصافـة الرجـل المتربِّـع فـوق القمّة.

كان الأمر نفسه موجودًا داخل الجيوش كذلك، إذ غالبًا ما كانت التحيّزات المؤسسية تلغي أيَّ احتمالاتٍ لتصحيح فرط الثقة، أو للتكيُّف مع الظروف. ويقدّم كلٌّ من (كوهين وجوتش) مثالًا بارزًا في الجيش البريطاني: «نظام الترقيات الشخصي... كفل أن يشنّ الضباط من الرتب المتوسطة هجماتٍ لا تقوم على أيِّ أساسٍ تكتيكي، أو استراتيجي؛ سواء أكانوا مؤيدين لها أم لا. يمكن أن تكون الترقيات من نصيبهم في حال أطاعوا الأوامر، أما إذا فعلوا أي شيء آخر، فسيواجهون حتميّة الخزي، والطرد من الخدمة. إن الطريقة التي أدار بها (هيغ) [القائد الأعلى للقوات الاستكشافية البريطانية] مقرَّات قيادته، بحفاظه على كتائب أوليمبية، وعدم تسامحه مع أيِّ نقد، وقبوله لنصائح صغيرة ثمينة، قد عزَّزَتْ من صرامةِ هذا النظام».

## أَوْهَامٌ مُحَطَّمَةٌ

من منظورنا الحالي إلى الماضي، يصعب تصوُّر تبنِّي النَّاس لتلك الآراءِ الاستثنائية التي تبنَّوْها عام 1914. يقترح (بليني) أن «تعريشة الأمل المعقدة - تقاطعات الواقع والخيال العسكري والمالي - قد خفّفت من رعب الحرب القادمة».

يبدو أن نسيان المعاناة التي تسبِّبها الحرب، أو العجز عن تصوُّرها، يعدُّ موضوعًا متكرِّرًا في التجربة البشرية، وغالبًا ما

يكـون هنـاك اسـتعدادٌ عـامٌّ للقتال قبـل انـدلاع الحرب. لكـن بمجرد أن يبـدأ النـاس فـي التعـرض للقتـل بأعـداد كبيـرة، يتراجـع الحماس الأصلـي. وغالبًا مـا يُعْزَى اندلاعُ الحـرب العالمية الأولـى - في جزءٍ منـه - إلـى الافتقـار لفَهْـمِ مـا يمكـن أن يحدث عندمـا يهاجـم رجالٌ متزاحمون خنادق مليئة بمدافع رشاشـة. غير أنَّ شـكل القتال الكارثيِّ نفسـه هـذا قـد حـدث فـي الحـرب التـي نشـبت بيـن روسـيا واليابان قبل عشـر سـنوات فقـط من ذلـك التاريخ. كانـت تلك الحـرب مُوَثّقة علـى نحو جيِّـد، وكان يتعيَّن على الـروس - على الأقـلّ - أن يتعلّموا مـن تلـك التجربـة؛ كونهـم قـد خسـروا فـي تلـك الحـرب؛ بـل إنّهم غيَّـروا سياسـتهم لفتـرةٍ مـن الزمـن: «حيث عـاد المخطّطـون الروس إلـى نهجٍ أكثـرَ دفاعيّة بعد هزيمة روسـيا فـي الحرب الروسـية اليابانية 1904-1905، وتمسّـكوا بعقيـدة دفاعِيّـة حتى عـام 1912». لكنْ لم يمـضِ وقـتٌ طويلٌ قبـل أن يظهر الحمـاس المبتهج من جديـد؛ تمامًا فـي الوقت المناسـب لتكـرار المذبحـة في الحـرب العالميـة الأولى.

سـرعان مـا تحوَّلـتِ «النزهـة» التـي تصوَّرهـا البريطانيـون إلـى حمَّـام دمـاءٍ يطـارد جيـلًا بكاملـه. لكـنَّ الأمرَ تطلَّـبَ مـوت الملايين لتذكيـر الشـعوب المتعارضـة، وقادتهـا بأهـوال الحرب. ويُعـدُّ البطء الشـديد فـي التأقلـم مـع التغيّـرات الحربيـة أثنـاء فتـرة القتال شـاهدًا علـى التفـاؤل والتوقُّعـات المبسَّـطة التي أشـعلت الحرب فـي المقام الأول:

بمجـرد أن وصلـت الحـرب البحريـة باسـتخدام السـفن المقاتلة السـطحية إلـى طريـق مسـدود، وبمجـرّد أن فقـدت الحمـلات فـي الجبهـة الغربيـة قدرتهـا علـى التحـرّك، وبمجـرد التغلـب علـى الصدمـات الأولـى لنظـام الائتمانـات والنقـل الدولـي، اتَّضـح أن تقييمـات بريطانيـا وتخطيطهـا قبـل الحـرب كانـا قاصريـن. لـم تتنبّـأ الأركان العامـة بالظـروف المُتغيّـرة للحـرب البَرِّيَّـة، وكانـت النتيجـة المزدوجـة لذلـك متمثلـة فـي عـدم امتلاكهـا لاحتياطيّات عتـاد لهذا النـوع مـن الحـرب، وعـدم تفكيرهـا فـي كيفيـة التغلـب علـى هـذه العقبـات الماديّـة سـوى بالضغـط علـى خنـادق العدوّ من خلال نشـر المزيـد مـن الرجـال والأسـلحة.

يقتـرح العالـم النفسـي يحيئيـل كلار، الـذي درس الأوهـام الإيجابِيَّـة تحـت تهديد الإرهاب في إسـرائيل، أن هـذه الأوهام تتباين تباينًـا مهـولًا في الحـالات التي تسـبق تعرض الشـخص للخطر، وفي أثنـاء وقـوع الخطـر بشـكلٍ مباشـر: «يميل النـاس إلى التفاؤل بشـكل رئيسـي عندما تكـون الأحداث السـلبية قيـد الدراسـة افتراضية و«غير واقعيـة مـن الناحية النفسـية».

لكـن علـى النقيـض مـن ذلـك، وعندمـا تكـون المجموعـة التـي ينَتمـي لهـا الأشـخاص هدفًـا لبعـض المِحَـنِ الكبيـرة المسـتمرّة فـي الحـدوث، وحتـى عندمـا لا يكـون المشـاركون أنفسـهم الضحايـا المباشـرين فـي الوقـت الحالـي؛ يتلاشـى زيـف الحـدث، ويتناقـص

التفاؤل (سواء أكان المطلق أم المُقارَن)، أو يتلاشى تمامًا. غير أنَّ هذا التأثير التَّصحيحِيّ قد يكون قصير الأجل. يبدو أن هناك بعض الأوهام الإيجابِيَّة التي تظهر فقط عندما تتعسّر الأمور؛ ربَّما بسبب وظيفتها الأصلية المُتمثلة في تحسين قوّتنا الشائكة في أوقات الصراع. وقد كتب (جون ستوسنجر): «لقد تذكر كبار السن الذين تحدثت إليهم عن الحرب اندلاعها في وقتٍ من المجد، والفرح الصاخب. كان مرور الوقت قد جعل نظريتهم لذكرياتهم رومانسيّة، وكتم الأمل، وأخمد الرُّعب»؛ لذا يبدو أنهم مع الحرب. إننا ننسى الحرب الأخيرة لدرجة كافية تجعلنا متفائلين بشأن الحرب التالية. قد يكون هذا إرثًا آخرَ من تاريخنا التطوري - يُعدّ حجب المعلومات السلبية ظاهرة معروفة يحتمل امتلاكها لوظائف تكيّفية مهمَّة - لكن يمكن أن يكون لها عواقب وخيمة. حتى دروس الحرب العالمية الأولى الصارمة تصبح في طيِّ النسيان في كثير من الأحيان، لكنَّ أهوالَها غير المتوقّعة قد ساهمت إلى حدٍّ ما فيما وصفه (جون مريمان) بـ«تحطيم الأوهام التي تقول إنَّ الحرب يمكن أن تكون قصيرة، ومجيدة».

# الفَصْلُ الرَّابِعُ
# أزْمَةُ مِيُونِيخ

«رئيس الوزراء، والسير توماس إنسكيب، والسير جون سيمون... إنهم لا يبصرون ما يبدو لغيرهم أوضح جوانب العالم المعاصر؛ فهي ببساطة لا تصل إليهم. وفي حالة رئيس الوزراء، يُعدّ هذا العمى عنصرًا أساسِيًّا من عناصر قوَّتِهِ، فلو تمكَّنَ من الإبصار ولو قليلًا، ولو كان مدركًا أقلّ الإدراك لفَوْضَى أفكار، ومشروعات ومخططات إنقاذ الدولة؛ تلك التي تُعذّب سائرنا، لأهلكه اعتلال ثقته العمياء السَّافرة بنفسه.»

[جون مايناردكاينز].

«لقد تسبّب خطاب هتلر المولع بالحرب في 26 سبتمبر، وجرأته في دبّ الرعب في قلوب الأغلبية العظمى البريطانية والفرنسية إلى حَدِّ إجبارهم على التراجع؛ لقد كان تحذيرهما مجرَّد خديعة.»

[جلين سيندر، وبول ديزينج].

تعمل دراستي لحالتي الأزمة على اختبار فرضيّتي العكسية - تلك التي تفترض أنه في حين أن الأوهام الإيجابِيَّة قد تدفع الدول في طريق أزمة يزيد فيها احتمال وقوع الحرب، فإن خفضًا لاحقًا للأوهام الإيجابِيَّة يؤدِّي إلى السلام، لا الحرب. وكالحرب العالمية الأولى؛ تمثّل أزمة ميونيخ حالة اختبار صعبة، كون الأوهام

الإيجابِيَّـة غيـر متوقّعـة: فكلّ مـن دول الحلفـاء وهتلر كانوا قـد قَضَوْا مـدة طويلة فـي تقييـم دوافع الجانـب الآخـر، وإمكانياته (مسـتبعدين بذلـك فَرْضِيَّـة أن القـرارات كانـت مجـرد ردود أفعـال متسـرّعة)؛ كمـا كانـت الخيـارات البديلـة متوفّـرة (مسـتبعدين بذلـك فَرْضِيَّـة أن القـرارات لـم تمثّـل سـوى مجريـات الأحـداث الوحيـدة الممكنـة)؛ وكانـت المعلومـات الاسـتخباراتية - رغـم النقص الـذي اعتراها في بعـض الجوانـب الأساسـية - كافيـة للسـماح لصُنَّـاعِ القـرار بتقديـر أوجـه عـدم التماثـل العامـة (مسـتبعدين بذلـك فَرْضِيَّـة أن القـرارات كانـت صائِبَـةً بالنظـر إلـى المعلومـات الناقصـة). (انظر جـدول 2).

جدول 2 – أزمة ميونيخ: استبعاد التفسيرات البديلة الأساسية، ونظرة عامَّة على الاستنتاجات.

| | بريطانيا | ألمانيا |
|---|---|---|
| فرصة التقييم | طويلة | طويلة |
| الخيارات البديلة | نعم | نعم |
| توفّر المعلومات | يعتريها بعض الفساد | معقولة |
| الأوهام الإيجابِيَّة؟ | بعضها[1] (ولكن ليس في النهاية) | نعم (ولكن ليس في النهاية) |
| العامل الأساسِيّ | توقع السلام الدبلوماسِيّ (في النهاية: الخوف من الحرب) | طموحات جامحة (في النهاية: الخوف من الهزيمة في حرب سابقة لأوانها) |

(1) كان لدى (تشامبرلين) أوهامٌ حيالَ نوايا هتلر، لا حيالَ إمكاناتِهِ العسكرية.

كذلك تعدُّ «أزمة ميونيخ» حالة تجريبية صعبة؛ لأنها إحدى أكثر الأزمات التي أُجريت عليها دراسات مكثَّفة في التاريخ، ومن هنا فإنَّ لها تفسيراتٍ راسخةً، ومقبولةً عند الكثيرين.

أرى أن رئيس وزراء بريطانيا (نيفيل تشامبرلين) قد تمسّك بأوهامٍ إيجابية حيالَ نوايا هتلر، إن لم تكن حيال إمكاناته (وقد بالغ في تقدير الأخيرة، مع أنَّ الواقع كان غير ذلك).

كان معنى ذلك أنه على الرغم من تأثير الآراء المُفْرِطَة في التفاؤل في سعي (تشامبرلين) الدؤوب لتحقيق سلامٍ غير محتمل، فإنه لم تكن هناك أوهامٌ إيجابِيَّة بشأن احتمالِيَّة تحقيق الحلفاء للنصر حينئذٍ.

وعلى الجانب الآخر، ورغم أن طموحات هتلر الجامحة الجريئة قد تسبّبت في الأزمة، كان برنامج إعادة التسلح ما يزال ساريًا، كما نجح مستشارو هتلر في إخماد أيّ توقّعات بسهولة انتصاره في حربٍ حينئذ؛ ولذلك أرى أن تلك الأزمة لم تتحوَّل إلى حرب - على الأقلّ جزئيًّا - بسبب أن الاستراتيجِيَّات المُفْرِطَة في التفاؤل في البداية، والتي أدَّتْ إلى حدوث الأزمة، قد انقشعت بنجاح.

# خَلْفِيَّةُ الْبَحْثِ

في 16 سبتمبر عام 1938، خطب هتلر في مؤتمر الحزب النازي مطالبًا بوهب حقٍّ تقرير المصير للناطقين بالألمانية من سكان إقليم السوديت (ثم تشيكوسلوفاكيا). كانت تلك آخر حركة من سلسلة الحركات الألمانية العنيفة، وكانت أوروبا تُرسي ببطء حلًّا يكبح جماح طموح هتلر الذي بدا أنه كان بلا هوادة. طلبت الحكومة التشيكية من الروس تأكيد احترامهم للمعاهدة الروسية التشيكية في حالة غزو ألمانيا لها، وأجاب الروس بالموافقة، لكنّه كان مشروطًا بما ستفعله فرنسا. ادَّعى الفرنسيون كذلك أنهم سيحترمون معاهدة التحالف مع تشيكوسلوفاكيا، غير أن استجابتهم العسكرية ستتوقف على ضمان توفير بريطانيا لقوة هجومية، إذ إنَّ رئيس الوزراء الفرنسي (بالاديير) كان يعتقد أن الجيش الفرنسي لا يقدر إلَّا على لعبِ دورٍ دفاعِيٍّ؛ لذا جرى تمرير المسؤولية من الروس إلى الفرنسيين إلى البريطانيين، بوصفهم الضامنين الأساسيين لحماية تشيكوسلوفاكيا.

وعلى الرَّغْمِ من تهديد المعارضة متعدِّدَة الجنسيات الذي كان يلوح في أفق ألمانيا، ظلَّ هتلر عازمًا على بلوغ أهدافه، وكان خطر احتماليّة وقوع الحرب مُخيِّما على أوروبا طوال الأزمة. لكن الدول تمكّنت أخيرًا من تفادي الصراع بواسطة اتفاقيّة القوى الأربعة التي وقّعتها كلٌّ من: بريطانيا، وفرنسا، وإيطاليا، وألمانيا

في 30 سبتمبر، والتي حقّقت السلام على حساب التشيكيين الذين لم يكونوا جزءًا من الاتفاقية، لكنهم رغم ذلك أُجْبِروا على قبول بنودها (كون المطلب الرئيسي فيها كان ضمّ ألمانيا للسوديت الغنية صناعيًّا). ورغم أن الطرفين أوهما بعضهما بامتلاك القوة، إلَّا أن دول الحلفاء لم تتصدّ لهتلر عسكريًّا عام 1938، وفضّل هتلر أيضًا الوسائل الدبلوماسية بدلًا من العسكرية في تلك المرحلة. لكن لم ينقضِ سوى عام واحد حتى تغيّر المشهد بما يكفي ليختار هتلر الحرب.

## بريطانيا

### ■ المعلوماتُ وردُّ الفعل

يشيع عرض قصّة المخابرات البريطانية قبل الحرب العالمية الثانية بوصفها فهرسًا للنقائص والأخطاء. من ذلك أنه لم يكن هناك تنسيق جيِّد بين الدوائر المختلفة لجمع المعلومات الاستخباراتية، وبين تقييمات تلك المعلومات في الفترة ما بين الحربين العالميتين. فالمنظّمة التي تأُسّست عام 1936 بهدف مركزية تحليل المعلومات الاستخباراتية - لجنة الاستخبارات المشتركة (JIC) - «قد قاطعتها تقريبًا وزارة الخارجية حتى شهر يوليو من عام 1939، ولم تُحقّق سوى القليل عقب اندلاع الحرب. وفي الأعوام الأخيرة من السلام، والأشهر الأولى من الحرب،

تسلّم (وايتهول) مزيجًا فريدًا من المعلومات الاستخباراتيّة النافعة والمروّعة، وكثيرًا ما كان يعجز عن التمييز بين الاثنين». أدّى ذلك إلى وقوع بعض الأخطاء الجوهرية في تقييم الإمكانات الألمانية. لكن هذه الأخطاء - إن كان لها من أثر - قد بالغت في تقدير القوة العسكرية لألمانيا، وفي سرعة برنامج إعادة التسلُّح الذي أجرَتْه، وهو ما أعطى الحلفاء انطباعًا بضعف احتمالية نصرهم في حال اندلعت الحرب. كان هتلر يُوهم الحلفاء، وقد نجح في ذلك نجاحًا كبيرًا:

في 1936، مثلًا، كانت أفضل افتراضات المخابرات البريطانية مبالغًا فيها بالكامل. وفي عام 1940، وعندما ساد افتراضُ أنْ تطغى قوة الجيش الألماني على الجيش الفرنسي، وتهزمه بكلِّ سهولة، كان الجيش الفرنسي يمتلك في الحقيقة عددًا أكبرَ من الدبابات التي امتلكها الجيش الألماني. وبحلول عام 1940، كانت بريطانيا العظمى تنتج عددًا أكبرَ من الدبابات والطائرات - بل كانت تُنتج عددًا أكبرَ من كلّ شيءٍ عدا البنادق - ممَّا كانت تنتجه ألمانيا، وظلت مُتفوّقة عليها طيلة الحرب. لم يكن الأمر أن ألمانيا امتلكت أسلحةً أكثرَ، بل أن هتلر قال في مرحلة مبكرة جِدًّا أنِها تمتلكها.

والحقيقة أنَّ الأمر الذي كان يمثّل أهميةً أكبرَ في دبلوماسية ما قبل الحرب كان تقييم أهداف ألمانيا ونواياها، عوضًا عن قوتها

العسكرية؛ إذ لم تكن الإمكانات العسكرية ذات صلة إن لم تكن ألمانيا ستحارب. إن تقييم النوايا شاقٌّ إلى درجة أن الدول، كما يقول (روبرت جيرفيس)، غالبًا ما تلجأ إلى «نهجٍ لو كان من اقتراح شخصٍ أكاديمِيّ، لنُظِرَ إليه باعتباره مثالًا على مدى بُعد العلماء والمثقفين عن الوقائع الدولية. وفي مناسبات عِدّة، كانت الدول تسأل خصومَها عن رغباتها بشكل مباشر، ولطالما ناقشت بريطانيا فكرة توجيه مثل هذا السؤال لهتلر». كان ذلك ما يثير شكوك البريطانيين. وفي النهاية، سأله (تشامبرلين)، واشترى خُدع هتلر بالجُملة.

وعلى الرغم من توافق مصادر المعلومات الاستخباراتية المختلفة في تأكيدها على وجود عملية إعادة تسليح ألمانية متسارعة، فقد اختلف المسؤولون البريطانيون حول كيفية التصرف بناءً على هذه المعلومات. من ناحية، كان هناك مؤيدو سياسة التسوية، أو الاسترضاء **Appeasement** (بقيادة تشامبرلين)، ممَّن اعتقدوا أن ألمانيا لا تشكّل بالضرورة خطرًا على بريطانيا، وأنه يمكن السعي إلى السلام. ومن ناحية أخرى، كان هناك من عارضوا التسوية السياسية (وأبرزهم تشرشل)، ممّن تنبَّؤوا بوقوع الحرب، أو على الأقل بالحاجة إلى تهديدٍ حقيقيٍّ رادعٍ، فصَدَحوا بالتالي بمطالبات تعزيزٍ ضخم للأسلحة. كما تعلّق (تشامبرلين) بأمل إمكانية التفاوض على السلام، والأهمّ من ذلك أنه أبقى على

وجهة نظره بكون نوايا هتلر محدودة - مُصدِّقًا ادّعاء الألمان بأنهم لا يريدون سوى تدارك المظالم التي وقعت عليهم في «معاهدة فرساي»، وتوحيد الشعوب الناطقة بالألمانية. وبالنسبة له «كان من الأفضل كسب صداقة ألمانيا بالكرم، بدلًا من خلق عداوة معها بصلابة هي في الأساس مجرّد خدعة؛ نظرًا لضعف بريطانيا العسكري. كان موسوليني يهدِّد السلام هو الآخر بطموحاته المتطلّعة لإيطاليا. ونظرًا للظروف المُلتهبة، شعر (تشامبرلين) بأنه «من أجل تجنّب خطر الحرب، فقد كان لزامًا عليه الأخذ بزمام المبادرة لتحسين العلاقات مع ألمانيا وإيطاليا، وأنّ هذا هو السبيل الوحيد لتحقيق التوازن بين التزامات بريطانيا المُحتملة، وبين أهدافها العسكرية». ورغم أن سياسة (تشامبرلين) حصلت على بعض الدعم، إلّا أنها لقيت استهجانًا كبيرًا، ففي فبراير من عام 1938، استقال سكرتير وزارة الداخلية، (أنتوني إيدِن)، من منصبه بسبب سياسةَ التسوية السياسية، وحل محلّه اللورد (هاليفاكس) الذي يدعم آراء (تشامبرلين). في تلك الأثناء، كانت ألمانيا مستمرّة في التسلح.

كذلك بدا أنّ القادة الفرنسيّين يتّبعون سياسة تفاؤلية تتعارض مع المعلومات الاستخباراتيّة حول أهداف هتلر. وحسب ما قاله (جيمس ريتشاردسون)، فقد قدّم السفير الفرنسي المخضرم في برلين، (أندريه فرانسوا - بونسيه)، في أثناء الأزمة «أدلّة وافرة»

علـى أن «هـدف هتلـر الحالـي يتجـاوز مجـرّد توفيـر حـقّ تقريـر المصيـر. غيـر أنـه لا مؤشـر علـى أن ملاحظاتـه الثاقبـة كان لهـا أدنى الأثر علـى السياسـة الفرنسـية».

وقـد تجلّـت آراء (تشـامبرلين) المحـدّدة للغايـة فـي عـددٍ مـن النواحـي، فقـد قاوم بشِـدّة الدخول فـي مفاوضات مع روسـيا التي لم يثـق فيهـا، تلك التـي رأى أنهـا ضعيفـة بعد تطهيـر (سـتالين) للجيش الأحمـر. لكـن سـيكون مـن الضـروري التعـاون مـع روسـيا لبنـاء تحالـف موثـوق به ضـد ألمانيا، وأصبـح (تشـامبرلين) معـزولًا تمامًا فـي مجلـس الـوزراء لرأيه حـول هذه المسـألة. لكنّه سـلّم فـي النهاية للأمـر، غيـر أن المفاوضـات التـي جـاءت متأخـرة لـم تتمكـن مـن الحيلولـة دون إبـرام معاهـدة عـدم الاعتـداء النازية السـوفييتية، والتي أُبْرِمَـتْ فـي 23 أغسـطس مـن عـام 1939، وصدمـت العالـم أجمع. ولعـلّ الأمـر الأكثـر أهميـة هـو أن (تشـامبرلين) رأى فـي الأمـر هدفًا شـخصِيًّا بمنـعِ حـرب أخـرى مـن الانـدلاع أمـام عينيـه. ولا عجب، فقـد تأثّر أشـدّ التأثـر بالحـرب العالمية الأولـى، وصمَّم علـى ألّا تقع هـذه الكارثـة مـرة أخرى.

وعندمـا فشـلت المفاوضـات بيـن الألمـان، والتشـيك في صيف 1938، أخذ (تشـامبرلين) على عاتقه في «مبادرة مسـرحية شـخصية» الذهـاب إلـى ألمانيـا للاجتمـاع بهتلـر، وقـد اتخـذ هـذا القـرار دون الرجـوع إلـى مجلـس الـوزراء. وفـي الاجتمـاع، رتّـب هـو وهتلـر

لانفصال السوديت المحتمل. وفي 22 سبتمبر، سافر رئيس الوزراء إلى ألمانيا من جديد بافتراض تأكيد التفاصيل فحسب، لكن (هتلر) طالب حينها بالمزيد: احتلالٌ عسكريّ ألماني للمنطقة الناطقة بالألمانية، وقد نظر (تشامبرلين) في أمر منحه حتى هذا، لكنّ مجلس الوزراء البريطاني رفض أيّ شروطٍ كهذه. بدا الصراع الآن يلوح في الأفق، وجزء كبير من أوروبا كان يتوقّع حدوثه. ولكن مع وقوفهم على شفا الحرب، حثّ (موسوليني) (هتلر) على دعوة (تشامبرلين) و(دالاديير) إلى مؤتمر جديد في ميونيخ. وفي هذه الاجتماع المعروف لنا الآن، استطاع (تشامبرلين) التغنّي بالنّصر لحصوله على بعض التنازلات البسيطة من (هتلر). أضف إلى ذلك أنه حَمَلَ (هتلر) على التوقيع على ورقة بيضاء أسطورية، والتي كانت تصريحًا بعدم دخول بريطانيا وألمانيا الحرب أبدًا.

لم يمضِ سوى ستة أشهر حتى غزت القوات الألمانية تشيكوسلوفاكيا في 14-15 مارس عام 1939. وقد حذر رئيس التشيك (بينش) حكومته من مقاومة الغزو؛ لأنه رأى أنّ المقاومة لن تجلب سوى الكوارث، وآلمه الوعي بأنّهم لا يستطيعون ردّ العدوان الألماني دون مساعدة الحلفاء. وقد فكر تشرشل، رغم أنه لم يكن قد تسلّم مقاليد السلطة بعد، في إرسال برقية إلى (بينش) يقول فيها: «أطلِق مدافعك، وسيكون كلُّ شيءٍ على ما يُرام.» لن نعرف يقينًا ما إذا كان الحلفاء ليتدخلّوا حقّا حينئذ في حال اختارت تشيكوسلوفاكيا المقاومة. لكن على أيَّة حال، أصبح

(تشامبرلين) رمزًا للدرس الذي تعلّمه العالم بعدم التسوية مع الدول العدوانية.

## ■ الأوهام الإيجابِيَّة

في بداية ثلاثينيات القرن العشرين، كانت هناك بعض مظاهر التفاؤل العسكري في بريطانيا، وكان معظم الجدال مُتمحورًا حول القدرات الاقتصادية، والإنتاجية للخصوم المحتملين في حربٍ أوروبية، بدلًا من أن يكون بشأن التّوازن العسكريّ نفسه. وحتى بعد شدائد الحرب العالمية الأولى، ظلّت الإمبراطورية البريطانية عملاقًا اقتصاديًّا، وظن الكثيرون أن هذا سيضمن قوّتها الفائقة. فحتى 1937 على الأقل، كان الاقتصادي البريطاني الرائد (جون مينارد كاينز)، على ثقة تامّة باحتفاظ بريطانيا بتفوّقها: «إنه أمر محتمل في الوقت الحاضر، لكنّه مؤكد خلال عامين أو، ثلاثة: سوف تكون بريطانيا العظمى صاحبة أعظم قوة بحرية في المياه الأوروبية، وهي قوة تفوق أيّة قوة كانت تمتلكها في تاريخها كلّه. إنني على يقين من أنّ قواتنا البحرية لا تخشى أيّة هجمات جوية. إن ألمانيا لا تملك أيّة قوّات بحرية على الإطلاق، ومن الناحية العملية، فإنّ إيطاليا لا تملك هي الأخرى قواتٍ بحرية». وفي تلك المرحلة، قدّر (كاينز) أيضًا أنه إذا وصل الأمر إلى الحرب، «فيمكن لتشيكوسلوفاكيا أن تُبلِيَ بلاءً حسنًا بنفسها، حتى وإن تُركت كليًّا دون أيٍّ دعمٍ».

غير أنه بحلول أزمة ميونيخ، أعادت ألمانيا تسليح جيوشها بقوة، وتمكّن صُنّاع القرار الرئيسيين من معرفة نقاط الضعف النسبية في الجيش البريطاني معرفة تامّة. وكان رؤساء أركان القوات المسلحة قد حذّروا (تشامبرلين) قبل مؤتمر ميونيخ مباشرة من أن «اتّخاذ أيّ إجراءٍ هجومِيّ» قبل حصولهم على فرصة للتنظيم «سيكون بمثابة مهاجمة نمر قبل تعمير البندقيّة.» وقد حذر (تشامبرلين) نفسه قائلًا: «يجب ألّا نُعجِّلَ بصراعٍ في الوقت - سوف نتحطّم». وقد تصرّف البريطانيون على أساس هذه المعلومة في خيارات سياسية تالية تصبُّ في صالح السلام: «كانت المصالح البريطانية فيما يخصّ تشيكوسلوفاكيا قد خضعت لبحثٍ منهجيٍّ على يد لجنة السياسة الخارجية التابعة لمجلس الوزراء مباشرة بعد عملية آنشلوس [مع النمسا]. كان ذلك بعد سلسلة من التقييمات المبكّرة التي أكّدت على القيود التي تفرضها محدودية القوة العسكرية البريطانية. ورغم إعادة تسلّحها بالكامل؛ فإنّ بريطانيا لم تستطع تأمين الإمبراطورية ضدّ ثلاث قوى عظمى، ولم يكن هناك دفاع جوِّيّ قويّ حتى عام 1939. لم تثقْ بريطانيا في أيِّ حليفٍ مُحتمل، ولكن كان عليها أن تدعم فرنسا ضد هجوم ألمانيا».

الأدهى والأمَرّ هو أنَّ صُنَّاعَ القرار في بريطانيا كانوا يستهينون بالدرجة التي يمكن بها لقوّاتهم أن تردع هتلر. ففي الأعوام التي

سبقت الحرب العالمية الثانية، ربّما تكون بريطانيا قد «ردعت نفسها» بخوفها الكبير من رغبة الألمان في استخدام القوة الجوية «لمَحْوِ لندن عن بَكْرَةِ أبيها بمجرد نشوب حرب عالمية»، وقدرتهم على فعل ذلك. لقد بالغوا في تقدير الدمار الذي قد تسبّبه القنابل الجوية بسبب البيانات غير الصحيحة. وعزّزت هذه النظرات التشاؤمِيّة من المعتقدات التي كانت موجودة بالفعل، وهي مُعتقدات لم تُراجَع قط. قال (تشامبرلين): «لا نستطيع تعريض أنفسنا الآن لهجومٍ ألماني، وفعلُنا لذلك سيكون بمثابة انتحار. ليس بمقدورنا، في أيّة حالٍ من الأحوال، مواجهة قصفٍ جوّيٍّ ألمانيٍّ». لقد أخطأ القادة البريطانيّون في اعتقادهم بأن لدى ألمانيا النّية، أو القدرة، على قصف المدن البريطانية. لم يكن أيٌّ من الظنّيْن صحيحًا: فقد أُنشِئت القوّات الجوية الألمانية لوفتفافه Luftwaffe في الأساس لدعم القوات البرِّيّة، ولم يكن هناك مخطّط لشنّ أيّة غاراتٍ جوية (أما الهجوم الجوي الذي وقع أثناء معركة بريطانيا عام 1940 فلم يكن جزءًا من خُطط الحرب المبدئِيَّة لدى ألمانيا، والقوّة التي استُخدِمت لتنفيذه «كانت قوة مُرتَجلة»).

وكأنَّ هذه التفسيرات الخاطئة للنوايا الألمانية لم تكن سيِّئةً بما يكفي؛ فزاد عليها البريطانيون مبالغتهم في تقدير قوة ألمانيا الجوية. ويبدو أنّ هذه التصوُّرات الخاطئة قد أصبحت ثابتة؛ كونها

تلائم التصوّرات المسبقة لكلٍّ من مؤيِّدي التسوية ومعارضيها، إذ أظهرت للجانب الأول أنَّ ضريبة الحرب ستكون باهظة، ومن ثَمّ ينبغي تجنّبها؛ أما الجانب الثاني فقد أظهر لهم وجودًا أكبرَ لقوات (لوفتفافه Luftwaffe) أنَّ ألمانيا أصبحت أكثرَ عدائِيَّةً، ومن ثَمّ يجب تقوية القوَّات الجوِّيّة الملكية لمواجهتها. أدّى هذا التعزيز لكلا المعتقدَيْن المتعارضيْن إلى توسيع فجوة سوء الفهم، وتثبيت أقدامه، ونتج عن ذلك أن «أدَّت القوات البريطانية لهتلر جزءًا كبيرًا من مهمته. فرغم أنه سعى إلى ردع بريطانيا، فلا يمكن استشفافُ تفسيرٍ للتصوُّرات البريطانية بالكامل من السلوك الألماني. كما تسبّبت التخيُّلات البريطانية التي تصوَّرتها جماعات مختلفة لأسباب مختلفة في إعاقة إجراء تحليلٍ دقيق للخطر الجوي الألماني، وأدّت بصُنّاع القرار البريطانيين إلى تقبُّل الآراء التشاؤمية.

لذا فبحلول مؤتمر ميونيخ، ورغم أنه لا يمكن القول إنَّ (تشامبرلين)، أو أيّ شخص آخر من صُنَّاعِ القرار، قد رسَّخوا أيّ أوهامٍ إيجابِيّة بشأن الإمكانات البريطانية (الحقيقة أن تقييماتهم الخاطئة تسبّبت في تضخيم التهديد)، فإنّهم قد بالغوا في الاستهانة بنوايا هتلر الكبرى. لقد ظل (تشامبرلين) على نظرته المُفرِطَة في الورديّة بأنّ هتلر لا يملك سوى أهدافٍ محدودة؛ رغم الدلائل المُتزايدة على ما يناقض هذه النظرة. «طوال الأزمة، وبعدها، ظل (تشامبرلين) مقتنعًا بأنَّ استراتيجية التسوية السياسية

التي تبنَّاها كانت في طريقها إلى النجاح. وقد فعل ذلك بتفسير الإثباتات على نحوٍ يناسب تصوُّراته المُسْبَقَة، وتجاهل الأدلّة السلبية المباشرة، أو التشكيك في مصدرها». وعقب أزمة ميونيخ، أصبحت تصريحات (تشامبرلين) العَلَنِيّة «متفائلة بازدياد». وحتى بعدما زحف هتلر إلى براغ في 15 مارس 1939، مُبَرْهِنًا بما لا يدع مجالًا للشكّ على أنه لم يكن يصحّح من أخطاء «معاهدة فرساي»، أو يسعى إلى حقّ الشعوب الناطقة بالألمانية في تقرير مصيرها فحسب، بدا (تشامبرلين) «غير مُستعدٍّ في البداية لتقبُّل فكرة أن سياسة «التسوية» التي اتّبعها قد دارت دورتها الطبيعية، وفشلت». أما (هاليفاكس) الذي كان داعمًا كبيرا لـ (تشامبرلين) حتى تلك اللحظة، فقد بدأ يحيد عن آرائه.

هل من العدل أن نَسِمَ سياسة التسوية التي تبنَّاها (تشامبرلين) بأنّها مُفرِطَةٌ في التفاؤل؟ يشير كمُّ الأدلة التاريخية، والمقاومة العتيدة في ذلك الوقت إلى أنها كانت غير واقعية، لكن كان هناك بعض الحجج التي تسوِّغ السعي وراءها. ويشير (جيمس ريتشاردسون) إلى أن التسوية السياسية في ذلك الوقت، يمكن أن تُرى على أنها مقامرة تستحقُّ الجهد إن كان بإمكانها تجنيب الدولتيْن الحرب. وعِوَضًا عن سوء فهم صُنَّاع القرار البريطانيين «لنوايا هتلر الكبرى»، فإن (ريتشاردسون) يرى أن سياستهم كانت «قائمة على الرِّيبة»، وأنَّ بقاءَ الرِّيبة «سيجعلهم يعزِفون عن اتِّخاذ

أيّـة خطـوة يعتقـدون أنهـا سـترفع مـن خطـورة وقـوع حـرب يُمكـن تجنُّبهـا بوسـيلةٍ أخـرى». ورغـم ذلـك، يذكـر (ريتشاردسـون) أنَّ «أحـدًا مـن الجانبيـن لم يفهـم نوايا الجانـب الآخر بالضبـط على نحوٍ صحيـح». وكان (تشـامبرلين) «مُقتنعًـا بـأنّ الهيـر (هتلـر) لـن يحنـث بوعـده بمجـرّد أن يقطعـه»، وظـلَّ واثقًـا مـن أنّ هـدف (هتلـر) كان «الوحـدة العِرْقيـة، وليـس الهيمنـة علـى أوروبـا».

و(جـون ميرشـايمر) - الـذي يـرى التسـوية السياسـية عمومًـا اسـتراتيجية كارثيـة - يسـمّي أزمـة ميونيـخ «الحالـة الوحيـدة التـي أعرفهـا» التـي يمكـن فيهـا تبريـر التسـوية السياسـية؛ وذلـك لكسـب الوقـت للتسـليح، ويعـود ذلـك «جزئيًّـا لكـون الزعمـاء السياسـيين البريطانييـن كانـوا يعتقدون أن توازن القوى يُرجّـح كِفَّة الرايخ الثالث، لكنّـه سـيتغيّر بمـرور الوقت لصالـح المملكـة المُتحدة وفرنسـا»؛ لذا ربمـا كان (تشـامبرلين) مُحقًّـا في اسـتخدام التسـوية السياسـية كخُطّة للمماطلـة. غيـر أنّ تحليـلات (سـتيفين ووكـر) المُتعمّقـة لمعتقدات (تشـامبرلين)، وغيـره مـن صُنَّـاع القـرار، توضّـح أن الثقة في سياسـة التسـوية كانـت حقيقيـة، وليسـت لكسـب الوقت. وحسـب مـا يقوله كُتـابٌ آخـرون، فـإن حجّـة «كسـب الفرصـة لالتقـاط الأنفـاس» هذه «لـم يسـتخدمها (تشـامبرلين) في ذلك الوقـت... لأنـه كان مقتنعًا بأن التفاهـم مـع ألمانيـا كان ممكنًـا، وظـلّ يعتقـد ذلـك حتى مـارس من عـام 1939، بـل وبعـده أيضًـا».

# ألمانيا

## ■ المعلوماتُ ورَدُّ الفِعْل

قبـل انـدلاع الحرب العالميـة الثانية، كانت المخابرات العسـكرية الألمانيـة مـن بيـن أفضـل المخابـرات العسـكرية فـي العالـم. وقـد تلقّـى (هتلـر) «معلومـات وفيـرة، وإن لـم تكـن صحيحـة بالضرورة، مـن الآثـار التراكمِيَّـة لفيضـان المعلومـات الروتينيـة، ومـن موجزات الصحافـة الأجنبيـة، ومقتطفـات الخدمـات البرقيـة. وكان رئيـس صحافتـه قـد كتـب لاحقًـا يقول: «علـى الأرجح أنـه لم يوجـد قطّ في جميـع أنحـاء العالـم رئيـس حكومة كهتلـر في سـرعة اطّلاعـه الكبير علـى الـرأي العـام». كانـت هنـاك مشـكلات فـي اسـتخدام (هتلـر) التفـرّدي لهـذه المعلومات الاسـتخباراتية وعملية اتّخاذه الاسـتبدادية للقـرار، وقد أتـى التنافس بيـن وكالات المخابرات من أجل اسـترعاء انتباهـه بنتائـج عكسـية. لكـن كان هنـاك مـا يكفـي مـن المعلومـات الجيـدة المُفلْتَـرَة مـن بيـن كلّ تلـك المعلومـات للسـماح بتقييمـات القـرارات الاسـتراتيجية الكبـرى، كخيـار الشـروع فـي الحـرب مـن عدمـه. وبالفعـل، كانت المعلومـات المتوفّـرة جيِّدَةً بمـا يكفي لإثارة معارضـة قويـة بيـن الكثيـر مـن مستشـاري (هتلـر) ولواءاته أنفسـهم، وكان أثـر ذلـك عظيمًـا؛ نظـرًا لطبيعـة نظام حكمـه، وطبيعـة وكالات مخابراتـه، والمُختـارة لجلـب معلومـات تُرضيه.

كانت المشكلة الأساسية تتمثّل في جهل (هتلر) بالأطراف التي ستكون خصمه النهائي. لم يكن هناك ارتباطٌ وثيقٌ بين دول الحلفاء بعد، وكان وضع بريطانيا، وروسيا، والولايات المتحدة غير واضح؛ لذا فحتى وإن كانت المعلومات الاستخباراتية جيِّدَةً إلى حَدٍّ كبير، تظلُّ هناك مُشكلةٌ جوهرِيّة تمثّلت في تقييم الأعداء غير المُعلن عنهم بعد مِمَّن سيتعيّن على ألمانيا محاربتهم.

ومن الأمور الحاسمة في حجّتي التي أقدّمها في هذا الفصل: تصرُّف (هتلر) بعقلانية كبيرة إلى حدٍّ ما - على الأقل قبل اندلاع الحرب - ورغم أن استراتيجيته الإجمالية كانت طموحة جِدًّا طوال هذه الفترة، إلَّا أنَّ دبلوماسية ما قبل الحرب التي اتَّبعها كانت تتميّز بتكيُّفها المستمرّ مع الظروف المتغيِّرة، وتجدّدها على أساس المعلومات الجديدة. من ذلك مثلًا ما حدث نهاية أحد أسابيع شهر مايو من عام 1938، حيث أصدرت بريطانيا، وفرنسا تحذيرات إلى ألمانيا ردًّا على أنباء عن تحرُّكات واسعة النِّطاق لقوَّاتٍ بالقرب الحدود التشيكية في ساكسونيا. الحقيقة أن هذه التحرّكات لم تكن سوى تدريبات عسكريّة، لكن يبدو أن (هتلر) قد فوجئ بالتحدِّي. كان الجيش الألماني ما يزال الطرف الأضعف حينئذ؛ «لم تكن «فيرماخت» (قوات الدفاع) مستعدة بعدُ لمجابهة التحدِّي البريطاني الفرنسي التشيكي»؛ لذا فقد أدرك (هتلر) حجم هذا الخطر المُحْدِق، وسحب القوّات الألمانية من المنطقة.

وفـي وقـت لاحـقٍ مـن ذلـك العـام، أراد هتلـر شـنّ هجـومٍ عسـكري علـى تشيكوسـلوفاكيا، ويعـود ذلـك جزئيًّـا لرغبتـه فـي الانتقـام للمَهَانـة التـي لَحِقَـتْ بـه فـي «أزمة نهايـة الأسـبوع» تلك في مايـو. غيـر أن مستشـاريه عارضـوا الغـزو بسـبب أن احتماليـة هزيمـة ألمانيـا كانـت مـا تزال قائمـة. وفي اجتمـاع عُقد في 20 يونيـو من عام 1938، أخبـره أحـد سـكرتارية وزارة الخارجيـة «باحتماليّـة أن يؤدّي هجومهـم الفـوري علـى تشيكوسـلوفاكيا إلـى فتـح بـاب صـراعٍ مـع البريطانييـن والفرنسـيين قـد يكـون أقوى من قـدرة الجيـش الألماني علـى المواجهـة والصمـود». يبـدو أن هـذه التسـوية قـد أُخِـذت على مَحْمَـلِ الجـدّ. وعلـى مـدار الأشـهر التاليـة كذلـك، صـار للتقييمات التي تشـير إلـى احتماليـة هزيمة ألمانيـا دورٌ واضح في قـرارات هتلر. وفـي وقـت لاحق مـن صيف تلـك السـنة، أي فـي الفترة التي سـبقت أزمـة ميونيـخ، «بـدا أن هتلر كان متـردِّدًا بخصوص مسـار العمل الذي يتعيَّـنْ عليـه اتّباعـه تاليًـا؛ لأنه في يـوم 30 أغسـطس، أخبره سـكرتير الخارجيـة ذاك مـرة أخـرى... أن غـزو تشيكوسـلوفاكيا سـيجعل مـن القـوى الغربيـة أعـداءً لألمانيا، وسـيؤدِّي بذلـك إلى حـربٍ أوروبية، وهـو مـا سـينتج عنه استسـلام ألمانيـا، عاجـلًا، أم آجلًا»؛ ولـذا كانت صناعـة القـرار فـي ألمانيـا عـام 1938مَبْنيّـة على قـدرٍ جيِّدٍ مـن العلم بالمُستجدّات.

## ■ الأوهـام الإيجابِيَّـة

مـن الواضـح أنَّ طموحـات (هتلـر) هـي التـي أدّت إلـى حدوث أزمـة ميونيـخ فـي المقـام الأول. بيـد أنّ ادعـاءات ألمانيـا وإيطاليـا بتفوقهمـا العسـكري كانـت محـض بروبجانـدا كبيـرة لإعطـاء صورةٍ وهميّـة عـن القـوة، فـي عـرضٍ مقصـود للمعـدات العسـكرية دون وجـود اسـتثمارٍ كاف فـي الذخيـرة أو قطع الغيـار أو القـوات البديلة. كان موسـوليني يعـي جيـدًّا نقطـة ضعـف إيطاليـا: «بالرغـم مـن كلّ مفاخراتـه العلنيـة، إلَّا أنّـه كان مُـدركًا لهشاشـة إيطاليـا العسـكرية والسياسـية، أكثـر مـن أيّ أحـد آخـر. لقـد كان مسـتعدًّا للتحـدث عن حـرب في عـام 1942 فـي حال أعطتـه ألمانيـا الذخائر؛ لكـن في عام 1939 - لا!» ولكـن يبدو أن موسـوليني كان متمسِّـكًا بنظرة مُتضخّمة للإمكانـات الإيطاليـة، رغـم علمه بنقـاط ضعف بلده. ويـرى المؤرخ (إيـه. جاي. بـي. تايلور) أن اسـتراتيجية الخداع الواعيـة، بعدما كانت مُتعمَّـدة فـي البدايـة، بـدأت تخدع (موسـوليني) نفسـه.

يبـدو كذلـك أن ثقـة (هتلـر) بنفسـه أمـام الجماهيـر فـي تلـك المرحلـة قـد طـوّرت نوعًا مـن خـداع الذات بعدئـذٍ: «كانـت الآلات العسـكرية الألمانيـة، التـي عزَّزتْ إعادة التسـلح من حيث «الاتسـاع» لا «العمـق»، ملائمـة فـي فتـرة مـا قبـل الحـرب لخدمـة دبلوماسـية الإرغـام التـي كانـت ينتهجها (هتلـر). لكن هـوس (هتلر) بهـذا النوع مـن إعادة التسـلح الاسـتعراضي كان لـه نتائج سـلبية بمجرد اشـتعال

نـار الحـرب. فبحلـول عـام 1939، وعندما أُخبِـر (هتلر) بـأنّ خزائن الذخيـرة كانـت فـي غايـة الشُّـح، ردَّ قائـلًا: «لا أحـدَ يتحقّـق ممّـا إذا كان لـديّ أيّ قنابـل أو ذخائر، المهـم هو عدد الطائـرات والبنادق».».

لكـن في أثناء الأزمة بشـأن السـوديت، «ورغـم أن الاقتصـاد الألماني كان مهيّـأ ليحـارب، إلَّا أنّـه لـم يكـن مهيّـأً للحـرب،» وكان (هتلـر) علـى علم بهـذا. وسـواء أنجحت أكاذيبهـم في تهديد الـدول الأخرى أم لا، فـكلا القائديـن الفاشـيّيْن، بـكلّ تطرّفهمـا اللّاحـق فـي وقـت أزمـة ميونيـخ، كانـا على علـم - أو تـمَّ إعلامهمـا - بالقـوى العظمى التـي سـتعارضهم، وفـي تلـك المرحلـة كانـت الأوهـام الإيجابِيَّـة المتعلقـة بإمكانيـة إلحـاق الهزيمـة بتلـك القـوى محـدودة؛ لـذا يبدو أن غيـاب الثقـة العسـكرية كان أساسـيًّا لتحقيـق السـلام. وبالطبـع، كان (موسـوليني) هـو مـن أقنـع (هتلـر) بدعـوة كلٍّ من (تشـامبرلين، ودالاديـر) إلـى ميونيـخ للتَّفَاوض.

كان (هتلـر) يُجـري تخطيطاتـه - فـي البدايـة علـى الأقـلّ - مـع لواءاتـه ومستشـاريه، وكانـت المعلومـات الاسـتخباراتية الرئيسـية تُناقـش مناقشـة مفتوحـة. وفـي تلـك الأوقـات، اسـتفادت عمليـة صناعـة القرار فـي ألمانيا من آراء أشـخاصٍ آخرين بشـأن المعلومات المتوفِّـرة، ولـم تكـن حاشـية (هتلـر) تدعـم خططـه كثيـرًا. يسـتبعد هـذا احتماليـة أن تكـون أفعـال (هتلـر) المُبكّـرة مجرّد قـرارات جيِّدة اتُّخِـذَتْ بِنَـاءً علـى معلومـاتٍ قليلـة: بـل علـى العكـس؛ كانـت تلك

المعلومـات نفسـها تُفسّـر بواسـطة شـخصيات مهمَّة أخـرى على أنها أسـبابٌ للتراجـع. وهـذا يوحـي بقـوة إلـى أن آراء (هتلـر) الشـخصية كانـت تتَّجِـه نحـو الجانـب المُفـرِطِ في التفـاؤل مـن الطّيـف. بيد أنّ سياسـة (هتلـر) الخارجيـة قبـل الحـرب، وفـي وقـت أزمـة ميونيـخ بالتأكيـد، لـم تكن بأيّة حـال من الأحـوال انعكاسًـا لتوقُّعاتِـهِ وحدها: فقـد ضَمِنَـت العلنيّـة النسـبية للنقـاش تقييمـا واقعيًّـا لفُـرص الإجراء العسـكري، حتـى وإن اشـترك الكثيـرون معـه فـي أهدافـه النهائيـة. وحسـب مـا يرى (تايلـور)، فقد كانـت أهدافـه أيضًا «أهدافَ سـابقيه، وأهـداف الدبلوماسـيين المحترفيـن فـي وزارة الخارجيـة، وبالطبع؛ أهـداف كل الألمـان تقريبًـا... لتحريـر ألمانيـا مـن قيـود معاهـدة السـلام، واسـتعادة الجيـش الألمانـي العظيـم، ومن ثـمَّ جعـل ألمانيا صاحبـة أعظـم قـوّة فـي أوروبا».

### هل ساهمت الأوهام الإيجابِيَّـة؟

## التّحَفُّظ البريطَانِيّ

كمـا سـبق ورأينـا، فقـد كان لـدى البريطانييـن ثقـة مبدئيـة فـي قوّتهـم المتفوقـة. ولكـن بحلـول عـام 1939، تغيَّـرتْ هـذه النظـرة تغيّـرًا كبيـرًا، بنـاء علـى سـلوك (هتلـر) المُتغيّـر، ونوايـاه المُغرقة في التوسّـع، وجيشـه الأكثـر تفوُّقًـا بكثير. عاب (تشرشـل) علـى بريطانيا فشـلها فـي التسـلح بسـرعة كافيـة. أمـا (كاينـز)، الـذي شـكا مـن أنَّ

استعدادات بريطانيا كانت «ضعيفة بسذاجة،» فقد لام قادة البلاد على الكارثة الوشيكة، وجديرٌ بالذّكر أنه ألمح إلى أنَّ ثقتهم في قدرتهم على تحقيق السلام كانت مَبْنِيّة على معتقداتٍ واهمةٍ، كما اتّهم (تشامبرلين)، والآخرين بكونهم «لا يبصرون ما يبدو لغيرهم أوضح جوانب العالم المعاصر»، وهذا يتوافق مع فكرة أنَّ الأوهام الإيجابِيَّة فعّالة على وجه التحديد؛ لأنها خادعة للذات.

يبدو أنَّ أوهامَ (تشامبرلين) الإيجابِيَّة حول نوايا (هتلر) أسهمت قطعًا في تصعيد أزمة ميونيخ عام 1938، لكن يبدو أنَّ الخوفَ من القوة العسكرية الألمانية قد جعل الحلفاء يحيدون فجأة عن المجازفة بدخول حربٍ في تلك المرحلة. وقد أدرك (تشامبرلين) نفسه أنّه «لو كنّا نمتلك الآن قوة متفوقة على قوة ألمانيا، لتعيَّن علينا على الأرجح النظر في هذه الاقتراحات بروحٍ مختلفة كليًّا». وبين أزمة ميونيخ، واندلاع الحرب عام 1939، استمر (تشامبرلين) في السعي إلى حَلِّ التفاوض المُضلّل الذي اقترحه. وبعدما غزا (هتلر) تشيكوسلوفاكيا، ازدادت قوّة القوات الألمانية بفعل الصناعة، والعتاد التشيكي الذي استولت عليه ألمانيا، ولم تعد مضطرة للاحتفاظ بدفاعاتٍ قوية عند حدودها الجنوبية. وفي حين أنه كان يمكن القول إن تحرّكات (هتلر) السابقة في أوروبا لم تكن سوى ردودِ فعلٍ غامضة على استراتيجية التسوية، فإن هذا الاحتلال قد حطّم الاتفاق المنصوص عليه في ميونخ.

وكتب (جون ميريمان) قائلًا: «حتى بالنسبة لـ (تشامبرلين)؛ فقد كان ذلك إيذانًا بانتهاء الأوهام». والحقيقة أن بعض الأوهام ظلّت موجودة إلى ما هو أبعد من ذلك، كمعتقدات (تشامبرلين) التي استمرّت رغم «المثيرات القوية والمُناقِضة» (غزو هتلر لتشيكوسلوفاكيا) التي جعلت الآخرين يغيّرون معتقداتهم. وحتى بعد غزو ألمانيا لبولندا في الأول من سبتمبر عام 1939، قضى (تشامبرلين) اليوم التالي محاولًا تدبير سلام منفصل مع ألمانيا. وبحلول هذا الوقت، تمكن بعض الناس من تحريف ذلك الدليل لدعم مثل هذه الآمال المتفائلة. وكان (جوزيف جويبيلز) قد كتب في يومياته في يوم الغزو: «ما زالت الصحافة الأجنبية تتحدث عن تسوية، لكنّ هذا محضُ وهم». ظلّ (تشامبرلين) عازمًا على تحقيق استراتيجية التسوية السياسية التي ابتدعها، رغم تواتر الأدلّة على فشلها.

كان (تشامبرلين)، الذي كان يبلغ من العمر 86 عامًا في وقت أزمة ميونيخ، أحد أكبر رؤساء الوزراء في الآونة الأخيرة، وقد أعلن في 1919 أنه لم يكن «يتطلع إلى حياة برلمانية»؛ «يبدو أنّني كبرت على أن يكون لَدَيَّ كثيرٌ من الطموح الشخصي». وكان تولّيه لمنصب رئاسة الوزراء عَرَضِيًّا إلى حَدٍّ كبير؛ فقد ترك السقوط المفاجئ لحلف (لويد جورج) في أكتوبر 1922 المجال مفتوحًا أمام حزب (تشامبرلين)، الذي كان رئيسه (أندرو بونار لو) ملزمًا

«بترقيـة عـددٍ من الشـخصيات من المراتـب المغمـورة». بمعنًى آخر، كان (تشـامبرلين) اسـتثنائيًّا من ناحية كونه كبيرًا في السِّـنِّ، لا لطموحه الكبيـر، بالإضافـة إلى عدم خضوعـه لعمليـات الانتقاء المُعتـادة التي تصطفـي القـادة مـن البقّية؛ لـذا مـن الممكن أنه لـم يمتلك الثقـة التي كانـت لـدى غيـره مـن القـادة، وأن هذا أسـهم في سياسـاته السـلميّة، وإحجامـه عن إثـارة الصراع.

## التَّحَفُّظُ الألْمَانِيّ

أسـهمت طموحـات (هتلـر) الاسـتراتيجية الجامحـة، وموقفـه المولـع بالقتـال فـي زيـادة المخاطـرة إلـى حَـدٍّ إحـداث أزمـة فـي المقـام الأول: كان لديـه - ولدى الآخريـن - اعتقادٌ بـأنَّ هذه الخطوة العدوانية سـتنجح. وبحسـب ما قاله (ريتشاردسـون)، فقـد كان يوجد فـي أثنـاء أزمـة ميونيـخ «قدر مـن التمنّـي في التوقعـات بعيـدة المدى لـدى كلٍّ مـن (هتلـر) ومنتقديـه». لكـن علـى الرغـم مـن احتماليـة أن يكـون هـذا التفـاؤل قـد أدّى إلـى حـدوث الأزمـة، فـإنّ أيّ أوهامٍ ألمانيّـة لـم تصل إلـى حـدّ الاعتقاد بنجـاحٍ عسـكريٍّ سـهلٍ. لقد كان معظـم المحيطيـن بـ(هتلر)، الذين لم يشـاطره كثيـرون منهم وجهات نظـره، متفقيـن علـى أنَّ ألمانيـا ستخسـر أيَّ مواجهةٍ عسـكريَّةٍ في عام 1938؛ لـذا تلقّـى (هتلـر) الكثيـر مـن النصائـح السـديدة، واسـتمع إليهـا، وتصـرَّف على أساسـها.

ولعلَّ الأوهامَ الإيجابِيَّةَ ساهمت في جرِّ القوى الأوروبية لأزمة عام 1938. لم يكن القادة منفردين في آرائهم، لكنّ الدلائل كانت تأتي بعكس ما تشتهيه سياساتهم مع العديد من الفئات في كلا البلدين. «فلطالما كانت مقامرات (هتلر) في سياسته الخارجية - إعادة تسليح راينلاند في عام 1936، وعملية آنشلوس مع النمسا، وميونيخ، وتدمير تشيكوسلوفاكيا - محل اعتراض من لواءاته، كما قابلها الشعب الألماني بالتخوّف». وبالفعل، فقد حاولت بعض فصائل الجيش الألماني تحذير البريطانيين من نوايا (هتلر) الكبرى؛ مرتين في عام 1938 ومرة أخرى في عام 1939، على أمل أن تحول الدبلوماسية دون حربٍ مُفْرِطَة في الطموح. ورغم المعارضة الداخلية الكبيرة من جانب البريطانيين كذلك، فقد سمح (تشامبرلين) لـ (هتلر) بأن يزداد جُرأة، وأن يَستولي على الموارد المادِّيَّة المُهِمّة. «كانت النصائح بشأن مميزات القتال الفوري أو اللَّاحق لا تُطلب إلَّا بعد فوات الأوان، ولم تكن تخضع لنقاشٍ كافٍ».

لكنْ بمجرّد أن زجّت هذه الاستراتيجيات الخطرة لكلٍّ من (هتلر) و(تشامبرلين) ببلديهما إلى شفا الحرب، جعل التقييم الصارم للإمكانات العسكرية الطرفين في خشية من بعضهما بعضًا، وفي محاولة لتجنّب الحرب. لم تكن لدى (هتلر) أوهامٌ إيجابِيَّةٌ تفيد بسهولة هزيمة الحلفاء في هذه المرحلة (أو إذا كان لديه، فقد

تمكَّن مستشاروه من منع ترجمة هذا الوَهْمِ إلى سياسة تُطبَّق).

ولم يتمتع صُنَّاعُ القرار البريطانيّون كذلك بالأوهام الإيجابِيَّة التي تجعلهم يعتقدون - في ذلك الوقت - أن بمقدورهم خوض حرب ناجحة ضد ألمانيا. «لم تكن ألمانيا مستعدة بعد لحرب كبرى، كما بذلت بريطانيا جهدًا متواصلًا لتجنُّب المواجهة، وذلك بعدما أجرت تقييمًا منهجِيًّا لمصالحها، وخياراتها».

وأكثر دليل دامغ على الأوهام الإيجابِيَّة في هذه الحالة لم يكن في تقديرات القوة العسكرية، أو في احتمالِيّة النصر، بل في تقييمات نوايا الخصم. ويتكرّر هذا الموضوع في دراسات الحالة الأخرى، فقد استنتج (ريتشاردسون)، الذي درس سبع أزمات للقوى العظمى منذ منتصف القرن التاسع عشر، أن التصوُّرات الخاطئة للإمكانيات العسكرية كانت سببًا لواحدة فقط من هذه الأزمات (اختيار روسيا للحرب مع اليابان في عام 1903)، لكنَّ التصوّر الخاطئ للنوايا كان عاملًا في تصعيدها كلها، وعاملًا شديد التأثير في ثلاثةٍ منها.

## لِمَ الحرب في 1939؟

باستنتاج أنَّ غياب الأوهام الإيجابِيَّة في وقت أزمة ميونيخ قد أدَّى إلى السلام، لا الحرب؛ يمكنني الآن دراسة التَّوَقُّع القائل إنَّ الأوهام الإيجابِيَّة كانت حاضرة عندما اندلعت الحرب في النهاية في عام 1939، وسأثبت لكم صحة هذا الأمر. في الفترة الفاصلة،

أصبح (هتلر) أكثر جرأة نتيجة نجاحاته المتعاقبة، وتعاظمت قلّة ثقته في مستشاريه، ووكالات المخابرات لديه؛ ممَّا جعله يبدأ في إزالة القيود التي كانت مفروضةً على مستوى ثقته بنفسه بالتدريج. والأهم من ذلك كله أنه بات يستهين برغبة الحلفاء في القتال، وغالى في تقدير قدرته على هزيمتهم في حال حاربوا. قال هتلر في أغسطس 1939: «إنّ أيَّ نجاحٍ سياسِيٍّ، أو عسكري يتضمّن، بالضرورة، المخاطرة ... ورجال ميونيخ لن يخاطروا».

## الحُلَفَاءُ

لعلَّ بعضَ الأوهام الإيجابِيَّة المُحتملة من جانب الحلفاء قد أسهمت في قرار الحرب. من ذلك مثلًا: القناعة المؤكّدة التي كانت تمتلكها فرنسا حيال قدرتها على حماية نفسها من الغزو الألماني. إذ لم يكن من المتوقّع أن يسقط «خط ماجينو»؛ ليس بالسرعة التي سقط بها بالتأكيد، كما ألغى الفرنسيون احتمالية أن يتمكن الألمان من شَنٍّ هجوم عبْر غابة الأردين؛ وهو ما حدث بالضبط. لكن لا يمكننا القول عمومًا إنَّ الحلفاء كانوا مُفْرِطين في التّفاؤل بشأن النصر. ففي سبتمبر من عام 1939، تبدّدت أيُّ أوهامٍ عالِقة لدى الحلفاء بشأن نوايا (هتلر)، ولم يعد لدى بريطانيا خيارٌ سوى تنفيذ إنذارها الأخير لألمانيا. لكن من ناحية الإمكانات العسكرية، كان الحلفاء - في جوانب كثيرة- مفرطين في التشاؤم،

جاهليـن «بالمخاوف العميقة التي سكنت القيادة العليـا ]الألمانية[«.
غيـر أنَّ هـذه الحقيقة - إن كان لذلك أيّ معنى - تُكسـب قرار الحلفاء بالدخـول فـي حـرب عـام 1939 قـدرًا أكبـر مـن الأهميـة. وبرغـم رؤيتهـم للاحتمـالات التـي ليسـت فـي صالحهم علـى أنها أكبـر ممَّا هـي عليه فـي الواقـع؛ إلَّا أنَّ الحلفـاء كانوا مسـتعدّين للقتـال، وكانوا يتوقّعـون - فـي حـال صدّقنـا (تشرشـل) وكثيريـن غيـره، أن تكـون الغلبة لهـم فـي النهاية.

لقـد آمـن (تشرشـل) بالنصـر مـن أول يـوم فـي الحـرب، وحتـى آخـر يـومٍ فيهـا. وتشـير ذكرياتـه حـول مناظـرة مجلـس العمـوم عنـد انـدلاع الحـرب إلـى وجـود تفـاؤل عميق بشـأن مـا كان على وشـك القـدوم، وتوحـي بـأن تفاؤلـه كان يتعـارض مـع التقييمـات الراهنـة وقتئـذ لإمكانـات بريطانيـا: «عندمـا جلسـتُ فـي مكانـي، مسـتمعًا إلـى الخطابـات، غمرني شـعور عـارمٌ جـدًّا بالهـدوء، بعـد العواطف والانفعـالات الحـادة فـي الأيـام القليلة الماضيـة. شـعرتُ بصفاءٍ في الذهـن، وكنـتُ واعيًـا بنـوع مـن الانفصـال المتسـامي فوق الشـؤون الإنسـانية والشـخصية. فمجـد إنجلتـرا القديمـة، المُحِبّـة للسـلام والضعيفـة الاسـتعداد كعهدهـا، لكنهـا رغـم ذلـك سـريعة التصـرُّف التـي لا تعـرف معنـى الخـوف عندمـا يدعوهـا الداعـي لتلبيـة نـداء الشـرف، قـد أثـار كينونتي وغمرها بالنشـوة، وبـدا أنه يرتقـي بمصيرنا إلـى تلك الأفلاك البعيـدة النائية بنفسـها عن الوقائع المادية والشـعور

الجسـدي». أمـا النُّقطـة التـي أظهـرت بريطانيـا عندهـا التفـاؤل، فقد كانـت عندمـا اتّخـذت قـرار عدم الاستسـلام، أو السـعي إلى السـلام فـي عـام 1940 بعـد سـقوط فرنسـا. لـم يكـن أيٌّ مـن الولايـات المتحـدة، أو روسـيا قـد دخـل الحـرب بعـدُ فـي تلـك المرحلـة. أما بريطانيـا - بمفردهـا فـي أوروبـا - فقـد ظلّـت مُصمِّمـة علـى خوض حـربٍ طويلـة الأمـد مـع عـدوٍّ مرعـب، برغـم مجازفتهـا بالتعـرُّض للغـزو فـي حال فعلها لذلـك، وخاضت قتـالًا لا هوادةَ فيـه، وحاربت بـكلِّ مـا أوتيـتْ مـن قـوَّة فـي معركـة بريطانيا.

## ألمانيا

علـى مـا يبـدو أنَّ سلسـلة نجاحـات هتلـر قبـل الحـرب (إعـادة تسـليح راينلانـد، وعمليـة آنشـلوس، وميونيـخ، والاسـتيلاء علـى تشيكوسـلوفاكيا)، التـي سـعى إليهـا فـي كثيـر مـن الأحيـان برغـم وجـود معارضـة داخليـة كبيـرة، قـد أثّـرتْ علـى سـلوكه فيمـا بعـد. «فمـع كلّ انتصار، كانت الأسـباب التي تدعوه للاسـتجابة للمشـورة، أو الاعتـراف بالأخطـاء تقـلّ أكثـرَ فأكثـرَ»، كمـا جعله إحسـاسٌ متنامٍ بعلمـه بكلِّ شـيءٍ «يزداد مقاومـةً للمعلومـات الجديـدة، أو المختلفة عِـن معلوماتـه». كان كل هـذا يحـدث علـى الرغـم مـن القـدرة الاسـتخباراتيّة الهائلـة التـي أحاطـت بـه، أو حتـى ربَّمـا بسـببها (كان هتلـر قـد فقـد الثقة فـي وكالات الاسـتخبارات لديـه). ويـرى (ديفيد

يابلونسكي) أن (هتلر) «لم يكن ميَّالًا في العموم إلى الربط بين تقديراته الشخصية، وبين نوايا العدو، وإمكاناته المُحتملة؛ كونه كان مقتنعًا بأنَّ الغلبة ستكون في النهاية لإرادته».

تناقص العلنيّة. تُعدّ حقيقة ازدياد هذه العيوب بمرور الوقت بالغة الأهمية بالنسبة لنظريّتي التي تربط بين الأوهام الإيجابِيَّة والحرب؛ وذلك لكونها تدعم التوقع القائل إنَّ النقاش أصبح منغلقًا باطّراد، إلى حدٍّ أن إفراط (هتلر) في ثقته بنفسه، التي كان أخذه بالنصائح في عام 1938 يكبح من جماحها، قد تجاوزت معظم المعوّقات بحلول عام 1939. إن المشكلات العديدة في عملية معالجة الرايخ للمعلومات «قد عزّزتْ من احتمالية وجود معلومات استخباراتية، وتقييمات تهديدات غير واقعية».

**أوَّلًا**: تخلّص (هتلر) من المناصب المهمَّة في حكومته التي كان دورها تمحيص الخطط، وتأكيد الإجماع في الرأي. من ذلك مثلًا: إلغاؤه لمنصب وزير الحرب عام 1938، الذي كان يتمثّل دور شاغله - حتى ذلك الحين - في اتِّخاذ كلِّ القرارات الاستراتيجية الكبرى، وجعل نفسه رئيسًا لكلّ الدوائر الثلاثة.

**ثانيًا**: خلقت طريقة (هتلر) في الحكم نظامًا يحفِزُ المنظمات المختلفة من أجل التنافس على جذب اهتمامه: «كان التعاون بين صُنّاع القرار النازيين في مجال الاستخبارات يكاد يكون منعدمًا؛ لأن السيطرة على تقييمات الاستخبارات كان يعني الوصول إلى

(هتلر)، وهذا الوصول كان يعنى اكتساب النفوذ... والذي نتج عن كلّ ذلك كان تشويهًا لمعنى المخابرات». كذلك خلق (هتلر) دوافع مهمَّة لتقديم التقييمات التي كانت تخبره بما يريد أن يسمعه. ففي بداية الحملة في روسيا مثلًا، كان إيمانَه بتحقيق النصر مدعومًا بمنظومة استخبارات «واثقة من قدراتها، وحريصة على ألّا تكرر خطأ الإفراط في التقييمات المتشائمة بشأن قدرة العدو، ذلك الذي وقعت فيه في السنين الماضية، وجعل (هتلر) يصبّ جام غضبه على الأركان العامة».

**ثالثًا**: أحاط هتلر نفسه «بدائرة أركان داخلية يضيق نطاقها أكثرَ، فأكثرَ»، وكان دورها متمثّلًا في «حمايته من المعلومات غير المرغوب فيها». كما وضع المارشال الميداني (كيتيل) تحديدًا «معايير جديدة للخنوع الذليل» (وأصبح معروفًا باسمَ «حمار الموافقة»)! وقد رفض هتلر المحاولات اللَّاحقة لتنحية (كيتيل) على أساس أنه كان «وفيًّا كالكلب».

أما **رابعًا**، فحتى عندما تخطّت المعلومات الجيدة تلك الحواجز، «كانت شخصية هتلر، وعاداته في العمل، وخبرته، تجتمع معًا لتجعله أسوأ مستهلك ممكن للمعلومات الاستخباراتية. كما جعله شعوره بالعِصمة من الخطأ غير متقبّل للأفكار المختلفة بتاتًا، ناهيك عن تلك التي تُعارِض أفكاره... لم يترك له إيمانه بتفوقه مجالًا لتعلم أيّ شيء من خلال التجربة».

باختصـار، كانـت الأوهـام الإيجابِيَّـة تمـرّ، باطّـراد، دون طعنٍ أو تمحيـص، ومـن ثمَّ فقـد تُركـت معظم الوقـت دون تصحيـح: «عندما أطلـق هتلـر العنـان أخيـرًا لقواتـه في بولنـدا صبيحـة اليـوم الأول من شـهر سـبتمبر عـام 1939، لـم يكـن هنـاك أيُّ احتفـال فـي شـوارع برليـن؛ وحـده الصمت الخالـي من التعبير جـرَّاء الخـوف والريبة كان يخيّـم علـى المدينة. لقـد حظي هتلر بشـعبية كبيـرة، لكـن الحرب لـم تحـظَ بالشـعبية نفسـها. إنّ قائـدًا يأخـذ باستشـارة الآخريـن، أو يهتـمّ للـرأي العـام لـم يكـن لِيَسُـنَّ السياسـةً على ذلـك النحـو أبدًا».

الأوهـام الإيجابِيَّـة المتزايـدة. فـي قـرار المخاطـرة بخـوض الحـرب عـام 1939، مـن المؤكـد أن هتلـر كان مفرطًـا فـي التفـاؤل حيـال كيفيـة اسـتجابة الحلفـاء. فعنـد الاسـتعداد لغـزو بولنـدا، كتب اللـواء (هالـدر) أن (هتلر) «قد وضع بعيـن الاعتبار احتماليـة أن يتبنَّى الفرنسـيّون، والبريطانيـون موقفًـا سـلبيًّا تُجـاه غزونا». وحتـى وإن لم يكونـوا سـلبيين، فقـد توقـع (هتلـر) أن بريطانيـا وفرنسـا «سـتحاربان فـي سـبتمبر 1939، لكنّـه شـكّك فـي أن يسـتمرّا فـي القتـال بعـد أن تُهـزم بولنـدا. كذلـك اعتقـد أن بريطانيا علـى وجه الخصـوص كانت تجمعهـا بألمانيـا مـا يكفـي مـن المصالـح المشـتركة لتجعلهـا توقّـع معاهـدة سـلام معهـا بعـد عمليـات حربيـة محـدودة». وقـد تجلّـت هـذه التوقّعـات علـى نحـوٍ أكبـر بعـد الحرب فـي بولنـدا. « يبـدو أن (هتلـر) قـد افتـرض أن البريطانييـن والفرنسـيين - الذيـن لـم يفعلـوا

شيئًا لمساعدة بولندا، ولم يتمكنوا من فعل شيء لمساعدتها - سيستسلمون». وأعظم ما في الأمر أنه وحتى بعدما سقطت فرنسا كذلك، فإنّه «لم يخطر على بال هتلر قطُّ أن تستكمل بريطانيا العظمى الحرب»، فقبل اندلاع الحرب في 1939 بوقتٍ قصير، اجتمع هتلر برؤساء أركانه ليبلغهم بخططه لغزو بولندا. «وبعد خطاب الفوهرر، لم يبدُ أن أحدًا قد أشاد بهذا القرار سوى الوزير (جورينج)، أما بقيّة الأعضاء في الاجتماع فقد آثروا الصمت... وفي الثالث من سبتمبر، أعلنت كلٌّ من بريطانيا وفرنسا الحرب على ألمانيا، وهي احتمالية كان هتلر قد استهان بها بشدّة».

وهتلر نفسه، الذي «اعترف ذات مرة أنه مدفوع بدافعٍ قهريّ يجعله يتحدَّى احتمالات الفشل ويقف في وجه ما هو حتمِيّ، ويمضي قُدُمًا فيما قد يقوده إلى التهلكة» كان مُتشجعًا بالتأكيد على إشعال فتيل الحرب في عام 1939، ويعود ذلك إلى استهانته بعزم قوى الحلفاء على القتال، وإفراطه في تقدير قدرة ألمانيا على هزيمتهم. لقد كانت لديه أوهامٌ إيجابية ضخمة بشأن سهولة هزيمة من هم، بالنسبة إليه، أعداء أدنى منزلة بطبيعتهم. كان يعتقد أيضًا أن السلافيّين أو الصقالبة Slavs، وغيرهم من الجماعات «المهجَّنة»، لن يبرعوا في القتال، وهذا هو الرأي الذي تقوم عليه «الاستهانة المستمرة بأكثر خصومه قوة؛ أي الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتي». وفي 1941، «سيؤكد هتلر بكلِّ ثقة أنه حتى

وإن عملت الولايات المتحدة على قدمٍ وساقٍ لأربع سنوات، فلن يكون بمقدورها استبدال العتاد الذي خسره الجيش الروسي حتى الآن. لم يكن هذا الاستخفاف مقتصرًا على القدرة على الإنتاج والإمداد، إذ صرَّح هتلر بعد حادث (بيرل هاربر) مباشرةً بقوله: «لن أصدّق أبدًا أن بمقدور جندي أمريكي أن يقاتل قتال الأبطال».

كانت مثل هذه القناعات تتنافى مع الدلائل الواضحة التي تشير إلى العكس، إضافة إلى تنافيها مع نصيحة الكثير من لواءات هتلر ومستشاريه. ويمثل هذان الأمران، إلى جانب قراره بغزو روسيا في عام 1941، قرارات في غاية التفاؤل، وذلك حسب رأي الآخرين (من كلا الجانبين) في ذلك الوقت، ورأي مؤرّخي تلك الفترة، ورأي التاريخ نفسه.

سبق أن آتت عدوانية هتلر وجرأته بثمارها، وذلك كما أظهرت انتصاراته التي لا تُضاهَى في فرنسا والنرويج، وكريت، وجبل طارق. لكنَّ تفاؤله قد خذله على المستوى الاستراتيجي، فمع دخوله الحرب على عِدّة جبهات في الوقت نفسه، قوَّضتْ الالتزاماتُ العظمى التي واجهته في كل النواحي في ألمانيا انتصاراته السريعة. وفي النهاية، جلبت عليه ثقته المُفْرِطَة في نفسه الكوارث. «ولأنّ غايات هتلر الاستراتيجية كانت توسُّعِيّة بطريقة لا متناهية، ولم يستطع أيّ مذهب عسكري في النهاية... مواكبة سياسته».

جدير بالذكر أن الثقة الكبيرة بالنفس لم تقتصر على هتلر. فمثلًا، اكتسب (روميل) صيته الذائع في شمال أفريقيا لهجماته الجريئة بقواتٍ كانت في بعض الاحيان متناهية الصغر، وقال اللواء (فون مانشتاين) فيما بعد: «إنّ الأسلوب الألماني مُتجذّر للغاية في الشخصية الألمانية، التي - على النقيض من كلِّ الهراء بشأن «الطاعة العمياء» - تتميز بروحٍ قويّة من الفردانيّة تجد لذَّة معيّنة في المجازفات، وهو ما يمكن عَزْوُهُ في الغالب لإرثها الجرماني». وبعد نجاحاته السريعة في غزو فرنسا عام 1940، تبيّن أن هتلر هو من يتلكّأ في اتِّخاذ المزيد من المخاطر، وقرَّر أن «يكبح جماح» لواءاته الذين كانوا يدعون إلى اتّخاذ دفعة سريعة نحو الأمام من أجل توطيد النجاح، واستغلال الارتباك. وبمجرد أن أصبح غزو فرنسا قيد التنفيذ، كتب اللواء (هالدر) في يومياته في 17 من مايو عام 1940: «وفوق هذا ليس هناك مخلوق حيّ يمكنه أن يجرؤ على وضع مراهناتٍ عالية المخاطرة على ضربة واحدة».

والأكثر إثارةً للانتباه هو التباين في معتقدات (هتلر) بين زمن الحملة على فرنسا، والحملة على روسيا، إذ يُظهر كلّ حدثٍ منهما أوهامه الإيجابِيَّة المتزايدة، وتناقص مقدرة النظام على التصدّي للمظاهر الواضحة للثقة المُفْرِطَة. أما اقتراح (هتلر) بشنِّ عملية الاجتياح على فرنسا في وقتٍ مبكّر يتمثَّل في يوم

12 نوفمبر من عام 1939 فقد تأجّل بنجاح بسبب «وجود معارضةٍ قوية من جميع قادة الجيش تقريبًا». لكنَّ «إصرار هتلر قد ازداد، رغم اعتراض قادة جيشه، في خريف عام 1939 على أنَّ [ الحرب الزائفة، أو المتوقفة drôle de guerre (بالفرنسية) يجب أن تُنهى بإجراءٍ هجوميّ». وفي النهاية، داهنهم «ليوافقوا» على الغزو. لكن بعد النجاحات الضخمة المبدئية للحملة، استطاع (هتلر) التخطيط للأفعال المستقبلية حتى «ضد رغبات معظم القادة العسكريين الذين ودُّوا لو ينتظر حتى يتسنَّى لهم قياس ردّ فعل العدو».

ويُبيّن قرار (هتلر) التالي بغزو روسيا مستوًى جديدًا من الثقة المُرتفعة بالنفس، فقد نجح لواءاته في إقناعه عام 1940 بأن الأحوال الجوّية، والمتطلبات اللوجستية الكبيرة تجعل من الهجوم على روسيا فكرة غير عمليّة على الإطلاق. لكن بعد النصر على فرنسا، أخبر هتلر (كيتيل) بأن «الحملة ضد روسيا ستكون بمثابة لعبة طفل في صندوق رمال بالمقارنة معها»؛ لذا ففي عام 1941، أطلق هتلر «هجومه الانتحاري» ضد روسيا، «معتمدًا اعتمادًا أعمى على النصر الفائت». ويعتقد (إيه. جاي. بي. تايلور) أن نجاح هتلر الساحق في فرنسا هو ما جعل قادة جيشه لا يعترضون على تحرّكه نحو الشرق، وبدلًا من ذلك «تقبلوا أنّ بمقدوره فعل أمرٍ مشابه ضد روسيا». ولكن من جديد، لم يكن هتلر وحده من تمتّع بهذا التفاؤل. فالعديد من اللواءات الألمان «بالغوا في

الاستهانة بموارد روسيا، وقوتها البشرية، وقدرتها القتالية، واتفقوا مع هتلر على أن روسيا ستنهار في غضون شهر من الغزو». ويدل على ثقتهم المُفْرِطَة تلك حقيقة «أنه في حين كان اللواءات قد وضعوا خططًا مفصَّلة ضد فرنسا، فإنهم لم يضعوا خططًا محدَّدة لما سيفعلونه عند دخولهم روسيا. لقد كانوا واثقين من قدرتهم على اقتحام مكانٍ تِلْوَ الآخر بكل بساطة، واستسلام كلّ الجيوش الروسية؛ وانتهاء الحرب في شهر يوليو».

كذلك خان الثقة الألمانية المُفْرِطَة كثيرٌ من جوانب استراتيجية الحملة، وتخطيطها. فمثلًا: لم تُعطَ مؤونة الشتاء للجنود. وبحلول فصل الشتاء، وبعدما أصبح الطريق أمام القوات الألمانية مسدودًا، بدا هتلر مصدومًا من مدى رداءة إعداد الجيوش، ومن مدى التدهور الذي وصلت إليه حالة جنوده. وكتب (تايلور): «لقد حدث الغزو الألماني كلّه على نحوٍ مُتسرّع، لدرجة أنه حينما حان الوقت في يونيو من عام 1941، كان جزءٌ كبير من الجيش غير مستعدّ، واضطر أكثر من نصف الجيش الألماني الغازي للحصول على الإمدادات من المعدّات التي استولى عليها من فرنسا».

وحتى بحلول وقت الهجوم الروسي المدمّر في شتاء عام 1942، ظلّ هتلر متمسّكًا بأوهامٍ إيجابية استثنائية بخصوص مأزق الجيش الألماني، غاضًّا الطرف عن التقارير السلبية، ومُستئسدًا على مرؤوسيه بالضغط عليهم من أجل المواصلة، بغضّ النظر

عن أيّ شيء. لقد شكا أنَّ قادة جيشه «دائمًا ما يهوِّلون من قوّة الروس... لقد وَهَنُوا... ثمّ ما أسوأ تدريب الضباط الروس! لسوف ينتهي الحال بالروس عاجلًا، أم آجلًا، أمام طريقٍ مسدود. ولسوف تخور قواهم... وحينها سنزوّد قواتنا ببضع كتائب جديدة؛ وسيضع هذا الأمور في نصابها الصحيح».

في أزمة ميونيخ وفترة تصاعد الأمور وصولًا إلى الحرب العالمية الثانية؛ كانت هناك دلائل على الأوهام الإيجابِيَّة حول كلٍّ من النوايا والإمكانات. يمكن أن يؤدّي كلا النوعين إلى الحرب، لكنّ آلياتهما السببيّة مُختلفة. كانت فرضيتي المركزيّة مدعومة: كانت تقييمات الإمكانات في 1938 واقعية (أو حتى تشاؤمية)، ومن ثمّ لم يرغب أيٌّ من الطرفين في المخاطرة بخوض الحرب. لكنَّ الأوهام الإيجابِيَّة بشأن النوايا، ورغم أنَّها فاقمت الأزمة، فإنها لم تُزِد من احتمالية قيام الحرب بشكلٍ مباشر. وإليكم السبب: يمكن القول إن الأوهام الإيجابِيَّة كانتْ جليّة لَدَى كلا الجانبين في وقت أزمة ميونيخ، ووقت أزمة الصراع على بولندا عام 1939، لكن وبينما أدّت الأزمة الأولى إلى السلام، فقد أدّت الثانية إلى الحرب؛ لذا نستبعد الأوهام حول النوايا بوصفها مُحدّدًا سببيًّا للحرب. وعوضًا عن ذلك، تشير التداعيات إلى أنّ الأوهام بشأن الإمكانات كانت هي العامل الأكثر أهمية في التأثير على احتماليّة الحرب. ومن بين العوامل المدروسة هنا؛ لم يتغير

سوى هذا العامل، من عام 1938 إلى عام 1939 (من جانب هتلر). وهذا يعني أن النظرية الأساسية قد تعززت: إنّ أوهام الفرد الإيجابِيَّة حيال قوته هي التي تقود إلى الحرب. أضِف إلى ذلك أن هذه الحالة تُظهر بوضوح أن الأوهام الإيجابِيَّة قد تنشأ لدى جانبٍ واحد فقط، ويظلّ لها مع ذلك تأثيرٌ سببيّ على الحرب. قد لا يختار الخصم الأكثر واقعية الحرب، لكنّه قد يُجبر على القتال.

# الفصل الخامس

# أزْمَةُ الصّواريخِ الكوبِيّة

«لم يقترح أيّ دارسٍ للشؤون السوفييتية أن خروشوف كان رجلًا حكيمًا. لقد كان مُنجذبًا للّفَتَاتِ الكبرى، ويتصرّف باندفاعٍ وتهوُّر، وكثيرًا ما كان يُقامر في غياب فرصةٍ جليَّة للنجاح. هذا النمط من السلوك يلائم كوبا.» [ريتشارد نيد ليبو]

«أنا متشائم، يا سيّدي الرئيس... لقد غيّرنا تقييماتنا.»

[الجنرال ماكسويل دي تايلور]

تقدّم أزمة الصواريخ الكوبية اختبارًا صارمًا آخر لفَرْضِيَّة الأوهام الإيجابِيَّة. على الجانب السوفييتي، كانت الفرصة لتقييم الوضع طويلة، وكانت هناك خيارات أخرى غير نشر الصواريخ في كوبا، وكان ينبغي أن يكون ردّ الفعل الأمريكي المُحتمل على النشر جَلِيًّا.

أما على الجانب الأمريكي، فعلى الرغم من أن فرصة التقييم كانت قصيرة، فإنَّ النقاش المكثف داخل اللجنة التنفيذية التي شُكّلت خصّيصًا لهذه الأزمة (اللجنة التنفيذية لمجلس الأمن القومي ExComm) كانت عمليّة صُنع قرارات عالية الجودة،

وكان هناك عددٌ من الخيارات المتاحة أمام الرئيس (كينيدي)، كما أنّ المعلومات الاستخباراتية الأمريكية - بالرغم من الاكتشاف لاحقًا أنها كانت مَعِيبَة في بعض الجوانب المهمّة - كانت جيِّدة بما يكفي لصُنَّاع القرار لتصنيف المخاطر التي تنطوي عليها الخيارات الرئيسية المُتاحة (انظر الجدول 3).

أضف إلى ذلك أن أزمة الصواريخ الكوبيّة قد تكون أكثر الأزمات السياسية الدولية خضوعًا للدراسة، والبحث المُكثّفين، مع وجود الكثير من التفسيرات المطروحة بالفعل للخطوات المُتّخذة على كلّ جانب.

أجادل هنا في أن رئيس الوزراء السوفييتي (نيكيتا خروتشوف) قد أبدى أوهامًا إيجابية في اتِّخاذه لقرار تنصيب صواريخ في كوبا، على الرَّغم من الدلائل الجَلِيَّة على أنَّ الولايات المتحدة لن تقبل بذلك.

وعلى النقيض من ذلك، يبدو أن أيَّ أوهام إيجابِيّة على الجانب الأمريكيّ قد بدَّدَتْها عمليَّة صنع القرار الشاملة في اللجنة التنفيذية لمجلس الأمن القومي. كان مؤيّدو العمل العسكري مسالمين - على الأقلّ بما يكفي للبحث عن حَلٍّ سلمِيّ - في سياق النقاش المُكثّف حول الخيارات المتاحة، ونتائجها المحتملة.

أما فيما يتعلق بمواقف أولئك الذين كانوا ما يزالون على تأييدهم للحلِّ العسكريّ، فقد قوبلت بالرفض. يبدو كذلك أنّ

أيّ أوهـام لدى (خروتشـوف) قـد تبدَّدت مـع تحوُّل «الهولوكوسـت النـووي» إلـى احتماليّـة حقيقيـة، وراح يسـعى لتحقيق السـلام، حتى وإن عَنَـى ذلـك أن يدفع الثمـن الباهظ المُتمثّـل في أن يبـدو مُتراجعًا.

الجدول 3 – أزمة الصواريخ الكوبيّة: استبعاد التفسيرات البديلة الأساسية، ونظرة عامّة على الاستنتاجات.

| | الاتحاد السوفييتي (نشر الصواريخ في كوبا) | الولايات المتحدة (الرَّدُّ على اكتشاف الصواريخ) |
|---|---|---|
| فرصة التقييم | طويلة | قصيرة لكن مكثّفة |
| الخيارات البديلة | نعم | نعم (ضمن قيود) |
| توافر المعلومات | معقول | معقول |
| الأوهام الإيجابيَّة؟ | نعم (لكن ليس في النهاية) | لا[1] |
| العامل الرئيسي | مقامرة ضخمة (في النهاية: وحذرها. الخوف من وقوع حرب نووية) | تشاور لجنة ExComm |

(1) بعـض الأوهـام الإيجابيَّـة المُحتملـة حـول فعاليـة اسـتراتيجية الـرَّدْع الأمريكيـة، وفعاليـة الضربـة العسـكرية.

## خلفيّة البحث

في 15 أكتوبر من عام 1962، كشفت طائرة استطلاع أمريكية عن منشآت صواريخ سوفيتية باليستية متوسطة المدى في كوبا. وفي صباح اليوم التالي، أُعلِم الرئيس (كنيدي) بالأمر. كانت تلك الصواريخ التي تستطيع حمل رؤوس نووية يبلغ مداها حوالي الـ 1000 ميل، قادرة على الوصول إلى واشنطن بسهولة. وبعد بضعة أيام، اكتُشفت صواريخ باليستية عابرة للقارات يبلغ مداها حوالي الـ 2000 ميل، وهو ما يكفي لتهديد كلِّ مدينة أمريكية كبرى تقريبًا. ومن خلال تنصيبه لصواريخ باليستية في كوبا، خرق (خروتشوف) التزامًا علنِيًّا، بالإضافة إلى العديد من الاتفاقيات الرسمية التي تنصُّ على ألّا يفعل شيئًا من هذا القبيل.

كانت لجنة Excomm المشهورة حاليًا، التي كانت مكوَّنة من صُنَّاع السياسات، والمستشارين الرئيسيين في الولايات المتحدة، قد شُكّلت على نحوٍ سريع بهدف التعامل مع الأزمة. وفي 22 من أكتوبر، أعلن (كينيدي) في خطاب موجَّه للأمة عن اكتشاف الصواريخ، بالإضافة إلى مسار العمل المُعتزم من قِبَلِ اللجنة: وضع «حظر عسكري» على جميع شحنات الأسلحة الهجوميّة المتَّجهة إلى كوبا؛ كان في الأساس حصارًا بحريًّا من شأنه إيقاف جميع السفن الروسية، وتفتيشها. وبعد ثلاثة عشر يومًا من التَّوتُّر الشديد الذي وصل فيه العالم إلى أقرب نقطة

على الإطلاق للدخول في حربٍ النووية، أعلن (خروتشوف) في 28 من أكتوبر أنه سيزيل الصواريخ. وفي المقابل، تعهّد (كنيدي) بألَّا تغزوَ الولايات المتحدة كوبا (وهي احتمالية كانت متوقعة منذ فترة طويلة). وعلاوة على ذلك، اتفق (روبرت كينيدي) مع السفير السوفييتي في واشنطن، (أناتولي دوبرينين)، في محادثاتٍ سِرِّيّة بينهما على إزالة الصواريخ النووية الأمريكية في تركيا خلال أشهر.

## الاتحاد السوفييتي

### ■ المَعْلُومَاتُ ورُدُودُ الفِعْلِ

كانت هناك معلومتان مهمَّتان يحتاجهما (خروتشوف) لتحديد ما إذا كان سيضع صواريخَ في كوبا أم لا.

**أوَّلًا**: كان بحاجة إلى معرفة القدرات النووية النسبية للولايات المتحدة، والاتحاد السوفييتي، وذلك لتقييم ما إذا كان تهريب صواريخ إضافية إلى فناء أمريكا الخلفيّ يستحقّ المخاطرة.

**ثانيًا**: كان بحاجة لمعرفة رَدِّ الولايات المتحدة المُحتمل. وكان كلا النوعين من المعلومات متاحًا للاتحاد السوفييتي حينئذ.

كان التفوّق المزعوم للقوى الاستراتيجية السوفييتية الذي كان يروِّج له (خروتشوف) خاطئًا. ففي عام 1962، كان لدى الولايات المتحدة رؤوسٌ حربيةٌ نوويةٌ يبلغ عددها ضعف

ما كان يملكه السوفييت بسبع عشرة مرة، وكان صُنّاع القرار في موسكو على معرفةٍ بذلك. وبنظرتنا إلى الأمر في وقتنا الحالي، فقد «بِتنا نعلم اليوم أنّ موقف (خروتشوف) العدائِيّ كان يهدف في المقام الأول إلى إخفاء الدُّونِيَّة السوفييتية»، لكنّ صنّاع القرار في الولايات المتحدة لم يُدركوا في البداية أن ذلك كان خدعة. «عندما شَنّ (خروتشوف) هجومًا على جنوب شرق آسيا وبرلين، افترض (كينيدي) أن ذلك كان نتيجة لإيمانه بالتفوق الاستراتيجي السوفييتي، وعدم احترامه لعزم (كينيدي) وتصميمه. ويبدو أنّ تأكيدات (خروتشوف) المتكررة بأنّ «العلاقة التبادليّة بين القوى» تُفضّل الاتحاد السوفييتي تفضيلًا متزايدًا قد أكدت صحَّةَ تلك الافتراضات الأوَّلِيّة. «بل إنّ كنيدي قد استغلّ في الواقع «فجوة الصواريخ» المزعومة التي تميل لكِفّة الاتحاد السوفييتي في حملته الانتخابية، وهي فجوة تعهّد الديمقراطيّون بسَدِّها (على الرغم من ثبوت وهْمِيَّتِها بعد تولّي كينيدي للمنصب بفترة وجيزة). إذن، فأوّلًا، كان السوفييت على دراية بالقوة النسبية الفعليّة للقوّتين الاستراتيجيتين؛ كانت الولايات المتحدة صاحبة القوة الأكبر بفرقٍ هائل، لذا فإنّ وجود صواريخ في كوبا تتمتع بمَيْزَةِ الهجمة الأولى قد يكون بمثابة «وسيلةٍ سريعة لتحقيق التكافؤ الاستراتيجي». لكن وفي الوقت نفسه، كان (خروتشوف) يعلم أنه إذا تصعّد الأمر، وتطوَّر إلى أزمة، فإنه لن يكون في موضع مساوماتٍ قويٍّ؛ كونه

الطرف الأضعف بكثير؛ لذا كان خيارًا محفوفًا بالمخاطر على نحوٍ خاص.

أمّا فيما يتعلّق بالرَّدِّ الأمريكي المُحتمل، فقد أشارت عِدّة مصادر متاحة للزعماء السوفييت إلى أن الولايات المتحدة لن تجعل نشر الصواريخ في كوبا يمرُّ مرور الكرام على الإطلاق، وأنّ كينيدي كان قد تحدّث عن هذا بوضوح في العلن. كان من غير المُرجّح أن تنظر الولايات المتحدة الأمريكية، أو الدول الأخرى، إلى نشر الصواريخ في كوبا على أنه مجرّد صورة طبق الأصل لنشر الناتو للصواريخ في أوروبا. وكان ينبغي أن يكون واضحًا أيضًا، بالنظر في السياسة الداخلية للولايات المتحدة، وليس فقط في سياسة (كينيدي)، أن هذه الخطوة ستُواجه بالمقاومة، حتى وإن كان ثمن ذلك فادحًا. كان وزير الخارجية السوفييتي (أندريه جروميكو) قد حذّر (خروتشوف) بقوله: «إنّ وضعنا لصواريخنا النووية في كوبا سيؤدِّي إلى انفجارٍ سياسِيٍّ في الولايات المتحدة».

لا يبدو أن قرارات (خروتشوف) كانت تعكس استخدامًا دقيقًا لهذه المعلومات. فإذا كان هدفه ببساطة يتمثّل في استخدام الصواريخ كصفقةِ مُساومة، فإنّ قرار نشرها قد يكون عقلانِيًّا (لأن «الاضطرار» إلى إزالتها في نهاية المطاف قد يكون جزءًا من الخطة). غير أن الأمر لم يكن كذلك، إذ كانت أهدافه الرئيسية تتمثّل في خلق رادعٍ دفاعيٍّ ضدّ أيِّ هجومٍ على كوبا (كانت

الولايات المتحدة قد أيَّدتْ هجومًا غير ناجح في عام 1961 في خليج الخنازير، واعتُبرت احتمالية حدوث غزو آخر مرجّحة للغاية)، وتصحيح الدُّونِيَّة النووية السوفييتية. وحقيقة أن كلا هذين الهدفين يتطلّب وجود قواعد صاروخية دائمة في كوبا تَشِي بأنَّ أفعاله كانت متفائلة على نحوٍ استثنائِيٍّ.

يبدو أيضًا أن خروتشوف كان مُفْرِطًا في التفاؤل بتصوُّره بأنّ الصواريخ لن تُكتَشف (كان يعتزم الإعلان عنها على أنها أمرٌ واقع بمجرَّد أن تصبح جاهزة للعمل). وبشكلٍ عام، فقد بالغ في تقدير فرص نجاح خطّته؛ على الرغم من وجود معلومات هائلة تخبره بعكس ذلك. يقول (ريتشارد ليبو) إنّ (خروتشوف) قد استهان بوضوح بسرعة الرَّدِّ الأمريكي وصرامته: «عندما قرّر خروتشوف المُضِيّ قُدُمًا في عملية النشر، فإنّه لم يكن قد أخذ بعين الاعتبار الضغوط السياسية الداخلية التي من شأنها أن تجعل الصواريخ أمرًا غير مقبولٍ بالمرّة بالنسبة لكينيدي». كما لا يوجد أيُّ دليل على أنه أخذ بعين الاعتبار الاختلافات المُهمَّة بين [الولايات المتحدة] التي تنشر الصواريخ في تركيا صراحة، و[الاتحاد السوفييتي] الذي ينصبها سِرًّا في كوبا بعد إعطائه تأكيداتٍ على عكس ذلك... لقد كان فشل (خروتشوف) في فهم هذه الحقائق، وتداعياتها نتيجة للغضب والتمنّيات».

## ■ الأَوْهَـامُ الإيجابِيَّـة

كـان (كينيـدي) قلِقـًا على نحـوٍ خاصّ من السـلوك التهديـدي «فـي خطابـات (خروتشـوف) البلطجيّـة، وتفـاخـره بالتفـوّق، والاسـتعراضات الصريحـة للقـوى». بـدا أنَّ هـذا التباهـي الواعـي يمتـدُّ إلـى فـرطٍ أصيـلٍ، وحقيقيٍّ فـي الثقـة بشـأن إرسـال الصواريخ إلـى كوبـا. لقـد «أغشـت عواطـف (خروتشـوف) الجيّاشـة بصيرتـه، وجعلـت تعاطفـه مـع الرئيس (كينيـدي)، والظـروف التـي كان يعمل فـي ظلّهـا أمـرًا مُسـتحيلًا، كمـا أنهـا اسـتبعدت كذلـك إجـراء تقييـمٍ شـامل، ونزيـه للتداعيـات المُحتملـة لنشـر الصواريـخ الكوبيّـة». أمَّـا الاحتماليـة البديلة بأن (خروتشـوف) كان يُنفّـذ - مُكرهًا - أجندة تفرضهـا هيئـة سـوفييتية عُليـا متشـدِّدة، فقـد اسـتُبعدت نتيجـة بحـثٍ جديـد في الأرشـيف السـوفييتي يُظهـر أن قـرار تنصيـب صواريخ في كوبـا كان قـرار (خروتشـوف) إلـى حـدٍّ كبيـر: «إنَّ تفسـير القـرارات السـوفييتية يعنـي لـزوم تفسـير قـرارات (خروتشـوف). لقـد كان هـو وحـده من يتّخـذ القـرارات بشـأن السياسـات العامة». يمكننـا كذلك رفـض الادِّعـاء القائل إنَّ (خروتشـوف) كان ينظر إلـى (كينيدي) على أنّـه لقمـة سـائغة، حيث تشـير الوثائـق السـوفييتية إلى أن اسـتفزازات (خِروتشـوف) «لـم تكـن مدفوعـة لا بالرغبـة فـي اغتنـام الفرصـة، ولا بعـدم الاحتـرام لعـزم كينيـدي وتصميمـه». وعوضًـا عـن ذلـك، يبـدو أن (خروتشـوف)، وعلـى الرغـم مـن الأدِلَّـة المتوفّـرة، قـد

بالـغ ببسـاطة فـي تقدير احتماليَّـة تغاضـي الولايـات المتحـدة عـن الصواريـخ النوويـة السـوفييتية في كوبـا (وأنها لن تكتشـف تنصيبها). لا يُعتبـر هـذا الادِّعـاء مُثيـرًا للجـدل علـى نحوٍ خـاصّ، ومـا أودُّ قوله بتوضيحـي لـه هـو أنّـه يتوافـق مـع نظريـة الأوهـام الإيجابِيَّة.

يبـدو أن عمليـة اتّخـاذ القـرارات المغلقـة قـد سـمحت لأوهـام (خروتشـوف) الإيجابِيَّـة بالاسـتمرار دون ردعٍ أو تمحيـص. ووفقًـا لـ(سـتيفن فـان إفيـرا)، فـإنَّ الزعيـم السـوفييتي «قـد اسـتهان بخطـر الاسـتجابة الصَّارمة للولايـات المتحدة الامريكية، ويعـود ذلك جزئِيًّا إلـى كونه قد اتّخذ سياسـاته في سِـرِّيَّةٍ دامسـة؛ مسـتبعدًا المستشـارين الذيـن كان بمقدورهـم توقّـع رَدّ فعل (كنيدي) الحـازم... تميل الدول إلـى سـوء التقديـر؛ لأنَّهـا تضـع السياسـات في محيط سِـرِّيٍّ يسـتبعد المحلّليـن الذيـن قـد يصحّحـون فرضِيّاتهـم الخاطئـة». وفـي هـذه الحالـة، كانـت الخطوة سِـرِّيَّةٍ على نحوٍ اسـتثنائي: «إذ لم تشـمل حتى جميـع أعضـاء اللجنـة المركزيـة الشـيوعِيّة، أو وزراء الحكومة، وكان مسـموحًا بمناقشـتها ضمـن دائرة تتألَّف من حوالي عشـرة أشـخاص، أو خمسـة عشـر شـخصًا فقـط؛ وليـس أكثـر». من غيـر الواضـح عدد مَـنْ كان لديهـم أوهـامٌ إيجابِيّـةٌ مـن بيـن أولئك العشـرة، أو الخمسـة عشـر، لكـن يبـدو أن (خروتشـوف) كان عُرْضَةً لها على نحـوٍ خاصّ، وكان هـو صانـع القرار الأساسـيّ».

# الولايات المتحدة

## ■ المَعْلُومَاتُ وَرُدُودُ الفِعْلِ

كانت مصادر الاستخبارات الأمريكية، وعملية نقل المعلومات إلى البيت الأبيض في وقت الأزمة ممتازة بشكلٍ عام. فبعد (بيرل هاربور)، كانت الولايات المتحدة عازمةً على إنشاء أفضل، وأكبر شبكة استخبارات في العالم، وقد حقَّقت ذلك بسرعةٍ كبيرة. والحقيقة أن التصوير عالي الارتفاع، والتمحيص اللَّذَيْن كانت تجريهما طائرات التجسس U-2 هما من كشف عن وجود الصواريخ في المقام الأول. بيد أنَّنا نعلم الآن أنه خلال الأزمة الكوبية «كانت المعلومات المقدّمة إلى صُنّاع القرار منقوصةً إلى حدٍّ كبير، بِغَضِّ النَّظَرِ عمَّا كان يعرفه مجتمع المخابرات من معلومات».

كان هناك فشلٌ استخباراتيّ فيما يتعلّق بحقيقتين مُهمَّتَيْن تتعلَّقان بخيارات الاستجابة الأمريكية.

**أوَّلًا**: قدّرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية وجود حوالي 20,000 جندي سوفيتي في كوبا، لكن تبين لاحقًا أنه كان هناك بالفعل أكثر من ضعف هذا العدد: 42,000 جنديّ.

**ثانيًا**: كان الأمر الأكثر أهمية هو حقيقة وجود أسلحة نووية سوفييتية تكتيكية قصيرة المدى (صواريخ أرض أرض) مُنصّبة بالفعل في كوبا كإجراءٍ دفاعيٍّ ضدَّ أيّ غزوٍ بَرِّيٍّ أمريكيٍّ

بالأخصّ، لكنْ لم يُكتشف وجود هذه الأسلحة إلَّا بعد بضع سنوات. وقد تقرَّر بصورة معقولة ثبوت إمكانيّة استخدام هذه الصواريخ في حال شَنٍّ الأمريكيّون هجومًا على كوبا. أضف إلى ذلك أنه كان هناك ريبٌ كبير حيال ردِّ الفعل السوفيتي الأوسع في حال شنَّت الولايات المتحدة أيّ هجومٍ على كوبا. لم يكن عدم التيقّن هذا نابعًا من نقص المعلومات ذات الصلة بقدر ما كان نابعًا من الصعوبة الجوهرية لتخمين تصرُّفات دولة أخرى. أين سيردّ السوفييت؟ وكيف؟ وهل سيردّون بقوى تقليدية، أم نوويّة؟ كانت ردود الفعل المحتملة الأكثر شيوعًا تتمثّل في شَنٍّ غزو سوفييتي لبرلين الغربية، أو فرض حصار عليها، وتوجيه ضربة انتقامية ضد قواعد صواريخ الناتو في تركيا؛ لكن الأمريكيين لم يستطيعوا أن يعرفوا على وجه اليقين ما سيفعله السوفييت بالتحديد.

كانت هذه المعلومات الثلاثة لِتؤثر تأثيرًا كبيرًا على ماهيَّة القرارات التي نظرت الولايات المتحدة إليها على أنَّها متاحة بصورةٍ واقعيّة. وبالطبع، سرعان ما فقدت هذه المعلومات المجهولة الثلاثة صلتها بالموضوع، بما أن الولايات المتحدة - ولعِدَّة أسبابٍ أخرى - لم تغزُ كوبا. ومن ثمّ، يبدو أن المعلومات التي وصلت إلى لجنة Excomm، ولأهدافِ الاستراتيجية الأمريكية الرئيسة، كانت جيِّدةً بما يكفي للكشف عن المساوئ الكبيرة لأيِّ هجومٍ عسكريٍّ، وبالتالي كانت جيِّدة بما يكفي

لواضعـي السياسـات لاتِّخـاذ قـراراتٍ مسـتنيرة. كان مـن شـأن توافر جميـع الحقائـق فـي ذلـك الوقـت أن يعـزِّزَ كذلـك مـن قـرار تجنُّـب العمـل العسـكري، وبالتالي فـإنّ نتائجي، فهـذا الفصل لـن يطالها أيّ تغيير .

وبالمثـل، فـإنَّ حقيقـة مبالغة الولايـات المتحدة الهائلـة في تقدير عـدد الصواريـخ العابـرة للقـارّات المنتشـرة فـي ذلـك الوقـت علـى الأراضـي السـوفييتية («الفجوة الصاروخيـة» المزعومة) ليسـت ذات أهميَّـة. لقـد أخذ صُنَّاع القـرار في الولايـات المتحدة يدركـون الواقع فـي 1961-1962 (وتحدّثـوا عـن ذلـك)، لكـن فـي كلتـا الحالتين، لـم يكن قـرار التصرف عسـكريًا، أو سـلميًا بشـأن كوبـا مُرتبطًـا بعدد الصواريـخ الموجـودة لـدى الاتحـاد السـوفييتي. وبالمثـل، يمكـن القـول إنَّ التنبُّـؤ أو الاكتشـاف المتأخّـر لنشـر الصواريـخ السـوفييتية فـي كوبـا يعتبر فشـلًا أكبـر للمخابـرات الأمريكيـة، لكن ذلك الفشـل فـي حَـدٍّ ذاته لـم يؤثر علـى قـرارِ شَـنِّ الحرب، مـن عدمه بمجـرد أن حدث الاكتشـاف.

كانت مشـاكل الاسـتخبارات في وقتٍ لاحقٍ خلال الأزمة نفسـها أكثـر أهمّيـة، ولـم يُنقـل العديـد مـن التطـوّرات، والأحـداث المهمَّة إلـىَ صُنَّـاعِ القـرار. ولعـلَّ أكثـرَ هـذه الأحـداث أهمِّيَّـة هـو إسـقاط طائـرة U-2 فـوق كوبا فـي ذروة الأزمـة بتاريخ 27 أكتوبـر. اعتقدت الولايات المتحدة أن كبار القادة السـوفييت قـد أذِنُوا بإطلاق صواريخ

الأرض جو (والتي كانت روسِيَّة الصنع، وتديرها قوّات روسيَّة). لكن هذا لم يكن صحيحًا، بل إنَّ (خروتشوف) قد استشاط غضبًا عندما علم بسقوط الطائرة على يد القوات السوفييتية. وبالمثل، لم يأخذ القادة الأمريكيون بعين الاعتبار التصوُّرات الخاطئة المُحتملة لأفعالهم لدى الجانب السوفييتي. ومع تكشّف الأزمة، «لا يبدو أنه كان هناك الكثير من التقييم الاستخباراتي المُستمرّ لما قد يعرفه السوفييت بشأن إجراءات الولايات المتحدة، ونواياها». من ذلك مثلًا: «أن الحكومة الامريكية كانت قد طوّرت خططًا وأصدرت قرارات تفيد بأنه في حالة إسقاط طائرة U-2، فإنَّه يتعيَّن شَنّ غارة جويَّة انتقامية على مواقع الدفاع الجوي المُعتدية في غضون دقائق». وعندما أُسقِطت طائرة U-2 بالفعل، كان على صُنَّاع القرار في البيت الأبيض التدخّل لتثبيط ما كان يمكن أن يكون تصعيدًا تلقائِيًّا. كان (ماكنمارا) قد مارس ضغوطاتٍ من أجل شَنٍّ هجمة انتقامية عند فجر اليوم التالي، لكن (كينيدي) قاوم الأمر. وعلى الرغم من هذه التصادمات الوشيكة، فقد حُلّتْ مشاكل المعلومات بالتدريج، وأُنشِئت روابط خاصة تسمح بالتواصل المباشر بين القادة السياسيين، والعسكريين الأمريكيين.

وبصرف النَّظر عن مشاكل المعلومات الاستخباراتية نفسها، يُعدُّ تحليل المعلومات أثناء الأزمة بشكل عام ممتازًا، خاصة بالنظر إلى ضغوط الوقت، والمسؤولية الهائلة، والدرجة العالية من انعدام

اليقين، وبالنظر إلى البحث المكثّف الذي أُجْرِيَ على المحادثات المُسجَّلة والوثائق الأخرى لمناقشات لجنة Excomm، فليس من المُستغرب العثور على بعض التناقضات والأخطاء. على سبيل المثال، وجد كل من (إرمترود غالهوفر) Irmtraud Gallhofer و(ويليم ساريس) Willem Saris أنه على الرغم من طرح سبع «استراتيجيات مميَّزة» على الأقل، فإنَّ صُنّاع القرار كانوا يميلون إلى التفكير في اثنتين فقط في كلِّ مرة. ولكن بشكل عام، كانت جودة الخبرة، والنقاش داخل لجنة ExComm غير مسبوقة في تاريخ السياسة الخارجية، و«يُنظر إليها على نطاق واسع باعتبارها ذات جودة عالية».

وبالمقارنة مع مستوى عملية صنع القرار المُعتادة في الولايات المتحدة الأمريكية (في إطارٍ زمنيٍّ مُماثل)، فإنَّ لجنة Excomm كانت أكثر تنوُّعًا، وشمولًا بكثير. أضِفْ إلى ذلك أنَّ المجموعة كانت في جوهرها غير سياسيّة. وعلى الرغم من أنّ القرارات النهائية كانت بين يديّ (كينيدي)، فإنه من غير المُرَجَّح أن يكون للسياسة الداخلية تأثيرٌ فعليٌّ على تشاورات لجنة Excomm؛ وذلك لأنها «كانت تتألّف من مسؤولين، ومستشارين في الأمن القومي؛ لا من السياسيين». لم تختفِ مثل هذه العوامل تمامًا بالطبع - لكن مع ذلك - فإنَّ اللجنة «لم تكن بمثابة منتدى لـ (كنيدي) ليعبِّرَ فيه عن مخاوفه السياسية الداخليّة. بل يبدو أنه

كان يمتنع عمدًا عن فعل ذلك؛ من أجل تشجيع مستشاريه على التعبير عن آرائهم بحُرّية، وتقييم خياراتهم وفقًا لتداعياتها الأمنية فحسب». وعلاوة على ذلك، شعر أعضاء ExComm بواجب مُشترك نحو إخراج الصواريخ من كوبا، و«يبدو أن هذا الشعور بالمسؤولية، وما نتج عنه من حساسية مُتزايدة تُجاه الإهمال، والخطر المرتبط بالمسألة، قد عزّزوا بعضهم بعضًا، وكان لهم مفعول تحذيرِيٌّ قوِيٌّ على خيارات عمل اللجنة أثناء الأزمة».

## ■ الأوهام الإيجابِيَّة

في البداية، كان لدى جميع صُنَّاع القرار في الولايات المتحدة «رأي واحد وفقط؛ وهو أنَّ اتِّخاذ إجراءٍ عسكريٍّ فوريٍّ كان ضرورِيًّا». ومع استمرار النقاش، أصبح البعض مُسالمًا أكثر، بينما ظلَّ البعض الآخر صقورًا متحمِّسين، لكنّ الأمر الحاسم هنا هو توقّع نجاح الخيار العسكري. كان بعض أعضاء اللجنة واثقين من أنّ الرَّدّ العسكريّ الصارمَ - وبالأخصّ الضربات الجوية - سينجح، وربَّما حتى دون أيِّ ردٍّ انتقاميٍّ من السوفييت. كان الجنرال (كورتيس ليماي)، رئيس أركان القوات الجوية، مؤيِّدًا لهذا الرأي، وشاطره في ذلك العديد من القادة السياسيين، من ذلك مثلًا أمين السِّرّ (دوغلاس ديلون) الذي كان «على يقين بإمكانية القضاء على الأسلحة»، وكان شاغله الأكبر يتمثل في المواجهة المحتملة «للصعوبات مع الرأي العام». كان هناك أيضًا عددٌ من

الأعضـاء الآخريـن فـي اللجنة، بمـن فيهم (ماكسـويل تايلـور) رئيس هيئـة الأركان المشـتركة، و(ديـن أتشسـون) وزير الخارجية الأسـبق، و(جـون ماكـون) مديـر وكالـة الاسـتخبارات المركزية، و(بـول نيتز) مسـاعد وزيـر الدفـاع، ممّن كانـوا مُتمسّـكين بالاعتقـاد المتفائل «منذ بدايـة الأزمـة بأن العمل العسـكري ضـد القواعـد السـوفييتية في كوبا لا يضـم بيـن طيَّاتِـهِ خطـرَ حـدوثِ ردٍّ انتقاميٍّ يُذكـر». وفـي الحقيقة، كانـوا يعتقـدون أنّ: «الولايـات المتحـدة تملـك كلَّ الأوراق الرَّابحة؛ والسـؤال الوحيـد الـذي دار فـي أذهانهـم كان: كـم سـيكون حجـم هـذا الانهيـار الـذي سـيلحق بالسـوفييت؛ كونـه قدرهـم، ومصيرهـم الحتميّ؟».

كان (كينيـدي) نفسـه فـي البدايـة ميّـالًا إلـى الإجـراء العسـكري كذلـك. وكان بعـض المعاصرين (مثـل ليماي) والمحلّليـن حينها، قد اقترحـوا أنَّ بمقـدور (كينيـدي)، من خلال اتّباع سياسـةٍ أكثـر صرامةً، التخلُّـص مـن كاسـترو، والصواريـخ في وقـتٍ واحد. تعتبـر مثل هذه الثقـة جديـرة بالملاحظـة؛ نظـرًا لأنَّ القـادةَ العسـكريين لـم يكونـوا مُهيَّئيـن لتقديـم أيَّـة ضمانـاتٍ علـى النجاح. وقـد أشـارت تقديراتهم إلـى أنَّـه يمكـن تدميـر 90% فقـط مـن الأهـداف المعروفـة بضربـة جوِيّـة واحـدة، وبعدهـا سـتكون هنـاك حاجـة للمزيـد مـن الغـارات مـن أجـل التركيـز علـى أيّ أهـداف متبقّيـة (غيـر معروفـة). قـد يبدو هـذا معدَّل نجـاحٍ جيِّدًا، لكنَّ إغفـالَ بعـض الصواريخ النوويـة يمثّل

مشكلةً كبيرة. كان (تايلور) قد أوضحَ هذِهِ التوقُّعات منذ البداية، ففي 18 أكتوبر، أخبر اللجنة: «أنه لن يكون هناك ضمانات بنسبة 100%». لم تكن اللجنة تعرف كذلك عدد الصواريخ التي تحمل رؤوسًا حربِيّةً، لكن كان عليها الافتراض بأنَّ بعضها يحمل تلك الرؤوس.

النقطة المهمّة لحجّتي هنا هي أنَّه على الرغم من شيوع خيار الهجوم العسكري على كوبا في البداية، فإنَّ سياقَ المداولات في لجنة Excomm قد جعل الدَّعْمَ لمثل هذا الإجراءِ العدوانِيّ ينخفض بمرور الوقت. وعلى الرغم من أنه كان يعاود الظهور بشكلٍ دوريّ، فإنَّ ثقة الصقور في الحلَّ العسكري قد استُؤصِلت، أو رُفِضت في النهاية. كانت اللجنة تضمُّ الصقور المتحمِّسين للقتال، والحَمام المُسالم طوال الوقت (وربّما «البوم» الذين فضَّلوا اتّخاذ استراتيجية مرحليّة، وحشد المعلومات من الخطوة التالية للخصم، مع الإبقاء على خيارات كلٍّ من الصقور والحَمام على سبيل الاحتياط). ومع أنّه كان لَدَى بعض أعضاء اللجنة المتحمّسين للهجوم وجهات نظر قويّة ظلّت متصلّبةً وعنيدةً، فقد تسبَّبتْ عملية صنع القرار في تغيير آراءِ بعض الآخرين. من ذلك مثلًا: أنه قد نتج عن اجتماع اللجنة في 19 أكتوبر «التوصُّل إلى إجماعٍ مؤقّتٍ على نُصْحِ الرئيس بإعداد حصار، على الرّغم من أنَّ المستشارين العسكريين لم يكونوا قد اقتنعوا بعدُ. لكن وعلى

مـدار الاجتماعـات الأخـرى فـي ذلـك اليـوم، بـدأ مؤيِّـدو الغـارات الجوّيـة فـي تحويـل دعمهـم إلـى خيـارِ الحصار».

يبـدو أن التفكير المتمعِّن - في ظلِّ شـبح «هولوكوسـت نووي»- قـد بـدَّد تدريجِيًّـا أيَّ تفـاؤلٍ أوَّلِـيٍّ بـأنَّ العمـل العسـكري يمكـن أن يحـدث دون استدعاء تصعيـد لـن تكـون وطأتـه محتملـة باتِّجـاه الحـرب. كانت سـاعات النقـاش، والتحليل الطويلة التـي أجرتها هذه النُّخْبـة الرائعـة من الرجـال تؤدي في العـادة إلى تخفيـف ردود الفعل الأوَّلِيّـة. مثـل هـذه العمليـة لـم تكن لتحـدث لـو كان الوقـت أمامهم ضيّقًـا، ولَنتَـج عـن ذلك في تلـك الحالـة احتماليـة أن يكـون التفاؤل الأوَّلِـيّ، والواسـع النطـاق بشـأن الغـارات الجويـة أكثر بـروزًا. وكما أشـار (سـتيوارت ثورسـون، ودونالـد سـيلفان): «ربَّمـا كان سـيؤدِّي تصـوُّر وقـتٍ أقصر للأزمـة إلى اختيـار الولايـات المتحـدة لخياراتٍ عسـكرية أكثـر صرامة».

وتجدر الإشـارة إلـى أنَّ الولايـات المتحدة كانت ستشـنّ غاراتٍ جوِّيّـة علـى أيّـة حـال فـي يـوم الإثنيـن بتاريـخ 29 أكتوبـر، أو علـى أقصـى تقدير بحلول يـوم الثلاثاء؛ إذْ كان للمسـار الدبلوماسـي تاريخ انتهـاء؛ لـذا كان إدراك (خروتشـوف) بأنه قـد تمادى فـي المقامرة هو مـا جنّبهـم، إلـى حدٍّ كبيـر، وقـوع حرب فـي النهايـة، وليس قـرارات (كينيـدي)، أو اللجنة.

## هل ساهمت الأوهام الإيجابِيَّـة؟

لقـد بالـغ (خروتشـوف) فـي تقديـر احتماليـة نجاحـه فـي نشـر الصواريـخ (وفـي ألَّا يُكتشـف أمـره إلّا بعـد اكتمالـه). كان هـذا الاقتنـاع المغلـوط هو مـا أدّى إلى وقـوع الأزمة، كما كانـت الولايات المتحـدة مسـؤولة جزئِيًّا بفشـلها فـي التنبُّـؤ بإمكانية اتِّخاذ السـوفييت لمثـل هـذه الخطـوة (يعـود ذلـك إلـى الاعتقـاد المغلـوط بـأن تهديد الـرَّدْع الأمريكـي القائـم حينهـا كان ناجحًـا). لكـن بمجـرّد انـدلاع الأزمـة، بـات صُنّـاع القـرار فـي الولايـات المتحـدة الذيـن كانـوا متفائليـن بنجاح ضربة عسـكرية سـريعة مقتنعين بالعكـس، أو رُفضت قناعتهـم هـذه في حـال كانوا مـا يزالـون غير مقتنعيـن. وبالتالـي، فإن ظاهـرة لجنـة Excomm قـد تكـون مسـؤولة عـن إخمـاد أيِّ تفاؤلٍ أمريكـيٍّ مُفْرِطٍ بشـأن الحلِّ العسـكريّ. ويعـدُّ هذا الأمر بالـغَ الأهمية بالنسـبة لنظريّتـي: لقد أصبحـت الأوهـام الإيجابِيَّـة، وبالأخصّ وهم المـرء بسـيطرته علـى الأحـداث، أقـلّ بـروزًا وحِدَّة مـع عقـد اللجنة للمزيـد من المـداولات المكثّفة (انظـر الفصل الثاني). ويشـير (ليبو) إلـى أن كلا الزعيميـن قـد أدركا تدريجِيًّا أنه ليس بمقدورهما السـيطرة علـى الأحـداث كمـا كانـا يعتقـدان. كما يعـود الفضـل في ذلـك إلى (كينيـدي) الـذي - حتـى مـع كـون سـلامة معظـم سـكان العالـم في خطـر محيـق - ظـلّ مُحتفظًـا بصبـره، ورباطـة جأشـه، وقـاوم النزعة القتاليّـة للجيش، واسـتمرّ يتحـدّى الافتراضـات، وأجرى مشـاورات

علـى نطـاقٍ واسـع. وقبل فتـرة وجيـزة من الأزمـة، كان (كينيـدي) قد قـرأ كتـاب (باربـرا توكمـان) الـذي يحمـل عنـوان «بنـادق أغسـطس The Guns of August» الـذي «دوّن التفـاؤل الخاطـئ، وأحـلام اليقظـة العدوانيّـة فـي أوروبا فـي صيف عـام 1914». وقد أشـار عدد مـن الأشـخاص إلى أنه بالنسـبة لــ (كينيدي) وغيـره من صُنّـاع القرار فـي ذلـك الوقت: «لعـلَّ الكتـاب كان بمثابة لجـامٍ يكبـح أيَّ ميلٍ نحو الانغمـاس فـي التَّمَنِّي».

يبـدو أن (خروتشـوف)، وبمجـرَّد أنْ أصبحت الأزمة فـي أوْجِها، قـد قامـر للمـرة الثانيـة؛ وذلـك بإخفـاء رغبتـه فـي التسـوية مـن أجل تحقيـق أقصـى قدرٍ مُمكـن من التنـازلات الأمريكيـة المُحتملة. ولعلّ هـذا قـد أثمـر فـي الفـوز بتعهّـدٍ أمريكـي بعـدم غـزو كوبـا، وباتفـاقٍ سِـرِّيٍّ لإزالـة الصواريـخ الأمريكية مـن تركيـا. ولكن لأجـل مآربهما الخاصّـة، أطـال كلٌّ مـن (كينيـدي) و(خروتشـوف) أمَـدَ الأزمـة، وبالتالـي مـدَّدا الفتـرة التـي يمكن فيهـا للأحـداث البسـيطة أن تجعل المواقـف الحساسـة تنفجر لتصبـح حربًا، وهو مـا كادت أن تفعله عدة مواقـف (كتجـوّل طائـرة مراقبة من طـراز U-2، ومقرّها ألاسـكا، في المجـال الجـوي السـوفيتي). ومـن ثـمَّ، فلعـلّ الأوهـام الإيجابِيَّة قد تَسـبّبت فـي حـدوث الأزمة، وفـي تمديـد وقتهـا، لكنها لـم تكـن قويَّة بمـا يكفـي، أو لـم تسـتمرّ لما يكفي مـن الوقـت، للدفع بصُنَّـاعِ القرار إلـى هاويـة الحرب.

## التحفّظ الأمريكي

ذكرتُ آنفًا أن بيئة لجنة Excomm كانت ميَّالةً إلى تهدئة المواقف العدائيّة. لكن لعلّ الأوهام الإيجابِيَّة قد تركت، رغم ذلك، بصمة على السياسة. كانت ردود فعل الولايات المتحدة الأوَّلِيّة على اكتشاف الصواريخ السوفييتية في كوبا، قبل أن يكون هناك الكثير من الإفادات، أو التفكير بتمعّن، عاطفيَّةً للغاية (على سبيل المثال، كان الرئيس (كنيدي) وشقيقه ( روبرت) غاضِبَيْن بسبب الخداع السوفييتي، وكانا حريصَيْنِ على الرَّدِّ). مارست تلك النزعات القتالية – في المراحل المبكرة – تأثيرًا حاسمًا في استبعاد أيّة محاولة للاعتماد على القنوات الدبلوماسية البحتة للتفاوض من أجل الوصول إلى حَلٍّ. لم يكن فعل ذلك مطروحًا على الطاولة البَتَّة (كان (كينيدي) قد كلّف اللجنة بإيجاد وسيلة لإزالة الصواريخ؛ لا لحلِّ الأزمة). كما أنَّ وجهات النّظر الدّاعية للهجوم قد أثّرت على السياسة في وقتٍ لاحق. ومع أنه كان للمناقشات المطوّلة بشأن تداعيات العمل العسكري تأثيرٌ مهدِّئٌ عام، فإنَّ صقور اللجنة استطاعوا في الوقت نفسه تحويل ردود الفعل المحتملة باتّجاه الجانب الأكثر عدوانيّة. أدّى ذلك إلى اختيار قرارٍ وسط، ويتمثّل في فرض حظر عسكري مع التهديد باستخدام القوّة كاحتياط، وذلك لضمان تسوية مقبولة تُرضي وجهات النظر المتنوعة في اللجنة.

وبعد الأزمة، استخلص (روبرت كينيدي) دروسًا محدَّدة من التجربة تكاد تعتبر طُرقًا للقضاء على الأوهام الإيجابِيَّة (أو أيّ تحيُّز مُسْبَق في الحقيقة): «وفِّرْ أقصى قدرٍ ممكن من الوقت في اتِّخاذ القرارات، ودراسة ردود فعل الخصم، واكبحْ لجام نزعات الاستجابات الأوّلية، وحافظْ على تنوُّع الرأي في عملية اتِّخاذك للقرار، واستخدمْ الخبرة على الخصم، واضمنِ السيطرة المدنِيَّة على الجيش، وأعطِ الخصم وسيلة تحفظ له ماء وجهه؛ كي يمتثل لمطالبك، واتَّخِذْ إجراءاتٍ وقائيةً ضدّ التصعيد غير المقصود». اقترح (تيد سورنسن) أيضًا أنّ الدروس الرئيسية شملت عملية صُنْع قرار مُحكمة، وذلك لضمان إرسال إشارات متماسكة للعدوّ، وتقييم مفصّل وغنِيٍّ بالمعلومات للخيارات المتاحة. تبدو كلّ هذه الأمور واضحةً إلى حَدٍّ ما بعد انقضاء الحدث، لكنّها ترسم بكلِّ دقّةٍ المعايير التي قد يتسبّبُ غيابها في ترك الأوهام الإيجابِيَّة دون تمحيص، وفي رفع احتمالية نشوب الحرب.

أودّ القول إنّه على الرغم من كون الصقور قد قدّموا حُججًا عقلانية لصالح الغارات الجويّة، فإنّهم كانوا متفائلين للغاية بشأن فرص النجاح، واحتمالية ألّا يكون هناك ردُّ فعلٍ على الأمر. لم يكن بمقدور الجيش أن يضمن (ولم يضمن فعلًا) ضربه لجميع الصواريخ - ومع ذلك - كثُر الحديث عن الغارات الجوية «الجراحية»، و«استئصال» الصواريخ. في الأيام التي سبقت وجود

الأسلحة الموجّهة، كان هذا يعدّ طلبًا كبيرًا من سلاح الجو، خاصّة مع كون الولايات المتحدة لم تكن تعرف يقينًا ما إذا كانت مصادر الاستخبارات قد حدَّدَتْ جميع مواقع الصواريخ، أو عدد الصواريخ التي كانت جاهزة للعمل. وعلاوة على ذلك، أقرَّ معظم صُنَّاع القرار بوجود احتمالية الحاجة إلى غزوٍ لاحقٍ بالقوَّات البرِّيَّة لإتمام العملية، وهو تعهُّدٌ ضخمٌ سبق أنْ حذّر (ماكسويل تايلور) في البداية من أنه سيتطلّب 250,000 رجل. لقد كانت الفرص الفعلية لعدم ردٍّ السوفييت تكاد تكون منعدمة.

إن كانت هذه أوهام إيجابية، فقد قُضي عليها في النهاية أو مُنعتْ من التأثير على عملية صُنْعِ القرار. يبدو أن ظاهرة اللجنة المُذهلة كانت مسؤولة إلى حدٍّ كبير عن تعطيل الثقة المُفْرِطَة في الحلِّ العسكري، ويبدو أن (كينيدي) نفسه كان لديه وعيٌ كبير بحجم الخطر، إذ كان يطالب اللجنة بالاستمرار في البحث عن خيارات أخرى قبل اللجوء إلى الضربات الجويّة. ويدعم هذا الاستنتاج دراسة (إيرفينغ جانيس) حول تحيُّزات صنع القرار الجماعي التي تؤدي أحيانًا إلى فشل السياسة. وخلص (جانيس) إلى أنه على الرغم من أنّ تحيُّزات «التفكير الجماعي» المختلفة كانت مسؤولة عن الغزو الفاشل لخليج الخنازير عام 1961، فإنها كانت غائبة في حالة عملية اتّخاذ القرارات الأمريكية بشأنِ أزمة الصواريخ الكوبية. في النهاية، يبدو أن تقدير (كينيدي) الواضح

للموقف قد سمح له بتجنّب العديد من الأخطاء المحتملة، وبأنْ يكون حسّاسًا بشكلٍ نسبِيٍّ لكلٍّ من التصوُّرات الأمريكية، والسوفييتية. وعلى الرَّغم من أنَّ إدارة (كينيدي) قد صمّمت بكلِّ عناية صورة للنجاح، فإن (روربرت كينيدي) أشار قائلًا: «بعد أن انقضى الأمر، لم يحاول [أي الرئيس] الإدلاء ببيانٍ ينسب فيه الفضل لنفسه، أو للإدارة على ما حدث. لقد أمر جميع أعضاء اللجنة، والحكومة بعدم إجراء أيّة مقابلة، أو الإدلاء بأيّ تصريح من شأنه ادّعاء أيّ نوعٍ من النصر. لقد احترم (خروتشوف)؛ لأنه اتَّخذ القرار السليم الذي من شأنه أن يَصُبَّ في مصلحة بلده، ومصلحة البشريّة».

## التحفّظ السوفييتي

في حين أنني ذكرتُ أن أوهام (خروتشوف) الإيجابِيَّة حول تغاضي الولايات المتحدة عن نشره للصواريخ في كوبا هي ما أشعلت الأزمة، إلَّا أنّه من الواضح أن أيَّ نوعٍ من هذه الأوهام قد اختفى لاحقًا من عند الجانب السوفييتي كذلك. ويبدو أن (خروتشوف) قد أصبح في غاية القلق في النهاية، وكان يريد مهربًا. ويقول البعض إنه اقترح صفقة الصواريخ التركية عن عَمْد من أجل تزويد الولايات المتحدة بآليةٍ لحفظِ ماءِ الوجه تمكّنهما من الخروج من الأزمة. وكان أحد المعلّقين الأمريكيين قد علّق

قائلًا: «لقد كان سلوكه سلوك رجلٍ يتوسّل إلينا بأن نساعده في الخروج من المأزق».

من المحتمل أن تكون فكرة صفقة تتضمَّن الصواريخ التركية قد أتت من مكانٍ آخر. لكن بغضِّ النظر عن أصل هذا المُقترح، فمن الجَلِيِّ أن (خروتشوف) كان قلقًا للغاية عند تلك المرحلة من احتمالية نشوب حربٍ نوويّة، التي قد تحدث إمَّا نتيجة التصعيد المستمر، وإمَّا نتيجة أيّ حادثٍ آخر. ويتّضح في رسالته الأخيرة إلى (كينيدي) يأسه، واستماتته لوضع جميع الأهداف الأخرى جانبًا، وإنهاء الأزمة بأيِّ ثمن. ولم يقل هذا لـ(كينيدي) فحسب، ففي 28 من أكتوبر، خاطب (خروتشوف) مجلس السوفييت الأعلى، وأخبرهم بأنهم يواجهون احتمالية نشوب محرقةٍ نووية، وأنه «من أجل إنقاذ العالم، يجب علينا أن نتراجع». وفي المراحل الأخيرة من الأزمة، لم يكن لدى (خروتشوف) أيّ أوهام إيجابية بشأن النصر.

وخلال أزمة الصواريخ الكوبية، يبدو أن الأميركيين اعتبروا أنفسهم في لعبة «الدجاج»[1]، في حين رأى السوفييت أنفسهم في

(1) تعد «لعبة الدجاج» إحدى نظريات الألعاب، وتُعرف أيضًا باسم لعبة (الصقر - الحمامة)، أو لعبة التزحلق على الجليد، وهي نموذج للنزاع بين لاعبين. وتصف عادةً طرفين متجهين نحو بعضهما بعضًا، إذا استمرّا على المسار نفسه، سيصطدمان، وإذا انحرف أحدهما ولم يفعل الآخر، فإن المنحرف يخسر، ويطلق عليه اسم الدجاج (دلالة على الجُبْن)، بينما يفوز الثاني. (منقول). المترجمة.

لعبـة «مُعْضِلة السـجينين»[1]. يمكـن لألعاب المُعضـلات الاجتماعية المختلفـة هـذه التنبُّؤ بـأن الولايـات المتحـدة كانت بحاجـة للصمود لأطـول فتـرة ممكنـة دون أن تتنـازل، فـي حيـن أن السـوفييت كانـوا بحاجـة للبحـث عـن وسـيلة تضمـن امتثـال الولايـات المتحـدة، أو للتخلّـي عـن التعـاون فـي حال لـم يجدوا شـيئًا.

توضّـح مثل هـذه التصـوُّرات المتباينـة أن الجانبين كانا يتنافسـان علـى أهـدافٍ مُختلفـة، وبالتالـي سـيكون لهمـا معايير مختلفـة لتقييم مـا يمكـن تحقيقه.

غيـر أنّ (كريسـتيان شـميدت) يجـادل فـي أن الاتصـال المباشـر بيـن (كينيـدي، وخروتشـوف) بمجرّد اشـتعال الازمة، قد سـمح لهما بإعـادة تقييـم الوضـع. وبالفعـل، أعاد القـادة صياغـة نوع اللعبـة التي كانـا فيهـا؛ وهـو تغييـر أدّى إلـى ظهـور تفضيـلات جديـدة وإمكانيـة التَّوَصُّـل إلـى تسـويةٍ مُتبادلـة المنفعـة. ولعـلّ أفضـلَ نمـوذجٍ ينطبـق علـى إعـادة الصياغـة هـذه هـو «لعبة التنسـيق»، التـي يمكـن التوصل فيهـا إلـى اتّفاق بشـرط وجـود ثقـةٍ متبادلة.

---

(1) تفـترض مُعْضلـة السـجين وجـود سـجينين يُعـرض عـلى كلّ طـرف منهـما الاعـتراف عـلى الآخـر مقابـل الـبراءة لمـن يعـترف أوّلًا. أمـا الثـاني الـذي لم يعـترف فيحصـل على عقوبة مشـدّدة. وفي حالـة اعتراف الطرفـين في الوقت نفـس عـلى بعضهما، يحصـلان على عقوبةٍ متوسـطة، أمـا في حال عـدم اعتراف الاثنـين، فإنهـما يحصـلان على عقوبـة مخففة. تهدف مثـل هذه الاسـتراتيجية إلى زيـادة منفعـة الفـرد الشـخصية، وذلك سـواءً بالعمل مـع الخصـم، أو بالتخلي عنه. (منقـول). المترجمة.

لكـن بينما يكـون (كينيدي، وخروتشـوف) قـد راجعـا مواقفهما، فـإنّ عقلية الألعـاب الأولية كانت قد غزت تفكيـر المراقبين الآخرين، الذيـن أصـدروا الأحـكام لاحقًا مـن داخـل تلك الأُطُـر الباطلـة. من الواضـح أنَّ أولئـك الذيـن أكّـدوا علـى فكـرة «مـن يرمـش أوَّلًا» قـد احتفظـوا بنمـوذج «الدجـاج»؛ كمـا نـرى فـي تعليـق (ديـن راسـك) المُبتهـج بالنصـر: «نحـن في لعبـة تحديق، وأظـن أن زميلنـا الآخر قد رَمَـش للتّـو». وبالاسـتناد إلى هـذا النموذج التبسـيطي، يمكـن القول إنَّ الولايـات المتحـدة قـد «ربحـت» أزمـة الصواريخ الكوبيـة لمجرّد أنهـا لـم تكن الطـرف الـذي تراجـع. بيـد أنّ هـذا المنظـور لا يعكس بالضـرورة فضيلـة أخلاقيـة مُبهـرة، أو حُسْـنًا فـي التقدير؛ كونـه يعني أن الولايـات المتحـدة كانت أكثـر اسـتعدادًا للمخاطـرة بالدخول في حـرب نووية مـن الاتحاد السـوفييتي.

وفـي حيـن يُثنـي العديد مـن الدّارسـين على عمليـة اتِّخـاذ القرار فـي الولايـات المتحـدة في أكتوبـر من عـام 1962 باعتبارهـا نموذجًا لكيفيـة حـلِّ الأزمـات، فـإنَّ حقيقية انـدلاع الأزمـة في المقـام الأول يعـدُّ دليـلًا علـى فشـلٍ ذريـعٍ فـي كلٍّ مـن السياسـة، والاسـتخبارات الخارجيـة للولايـات المتّحـدة. فقبـل الأزمـة، كانـت إدارة (كينيدي) تعتقـد أن السـوفييت لن يضعـوا صواريخَ نووية في كوبـا. وفي 16 من أكتوبـر، أعرب (كيني) عن أسـفه لِلَجنـة Excomm بقوله: «ربَّما كان خطؤنـا أنَّنـا لـم نذكر، فـي وقتٍ ما قبـل هذا الصيـف، بأنّنا سـنتصرّف

في حال فعلوا ذلك». كانت الإدارة الأمريكية قد افترضت - على نحوٍ خاطئ - بأنَّ هذا شَيْءٌ واضحٌ، وبديهيّ: «لقد فوجئ القادة الأمريكيون بما حدث في أكتوبر من عام 1962؛ وذلك لأنهم اعتقدوا أن موقف الولايات المتحدة بعدم التسامح، والتَّغَاضي عن وضع صواريخ نووية في كوبا كان جلِيًّا بالنسبة للاتحاد السوفييتي». لكن حتى وإن كان صُنَّاع القرار الأمريكيون مذنبين بالمبالغة في تقدير تهديدهم الرّداع (يمكن للناقد المُجادلة في هذه الحالة بأنَّ محاولة (خروتشوف) لوضع الصواريخ في كوبا كانت عقلانِيّة بعد كلِّ شيءٍ)، فسيكون من الصعوبة بمكان الدفاع عن الاعتقاد بأن الولايات المتحدة كانت لِتقبل مُطلقًا بوجود صواريخ نووية في كوبا. لم يكن ليقدر أيّ رئيس أمريكي على الصمود أمام العاصفة السياسية التي أثارتها هذه التسوية. وبالنظر إلى هذا الأمر، يمكن القول إنَّ القادة الأمريكيين قد أساءوا تقدير قوّتهم الرادعة، لكن (خروتشوف) قد أساء تقدير استعدادهم للتصرُّف؛ لذا نستطيع أن نجادل في أن (خروتشوف) قد أظهر أوهامًا إيجابية حول قابلية تنصيب صواريخ نووية في كوبا؛ وهي حجّة تحمل في طيّاتها ما إذا كانت مقامرته قد مثّلت فشلًا في قوة الردع الأمريكي أم لا.

ويمكن تفسير أزمة الصواريخ الكوبية على أنها أحد مظاهر ما بات يطلق عليه «المفارقات التي يُحتمل أن تكون فتّاكة وراء السياسات الاستراتيجية الأمريكية؛ التي تعني أنه قد يتعيَّن على

الدولـة الدّخـول فـي حـرب مـن أجـلِ تأكيـد ذات المصداقِيّـة التـي يُفتـرض بهـا أن تجعـل الحـرب غيـر ضرورية». لقد فشـل الـرَّدْع عام 1962 فـي مواجهة السـلوك الجريء الـذي أثارته الأوهـام الإيجابِيَّة. وعلـى حَـدِّ تعبير (ديفيـس بوبرو): «تظهـر الأزمة... أنَّ قيـادةَ الخصم قـد تكون مسـتعدّة لتحمُّل مخاطر جمّـة دون إيمانهـا باحتمالِيَّةِ تحقيق مكاسـب مُكافِئـة». إن قـوة الـرّدع لـن تنجـح فـي تحقيـق غايتهـا فـي حالـة كان الخصـم يتصـرّف وفقًـا لأوهـامٍ إيجابيّة تتعارض مـع الأدلّة المتوفّـرة. قـد يكـون اسـتعداد (صـدام حسـين) لتحـدِّي الولايـات المتحـدة والأمـم المتحـدة، وبالتالـي إشـعال الحرب التي سـتودي به إلـى الهـلاك، مثـالًا آخر علـى ذلك.

لقـد كانـت النتيجـة النهائيـة لأزمـة الصواريـخ الكوبيـة الإدراك المرعـب بـأنّ محرقـة نوويّـة كانت علـى وشـك الوقوع حقًّا؛ إسـقاط طائـرة U-2 دون موافقـة السـلطة السـوفييتية، وإقحـام طائـرة U-2 أخـرى فـي المجـال الجـوِّيّ السـوفييتي، والتصعيـد العسـكري الذي تفعّـل تلقائِيًّـا نتيجـة حالـة التأهّـب. وبمجـرّد أن شـرعا فـي التحديق فـي هاوية الدمـار المؤكّـد والمتبـادل؛ فَقَـدَ (خروتشـوف، وكينيدي) أيّ أوهـام إيجابيـة كانـت تتملّكهما منـذ البداية. وكما قـال (كينيدي): «لـم تعـد الحـرب غيـر المشـروطة تـؤدِّي إلـى نصـرٍ غيـر مشـروط. يجـب علـى البشـرية أن تضـع حـدًّا للحـرب، وإلّا فسـتضعُ الحـرب حَدًّا للبشـرية».

# الفصل السادس

# فيتنام

«لدينـا القدرةُ على الرَّمْيِ بأيٍّ مجتمعٍ خارجَ القرنِ العشرين.»

[روبرت مكنمارا]

«لم يكن التدخـل الأمريكـي تقدّمًـا في مستنقعٍ غيـر متوقـع يبتلعهم خطوةً خطوةً. لم يحدث قطّ أن كان صُنَّـاعُ السياسة غير مدركين للمخاطـر، والعقبات، والتطوُّرات السلبية.

لقد كانـت ملاحظات الاستخبـارات الأمريكيـة كافيـة، وشاملـة ومستنيرة، تلك التي تدفّقت بثبات من الميدان إلى العاصمـة، كما أُرسلت بعثات تحقيق خاصة إلى الخارج مرارًا، وتكرارًا، ولم يكن هناك شُحٌّ قطٌّ في التقارير المُستقلّة الراميـة إلى موازنـة التفاؤل؛ عندما كـانت تلك التقارير شائعة.

إنّ الحماقـة لم تتلخَّصْ في السَّـعْيِ لتحقيق هـدفٍ في ظلِّ الجهل بالعقبات، بـل في السَّـعْيِ لتحقيقـه على الرغم من تراكم الأدِلَّـة التي تُثبت تعذّر تحققـه.»

[باربرا توكمان]

تقـدّم حـرب فيتنـام اختبـارًا صارمًـا آخـرَ لفَرْضِيَّـة الأوهـام الإيجابِيَّـة؛ نظـرًا لأنـه كان ينبغي أنْ تكـونَ التقييمات الخاطئـة ضئيلةً. كان الاسـتثمار فـي الحـرب طويـلًا، بحيث كانـت هناك فرصـة كبيرة لإعـادةِ تقييـم التَّقـدُّم (مسـتبعدين بذلـك فَرْضِيَّـة أن القـرارات كانت مجـرّد ردود أفعـال متسـرِّعة)، وتشـير الأبحـاث الحديثـة إلـى أنَّ الولايـات المتحـدة كان لديهـا بعض الخيـارات الأخرى التـي وفَّرت مخـارج تحفـظ مـاء الوجـه، وهـي خيـاراتٌ علـى الرَّغـم مـن أنهـا لـم تكـن سـهلة، أو مرغوبـة، فإنّهـا كانـت قابلـةً للتطبيق (مسـتبعدين بذلـك فَرْضِيَّـة أنَّ القـرارات لـم تكن سـوى المسـار الوحيـد الممكن للأحـداث)، وكانـت المعلومـات الاسـتخباراتية زاخـرةً، وكثيفـةً (مسـتبعدين بذلـك فَرْضِيَّـة أنَّ القـرارات كانـت جيِّـدةً بالنظـر إلـى المعلومـات الخاطئـة). (انظـر الجـدول 4).

وكمـا هـي الحـال مـع دراسـات الحالـة الأخـرى؛ كانـت حـرب فيتنـام موضعًـا لدراسـات لا حصـرَ لهـا، ولديهـا تفسـيرات مطروحة بالفعل.

| الجدول 4 - حرب فيتنام: استبعاد التفسيرات البديلة الأساسية، ونظرة عامة على الاستنتاجات. | | |
|---|---|---|
| | الولايات المتحدة | فيتنام الشمالية |
| **فرصة التقييم** | طويلة جِدًّا | طويلة جِدًّا |
| **الخيارات البديلة** | نعم (ضمن قيود) | نعم |
| **توافر المعلومات** | معقول (مع وجود بعض العيوب) | معقول |
| **الأوهام الإيجابِيَّة؟** | البعض منها | لا[1] |
| **العامل الرئيسي** | إيمان بالنجاح في نهاية المطاف، أو على الأقلّ موقف تفاوضيّ مُوَاتٍ. | دعم وعزم لا ينضبان |

بيد أن هناك أدِلَّـةً قويّـةً على توقّع الولايات المتحدة بأن تكون لها الغلبة، والسِّيادة في نهاية المَطَاف. كما لم تتغيَّر السياسة بما يتماشى مع المعلومات المتراكمة حول أوجه الخلل فيها. لقد قلّلت الشخصيات الرئيسية، بمن في ذلك الرؤساء، وأعضاء مجلس الوزراء، والقادة العسكريون، من شأن الخصم، وبالغوا في تقديرِ قدرةِ الولايات المتحدة على تحقيق أهدافها.

(1) بعض الأوهام الإيجابِيَّة المحتملة حول هجوم تيت، ولكن ليس بشكلٍ عامّ.

## خَلْفِيَّةُ الْبَحْثِ

منذ الحرب العالمية الثانية، وحتى عام 1972، ألـزَمَ خمسةُ رؤساء (ترومان، وأيزنهاور، وكينيدي، وجونسون، ونيكسون) الولايات المتحدة بالحرب في فيتنام على نحوٍ مُضطرد.

إنَّ الأسطورة القائلة إنّ الولايات المتحدة تعثَّرتْ في «مستنقع» فيتنام بخطواتٍ صغيرة دون إدراك المخاطر المحتملة قد دحرتها «أوراق البنتاغون»؛ وهي مجموعة من الوثائق الحكومية - المُسرّبة إلى الصحافة - التي أكّدت وجود تقديرٍ واضح للمخاطر. لقد كانت الجهود الاستخباراتية هائلة (بل على العكس: كان هناك فيضٌ هائلٌ من المعلومات يفوق القدرة على التعامل معه). وبالتالي كان ينبغي ألّا يكون هناك أيّ أوهام، بل إنّ الجيش الأمريكي كان معارضًا لخوض حربٍ بَرِّيَّةٍ في آسيا، وذلك بعد أن تعلَّم في كوريا صعوبة مواجهة السكان الأصليين ذوي العزم والإصرار، وخطر استفزاز الاتحاد السوفييتي والصين. كان القادة العسكريُّون كذلك يخشون الاضطرار إلى خوض حربٍ أخرى محدودة، حيث يُتوقّع منهم الفوز «بيدٍ مُقيّدة خلف ظهورهم» لأسبابٍ سياسيّة؛ ولهذا حذّر رؤساء الأركان المشتركة من تورّط الولايات المتحدة.

لقد تراكمت الأدِلّة، قبل الصراع وطواله، على عدم جدوى مشاركة الولايات المتحدة في فيتنام أو فاعلية هذه المشاركة، وهي أدِلّة تدفَّقَتْ من مجتمع الاستخبارات، والكونغرس، وحتى

الإدارات الخاصة بالرؤساء، والمبعوثين الذين عُيِّنُوا خِصِّيصًا (ناهيك عن المصادر غير الحكومية). وبالنظر إلى هذه الإفادات، وحتى مع مراعاة الضغوط السياسية المختلفة التي تقيّد الخيارات المُتصوّرة، فإنَّ سياسةَ الولايات المتحدة قد أظهرت تفاؤلًا مستميتًا على نحوٍ مذهلٍ للغاية.

وتُقدّم الحرب الفيتنامية فرصةً لتحديد ماهيّة العوامل المُشتركة التي دفعت الرؤساء الخمسة للاعتقاد بأن الحرب كانت استثمارًا مُجْديًا. يسمح لي ذلك بدراسة ما إذا كانت التوقُّعات متباينة، وسبب تباينها، مع الاحتفاظ بالخصائص العامة للصراع خلال تلك الفترة، وبالتالي استبعادُ عددٍ من العوامل التي قد تكون مُرْبِكة. كما أركّز بشكلٍ أساسِيٍّ على (كينيدي، وجونسون)، فهما من اتَّخذا القرارات الرئيسية للتدخل عسكريًّا، والالتزام بتخصيص قوّات أمريكية مُقاتلة.

جادل (ديفيد كايزر، وفريدريك لوجيفال) في أنه كان ينبغي أن يكون واضحًا لصُنّاع السياسة الأمريكيين أنَّ الانسحاب يقدّم خيارًا أفضل من التصعيد. وقد أتت العديد من التقييمات السلبية للاحتمالات الأمريكية من باحثين من تكليف الإدارات نفسها؛ وكما كتبت (باربرا توكمان): «بالنظر إلى الأمر من منظورنا الحالي؛ يستحيل أنْ تتفادى التساؤل عن سبب تجاهل الحكومة الأمريكية لنصيحة الأشخاص الذين عيّنتهم من أجل المشورة...

وطـوال فتـرة الحماقـة الطويلة فـي فيتنـام، ظـلّ الأمريكيّـون يتنبؤون بالنتائـج، ويتصرّفـون دون الرجـوع إلى تقديراتهـم الخاصة للأحداث المسـتقبلية». ربَّمـا تكـون (توكمـان) قد بالغـت قليلًا في هـذا التأثير، لكـنَّ الحقيقـة هي أن الولايـات المتحدة قـد صعّدت الحـرب بطريقة منهجيّـة، علـى الرَّغْـم مـن الأدلـة الكثيـرة التي تُحـذّر من فعـل ذلك، وهـو ما يشـير بالتأكيد إلـى أنّ كِفَّـةَ الآمـال، والتوقّعـات الأمريكية قد رجَحَـتْ علـى كِفّـة المخاطـر، والتكاليـف المُتصوّرة.

وقـد جـادل الرجل الذي سـرَّبَ أوراق البنتاغون (دانيال إلسـبرغ) بأنّـه لـم تكـن لـدى رؤسـاء الولايـات المتحـدة أيُّ توقّعـات محـدَّدة بالفـوز فعليًّـا بالحـرب، لكنهـم كانـوا ببسـاطة يحاولون كسـب بعض الوقـت مـن أجل أهـداف سياسـية؛ الأمر الذي نتـج عنه ما أسـماه «آلة الجمـود، أو الوقـوف فـي طريـق مسـدود **stalemate machine**». تُظهـر أدلّـة جديـدة أنّهذا الـرأيَ خاطـئٌ، لكن حتـى (إلسـبرغ)، الذي يـرى أن صُنّـاع السياسـة كانـوا واقعييـن إلى حَـدٍّ ما، لاحـظ.. «خداعٌ للـذات» و«توقعـاتٌ مُفْرِطَـة فـي التفـاؤل» علـى نحـوٍ غيـر مُبـرَّر في إدارة جونسـون اللّاحقـة. كمـا وجـد (إيرفينـغ جانيـس) أن «الآمـال غيـر الواقعيـة» ظلَّـتْ مهمّـة كذلـك فـي عامـي 1964 و1965؛ وهـو وقـت إصدار القـرارات الحاسـمة بالتصعيد العسـكري الهائل. وعلى النقيـض من هـذا الـرأي، يجـادل (ليزلي غيلـب)، و(ريتشـارد بيتس) فـي أن: «جميـع الآراء والتوصيـات تقريبًـا قـد أُخِذت بعيـن الاعتبار،

وأن جميع القرارات المهمّة تقريبًا قد اتُّخذت دون وجود أوهامٍ بشأن احتمالات النجاح» (مع أنه يجدر بالذكر أن «هذا الأمر» من بين كل الأمور «يعدّ صعبَ التصديق؛ وذلك بالنظر إلى الوضع في ذلك الوقت من منظورنا الحاضر»). لكن في حين يرفض كل من (جيلب، وبيتس) فكرة أنّ التفاؤلَ المُفْرِطَ الذي شاع بين صُنّاع القرار كان سببًا دائمًا لاستمرار تورُّط الولايات المتحدة في الحرب، فإنهما يتَّفقان على أنّ «التساؤل بشأن ما إذا كان أولئك القادة متفائلين، أم متشائمين بشأن الحرب، ومتى كان ذلك، هو السبيل الوحيد للإجابة على بعضٍ من قضايا فيتنام، وألغازها المحوريَّة».

سوف أدرس الفَرْضِيَّة القائلة إنَّه كان لدى صُنَّاع القرار الرئيسيين في الولايات المتحدة أوهامٌ إيجابيَّة حول تكاليف الحرب في فيتنام، ومخاطرها، واحتماليّة النصر في نهاية المطاف. لكنني سأعرض أوّلًا تفسيرات أخرى كانت قد قُدِّمَتْ لتبرير مشاركة الولايات المتحدة، وهي عوامل يجب أخذها في الحسبان أثناء تحليلاتي للإدارات الأمريكية الفردِيّة.

إنني أتفق على أنَّ هذه العوامل تفسِّر الكثير من الأسباب الكامنة وراء الحرب، لكنّني أزعم أنّها لا تحلّ كامل الأُحْجِية بالشكل المُرْضِي.

كان أحد هذه العوامل يتمثّل في التصميم على احتواء انتشار الشيوعية. كانت الحكومة الأمريكية حسَّاسة بشكلٍ استثنائِيٍّ لـ«الخطر الأحمر red menace» للشيوعية في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية. كانت هناك موجةٌ صاعدة من الحركات الشيوعية في جميع أنحاء العالم، وكان لدور الولايات المتحدة في التصدِّي لها تأثيرٌ كبير على السياسة الخارجية لكلٍّ من الحكومتين الجمهورية والديمقراطية طوال الحرب الباردة. وعلى الرغم من أنَّ هذا قد يبدو استحواذِيًّا من منظور اليوم، إلَّا أنّه لا ينبغي التقليل من أهمية العُملة السياسية وراء هذا الخوف في الولايات المتحدة في ذلك الوقت، بل إنَّ رئيس هيئة الأركان المشتركة كان قد حذّر الرئيس (كينيدي) عام 1963 من أنّ «لجهد العسكري، والسياسي للصين الشيوعية في جنوب فيتنام... لَهُوَ - في حقيقته - مرحلة مُخطّط لها في الجدول الزمني الشيوعي للسيطرة على العالم».

شعر أشخاص مثل (كينيدي، وجون فوستر دالاس) «وزير خارجية أيزنهاور» بمسؤولية كبيرة على عاتقهم لوقف مَدّ الشيوعية. لقد كان شبح ميونيخ يثقل كاهل أيٍّ من اقتراحات التسوية؛ خاصة مع كينيدي، وكانت «نظرية الدومينو domino theory» المزعومة - التي تقول: إنه إذا سقطت فيتنام في مستنقع الشيوعية، فستجرُّ معها بقية دول جنوب شرق آسيا - كانت مقبولةً على نطاق واسع، وبات لها تأثيرٌ كبيرٌ على السياسة.

ومـن العوامـل الأخـرى كذلـك الحـرب البـاردة، فإلـى جانـب القلـق بشـأن الشـيوعية نفسـها، كانـت الإدارات الأمريكيـة تميـل - كمـا كتـب إرنسـت مـاي - إلى رؤيـة «جميـع البلـدان غيـر المتحالفة مـع الاتحـاد السـوفيتي، أو الولايـات المتحـدة كسـاحات معارك في صـراع عالمـيٍّ بيـن الاثنيـن». وخـلال أزمة برليـن عـام 1961 (وبعد مؤتمـر فيينا مع خروتشـوف)، علّـق (كينيدي) قائلًا: «باتـت لدينا الآن مشـكلة تتمثّـل في جعـل قوَّتنـا موثوقة، وفيتنـام تبدو المـكان الملائم لتحقيـق ذلـك». وهكـذا، لا يمكـن اعتبـار فيتنـام مجـرّد حركة ضمن حـركات لعبـة شـطرنج الحـرب البـاردة الأكبـر، بـل كبَرْهَنَـةٍ واضحةٍ علـى عـزم الولايـات المتحـدة الأمريكية.

إنَّ الانسـحابَ - كمـا كتـب وزيـر الخارجيـة دين راسـك - يعني «خسـارة شـديدة فـي الثقـة فـي إرادة العالـم الحـرّ، وقدرتـه علـى التَّصَـدِّي للعـدوان»؛ لـذا كان التعـذّر بمصداقيـة الولايـات المتحـدة حجـة بـارزة لمواصلـة الحـرب فـي فيتنـام القاصيـة، حتـى وإن كان ذلـك باهـظ الثمـن، وكان تحقيـق النصـر صعبًـا.

ولعـلَّ الحاجـةَ إلـى طريقـةٍ لحفـظ مـاء الوجـه قـد سـاهمت فـي إصـرار الولايـات المتحـدة بمجـرد أن أصبحـت جـزءًا مـن الحرب. ومَـع تقـدُّم الحـرب، أظهـر صُنَّـاع القـرار فـي الولايـات المتحـدة قلقًـا متزايـدًا باطّـراد حيـال تكاليـف الفشـل- لا القتال - فـي كلِّ من السـاحتين المحليـة والدوليـة. بعبـارة أخـرى، كانت مكانـة الولايات

المتحدة على المَحَكّ بسبب مشاركتها المُتقلقلة في الحرب، وهناك بعض الحقائق التي تعزِّز هذا الرأي. وقد أشار (جون ماكنوتون) مساعد وزير الدفاع لشؤون الأمن الدولي، إلى أن أهداف الولايات المتحدة كانت « في 70% منها لتجنُّب هزيمة مُذلّة لسُمعتنا كضامن». وكان الرئيس (جونسون ) قلقًا أيضًا من أن الانسحاب دون الفوز بتنازلات «سيفقدنا كرامتنا». ما من أحد كان يريد أن يذهب استثمار الولايات المتحدة الهائل في الأرواح والأموال والالتزام السياسي هباءً منثورًا!

حتى وإن كانت العوامل التي وُصِفت للتَّوِّ ليست بتلك الأهمّية لدى القادة أنفسهم، إلّا أنّها أثّرت في السياسات بسبب القيمة التي تُعلّقها عليها الجهات الفاعلة السياسية المحلّية الأخرى. وبالنسبة لجميع الإدارات، فإنه لا يمكن أبدًا تجاهل الضغوط السياسية، لا سِيّما في ظلّ نظام الحكم المُنقسم في واشنطن. كانت رؤية طرفٍ ما بوصفه متساهلًا مع الشيوعية يعدُّ جريمة يعاقب عليها سياسيًّا، وتستلزم إيقاع عقوبات شديدة. وقد تذكر (كينيدي، وجونسون) على وجه الخصوص «الاتهامات الجمهورية بأن «خسارة» الديمقراطيين للصين [لصالح الشيوعية عام 1949، بالإضافة إلى الهزيمة في كوريا] كانت بمثابة إضرارهم بحزبهم ضررًا يمتدّ أثره لعقدٍ من الزمن». وقد اعتقد (جونسون) أن تلك النكسات السابقة ستكون «لا شيءَ مقارنة بما سيحدث في حال

خسـرنا فيتنـام»، وكان كبـار مستشـاريه «مقتنعيـن مثله بأنّهم سـينالون عقابًـا أقسـى مـن اليمين في حـال الانسـحاب، مقارنة بالعقـاب الذين سـينالونه مـن اليسـار فـي حـال اسـتمرّوا فـي القتال».

لـم يكـن بمقـدور أيِّ قائـدٍ الانسـحاب من مواجهـةٍ مـع العدوان الشّـيوعيّ، دون تعريـض انتخاباتـه اللّاحقـة لخطـرٍ جسـيم. وكنتيجةٍ لذلـك، وعلـى حَـدِّ تعبيـر (توكمان)، فقـد «كان يُنظـر دائمًـا إلى خيار الانسـحاب البديـل على أنّه الأسـوأ؛ فقدان الثقة بالـدِّرْع الأمريكي في الخـارج، واتّهامـات بالضعـف والعجز أمام الشّـيوعين فـي الداخل». كان الـرّأي العـام المحلي ميّـالًا كذلـك إلـى تفضيـل خيـار الحـرب حتـى سـنوات (جونسـون) اللّاحقـة. فحتـى 1966، كانـت غالبيـة الأمريكييـن يستحسـنون طريقـة (جونسـون) في التعامل مـع الحرب. تعرَّضـت المظاهرات الأوَّلِيّـة المناهِضة للحرب للتجاهـل، واعتُبرت أنّهـا تمثـل فئـة مـن مثيـري الشـغب، لا رأي الأمريكييـن العادييـن. وحتـى (نيكسـون) كان قـادرًا علـى الادِّعـاء (سـواء أكان ذلـك ادّعاءً صائبًـا، أم خاطئًـا) بـأن «الأغلبيـة الصامتـة» تدعمـه. وأخيـرًا، ولكـن ليـس بالتأكيد آخرًا، كان هناك الشـعور الحاسـم والمصيـري بأنّ أحدًا مـن الرؤسـاء لـم يكن يرغب فـي أن يكـون أول رئيس أمريكي يخسـرُ حرَبًا فـي تاريـخ أمريـكا بالكامل.

لا ينبغـي اعتبـار أيٍّ من هذه التفسـيرات سـببًا مُتعجرفًـا لانخراط الولايـات المتحـدة فـي فيتنـام، فلعـلّ صُنّـاع القـرار الأمريكييـن قـد

لمسوا قيودًا مروّعة على كلِّ الخيارات، ولم يكونوا يهدفون سوى إلى استبعاد أسوئِها. وإذا كان أحدُ أسوأ هذه الخيارات يتمثّل في العواقب السياسية للانسحاب، وانهيار فيتنام الجنوبية التي كان يُتوقّع لها اللِّحاق بالشمالية، فربّما كان استمرار الحرب - بغضِّ النظر عن التكلفة - هو الخيار الوحيد المقبول في نظرهم.

لا أهدف في التحليلات التالية إلى «شرح» حرب فيتنام، فهذه مهمّة سبق أنْ تولّاها العديد من الكتّاب الآخرين، لكنني أهدف هنا إلى إظهار أنّه بغضِّ النظر عن النظرية التي يفضّلها كلّ شخص للأسباب الرئيسية للحرب، فإنه ما تزال هناك فجوات، وألغاز حول سبب استمرار الحرب بالطريقة التي استمرّت بها، على الرغم من وجود معلومات سلبية هائلة. ربَّما تساعد نظرية الأوهام الإيجابِيَّة في سَدِّ هذه الفجوات.

## إدارة أيزنهاور
## (1960-1952)

### ■ المعلوماتُ وردودُ الفِعْلِ

ورث (أيزنهاور) من (ترومان) التزامًا قوِيًّا بدعم حرب فرنسا في الهند الصينية. كانت مساهمة (ترومان) الأوَّلِيّة بالطائرات، وبمبلغ 119 مليون دولار، قد زادت على نحوٍ مضطرد بحلول عام 1952 حتى 300 مليون دولار. أتيحت لأيزنهاور الفرصة لإعادة

النظر في هذه السياسة، لكنّه استمرَّ في ذلك الاتّجاه، وفي عام 1953 بلغت المساعدات الأمريكية مليار دولار.

لم يكن لدى (أيزنهاور) أي سوء فهم بشأن المعارضة المحتملة، أو مخاطر التورُّط في فيتنام، بل كان يعي جيِّدًا، ربَّما أكثر من أيِّ وقت في حياته المِهْنِيّة كلها، أنه يُتوقّع بأيِّ إجراءٍ عسكري أن يؤدِّي إلى التصعيد.

وعلى الرغم من رغبة حكومة الولايات المتحدة القويّة في منع انتشار الشيوعية، فقد اقترح قسم الخطط في هيئة الأركان العامة للجيش في عام 1953 «إعادة تقييم أهمية الهند الصينية وجنوب شرق آسيا فيما يتعلَّق بالتكلفة المُحتملة لإنقاذها». كما صرَّحَ نائب الأدميرال (إيه. دي. ديفيس)، وهو مستشار الشؤون العسكرية الخارجية لوزير الدفاع، أنّه «يجب تجنُّب تدخل القوات الأمريكية في حرب الهند الصينية بأيِّ ثمنٍ عمليٍّ». وقد ذكر تقريرٌ لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية أنه «حتى وإن هزمت الولايات المتحدة قوات فيت مِن الميدانيّة، فإنَّ حربَ العصابات يمكن أن تستمرَّ إلى ما لا نهاية... وقد يتعيَّنُ على [الولايات المتحدة] مواصلة التزامها العسكري في الهند الصينية لسنوات عديَدة مُقبلة». كما عارض رئيس أركان الجيش، الجنرال (ماثيو ب. ريدغواي)، إرسال قوات برية، إذ كان على علمٍ بتعقيدات الحرب في آسيا كونه قائدًا للقوات الأمريكية في الجزء الأخير من الحرب

الكوريـة، ونصيحتـه كانـت بألَّا يكرّروا هـذا الأمـر. وكان (ريدغواي) قـد أرسـل «فريقًـا كبيرًا مـن المتخصِّصيـن، يمثلون كلَّ فـرعٍ من فروع الجيـش، فـي زيـارة مطوَّلـة للهنـد الصينيـة. كانـت النتيجة عبـارة عن تقريـر شـامل يوضِّـح أنَّ النجـاح فـي الهنـد الصينيـة سـيتطلب أكثـر مـن ثلاثمائـة ألـف جنـدي أمريكـي، ومعـدلات عالية مـن الإصابات لمـدة خمـسٍ إلـى سـبعِ سـنوات، وسياسـة ماليّـة توسُّـعيَّة من شـأنها عكـس القيـود التي فرضهـا (أيزنهاور) علـى الميزانيـة، وعلى الجيش بالأخصّ».

فـي السـابع مـن مايـو مـن عـام 1954، وقـع المعقـل الجبلـي الفرنسـي «ديـن بيان فـو» في قبضـة القـوات الفيتناميـة؛ إيذانًـا بهزيمة القـوة الاسـتعمارية القديمـة، وبآخـر انسـحاب لهـا. لم تكـن التجربة الفرنسـية التي بلغ ضحيّتهـا 150,000 جندي، في بلـد كانوا يعرفونه حـقّ المعرفـة، مُقلقـة بما يكفـي لردع التفاؤل الأمريكي بشـأن كسـب حـربٍ فـي فيتنـام. وبحلـول عـام 1954، كانـت الدلائـل - علـى أنَّ التدخل سـيكون خطأ فادحًا - واسـعة الانتشـار. كما اعترض رؤسـاء الأركان المشـتركة حتـى على إرسـال الفريق الاستشـاري للمسـاعدة العسـكرية (MAAG)، الـذي كان محـدود العـدد، لتدريـب قـوات جيـش فيتنـام الجنوبـي (ARVN)، وأصـدروا مذكـرة في أغسـطس مـن عـام 1954 تُوصـي بعـدم «مشـاركة الولايـات المتحـدة». كمـا أُرسِـل مبعوثـون آخـرون فـي بعثـات جمـعٍ للمعلومـات، وعـادوا بالرسـالة نفسـها: «إيَّاكم والتـورّط».

وقد أفاد السناتور (مايك مانزفيلد) بعد رحلته الثانية إلى فيتنام بأنّ كلّ ما حدث هو أن الوضع قد تفاقم، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى «الاستهانة المستمرة» بالقوّة السياسية والعسكرية لتحالف (فيت مينه). كما أصرّ على أنّه «ما لم يكن هناك تطلّعات معقولة في تحقيقنا لأهدافنا، فإنَّ الاستمرار في إنفاق موارد المواطنين الأمريكيين أمرٌ لا يمكن تبريره، أو اغتفاره». كذلك أُرسِل الجنرال (ج. لوتون كولينز) إلى باريس للتشاور مع الفرنسيين، وتقييم الإمكانات القياديّة لـ (نغو دينه ديم)، وهو مرشّح أمريكا المفضَّل للرئاسة الحكومة الفيتنامية الجنوبية. وجد (كولينز) أن (ديم) غير مقنع البتّة في قدرته إمّا على توحيد جنوب فيتنام، وإمّا على المنافسة بفعالية مع (هو تشي منه)، وأوصى «بإعادة تقييم خططنا لمساعدة جنوب شرق آسيا». وعلى الرغم من أن (كولينز) رأى الانسحاب خيارًا غير مرغوب فيه، فإنّه اعتقد بأنّه «قد يكون الحلّ السليم الوحيد».

## ■ الأَوْهَامُ الإيجَابِيَّة

تُعتبر عملية اتّخاذ (أيزنهاور) للقرارات ذات جودة عالية، مقارنةً بقرارات غيره من الرؤساء في الحروب (على الرغم من أنه لم يضطر قطّ إلى اتّخاذ أصعب الخيارات)، وربّما منعته هذه الجودة من اتّخاذ أيّة قفزة متسرعة نحو التزامٍ عسكريٍّ مباشر. ومع ذلك، فقد ألزمت إدارة (أيزنهاور) الولايات المتحدة بالتدريج

بزيادة المساعدات المالية، والعسكرية المُقدّمة إلى الفرنسيين، ثم إلى الفيتناميين الجنوبيين. لقد خاطر (أيزنهاور) بالكثير في توفيره لدعمٍ قويٍّ لـ (ديم)، وذلك بإرساله لمئاتٍ من الأفراد العسكريين الأمريكيين إلى فيتنام. كما كان وزير خارجيته (جون فوستر دالاس) مكلَّفًا بمهمّة حشد الدعم المحلي، والدولي لكبح جماح الشيوعية في فيتنام. غير أنه بحلول وقت مؤتمر جنيف الذي عُقِدَ لمناقشة مستقبل الهند الصينية في مايو من عام 1953، فشل (دالاس) في الحيلولة دون إقامة نظامٍ شيوعِيٍّ في الشمال، وفشل في إقناع بريطانيا، أو الحلفاء الآخرين بالانضمام إلى الجهود الأمريكية، كما كان قد فشل في إبقاء فرنسا في الميدان، وفي الحصول على موافقة (أيزنهاور) لانخراطٍ مباشر، بل وكان قد فشل حتى في دفع فرنسا للانضمام إلى جماعة الدفاع الأوروبية (كخطوة تبادُلِيّة مقابل المعونة الأمريكية الضخمة لفرنسا في الهند الصينية). وعلى الرغم من كلِّ هذه الدلائل على فشل السياسة الأمريكية بشأن الشيوعية، فإنّ (دالاس) «لم يكن مُستعدًّا ليستنتج منها أيّ سبب يجعله يعيد النظر في السياسة».

وبالنظر إلى الآراء المتشائمة المُختلفة بشأن انخراط الولايات المتحدة؛ لماذا لم تفشل الولايات المتحدة في الانسحاب فحسب، بل وصعَّدت الموقف كذلك؟ في أبريل من عام 1955، أعطت محاولة انقلاب سببًا للاعتقاد بأن حكومة فيتنام الجنوبية في عهد

(ديم) لم تَفِ بمعايير الأداء التي حدَّدها (أيزنهاور) نفسه على وجه التحديد من أجل الحصول على مساعدات أمريكية. ومن ثمّ، فقد أتاح هذا الأمر فرصة مثاليّة للخروج؛ غير أن الولايات المتحدة فعلت العكس والتزمت على نحوٍ أكبر. يبدو أن الخوف المُستمرّ من التوسع الشيوعي كان هو العامل المُهيمن. حتى أن (أيزنهاور) قد ذهب إلى حَدٍّ دعم قرار (ديم) المثير للكثير من الجدل بإلغاء انتخابات فيتنام الجنوبية المُخطّط لها (المنصوص عليها في اتفاقيات جنيف عام 1954)، وذلك بسبب قلقه من أن يكون التصويت «متحيِّزًا» (كان فوز هو تشي منه متوقّعًا).

كما أشار تقريرٌ مُستقلّ أعدَّه علماء سياسة أمريكيون إلى أن «المساعدات الأمريكية قد شيّدت قلعة على الرمال». ومع ذلك، ارتفع الدعمُ المادِّيُّ الأمريكيّ على نحوٍ لم يسبق له مثيل. كان الأفراد العسكريّون الأمريكيُّون متواجدين في الميدان منذ عهد (ترومان) «على الرَّغْم من أن الفرنسيين لم يكونوا راغبين بوجودهم»، لكنَّ أيزنهاور زاد عددهم من مجرّد حفنة رجال إلى عِدَّة مئات. في هذه المرحلة، لم تكن الحرب في الهند الصينية مسألة مهمّة كبرى في الولايات المتحدة، لكن التصعيد المستمر برغم الأدلة المُضادّة يوحي بأن صُنَّاع السياسة الأمريكيين ظلّوا متفائلين بأن السّيادة ستكون من نصيبهم في النهاية. ثمّ وفي عام 1960، تشكلت جبهة التحرير الوطني الشيوعية، ودخلت فيتنام

الجنوبية في حربٍ أهليّة؛ في الوقت المناسب تمامًا ليُورّث (أيزنهاور) الفوضى التي أحدثها لخليفته.

## إدارة كينيدي
## (1963-1961)

### ■ المَعْلُومَاتُ ورُدُودُ الفِعْلِ

استحوذت الإدارة الجديدة على إرث فيتنام، الذي كان أعضاؤها مستعدين فيما يبدو للاستمرار فيه دون إحداث الكثير من التغيير. وقد كتبت (باربرا توكمان) تقول: «تُظهر السجلات التي بين أيدينا أنهم لم يعقدوا أيَّة جلسة مُخصّصة لإعادة النظر في المشاركة التي ورثوها في فيتنام، كما أنهم لم يسألوا أنفسهم عن مدى التزام الولايات المتحدة، أو عن درجة المصالح الوطنية المشمولة. وكما تُظهر جبال المذكّرات، والمناقشات، والخيارات المُتدفّقة فوق المكاتب؛ فإنّ أحدًا لم يُكلّف نفسه بإلقاء أيّة نظرة طويلة المدى على الاستراتيجيات طويلة المدى». بيد أنه لا يمكن اتهام (كينيدي) بتجاهل المعلومات الاستخباراتية، بل إنه «أرسل سلسلة لا نهائية من البعثات الرسمية العليا لتقييم الوضع في فيتنام، حتى أنه كان على وزير الدفاع (ماكنمارا) الذهاب إلى هناك لخمس مرات في أقلّ من 24 شهرًا، وظلَّتِ البعثات الثانوية تمضي جيئة، وذهابًا من مدينة سايغون وَإليها؛ كنحلٍ مستمرٍّ في الطيران إلى

داخل الخلية وخارجها». كذلك كانت المعلومات تتدفّق بالفعل إلى الوطن عبْرَ الفريق الاستشاريِّ للمساعدة العسكرية، والسفارة الأمريكية، ووكالة الاستخبارات.

لم تكن كلُّ المعلومات بشأن التقدُّم في فيتنام سلبيةً. من ذلك مثلًا أنَّ نائب الرئيس (جونسون)، وبعد زيارته لفيتنام في شهر مايو من عام 1961، حثّ - بشأن المسألة الأعمّ المتمثلة في الانخراط في جميع أنحاء جنوب شرق آسيا - على «أن نمضِيَ قُدُمًا بخطًى سريعة، باذلين أقصى جهودنا، لمساعدة هذه البلدان على الدفاع عن نفسها». كما كتب (ويليام جيبونز) لاحقًا أن (كينيدي) كان، في عام 1961، «متردِّدًا بشأن التحرُّك بسرعة، أو بقدر ما أوصى به مستشاروه». وعلاوة على ذلك، جادل اثنان من أعضاء مجلس الشيوخ حينها، وهما (ويليام فولبرايت)، و(مايك مانزفيلد) اللَّذَان سيصدحان في وقتٍ لاحق بمعارضتهما الشديدة للتورُّط الأمريكي، بأنّ على الرئيس والسياسة الخارجية الأمريكية أن يتمتعا بسُلطةٍ أكثر استقلالية، وبدعمٍ واثق من الكونجرس، وهي وجهة نظر «عكست الموقف العام لدى معظم أعضاء الكونجرس في تلك المرحلة».

وفي أكتوبر من عام 1961، أُرسلت بعثة جديدة بعد ارتفاع أعمال التسلل للـ «فييت كونغ» عبر الحدود من لاوس. كان يقود تلك البعثة (ماكسويل تايلور)، وهو الممثل العسكري للرئيس

(الذي سرعان ما سيصبح رئيسًا لهيئة الأركان المشتركة)، و(والت روستو)، وهو أحد الصقور المتحمّسين، الذي تُصرّح (توكمان) بأنّ «عثوره على أسباب للتقدم في فيتنام سيكون أمرًا مفروغًا منه».

وقد رافقهما في هذه البعثة مجموعة مُتنوّعة من مسؤولي إدارات الدولة والدفاع، ورؤساء الهيئات المشتركة، ووكالة الاستخبارات المركزية. وأشار التقرير الذي أعدّوه إلى أنّ «برنامج إنقاذ جنوب فيتنام - كما تشير (توكمان) - لن يعمل إلّا من خلال ضَخٍّ القوات المسلحة الأمريكية لإقناع كلا الجانبين بجَدِّيَّة [الولايات المتحدة] ... لقد تنبَّأ التقرير بالعواقب بدقّة بالغة: إن الهيبة الأمريكية - المشمولة في المسألة بالفعل - ستصبح أعظم في حال كان هدفنا النهائي هو القضاء على التمرد في الجنوب، ليس هناك حدٌّ لالتزامنا المُحتمل (ما لم نهاجم المصدر في هانوي). من هنا، ومن خلال كلٍّ من الأقوال والاعتراضات، تشكّلت المُشكلة العسكرية المستقبلية».

لكن بما أن الدلائل كانت مختلطة ومشوَّشة إلى حَدٍّ ما، فربّما ما يزال من الممكن في تلك المرحلة الاعتقاد بأنَّ التدخل الأمريكي الحقيقي على أرض الواقع سيغيّر الأحداث ضدَّ الشيوعيين. لكن حتى وإن كانوا يَرَوْنَ المعلومات مُبهمةً فقط، وليست سلبِيَّة، فإنّ إلزام الولايات المتحدة بدرجةٍ أكبرَ كان مخاطرةً كبيرة. وقد صرّح (وليام بندي) «نائب مساعد وزير الدفاع» في تحليل لتقرير (تايلور روستو) بقوله: « هناك فرصة جيدة لعملية مبكرة وقاسية

(تخميني أنها ستكون بنسبة 70%) للقبض على زمام الأمور، ومنح (ديم) فرصة لتحسين أدائه، وتنظيف فوضاه... أما فرصة الـ 30% فهي أننا سينتهي بنا المطاف كالفرنسيين عام 1954؛ لا يمكن للرجال البِيض الانتصار في هذا النّوع من القتال. وبالنظر - في أفضل الأحوال - إلى اللبس الذي يكتنف هذا المصدر، وغيره من المصادر الاستخباراتية الأخرى المتنوِّعة، فقد كان قرار (كينيدي) بتمديد الانخراط الأمريكي خطوة جريئة ومتفائلة نحو المجهول الضبابي. لقد زاد (كينيدي) عدد الأفراد الأمريكيين لعشرة أضعاف، «وهي خطوة تُماثل إلى حدٍّ ما تصعيد (جونسون) عام 1965»، كما واصل دعمه لنظام (ديم) غير الشعبي. وفي تلك الأثناء، كانت المعلومات السلبية مستمرّة في القدوم.

كان هناك تقريرٌ آخرُ قُدِّمَ في ديسمبر من عام 1962، الذي على الرغم من دعمه لانخراط الولايات المتحدة بشكل عام، فإنَّه كان صريحًا في توضيح العواقب السلبية المُحتملة، مُحذِّرًا «من أن الحرب ستستمرّ لفترةٍ أطول، وستكلف أموالًا وأرواحًا أكثرَ من المتوقّع، وأنّ الجانب السلبِيَّ من الصورة ما يزال مع ذلك رائعًا». من الواضح أن (كينيدي) كان يتقبّل التقارير التي كلّف بإجرائها هِو بنفسه؛ والحقيقة أنّه «كان مدركًا للسلبيات، ومنزعجًا منها، لكنّه لم يُجرِ أيّ تغييرات، ولم يقترح أيٌّ من مستشاريه الرئيسيين إجراء شيء.

وفـي الواقـع، وكمـا يشـير (إرنسـت مـاي)، فـإنَّ «كل عضـو مـن أعضـاء الدائـرة المقرّبـة لـ (كينيـدي) كان مؤيّـدًا» للالتزام العسـكري فـي فيتنـام. كان (ديـن راسـك) فـي الأصـل متـردِّدًا، فعلـى الرغم من تأييـده لمنع انتشـار الشـيوعية، فإنه كان يظـنّ أن تقديم التـزام كبير من جانـب الهيبـة الأمريكيـة لما أسـماه بــ «القضية الخاسـرة» لهـو فكرةٌ سـيئة. فـي النهايـة، أعطـى الرئيـس موافقتـه، لكنـه كتـب إليـه يقـول: «إننـا - بفعلنـا هـذا - نعترف بـأنَّ إدخـال الولايات المتحـدة، وقوات السـياتو SEATO (منظمـة حلـف جنـوب وشـرق آسـيا) الأخـرى قـد يكـون ضروريًّـا لتحقيـق هـذا الهـدف». وفـي شـهادته أمـام لجنة العلاقـات الخارجيـة بمجلـس الشـيوخ، قـال: «هل يمكنـك - أو هل يجـب عليـك - الاسـتثمار فـي نظـام، وأنـت تعـرف حـقَّ المعرفة أن ذلـك النظـام غيـر قابـل للاسـتمرار؟» جـاء الحـذر مـن خـارج دائـرة (كينيـدي) المقرّبـة كذلـك، حيـث حـذّر (جـون كينيـث غالبريث) - سـفير الولايـات المتحـدة فـي الهنـد - (كينيدي) مـن أنَّ وعـد إدارته الجيّـد قـد «يغرق تحـت حقـول الأرز». وينبغـي أن يكـون التاريخ قد أعطـى تلميحات هـو الآخـر للمُخاطر الكبيـرة. ومثل (أيزنهـاور) من قبلـه؛ لـم يكـن (كينيدي) قلقًـا على مـا يبدو مـن تاريخ فيتنـام الحافل بصَـدِّ الغزاة.

يُعـدُّ الفشـل الأمريكي فـي العثور على أيَّـة دلالة مـن الهزيمة التي لحقـت بالجيـش الفرنسـي الاحترافي - بمـا في ذلك الفيلـق الأجنبي

- على يد [من كان يُنظر إليهم] على أنهم رجالُ عصابات آسيويُّون صغارُ البِنية، ونحيلون، وغير منظّمين، أحد أعظم ألغاز ذلك الوقت. كيف تعرضت واقعة (دين بيان فو) لكل ذلك التجاهل؟ عندما حاول (ديفيد ششوينبرون)، وهو مراسل شبكة CBS الذي كان قد غطى الحرب الفرنسية في فيتنام، إقناع الرئيس بحقائق واقع تلك الحرب، وبفُقدان ضبّاط فرنسيين كلّ عام بما يعادل صفًّا كاملًا في سانت سير [الأكاديمية العسكرية الفرنسية]، أجابه (كينيدي): «حسنًا يا سيد (ششوينبرون)، أولئك كانوا الفرنسيين. لقد كانوا يقاتلون في سبيل مستعمرة؛ في سبيل قضية خسيسة. أما نحن، فإننا نحارب في سبيل الحرّية، في سبيل تحريرهم من الشيوعيين؛ من الصين، وفي سبيل استقلالهم».

وهذا جديرٌ بالملاحظة؛ نظرًا لأن (كينيدي) نفسه سبق أن قال عن فيتنام: «إذا قُدّر لهذه المعركة يومًا أن تتحوّل إلى معركة رجل أبيض، فسنخسر كما خسر الفرنسيّون قبلنا منذ عقد من الزمن».

كان ينبغي أن تكون المعلومات القادمة من الميدان مثيرة للقلق. ولم يكن ينبغي أن يُعتبر فشل قوات جيش فيتنام الجنوبي مسؤولية الجيش الأمريكي. ووفقًا لتحليل (وليام غيبونز): «عندما فشل الفيتناميون الجنوبيون في الارتقاء واستيفاء الهدف الموضوع عند المستوى الاستشاري، لم يكن ينبغي علينا قطّ إلزام القوات الأمريكية بالمسألة. كان ينبغي أن ندرك فشلنا في

الجهود الاستشارية، وأن ننسحب». وبحلول عام 1962، كانت وسائل الإعلام أيضًا «تستقصي بشأن أولئك الآسيويين، وتبحث عن مواطن القصور، والأباطيل في التفاؤل القهري الموجود في تصريحات المسؤولين». وقد ذكرت بعثة قام بها ثلاثة من أعضاء مجلس الشيوخ في أواخر عام 1962 أنّ «التنبُّؤ الواقعي الوحيد، سيكون - في أفضل الأحوال - الانخراط في صراعٍ طويل الأمد». وقد طلب (كينيدي) من السناتور (مانزفيلد)، الذي أصبح حينها زعيم الأغلبية، زيارة فيتنام مرة أخرى في ديسمبر عام 1962، ثم عاد ليقول: «الآن، وبعد سبع سنوات وملياري دولار من المساعدات الأمريكية... لا يبدو جنوب فيتنام أكثر استقرارًا ممّا كان عليه في البداية». وقال (كينيدي) في وقتٍ لاحق: «لقد غضبتُ من (مايك) لمعارضته التامة، وغضبت من نفسي؛ لأنني وجدت نفسي متَّفِقًا معه». إذا كان (كينيدي) نفسه قد وجد بعض المؤشرات السلبية على الأقل مقنعة، فلِمَ لمْ يعدّل السياسة؟

لقد أتاحت كلٌّ من المكانة الأمريكية المُعزّزة، والاستحسان الجماهيري للرئيس - الناجِمَيْن عن النتيجة الإيجابِيَّة لأزمة الصواريخ الكوبية في عام 1962 - فرصةً لإعادة تقييم سياسة فيتنام دون قلقٍ كبير حيال ظهور غضبٍ محلّيٍّ. وقد ظهر خيار محدّد يوفّر مخرجًا من الأزمة، وذلك في أعقاب الثورة البوذِيّة في سايغون عام 1963 (التي قُتِلَ فيها ديم). أظهرت الثورة أن

الحكومة الفيتنامية الجنوبية المدعومة من الولايات المتحدة قد فشلت فشلًا ذريعًا. وعلى الرغم من أن اغتيال (كينيدي) بعد ذلك بفترة وجيزة قد يكون سببًا في تعقيد أيِّ توقّعات بالخروج في ذلك الوقت أمام (جونسون)، فإنَّ الثورة أثارت مناقشات جادَّة في واشنطن، والتي سُئل فيها (روبرت كينيدي) «عمّا إذا كان باستطاعة أيَّة حكومة مقاومة انقلابٍ شيوعي بنجاح. وإذا كانت الإجابة بالنفي، أفليس الوقت قد حان للخروج الكامل من فيتنام، بدلًا من الانتظار وحسب». ومع ذلك، «وعلى الرغم من التقارير التي تشير إلى العكس، ظلّ صنّاع القرار في سايغون وواشنطن يرون أنّ الوضع في فيتنام يتحسّن».

## ■ الأوهام الإيجابِيَّة

لعلّ من الجدير بالملاحظة أنّ (كينيدي) والرجال الذين في إدارته كانوا من جيلٍ من الفائزين بالحرب. «فمثل الرئيس؛ كان العديد من مساعديه من المحاربين المُخضرمين في الحرب العالمية الثانية... وكونهم اعتادوا على النجاح في الحرب وفي حياتهم المِهْنِيّة بعدها؛ فإنهم لم يكونوا يتوقّعون شيئًا أقلّ منه في واشنطن». ربَّما يكون هذا قد ساهم في موقفٍ يرى إمكانية حلّ أيّ مشاكل سياسية بالوسائل العسكرية. وكما يقول (جون غاروفانو): «لقد كانت الدبلوماسية والقوة العسكرية أدواتٍ تُكمّل بعضها بعضًا - لا بدائل عن بعضها بعضًا - في أسلوب (كينيدي) في

التعامـل مـع الأزمات فـي برليـن وكوبا وكذلـك في فيتنـام ولاوس».
ويجـادل أنصار الحركـة التنقيحيّـة Revisionists ممـن يكتبون عن أزمـة الصواريـخ الكوبيـة، وذلك علـى حَدِّ تعبير (ريتشـارد ليبو)، في أن «اسـتخدام كينيـدي الناجـح لدبلوماسـية الإرغـام، أو الدبلوماسـية القسـرية coercive diplomacy، قـد أدّى - بمـا لا مفـرّ منـه - إلى التدخـل العسـكري في فيتنـام». أي أنّ نجاحـه الظاهر في صَـدّ التقدم الشـيوعي فـي كوبـا ربّمـا يكون قـد عـزَّزَ الاعتقاد بـأنَّ عـزم الولايات المتحـدة قـد ينجـح فـي أماكـن أخـرى أيضًـا. ينظـر (ديفيـد كايـزر) أيضًـا إلـى حقيقـة أن إدارة (كينيـدي) مثّلتْ ما يسـمَّى الجيـل الأعظم GI generation، الـذي وصفـه بتميّـزه بـ«تفـاؤل دؤوب»، «وعدم اسـتعداد للتشـكيك فـي افتراضـاتٍ أساسـية، أو حتـى الاعتـراف بإمكانيـة الفشـل... الجيـل الأعظـم الـذي قـاد الأمـة إلى الحـرب لم يكـن يضـمّ أي مشـكّكين تقريبًـا بشـأن حكمـة المشـروع أو إمكانيـة نجاحه».

وحتـى الجنـرال (ماكسـويل تايلـور)، الـذي ردَّد تنبُّـؤ (كينيـدي) المُتبصِّـر بـأنّ «الفيتناميـن وحدهـم مـن يسـتطيعون هزيمـة «الفيـت كونـغ» (الجبهـة الوطنيـة لتحريـر جنـوب فيتنـام)»، كان بالرغـم مـن ذلـك واثقًـا بقـدرة الولايـات المتحـدة علـى «أن تبيّـن لهـم كيـف يمكـن إتمـام المهمّـة». ووفقـا لــ (توكمان)، فقـد «كان ذلـك الوهم الأوَّلِـيّ الـذي دعَّم هذا المسـعى بالكامـل»؛ الافتراض بـأن الولايات

المتحدة ستكون قادرة على تحفيز فيتنام الجنوبية على الفوز. كان وزير الدفاع، (روبرت ماكنمارا)، مُتحمِّسًا على نحوٍ خاصّ للخيار العسكري، و«مُتيقّنًا من النصر الأمريكي». حتى أنه تفاخر ذات مرة في أحد اجتماعات البنتاغون بقوله: «لدينا القدرة على الرّمي بأيٍّ مجتمع خارج القرن العشرين». كان (ماكنمارا) قد أتى إلى الخدمة الحكومية من خلفية تجارية وأكاديمية ناجحة، وهي خلفية «جعلت فيها العادات الذهنية والتدريب من (ماكنمارا) رجلًا بقناعة ضمنية ترى أنه بوجود الموارد المادّيَّة، والمعدّات اللّازمة، والتحليل الإحصائي الصحيح للعوامل النسبية، فإن المهمّة - وأيّة مهمة - يمكن أن تتحقق».

كان توقّع النصر سائدًا بالرغم من الاعتراف بأن تحقيقه قد لا يكون سهلًا، أو زهيد الأثمان. وكان فريق العمل الخاص بفيتنام Vietnam Task Force قد ذكر في تقرير له عام 1961 أنّ: «الولايات المتحدة تعتزم النصر في هذه المعركة، وليكن ما يكون». وكانت الفصائل الرئيسية في الجيش الأمريكي تحتفظ بمستوًى عالٍ من الثقة بالنصر، وكان الجنرال (تايلور) والجنرال (بول هاركينز) الذي سيصبح أول قائد لقيادة المساعدات العسكرية الأمريكية في فيتنام (MACV) «مستمرّين في إرسال تقارير عسكريّة مفرطة في التفاؤل إلى الرئيس». كما شطبت هيئة الأركان المشتركة هزيمة فرنسا باعتبار أنها حدثت نتيجة «الأخطاء

الفرنسية» التي «تضمَّنَتْ حالاتٍ من التأجيل، والتردّد السياسي الكبير»؛ لذا لم يكن على الجيش الأمريكي سوى «التأكد من أننا لن نكرِّرَ أخطاءهم». وقد أشارت هيئة الأركان المشتركة، على سبيل الاعتراض، إلى أن «الفرنسيين كانوا قد حاولوا كذلك بناء قناة بنما[1]».

وعلى النقيض من التفاؤل الرسمي؛ فإن إرسال مستشارين عسكريين إلى جنوب فيتنام لم يكن له تأثير كبير، و«بحلول عام 1962، أصبح الوضع يائسًا». وفي حين استمرّت القنوات الرسمية في تقديم تقييمات متفائلة، فإنّها لم تعكس إجماعًا في الرأي، «فعلى الصعيد الميداني، كان العقداء وضبّاط الصف، والمراسلون الصحفيون أكثرَ تشكّكًا»، وكان (جون كينيث غالبريث)، الذي قدَّم تقريرًا شخصيًّا من سايغون في عام 1961 بناءً على طلب (كينيدي)، قد نصح بعدم الالتزام بتقديم قوات أمريكية؛ لأنّ جنودنا «لن يتعاملوا مع مواطن الضعف الحيوية». لقد أشارت عليه هشاشة الدعم الذي يحظى به (ديم) بالحاجة إلى إعادة التفكير في الموقف، وأضاف على نحوٍ متشائم: «لقد بتنا الآن متزوّجين بالفشل»! وكتب (غالبريث) مرة أخرى إلى (كينيدي) في عام 1962، مشيرًا عليه بمقترحٍ سياسِيٍّ من شأنه إنشاء حكومة غير متحيّزة، وإحداث انسحابٍ أمريكيٍّ، ومحذّرًا من أننا لو لم

(1) كونهم قد فشلوا في بنائها (المترجمة).

نفعل ذلك «فسنحلّ محل الفرنسيين كقوة استعمارية في المنطقة، وسننزِف كما نزفوا». لكن هيئة الأركان المشتركة رفضت هذا المقترح، و«دعت إلى عدم تغيير أيّ شيءٍ في السياسة الأمريكية، بل دعت عِوَضًا عن ذلك إلى متابعةٍ حثيثة للمسعى، وحتى الوصول إلى خاتمةٍ مُكلّلةٍ بالنجاح. كان ذلك هو الإجماع العام، ولم يعترض (كينيدي) عليه؛ ومات مقترح (غالبيرث)».

لقد ساد تفاؤل الجيش على التحذيرات القادمة من قنواتٍ أخرى، واستمرّ صنّاع القرار الرئيسيُّون في اقتناعهم بأن النصر قادمٌ لا محالة، برغم وجود الكثير من الأدلة المضّادة لذلك. ربَّما لم يكن تفاؤُلُ الجيش وموقفه بادّعاء قدرته على تحقيق كل شيء مقنعًا تمامًا لـ (كينيدي)، الذي كان متشكّكًا للغاية بشأن النصيحة العسكرية بعد ما حدث في خليج الخنازير، وأزمة الصواريخ الكوبية، فقد أعلن ذات مرّة أنه «لم يستطع تصديق كلمة واحدة ممَّا كان يخبره به الجيش»، و«كان مضطرًّا لقراءة الصحف الإخبارية لمعرفة ما كان يجري حقًّا» في فيتنام. ومع ذلك، ووفقًا لـ (جون ستوسنجر)، فحتى (كينيدي) نفسه «قد راح ضحية هذا الشكل من العجرفة الأمريكية على نحوٍ خاص، التي افترضت أن التكنولوجيا، والكفاءة الدقيقة كدقة الحواسيب... والقوة الجوية - وفوق كل شيء - الإدارة الأمريكية الكفؤة، قادرة على التغلب على أيّ خصم».

# إدارة جونسون
# (1968-1963)

## ■ المَعْلُومَاتُ ورُدُودُ الفِعْلِ

بغضِّ النظر عن بعض الضرورات الدولية والمحلية، فإن (جونسون) لم يكن مضطرًّا إلى الإكمال ببساطة من حيث توقّف (كينيدي). وكما يشير (إرنست ماي)، «فقد ظلّت أمامه فُرصة لغسل يديه من مسألة فيتنام. ويتفق معه (فريدريك لوجيفال)، بناءً على معلومات أحدث، بأنه كانت هناك خيارات بديلة مُتاحة أمام (جونسون) بالفعل. وعلى الرغم من أنّ خيار الانسحاب لم يكن محبّذًا؛ بسبب المخاوف المحلّية والدولية، أخذًا بالاعتبار الهيبة الأمريكيّة التي استثمر فيها (كينيدي) بالفعل، فقد كان من الواضح أن استمرار المشاركة «سيتضمَّن تكاليفَ باهظةً، وأن مستشاري (جونسون) قد أخبروه منذ البداية تقريبًا أن النجاح قد يتطلب قصف شمال فيتنام، وأمر قوّات أمريكية كبيرة بالقتال في جنوب فيتنام.

في الواقع، كان على (جونسون) أن يُقرّر ما إذا كان سيذهب إلى الحرب أم لا». وقد كانت «الاعتبارات من جانب، أو آخر تُشبه إلى حَدٍّ كبير اعتبارات [كينيدي في] عام 1961». ومع ذلك، وبحلول الوقت الذي اتّخذ فيه (جونسون) القرار، كانت هناك شكوك جديدة لا تُثير المخاطر فحسب، بل تُقلّل أيضًا من احتمالية

تحقيق المكاسب: «لقد دعت الأحداث الأخيرة في سايغون إلى الانسحاب، إذ شككت - أكثر من أيٍّ وقتٍ مضى - في استحقاق جنوب فيتنام لأن تُطلق عليها «حرة». أضف إلى ذلك أنها زادت من فُرص الفشل زيادة كبيرة، وعلاوة على ذلك، أصبحت احتمالية عدم دعم الشعب الأمريكي للحرب في فيتنام أكثر وضوحًا. ففي أوائل عام 1965، وعندما تناول الرئيس قرارات الحرب، أعربت أعدادٌ كبيرة من أعضاء الكونغرس، وكُتَّاب المقالات الافتتاحيّة عن معارضتها.»

كان الخوف من سقوط جنوب شرق آسيا في براثن الشيوعية ما يزال مصدرَ قلقٍ كبير، و«مقارنة بعام 1961، فقد ظلّ التبرير على حاله تقريبًا دون تغيير. ومع ذلك، وحتى في بداية ولاية (جونسون) الأولى، كتبت (توكمان): «لقد كانت نظرة واحدة متمعّنة كفيلة بالكشف عن انخفاض سبب التواجد الأمريكي إلى حَدٍّ كبير. وعندما سأَلَ الرئيسُ وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) عمّا إذا كان سقوط لاوس، وفيتنام الجنوبية في قبضة السيطرة الشيوعية يعني أن منطقة جنوب شرق آسيا ستتبعهما بالضرورة، كان الجواب بالنفي؛ وأنه باستثناء كمبوديا، فمن غير المحتمل أن تستسلم دولةٌ أخرى في المنطقة للشيوعية نتيجةً لسقوط لاوس وفيتنام». وهكذا أصبح المنطق وراء الدافع الأصلي بكامله موضع تساؤل. كان (جونسون) قد طلب هذه المعلومات

بنفسـه، ثـم أهملها لاحقًا. لقد فشـل فـي تحديث سياسـته على الرغم من أن أحد الأسـباب الأساسـية للتدخـل الأصلي للولايـات المتحدة قـد اعتبـر لاغيًا. وفي الوقت نفسـه، حـذّر فريق العمل المَعْنِيّ بمسـألة فيتنـام، والمشـترك بين الوكالات مـن أنّه لا يمكن للولايـات المتحدة «ضمـان الحفـاظ علـى فيتنـام الجنوبية غير شـيوعية دون إلزام أنفسـنا بأيّـة درجة مـن العمل العسـكري الذي سـيكون مطلوبًا لهزيمـة فيتنام الشـمالية، وربّمـا الصين الشـيوعية، عسـكريًّا». وبالرغم مـن مثل هذه التحذيـرات، «كان الرئيـس، ووزراؤه، ورؤسـاء الأركان المشـتركة واثقيـن مـن قـدرة القـوة الأمريكيّـة على إجبـار فيتنـام الشـمالية على الاستسـلام، بينمـا تتفـادى الولايـات المتحـدة بحـذر اشـتباكًا مـع الصيـن». كان (جونسـون) قـد «تلقّـى مجموعـة واسـعة مـن النصائح بشـكلٍ رسـمِيٍّ، وغير رسـميٍّ على حدٍّ سـواء»، وهناك «أدِلّـة أكثر من كافيـة لدحـض الحُجَّـة التـي تزعـم بـأنّ (جونسـون) لم يكن يسـتمع سـوى لوجهـات نظـر مجموعة غـداء يـوم ثلاثـاء مُغلَقة.

إن الحجج بشـأن التفكير الجماعي، أو الحواجـز البيروقراطية، أو التنظيميـة لا تصمـد أمام الأدِلَّة الأرشـيفية». وبالتالـي، ينبغي للعوامل الأخـرى أن توضّـح قـرارات التصعيـد. يقتـرح أحـد الاحتمـالات أنّ القـرارات المبكـرة كانـت مُقيّدة؛ بسـبب عـدم وجود معلومـات كافية عـن نقـاط قـوة العـدو، لكـنّ المِعلومـات كانـت جيّـدة بمـا يكفـي للسـماح لـ (جونسـون)، ومستشـاريه بـإدراك المخاطر.

بحلول الوقت الذي تولّى فيه (جونسون) الرئاسة، كانت قيادة المساعدات العسكرية الأمريكية في فيتنام (MACV) الدائمة قائمة، وقيد التشغيل بالفعل، بالإضافة إلى مركز الاستخبارات المشتركة في فيتنام (CICV)، الذي وصفه رئيس المخابرات في MACV بأنّه «واحد من أجود أشكال الدعم بالاستخبارات القتالية التي سبق تطويرها على الإطلاق لدعم قوّاتنا في أوقات الحرب»، وكانت إحدى وحدات الاستخبارات، وتُسمّى مركز استغلال الوثائق المُجمّعة Combined Document Exploitation Center، «تتعامل مع نصف مليون صفحة من مواد «الفيت كونج» NLF وجيش فيتنام NVA المضبوطة كلّ شهر. حوالي 10% منها فقط كان ذا قيمة استخباراتية رئيسية؛ لذا فالصعوبة كانت - على العكس من كل شيء - تتمثل في وجود قدر هائل من المعلومات، فعلى حدِّ تعبير (جيلب وبيتس): «لم يسبق أن كانت القيادة السياسية منخرطة بهذا الشكل الكبير في تفاصيل الحرب الدقيقة». كما بدأت إدارة جونسون في إعادة تقييم فرص النجاح:

بدأت الإدارة في هذه المرحلة [في عام 1965] في دراسة فُرص «الفوز»، فبالنّظر إلى أنّ هذه مهمة عسكرية، كان على الجيش الاعتقاد أن بمقدوره إنجازها إذا آمن بقدراته وطلب - بطبيعة الحال - عددًا أكثرَ وأكثر من الرجال في سبيل تحقيق هذا الهدف. كانت تصريحاته إيجابية، وطلباته كبيرة. وفي مواجهة التصعيد، سأل

(ماكنمارا) الجنرال (ويلر)، رئيس هيئة الأركان المشتركة، عن الضمانات التي يمكن أن تحصل عليها الولايات المتحدة «للفوز في فيتنام الجنوبية إذا فعلنا كل ما في وسعنا». فأجابه (ويلر) أنه إذا كان «الفوز» يعني قمع كل أشكال التمرد والقضاء على الشيوعيين في جنوب فيتنام، فسيتطلب الأمر من 750 ألف إلى مليون رجل، وحتى سبع سنوات.

وقد جادل (مايكل هاندل) في أن «استعداد قائدٍ ما لتجاهل المعلومات الاستخباراتية التي تكشف عن أوجه قصور في سياساته يكون قويًّا على نحو خاص عندما تكون احتمالية اكتشاف أخطائه على المدى القصير مُستبعدة». وفي فيتنام، «كان بوسع (جونسون) تجاهل تقارير الاستخبارات حول عدم إحراز تقدُّم في حرب فيتنام، على أمل أن الوضع لم يكن في حقيقته سيِّئًا كما يبدو، وبما أنه افترض أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تخسر بأيَّة حال من الأحوال، فيمكن لأي قرارات نهائية، أو تَبِعَات مؤسفة أن تُمرِّرَ ببساطة إلى الإدارة التالية»، وذلك على قول هاندل. غير أن هذه الفَرْضِيَّة ليست مُرضية، إذ إنّها لا تفسّر كل تلك الآمال والافتراضات، ولا المقتضيات السياسية المُصاحبة لمحاولة تحسين الوضع، ولا عمليات التصعيد الهائلة.

وفي عام 1964، تعرّضِت الوحدات البحرية الأمريكية قبالة البَرِّ الرئيسيِّ الفيتناميّ لهجمات بواسطة الزوارق الحربية.

انتهز كلٌّ من (يو ثانت)، و(شارل ديغول) هذه الفرصة لتقديم خيارات خروج جديدة لـ(جونسون)، إمَّا بعقد مؤتمرٍ آخر في جنيف، وإمَّا عبْرَ إجراء محادثات بين القوى العظمى. لم يكن أيٌّ من المُقتَرَحيْن يضمن أن تكون فيتنام الجنوبية غير شيوعية، وتجاهلتهما إدارة (جونسون). كان (جونسون) ومستشاروه يرون أنّ من شأن المحادثات إعطاء الإيحاء بأن عزم الولايات المتحدة قد انخفض، وإضعاف معنويات جيش فيتنام الجنوبي ARVN والجنوب. وقد أُرسل وكيل وزارة الخارجية (جورج بال)، للقاء (ديغول)، حيث أخبره «أنّ الولايات المتحدة لا تؤمن بالتفاوض حتى يكون موقفنا في أرض المعركة قويًّا لدرجة تجعل خصومنا يقدّمون التنازلات الضرورية. ورفض (ديغول) هذا الموقف رفضًا تامًّا وصريحًا، وأخبر (بول) بأن هذه هي الأوهام نفسها التي جرَّت فرنسا إلى مثل هذا المأزق، وأن فيتنام كانت مكانًا يتعذّر القتال فيه على نحوٍ ميؤوس منه، وأنها بلدة عفنة لا يمكن للولايات المتحدة - وإن حشدت كل مواردها العظيمة - أن تنتصر فيها. إن التفاوض - لا القوة - هو السبيل الوحيد».

أصبح بول نفسه في النهاية من أشدِّ المعارضين للقتال البرِّيّ، وحملات القصف الجوي. وبصفته «المعارض المُقتنع والثّابت على موقفه لمزيد من العمل العسكري»، حاول الإلحاح باستخدام الحجج المعارضة للحرب. ومع ذلك، اختار صُنّاع السياسة

القتـال، والتفـاوض فـي الوقـت نفسـه، كابحيـن جمـاح أنفسـهم من أجـل الإبقـاء علـى حـربٍ محـدودة، بينمـا يأملون فـي أن يكـون هذا الأمـر كافيًـا لإجبـار الشـمال علـى وقـف القتـال. تمكن (جونسـون) مـن الحصـول علـى قـرار مـن الكونجـرس بصـدِّ الهجـوم المسـلّح (قـرار خليـج تونكين الـذي أُصـدر بتاريخ 7 أغسـطس عـام 1964). كان عـام 1964 بالنسـبة لثلث أعضاء مجلس الشـيوخ عـام انتخابات، ولـم يرغـب أحد منهم فـي المجازفة بـأن يبدو غيـر داعـمٍ للخدمات التـي يقدّمهـا الجنـود الأمريكيـون فـي الخـارج. أُجيـز القـرار، وفتح الطريـق أمـام تعميـق التدخل العسـكري فـي فيتنام.

كان كلّ مـن الجنـرال (والاس جريـن)، قائـد فيالق مشـاة البحرية الأمريكيـة، ورئيـس أركان الجيـش، الجنـرال (هارولـد جونسـون)، قـد قـدّرا أنّ الأمـر سـيتطلّب مـا بيـن 500،000 و750،000 جندي، وحتـى سـبع سـنوات للفـوز. وبحلـول عـام 1965، كان (ماكسـويل تايلـور)، الـذي كان فـي الأصـل مؤيّـدًا للحـرب البَرِّيّة، يصـوغ خطّته الخاصـة لإنهـاء التـورُّط الأمريكـي. لقد كتـب أنَّ «الجنـدي ذا الوجه الأبيـض المجهّز، والمـدرب بنوع تدريبـه الحالي لا يعـدُّ رجلَ حرب عصابـات مؤهّل للقتـال في الغابـات، والأدغال الآسـيوية. لقد حاول الفرنسـيون تكييـف قواتهـم مِـع هـذه المهمة وفشـلوا، وأشـكّ في أن تتمكـن القـوات الأمريكيـة مـن تحقيق نتائـجَ أفضـلَ منهم».

وفي واشنطن، كتب (جورج بال) عددًا من المذكرات التي تحثُّ على الانسحاب. كما حذّر كلارك كليفورد (الذي سيخلف (ماكنمارا) في النهاية كوزير لدفاع جونسون) «في رسالة خاصة [إلى جونسون] أنه بناءً على تقييمات وكالة المخابرات المركزية، فيمكن أن تصبح مواصلة حشد القوات البرية التزامًا مفتوح النهاية... دون أملٍ واقعيٍّ بتحقيق نصرٍ نهائيٍّ». ولم تقتصر الشكوك على مجموعات معيّنة في الولايات المتحدة، فبالرغم من أنّ بعض الدول، مثل استراليا وجمهورية كوريا، كانت تدعم الحرب، فإنَّ العديد من الدول الأخرى قد توقعت - على نحوٍ متزايد - فشل السياسة الأمريكية في فيتنام. على سبيل المثال، اعتقد دبلوماسيّون بريطانيون من مختلف أنحاء جنوب شرق آسيا أنه لن يكون بمقدور الولايات المتحدة الفوز.

وكان (جونسون) قد تصدّر خلافًا كبيرًا بين الوكالات حول التقديرات لنقاط قوة العدو التي لها تداعيات على تحليلي لما إذا كانت توقعات الولايات المتحدة قد تجاوزت الأدِلَّة المتاحة. كان صُنّاع القرار على دراية بالنزاع، وكان يفترض بهذا أن يجعلهم أكثرَ حذرًا، لكنهم، وعلى العكس من ذلك، عمّقوا الانخراط الأمريكي.

في عام 1967، قدّرت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية أن عدد قوات (فيت كونغ) يتجاوز ضعف العدد الذي تنبّأت به المخابرات العسكرية الأمريكية (برئاسة قيادة المساعدات العسكرية

الأمريكية في فيتنام). في ذلك الوقت، عمل (صموئيل آدمز)، وهو المحلّل في وكالة الاستخبارات المركزية الذي كان المؤيّد الأساسي للتقديرات العليا، على حملة -غير ناجحة- لحثّ قيادة المساعدات العسكرية الأمريكية في فيتنام على تحديث أرقامها، وعندما فشل في ذلك، اتجه مباشرة إلى البيت الأبيض. وكما يؤكّد (جون هيوز ويلسون)، فإنّ هذا الأمر «لم يكن مجرّد مسألة غموض في الأرقام. إذ سيكون للجواب تبعات عسكرية عمليّة في غاية الواقعيّة».

لقد تمسّك كل طرف - بإصرار - بتقديراته الخاصة. وبعد الحرب، اتهم برنامج تلفزيوني بثته شبكة CBS الجنرال (ويستمورلاند)، وأعضاء المخابرات العسكرية الأمريكية بتعمّد خداع الصحافة، والجمهور، وواشنطن من أجل «دفع الشعب، والكونغرس، والرؤساء المشتركين، والرئيس للاعتقاد بأننا نفوز في حربٍ كنّا في الواقع نخسرها. وفي اليوم التالي، زعمت مقالة افتتاحية في صحيفة النيويورك تايمز أنّ البرنامج كشف أن (جونسون) كان قد وقع ضحيّة للاستخبارات الكاذبة». ويُعتقد أنّ هذا الأمر «قد سلب من هذه الدولة قدرتها على إصدار أحكام بالغة الأهمية بشأن أكثر مصالحها الأمنية حيويّة خلال وقت الحرب».

ردّ الجنرال (ويستمورلاند) برفع دعوى قضائية على الشبكة، وهي قضية حظيت بدعاية واسعة وصل فيها الطرفان في النهاية إلى تسوية قبل صدور أيِّ حكم، لكن هذا لم يحدث سوى بعد عامين ونصف من تجهيز التحقيقات، وخمسة أشهر من المحاكمة، التي تضمنت فحص 500,000 صفحة من الوثائق التي سبق تصنيفها على أنها سرّية. لم يُعثر على دليل يثبت وجود أيّة مؤامرة مُتعمّدة، كما أكّدت تحليلاتٌ لاحقةٌ هذا الأمر. وعلاوة على ذلك، «أظهر تسجيل المحاكمة أن جميع أولئك الذين كنا نتصوَّر أنهم بحاجة إلى معرفة مسألة النزاع بشأن الأرقام كانوا على علم بها». وبالتالي، يمكن استبعاد فَرْضِيَّة أن (جونسون) كان محكومًا بالمعلومات الخاطئة، وأن ذلك يغفر له سياساته التي كانت ميّالة للقتال.

بعث السفير (إلسويرث بنكر) في سايغون برسالة إلى (والت روستو) في البيت الأبيض يحذّره فيها من «الأثر المدمّر الذي يحدثه تسريب [كما يحدث أحيانًا مع مثل هذه الأشياء] حقيقة أنه بالرغم من كل نجاحاتنا في تفتيت قوات (الفيت كونج)، و(جيش فيتنام) هنا.... [فقد أظهرت بعض الإحصائيات] أنهم أصبحوا أقوى بكثير من ذي قبل. وعلى الرغم من كل التحفظات والمحاذير، فإن هذا هو الاستنتاج النهائي الذي ستصل إليه معظم الصحافة»؛ لذا فبالرغم من وجودِ نِيَّةِ إخفاءِ الأمرِ عن الصحافة؛

فليس هناك من دليلٍ على أنَّ الهدف، أو النتيجة كان لخداع صنّاع القرار أثناء النزاع، وهذا هو الجانب الوحيد المهمّ لحجّتي من هذا النقاش.

كان يقترض بتقديرات وكالة الاستخبارات المركزية الأعلى أن تُحدث تأثيرًا سلبِيًّا على مشاركة الولايات المتحدة (بحيث تبرّر الحاجة لتقليل التفاؤل، لا لزيادته). لكن ما حدث كان العكس؛ ألا وهو التصعيد المستمر؛ لذا فبغضِّ النظر عن نوعية الأرقام التي نالت الحظ الأكبر من الاهتمام، تبقى استنتاجاتي دون تغيير. وكان مدير وكالة الاستخبارات المركزية (ريتشارد هيلمز) قد أشار لزميله (صموئيل آدمز) أنه «لم يكن ليحدث فرق في سياسة الولايات المتحدة حتى لو أخبرت البيت الأبيض أن هناك مليون مقاتل آخر من الفيت كونغ». لقد كان صنّاع القرار في الولايات المتحدة ملتزمين بالفعل بقرار القتال، وكان اقتناعهم بأنهم سيفوزون في نهاية المطاف يتّسق نفسيًّا مع هذا الالتزام.

## ■ أوهام إيجابية

في منتصف شهر يناير من عام 1967، قال الجنرال (ويلر جونسون) إنّ «المَدَّ العسكري المضاد قد انعكس، وإنّ زمام المبادرة بات بيد الجنرال ويستمورلاند». كما أضاف أن الولايات المتحدة «قادرة على كسب الحرب إذا مارسنا ضغوطًا على العدو في الشمال والجنوب دون كللٍ أو مللٍ». وفي أبريل من عام

1967، قال (ويستمورلاند) نفسه في جلسة إحاطة عُقدت في البيت الأبيض إنّ أعداد الأعداء داخل جنوب فيتنام قد وصلت إلى حَدٍّ أقصى بلغ 287,000 مقاتل، وأنهم قد بلغوا، للمرة الأولى منذ بداية الحرب، نقطة «التقاطع» في أقصى مناطق الشمال، وهذا يعني أن خسائر العدوّ، وانشقاقاته كانت أعظم من البدلاء الذين يجري تجنيدهم؛ لذا فقد كانت الولايات المتحدة - حسب ادِّعائه - «تفوز في حرب الاستنزاف هذه». ربَّما كان من المعقول أن يعتقد (جونسون)، على أساس هذه النصيحة (حتى وإن كانت النصيحة خاطئة)، أن هذه حرب يمكن الانتصار فيها. أما فيما يتعلق بحملة القصف كذلك، «فخلال المداولات التي استمرت لمدة عام 1964-1965... كانت أكثر تقديرات الاستخبارات تشاؤمًا تعترف بوجود بعض الاحتمالات للنجاح». وهكذا، فإن (جونسون) لم يتباطأ، بالضرورة، في سعيه لما كان ينبغي عليه أن يعرف أن مصيره الفشل الحتمي. غير أن هذا يثير التساؤل حول السبب الذي جعل صُنّاع القرار الآخرين يستمرّون في تفاؤلهم.

من المؤكد أن تقييمات القادة العسكريين الآخرين قد أعطت آراءً مفرطة في التفاؤل. يلاحظ (ديفيد هالبرستام) أنه - وعلى عَكس وجهات نظر الكثيرين من المتواجدين في الجبهة - كان هناك «تفاؤل خاطئ» واسع النطاق بين الأمريكيين من ذوي المراتب العليا المتواجدين في سايغون (الأمر الذي بدا له كنوعٍ

من «الخداع الذاتي في الأساس»)، بما في ذلك «تفاؤل لا يبدو أنه قد يتزعزع البتة» لدى السفير الأمريكي (إلسويرث بنكر). من الواضح أن (بنكر) قد صدّق توكيدات جنرالاته بأن كل شيء كان يسير وفقًا للخطة، وأن تحقيقنا للنصر الذي نسعى إليه كان أمرًا حتمِيًّا؛ نظرًا للقوة الهائلة التي واجهنا بها الجيش الفيتنامي الشمالي، وقوات الفيت كونغ». كل هذا كانت تُبلّغ به واشنطن في حينه. أما بالنسبة للقصف الجوي، فتشير الدلائل الموجود في دراسة وزارة الدفاع إلى أنّ «أعضاء مجموعة صنع السياسة كانوا مفرطين في التفاؤل بشأن هزيمة فيتنام الشمالية عن طريق غارات القصف الجوي خلال عامي 1964 و1965».

كان العديد من مستشاري (جونسون) المدنيّين يعتقدون أنّه يمكن إجبار فيتنام الشمالية من خلال تهديد شعبها واقتصادها، وهو الوهم الذي قاد إلى تنفيذ حملة القصف الجوي «عملية هزيم الرعد» الفاشلة تمامًا من عام 1965 حتى عام 1968. كان رئيس أركان القوات الجوية، الجنرال كورتيس إي. ليماي (وخلفه، الجنرال جون ب. ماكونيل، بالإضافة إلى قادة ميدان المعركة) يعتقدون أنّ «المهمة العسكرية التي تواجهنا تتمثّل في جعل الأمر مُكلفًا للغاية بالنسبة للفيتناميين الشماليين لدرجة تجعلهم يوقفون عدوانهم على فيتنام الجَنوبية ولاوس. إذا جعلنا العملية باهظة الثمن للغاية بالنسبة لهم، فسيتوقّفون». كما جرى التعبير عن هذه

الثقـة على نطاق واسـع كذلك: «كثيـرًا ما كان يقـال - داخل الحكومة والصحافـة - إنّ فيتنـام سـتتنازل لا محالـة عندمـا تبلـغ مسـتوى معينا مـن الألـم».

غيـر أن تقريـرًا صـادرًا عـن مجلس تخطيـط السياسـات خلُـص إلـى أنّ «القصـف الجـوي لـن ينجـح، وتوقّـع، بمـا يشـبه النبـوءة، أن يـؤدِّي إلـى سـجن حكومـة الولايـات المتحـدة... تعرضـت هـذه الدراسـة الاسـتثنائية للتجاهـل، و[والـت] روسـتو - الذي كان شـديد التأييـد للقصـف الجـوي - لـم يلفـت انتبـاه الرئيـس إليها قـطّ». ظل جـورج بـال ناقـدًا، و«كان يعبّـر، فـي مجموعـة غـداء الثلاثـاء من كل أسـبوع، عن قلقه بشـأن افتراضـات الإدارة حول فيتنـام. كان الآخرون يسـتمعون إليـه بـأدب، ثـم يتجاهلونـه، بينمـا يشـعرون بالرضـا طوال الوقـت؛ لأنَّ وجهـة نظـر ناقدة قـد أُخِـذت بعين الاعتبـار»؛ لـذا لا بُدَّ مـن أن (جونسـون) كان قد وصل إلى مسـمعه بعض التقارير السـلبية، لكـن لا يبـدو أن قراراتـه قـد عكسـتها. وكمـا يوضّـح جانيس:

لا يوجـد أيُّ دليـل يثبـت أن الرئيـس (جونسـون)، ومستشـاريه الرئيسـيين قـد قبلـوا شـخصيًّا بالتقديـرات المتشـائمة باسـتمرار فـي تقاريـر الاسـتخبارات، أو أخـذوا علـى محمـل الجـدّ احتماليـة أن تكـون هنـاك حاجـة بالفعـل... إلـى مزيـد مـن عمليـات التصعيـد الكبيـرة. وتشـير أوراق البنتاغـون إلـى أنـه وفـي بعـض المناسـبات المهمـة، تعرّضـت التوقُّعـات القاتمـة للتجاهـل بـكلّ بسـاطة، ففـي

أواخر خريف عام 1964 مثلًا، كان من الواضح أن الآمال الكبيرة التي علَّقها الرئيس جونسون، ومستشاروه الأساسيُّون على «عملية هزيم الرعد»، والاعتقاد بأنها ستكسر عزيمة فيتنام الشمالية، لم تنخفض بفعل حقيقة أن مجتمع الاستخبارات بكامله، وفقًا لدراسة وزارة الدفاع، «كان ميّالًا نحو وجهة نظر متشائمة». ثم بعد حوالي عامين ونصف، أفادت تقديرات وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية مرارًا، وتكرارًا بأنّ تكثيف القصف لمنشآت تخزين النفط في فيتنام الشمالية «لن يشلّ العمليات العسكرية الشيوعية»، وكان صُنّاع السياسة على علمٍ بهذا التنبؤ. بيد أنهم، وبدلًا من قبوله، قرّروا على ما يبدو قبول التقدير المتفائل الصادر من البنتاغون، الذي أكّد أن القصف «سيُحضر العدو إلى طاولة المفاوضات، أو يجعل التمرّد يذوي جرّاء قلّة الدعم».

كانت التوقعات بالنجاح النهائي قد هيمنت على أصحاب الرُّتَبِ العليا في الإدارة، ففي أواخر عام 1968، صرّح (والت روستو) قائلًا: «لسوف يُحيّينا التاريخ». وقال السكرتير الصحفي للرئيس ( بيل مويرز)، بعد استقالته إنه في الدائرة الداخلية لـ (جونسون) «كانت هناك ثقة، تلك التي لم يتبجّح بها أحدٌ قطّ، بل كانت قابعةً هناك فقط؛ - ولعلها كانت مجرّد بقايا من المواجهة التي حدثت حول أزمة الصواريخ الكوبية - ثقة من أنه عندما تسوء الأمور حقًّا، فسيضعف الآخرون».

وقد لاحظ (تشستر كوبر) وجود فرط في التفاؤل منذ عام 1964 وحتى الأشهر الأخيرة من إدارة (جونسون): «لقد عكست التوقعات المتفائلة التي ازدهرت من وقتٍ لآخر... معتقدات راسخة بالفعل. وفي حين كانت الشكوك تخطر من وقت لآخر في بال البعض، وربَّما الكلّ؛ كانت القناعة الراسخة بأن الحرب ستنتهي عمّا قريب، وبنتيجة إيجابية، مُثبّتة عند الصدر كما يتشبّث طفل ببطانيته ليشعر بالأمان. ولم تَلقَ وجهات النظر التي تتبنَّى العكس قبولًا حسنًا». وفي قضية (ويستمورلاند) ضد شبكة CBS التي حدثت بعد الحرب، شهد (راسك) «بأنه كان يعتقد أنه يمكن كسب الحرب عسكريًّا؛ أي أنه يمكن للولايات المتحدة الحيلولة دون تحقيق هانوي لهدفها». كما بَقِيَ آخرون واثقين من إمكانية فوزهم على من أطلق عليهم السيناتور (توماس دود)، وهو ديمقراطي من ولاية كونيتيكت، «بضعة آلاف من رجال العصابات البدائيين». كما أن (جونسون) نفسه، على الرغم من كراهيته للحرب التي كانت تدمِّر خططه بتطوير «المجتمع العظيم» في موطنه، كان يتوقّع بالرغم من ذلك نصرًا في نهاية المطاف على «تلك البلدة الصغيرة المُهلهلة ذات المرتبة الدنيئة». «واثقًا فيَ سلطته الشخصية»؛ تكتب (تومكان)، «كان جونسون يعتقد أنه يستطيع تحقيق أهدافه المحلّية، والأجنبية في آنٍ واحد».

لكن القصف لم يكنْ يأتِي بنتائج. وكان ينبغي - بحلول منتصف الحملة الجوية على الأقل - أن يصبح جَلِيًّا بأنّ «حرب العصابات لم تكن بحاجة سوى إلى القليل من الإمدادات، ولا شيء يُذْكَرُ على الإطلاق من فيتنام الشمالية»، وكان هذا الأمر قد بات معروفًا على نطاق واسع خلال جلسات استماع مجلس الشيوخ في أغسطس من عام 1967. وكان تقرير وكالتي المخابرات المركزية CIA واستخبارات الدفاع DIA الصادر في نوفمبر من عام 1967 قد ذكر أنه «لم تكن هناك أيُّ مؤشراتٍ على أن الصعوبات المرتبطة بالقصف الجوي كانت كافية لإجبار النظام على تعديل سياسته بشأن الحرب». وبالمثل، أشار تقريرٌ صدرَ بتكليف من معهد تحليلات الدفاع إلى أن «القصف الجوي لم يخلق صعوباتٍ خطيرة في النقل، أو الاقتصاد، أو الروح المعنوية». بل إن كاتبي التقرير كانوا يَرَوْنَ أنه - وعلى العكس من المتوقع - فإن القصف قد زاد من عزيمة العدو، وتصميمه (وهي ظاهرة كانت معروفة جيّدًا بسبب تجربة القصف الاستراتيجي أثناء الحرب العالمية الثانية): «من الجَلِيِّ أن التوقّع بأن يؤدِّيَ القصفُ إلى تآكل عزيمة مدينة هانوي وشعبها كان سببًا في المبالغة في تقدير التَّبِعَات المُقنعة، والمدمّرة للقصف الجوي، الأمر الذي أدَّى في المقابل إلى الاستهانة بثبات الفيتناميين الشماليين وقدراتهم التعويضية». وكان معهد تحليلات الدفاع قد خَلُصَ - بعد مراجعته

للتقرير - إلى: «أننا غير قادرين على تنظيم حملة قصف جوّي للحَدِّ من تدفُّق الأفراد المتسلِّلين إلى SVN [فيتنام الجنوبية]».

وعلى الرغم من أن الجيش ظلّ فيما يبدو واثقًا (من الناحية الرسمية، فإنَّ تشاؤمَ تقارير الاستخبارات الأخرى قد نجح أخيرًا في إثارة الشكوك بين صُنّاع السياسة. كان (ماكنمارا) قد تلقّى تقريرين مُفَصَّلَيْن (في أغسطس 1966 ومايو 1967) من وكالة المخابرات المركزية الأمريكية «يتوقّعان أنه مهما كان حجم القوات العسكرية الأمريكية المتواجدة في جنوب فيتنام، فإنّ هذه الحرب ستظل حربًا يتعذّر الفوز بها». لقد بدأت المعلومات المتراكمة، بالنسبة لـ (ماكنمارا) على الأقل، تبدّد أيّ أوهام إيجابية بأن الولايات المتحدة ستنتصر. ووفقًا لـ (توكمان)، فقد بدأ يُظهر، في محيطه الخاص، «إدراكًا متكشّفًا باللّاجدوى». كانت مثل هذه الآراء قد غادرت البيت الأبيض في هدوء مع مغادرة أصحابها له (روجر هيلسمان، مدير مكتب الاستخبارات بوزارة الخارجية الذي غادر عام 1964، وماكجورج بندي، وبال، ومويرز في عام 1966). كان الكونغرس، على الأقل، ما يزال بحاجة إلى الإقناع، وأصبح القادة العسكريون أكثر صراحة بشأن القيود المفروضة عليهم. وفي جلسات الاستماع التي عقدتها لجنة القوات المسلحة بشأن هذه المسائل في أغسطس من عام 1967، رفض (ماكنمارا) إجراء تقييمٍ إيجابِيٍّ للحرب:

لقد استشهد بأدِلّةٍ تُظهر أن برنامج القصف الجوي لم يقلل من تدفُّق الرجال، والإمدادات بشكل كبير، واعترض على النصيحة العسكرية برفع القيود، والسماح بنطاق استهداف أوسع. «ليس لدينا أي سبب للاعتقاد بأنَّ ذلك سيكسر إرادة الشعب الفيتنامي الشمالي، أو يزعزع أهداف قادته... أو يقدّم أيَّ توكيدات على أنّ قصفنا لهم سيجعلهم يذعنون، ويجلسون على طاولة المفاوضات». وهكذا، اعترف وزير الدفاع بأنَّ الغرض الأساسي من الاستراتيجية الأمريكية كان غير ذي جدوى.

بعد ذلك أتى هجوم (تيت ) في يناير عام 1968، الذي «كبح لجام التفاؤل الجامح» الذي كانت تقاريره تُرسل إلى واشنطن. وحتى أوهام المتفائلين باتت الآن في مهبّ الريح. غادر (ماكنمارا) الحكومة بعد هجوم (تيت)، ويبدو أن رحيله كان له أثرٌ حاسمٌ على عملية صنع القرار، إذ أمر (جونسون) وزير الدفاع الجديد، (كلارك كليفورد)، «بإجراء مراجعة كاملة للاستراتيجية الأمريكية في فيتنام. وممَّا أثار دهشة (كليفورد) أنه لم يجد قائدًا مخضرمًا واحدًا يعتقد أنّه يمكن كسب الحرب باستخدام الأساليب التي تستخدمها الولايات المتحدة الأمريكية حاليًا». وعلى الرغم من أن الضغط السياسي كان يخفف باستمرار من حِدَّة طلبات الجيش بتصعيد أعداد الرجال، والمَواد المُرسلة إلى فيتنام، إلَّا أنَّ الالتزام الأمريكي كان قد زحف بالفعل حتى بلغ نصف مليون جندي.

وفي يوليو [من عام 1967]، كان جونسون قد وضع سقفًا لتصعيدات القوات البَرِّيّة بحيث لا يتجاوز عددها 525,000 جندي؛ أي ما يزيد قليلًا على العدد الذي كان اللواء العام (لوكلير) قد حدّده، قبل 21 عامًا، بوصفه العدد اللازم لتحقيق الهدف وحتى حينها لن يكون بمقدورهم تحقيقه.

وبالفعل، لم يكن هذا كافيًا. فبعد هجوم (تيت)، كان طلب (ويستمورلاند) بإرسال 200,000 جنديٍّ إضافيٍّ أمرًا مروّعًا، لكن «كونه كان رهينة الاعتقاد بأن القوة المتفوقة لا بُدَّ وأن تسود؛ لم يكن (جونسون) مستعدًا للتفاوض، أو الانسحاب تحت أيِّ ظرف يمكن تفسيره على أنّه هزيمة». وفي تلك المرحلة، بات واضحًا أن (جونسون) كان مُفرطًا في تفاؤله بشأن النتيجة طوال الوقت. وحتى تقدير (لوكلير) المتشائم للأعداد قد ارتفع بناء على معلومات وخبرات جديدة، ففي عام 1965، وعندما كان يفكّر في إرسال قوات برية، كان (جونسون) قد «حُذِر من أن تحقيق أهداف الولايات المتحدة سيتطلّب ما بين 700,000 إلى 1,000,000 جندي، و7 سنوات من الحرب، وذلك لإجبار الشيوعيين على الانسحاب من الميدان، وتطهير الجنوب. كان هذا المستوى مَن الالتزام يفوق بكثير ما كانت تتوقعه إدارة جونسون». وعلى ما يبدو أن (جونسون) لم يُحدّث تفكيره مع مرور الوقت، واعتقد أن الجيش الأمريكي قادر على تحقيق نصرٍ من نوع ما حتى في

غياب القـوات، التي أخبره الآخـرون بأنها سـتكون ضرورية لتحقيقه. «ولأنـه كان مقتنعًـا بأنـه لا يمكـن أن يخسـر، فقـد ألقـى بالمزيـد مـن القنابـل، وأرسـل المزيـد مـن الرجـال إلـى حتفهـم». وحتـى (جورج بـال) - الناقـد الدائـم - كان قـد صـرّح فـي عـام 1966 بقولـه: «إن الشـيء الوحيـد الذي يتعيّـن علينا فعله هـو الانتصار في هـذه الحرب الملعونة».

وبعـد سـنوات من تلقّيـه لمعلومـاتٍ تتعـارض مع آمالـه بالنصر، بـدأ (جونسـون) بالانفتـاح علـى الواقـع. لقـد أعـرب عـن أسـفه فـي خطـاب حالـة الاتحـاد لعـام 1966 بقولـه: «الحـرب هـي الحـرب دائمًـا. إنهـا شـبابٌ يموتون فـي سـبيل تحقيق الوعـود التـي قطعوها. إنهـا محاولـة قتل رجـل لا تعرفه بمـا يكفـي لتكرهه. ومن ثـمَّ فمعرفة الحـرب تعنـي معرفـة أنـه مـا يـزال هنـاك جنـون فـي هـذا العالـم». وفـي استطلاعات الـرأي، عبَّـرتِ الغالبيـة عـن اسـتيائها مـن طريقـة تعاملـه مـع الحـرب للمـرة الأولـى فـي منتصـف عـام 1966، وذلك بعـد اعتـراف القـوات الجويـة بـأن قنابلهـا قد أصابـت منطقـة مدنيين فـي هانـوي، ولـم ترتفـع نسـبة تأييـده مـرةً أخـرى قـطّ. وكمـا تشـير (توكمـان)، «فقـد بـدأ يتجلّى لجونسـون بالتدريـج أنه ليـس هناك من سـبيل لجعـل ورطـة فيتنـام تنتهـي لصالحـه. لـم يكـن ليقـدر النجاح العسـكري بمفـرده على إنهَـاء الحرب خلال فترة الثمانية عشـر شـهرًا المتبقيـة فـي رئاسـته، ومـع اقتـراب الانتخابـات، لـم يكـن بمقـدوره

الانسحاب، والانهزام في فيتنام... وفي رأي موريز، فإنه كان يعلم ذلك. كان يشعر بأن الحرب ستدمّره سياسيًّا، وتحطّم رئاسته. لقد كان رجلًا تعيسًا». يبدو أن (جونسون) قد عانى من مشورات سيِّئة كان يقدّمها له أشخاص مفرطون في تفاؤلهم بتوقُّعات النصر، بيد أنه كان الشخص الذي اتّخذ قرارات التصعيد.

## إدارة نيكسون
## (1968-1972)

لم يكن (جونسون) آخر رئيس تجعله فيتنام بائسًا بالطبع. سوف أتعامل مع (نيكسون) هنا بإيجاز، إذ كان من الواضح أنه بحلول الوقت الذي تولّى فيه السلطة أنه لا يمكن الانتصار في هذه الحرب بالقوة العسكرية. كان (نيكسون) قد ساند التدخل العسكري الأمريكي في وقت مبكر جِدًّا عندما كان نائبًا للرئيس في عام 1954، وأوصى بأن تُرسل الولايات المتحدة قوات مقاتلة في حال تعذّر «إنقاذ» الهند الصينية بطريقةٍ أخرى، ثم كرئيس، وبعدما رشّح نفسه في حملته الانتخابية على أنه الشخص الذي سيُخرج الأمّة من فيتنام، انتهى به المطاف بالسير على خطى أسلافه، وتنفيذ الحرب على نحوٍ تشتدُّ ضراوته باطّراد. كان قد سحب قوّاتٍ بالفعل، لكن مستوى الحملة الجوّية قد ارتفع عدّة درجات. كان القصف الجوي قد فشل في مهمته من قبل، لكن

حملات القصف التي وقعت في عهد (نيكسون) كانت ذات شِدَّة ونطاق لم يسبق لهما مثيل، التي وسّعت الحرب خِفية لتشمل قواعد معادية يُفترض وجودها في كمبوديا. في ذلك الوقت، خفّضت فيتنام الشمالية من استخدامها لأساليب حرب العصابات مقابل زيادة العمل العسكري التقليدي واسع النطاق. وفي حين أن القوة الجوية لا تكون في العادة فعالة ضد الأهداف المدنية، أو أهداف البِنْيَة التّحتِيّة، فإنها تعدّ فعّالة ضد القوات الهجومية العسكرية التقليدية. وهكذا، وعلى الرغم من أن واشنطن قد لا تكون أدركت الأمر في ذلك الحين، فإن نجاح حملات القصف التي قام بها نيكسون عام 1972 يعود - جزئيًّا على الأقل - إلى تحوُّل هانوي للأساليب التقليدية (بالإضافة إلى حقيقة أن نيكسون كان قد فرض مطالب أقلّ مّما فرضها جونسون)، وليس إلى مزايا استراتيجية القصف الأمريكية الجديدة في حَدِّ ذاتها.

قبل هانوي بمطالب الولايات المتحدة في 21 أكتوبر من عام 1972، لكن الجنوب ظل يماطل بسبب تفاصيل الاتفاقية المُقترحة، الأمر الذي دفع الشمال للارتداد عن موقفه. وكردٍّ على ذلك، استأنف (نيكسون) هجومًا مُدمّرًا في حملة «تفجيرات عيد الميلاد» (غارات ديسمبر) التي استمرَّت من 18 ديسمبر حتى 25 ديسمبر، وهو ما جعل الفيتناميين الشماليين يعودون مهرولين إلى طاولة المفاوضات. وفي يناير من عام 1973، كانت المعاهدة في

صيغتها النهائية، وكانت الحرب - بالنسبة للولايات المتحدة على الأقل - قد انتهت أخيرًا.

ظل (نيكسون) على إيمانه بقدرة الولايات المتحدة على «الفوز». وبالنسبة إليه، فإن الفوز لم يكن في هزيمة الشمال، بل في منع الشمال من هزيمة الجنوب. وقد ادّعى أنه حقق ذلك، وأن فشل الكونغرس والعامة في الإبقاء على حكومة فيتنامية جنوبية بعد الانسحاب الأمريكي هو ما كان مسؤولًا عن «فقدان السلام». يبدو أن سياسته قد آتت ثمارها إلى حَدٍّ كبير، وذلك بفضل التغيير المتزامن للاستراتيجية العسكرية لدى الفيتناميين الشماليين؛ الأمر الذي جعلهم مكشوفين للهجمات الجوية. ومع ذلك - وحتى بعد فترة طويلة من الحرب - كان (نيكسون) ما يزال مؤمنًا بأنّهم كسبوا الحرب، حتى مع انعقاد المؤتمرات والندوات للتباحث في أسباب خسارتها.

عندما سقطت سايغون أخيرًا أمام الشيوعيين في عام 1975، اعترف (دين راسك) قائلًا: «شخصيًّا، ارتكبتُ خطأين، استهنتُ بالفيتناميين، وأفرطّت في تقدير صبر الشعب الأمريكي. تمثّل هذه المعتقدات ما كان يؤمن به غالبية صنّاع القرار في الولايات المتحدة طوال فترة النزاع في فيتنام.

## تصوّرات هانويا

تشير الأعمال الحديثة إلى أنّ القوات الفيتنامية الجنوبية - وداعميها من المدنيين - لم تكن لديهم نية الاستسلام. وفي حروب العصابات، فإن الحركات الوطنية قد لا تتنازل مطلقًا طالما ما تزال هناك إرادة للمقاومة. فكما رأينا من فشل حملات القصف الجوي لـ (جونسون)، كان التمرُّد في جنوب فيتنام مستدامًا حتى عندما كان مستقلًّا بالكامل عن الشمال. كانت رؤية كينيدي بأنّ «الفيتناميين وحدهم هم القادرون على هزيمة قوات الفيت كونغ» نبوءة دقيقة. بعبارة أخرى، كانت ثقة الفيتناميين بأن الغلبة ستكون لهم مبرّرة، حتى وإن كانت ضدّ خصم يفوقهم بكثير. لقد كانت لديهم دلائل قوية تدعم هذا الموقف، وأهمّها هزيمتهم للفرنسيين. وكما هي الحال في النزاع السابق، فإنهم لم يكونوا بحاجة لهزيمة العدو، وكل ما كان يتعيَّن عليهم فعله هو الاستمرار في القتال لوقت أطول ممَّا كانت الولايات المتحدة مُجهّزةً له. كان (هو تشي منه) قد قال في وقت مبكر من عام 1946: «اقتلوا عشرةً من رجالنا، وسنقتل واحدًا منكم. أنتم من سيتعب في النهاية». ووفقًا لـ (توكمان)، فإنَّ «عناد هانوي كان مرتبطًا بالفعل بالاعتقاد بأن الولايات المتحدة ستتعب أوّلًا، سواء أكان ذلك بسبب التكلفة، أم المعارضة المتزايدة». وكان تقرير أمريكي عن حملات القصف الجوي قد ذكر: «أنّ النظام مستمر في إرسال الآلاف من الشباب،

والشابّات إلى الخارج بغرض الحصول على تعليم، وتدريب تقني عاليين؛ ونحن نعتبر هذا دليلًا على ثقة النظام في النتيجة النهائية للحرب».

هناك بعض الدلائل على أن الشمال كان مفرطًا في التفاؤل بشنّه لهجوم تيت عام 1968 على خصم كان يفوقهم عددًا بكثير (تعرّض في النهاية لهزيمة عسكرية): «لم يذكروا لقيادات الهجوم أي شيء بشأن بدائل، أو طرق للهروب. إن الشكل الفريد لهذه الخطة، إلى جانب نطاقها، يشير إلى أن الفيت كونغ وأنصارهم الفيتناميين الشماليين كانوا واثقين من النصر». كذلك توقع صنّاع القرار في هانوي أن يُثير الهجوم انتفاضة شعبية في جميع أنحاء البلاد، لكنّه لم يفعل. ربما يعود جزءٌ من فرط التفاؤل الواضح هذا إلى ضعف المعلومات، وفي هذه الحالة فإن الأمر قد لا ينطوي بالضرورة على أوهام إيجابية.

وفيما بعد، كتب الجنرال الفيتنامي الشمالي (تران فان ترا) يقول: «خلال هجوم تيت عام 1968، لم نقيّم توازن القوى بيننا، وبين العدو تقييمًا صائبًا، ولم ندرك حقّ الإدراك أن عدونا ما تزال لديه قدرات كبيرة، وأن قدراتنا كانت محدودة». ويقترح (مايكل هاندل) أيضًا أن هجوم تيت كان مبنيًّا على معلومات غير كافية. ومع ذلك، ودعمًا لاحتمالية أن تكون الأوهام الإيجابِيَّة قد لعبت دورًا ما في الأمر؛ أضاف الجنرال (تران فان ترا) أن الأهداف

«كانت تتجاوز قوّتنا الفعلية... [ومستندة] جزئيًّا على وهم رغباتنا الذاتية».

لكن ليس من الضروري أن يكون هجوم (تيت) معتمدًا على توقُّعات الفيتناميين الشماليين بالنصر وحسب. كان الجنرال (فون نجوين جياب)، وهو رئيس أركان الشمال ووزير دفاعه، يعلم أن شنَّ هجوم كبير في ذلك الوقت قد يزيد من حِدَّة الرأي العام الأمريكي المعارض للحرب، كما سيؤثر بالسلب على التعاون الهشّ بين الولايات المتحدة، وفيتنام الجنوبية. وقد تحققت كلتا هاتين النتيجتين؛ لذا فحتى هجوم (تيت) المكلّف للغاية قد لا يكون استراتيجية مفرطة في الطموح، بل استراتيجية عقلانية تسعى لتحقيق أهداف سياسية أكبر.

وفي أوقات أخرى كذلك، تُبرهن الوثائق المضبوطة على تقديرات الفيتناميين الشماليين الواقعيّة لمحدوديتهم وإخفاقاتهم في مواجهة الجهود الأمريكية الناجحة، مثل عملية «جنكشن سيتي» في عام 1967. «لم تسجّل» الوثائق العديدة «قوة ثورية مدفوعة بتوقّعاتٍ بنصرٍ نهائي». بعبارةٍ أخرى، لا يبدو أن قوات «الفيت كونغ»، و«جيش فيتنام» كانت مفرطة في الثقة، بغض النظر عمّا إذا كان قادتهم يعانون من فرط في الثقة، أم لا. ولم يكن حتى اقترب الصراع من نهايته أن بدا أولئك الذين في الشمال متفائلين بفرصهم في النصر. وفي الثاني من مايو عام 1972، التقى

هنري كيسنجر، مستشار الأمن القومي لنيكسون، بمفاوض فيتنام الشمالية، لو دوك ثو، الذي رفض جميع المقترحات الأمريكية بسبب «قناعة هانوي» بأنها اقتربت من النصر لدرجة أنها لم تعد بحاجة حتى إلى غطاء المفاوضات.

## هل ساهمت الأوهام الإيجابِيَّة؟

## الثَّغْرَات الـموجودة في التَّفسيراتِ الأُخْرى

كانت المعلومات حول الوضع في فيتنام خاطئة في بعض الأحيان، كما أسيء فهمها في أحيان أخرى، ولم تكن دائمًا سلبية، وأحيانًا ما كانت تُحجب عن البيت الأبيض. وعلاوة على ذلك، كانت هناك ضغوط بديله تسعى إلى التصعيد: الحرص على وقف مَدّ الشيوعية، ومصداقية الولايات المتحدة في الساحة الدولية، الضغوط السياسية المحلية، والشواغل العامة والانتخابية، والحاجة إلى مواصلة الضغط لكسب التنازلات في حالة التوصل إلى تسوية مُتَفَاوَضٍ عليها مع فيتنام الشمالية، و«الدرس التاريخي» المتمثّل في عدم استرضاء العدوان، والتشابه المغلوط مع كوريا والتجربة البريطانية في الملايو (في الواقع، باءت تجربة كوريا بالفشل، كما استغرقت الحملة البريطانية في الملايو 12 عامًا ضد عدوّ أضعف بكثير منها).

وفـي حيـن أن هـذه العوامـل تزوّدنـا بفهـمٍ لأسـباب خـوض الحـرب فـي فيتنـام، والاسـتمرار فيهـا، فإنهـا لا تفسّـر منشـأ الاعتقاد بـأن الولايـات المتحـدة قـادرة علـى الانتصـار فـي الحـرب، أو الاحتفـاظ بذلـك الاعتقـاد مـع وجـود دلائـل تناقضـه. لا يكفـي القـول إن الزعمـاء اختـاروا القتـال لمجرد أنهـم شـعروا باضطرارهم لذلـك، أو لاسـترضاء الضغـوط السياسـية الداخليـة. مـن الواضح أن هـذه العوامـل قـد لعبـت بالفعـل دورًا، لكـن مـن المسـتبعد تمامًا أن تكـون وحدهـا، ودون وجـود توقّعـات مُصاحبـة بالنصر، قـادرة على تفسـير الالتـزام المتواصـل، والتصعيـد مـن جانـب مجموعـة متنوعة مـن القـادة الأمريكييـن على مدار سبعة وعشـرين عامًـا. والحقيقة أن اسـتمرار الجـدل حـول أسـباب الحـرب يـدلّ علـى أنّ هـذه العوامل لا تقـدّم تفسـيرًا مُرْضِيًا. أَضِفْ إلـى ذلك أن التَّعـارُضَ الملحوظَ على نطـاق واسـع بيـن الحقائـق، والسياسـات قـد دفـع الباحثيـن للعـودة إلـى التفسـيرات النفسـية، وغيـر المنطقيـة التكميليـة لسَـدّ الثغـرات الموجـودة فـي نظريَّـات لولاهـا (أي الثغـرات) لكانـت جيّـدة للغاية (مثـل نظرية التفكيـر الجماعي لجانيـس، أو نظرية الحماقـة لتوكمان، أو مجموعـة المفاهيـم الخاطئـة لجيرفيـس). مـن الواضـح تمامًا، من وجهـات نظـر الأفراد المُعـرب عنها فـي أوراق البنتاجـون وغيرها من المصـادر، ومـن تصرفاتهـم كذلـك، أنّ صنّاع القـرار الرئيسـين كانوا، علـى الرغـم مـن الصعوبـات، مؤمنين بـأن الغلبـة سـتكون للولايات

المتحدة. وهناك أربعة دلائل تدعم هذه الحجة.

**أوَّلًا**، تأتي الدلائل الرئيسية على تورُّط الولايات المتحدة في فيتنام من حقائق تجريبية حول أفعال الولايات المتحدة (لا تصريحاتها). لقد كانت عمليات التصعيد كبيرة جِدًّا، ومَبْنِيّة بصورة محدّدة على متطلبات من القادة العسكريين، بحيث يمكن للمرء استبعاد فكرة أنها كانت مجرد إشارات على العزم والتصميم، ترمي إلى الانصياع للضغوطات السياسية المطالِبة بتكثيف الجهود المبذولة. كلا؛ لقد كانت بغرض كسب الحرب. وبالتالي، فإن عمليات التصعيد الأمريكية الضخمة (وبالأخصّ بين 1965 و1967) توحي بوجود اعتقاد بإمكانية تحقيق النصر. كان (روبرت ماكنمارا) قد قال للرئيس (جونسون): أرى أنه يجب علينا أن نستمر في بذل كل جهد ممكن للفوز»، كما أنّ (جونسون) نفسه « أراد أن يفعل كلّ ما يستلزمه الأمر للانتصار في فيتنام». يبدو أن كلّ رئيس قد احتفظ بتفاؤله بأن نصرًا من نوعٍ ما لا بدّ سيأتي في النهاية؛ مهما كان طريق الحرب المؤدِّي لذلك النصر مؤلمًا وباهظَ الثمن. «لقد كان كل تصعيد أمريكي جوّي، أو برِّيٍّ تعبيرًا عن الأمل بأن تؤدّي بضع عمليات قصف أخرى، وبضع قواتٍ أخرى، إلى تحقيق نصرٍ حاسم».

**ثانيًا**، تتشبّث التفسيرات البديلة بافتراض أنه بمجرد أن التزمت الولايات المتحدة عسكريًّا، فقد باتت خيارات الهروب المتاحة

أمامها محدودة. لكن هذا الافتراض مشكوك فيه، فبالرغم من تأثير العديد من العوامل الخارجية على الإدارات المختلفة بطرق مماثلة، فإنّ تنصيب رئيسٍ جديد كان يمثّل دائمًا فرصة لمراجعة السياسة، والنظر في خيارات الخروج. في الواقع، كان انتخاب (جونسون) عام 1964 يعود - في جزء منه - إلى حقيقة أن بيانه كان ميَّالًا نسبِيًّا للسلم، مقارنة ببيان خصمه (باري جولدواتر) المتحمّس للقتال. كان (جونسون) قد صرّح بشكلٍ علنِيٍّ قائلًا: «لن نُرسل صبيةً أمريكيين لمكانٍ يبعد عن موطنهم بتسعة أو عشرة آلاف ميل لفعل ما يتعيّن على الصبية الأسيويين فعله لأنفسهم».

لكنْ بمجرد تولّيهم للحكم، يضع الرؤساء الجدد أيديهم فجأة على معلومات خاصة قد تغيِّر وجهات نظرهم، أو قراراتهم. بيد أنه لم يكن ينبغي لهذا الأمر التأثير على إدارة (جونسون)، والتي واصلت الحكم ببساطة بعد اغتيال (كينيدي). يُتوقّع من كلّ إدارة جديدة بشكلٍ عام إجراء بعض التغييرات، وقد كان من الممكن في تلك الأوقات إجراء بعض التسويات، أو تخفيف الانخراط في فيتنام في حال كان هذا الأمر ما يزال يشكل عبئًا سياسيًّا. ويجادل كل من (ديفيد كايزر، وفريدريك لوجيفال، وباربرا توكمان) بأنه كان ينبغي أن يكون واضحًا لصُنّاع القرار - حينئذ - أن الانسحاب يقدّم خيارًا أفضل من التصعيد. من السهل طرح هذه الحجة حاليًا بالطبع؛ نظرًا لما يوفّره منظورنا في الوقت الحاضر من معلومات

جديدة. غير أنه في ذلك الوقت، كانت هناك قناعة واسعة النطاق لدى كلٍّ من الشعب، والحكومة بوجوب منع الغزو الشيوعي لفيتنام الجنوبية. وحتى مع اقتراب ولاية (جونسون) من انتهائها، أظهرت استطلاعات الرأي أن عدد أولئك الذين يريدون إنهاء الحرب من خلال الفوز فيها كان يفوق عدد من يفضّلون إنهائها بواسطة الانسحاب؛ لذا ربَّما كانت خيارات الهروب قليلة، وغير محبّذة. لكن إذا كان كلّ رئيس جديد مستعدًّا لتفضيل قرار القتال، فلا بُدّ من أنَّ كلّ واحدٍ منهم كان يرى أن القتال أفضل خيارٍ متاح. من الصعب القول إنهم فعلوا ذلك دون وجود قناعة لديهم بأن النصر آتٍ لا محالة؛ بطريقة أو بأخرى، ومهما استغرق قدومه من وقت.

**ثالثًا**، إن الفَرْضِيَّة القائلة إنَّ مختلف الرؤساء قد أجبروا على التصعيد نتيجة ضغط السياسة الداخلية ليس لها أيّ أساس. إذا كان الضغط السياسي الداخلي هو سبب تورّط الولايات المتحدة في فيتنام حقًّا، فيمكننا حينئذ توقّع ألّا يرغب القادة الأمريكيين في الاستمرار بعدما سحب (نيكسون) الجيش الأمريكي (عندما هدأت زوبعة الضغط من أجل كسب حرب تجري مراقبتها على نطاق واسع، وزوبعة الوقوف ضد المدّ الشيوعي). ومع ذلك، حاول خليفة (نيكسون)، (جيرالد فورد)، التورُّط في فيتنام مرة أخرى بالفعل، لكنَّ الكونجرس أعاق هذه المحاولة:

«لقد فشلت إدارة فورد في إقناع الكونجرس بضرورة معاودة التدخل في الحرب، أو حتى تقديم مساعدة عسكرية طارئة لفيتنام الجنوبية». يتلاءم هذا مع فَرْضِيَّة أن الأوهام الإيجابِيَّة حول القدرات الأمريكية كانت مسؤولة جزئيًّا عن سياسة الولايات المتحدة في فيتنام؛ وبموجب هذه الفَرْضِيَّة، يتوقع المرء أن يشاطر (فورد) أسلافه اعتقادهم بأن الولايات المتحدة قادرة على إبقاء فيتنام الجنوبية حرة.

رابعًا، ربّما لم تكن القيود السياسية المحلية على (جونسون) كبيرة كما يُعتقد في كثير من الأحيان. وفقًا لنائب الرئيس (همفري)، فقد كان عام اتّخاذ القرار المصيري بإرسال قوات قتالية، 1965، «عام الحدّ الأدنى من المخاطر السياسية التي تواجه إدارة جونسون». ويشير (ديفيد كايزر) إلى أن الإدارة: «لم تتَّخذْ قرار الحرب؛ لخوفها من ردود الفعل العنيفة للأحزاب اليمينية، أو بسبب الاعتقاد بأنَّ هذا ما يطالب به الكونجرس، أو الرأي العام». وفي أوائل عام 1965، وبعد فوز (جونسون) الساحق بالانتخابات الرئيسية، وقبل القرار الحاسم بإلزام القوات البَرِّيَّة بالحرب، فإنه: «لم يكن هناك ما هو أوضح من الغياب شبه التّام لأيّ ضغوط سياسية حقيقية من أجل الدخول في الحرب» (وبالأخصّ في ضوء حملة جونسون الانتخابية التي بدا فيها كمرشّح سلام أمام جولدواتر). إن المخاوف من ظهور ردود فعل سياسية عنيفة على

«خسارة فيتنام» كما «خسر» الديمقراطيون الصين، أو من الفزع المكارثي[1] الرهيب من الشيوعية، لم تفرض قيودًا مثبّطة على صُنّاع القرار الأمريكيين. لقد كان لدى إدارة جونسون - لا سيّما بعد تعامل الولايات المتحدة الناجح مع أزمة الصواريخ الكوبية - واغتيال( ديم) في جنوب فيتنام، فرصة وسبب للتفكير في الخروج من فيتنام.

إن الأسباب التقليدية التي تُساق لتبرير الحرب - احتواء الشيوعية، وسمعة الولايات المتحدة، والسياسة المحلية - لا تقدّم، حتى وهي مجتمعة، تفسيرًا مُرْضِيًا تمامًا لانخراط أمريكا المستمر في حرب فيتنام. كما أن الرأي القائل إنَّ التصعيد يولّد التصعيد، وهذا ما جعل الجيش غارقًا في أمر لم يستطع تحرير نفسه منه، قد رُفض، إذ إن القادة الأمريكيين «كانت لديهم دائمًا حرّية كبيرة إزاء ماهية الطرق التي عليهم أن يسلكوها أثناء الحرب»، وكان (كينيدي) قد شكّل سابقة للتعقل باختياره عدم التدخل عسكريًّا في لاوس. وقد سلط كل من (لوجيفال، وتوكمان) الضوء على العديد من الفرص التي سنَحت حينئذ لإنهاء المشاركة الأمريكية، كما أتت الكثير من تلك الفرص في أوقاتٍ لم تكن فيها الهيبة

(1) نسبة إلى (جوزيف مكارثي)، النائب الجمهوري في الكونغرس الأمريكي، الذي ذاعت شهرته كونه أحد أكبر المعادين للشيوعية، والمشككين في الكثير من أعضاء الحكومة الفيدرالية الأمريكية باعتبارهم شيوعيين، أو جواسيس للسوفييت، أو متعاطفين معهم. (ويكيبيديا، بتصرف).

الأمريكيـة لتعاني بشـكل كبير نتيجـة انتهازها؛ حتى في ظـلّ الضغوط السياسـية للإبقـاء علـى الالتـزام الأمريكـي. خلاصـة القـول إذن: إنَّ هـذه التفسـيرات الأخـرى لا تقدم تفسـيرًا كامـلًا للتصعيـد الأمريكي فـي فيتنـام. ويتمثّـل العامـل الإضافـي الـلازم لإكمـال المعادلـة فـي توقّعـات صُنَّـاع القـرار بأنهم سـيحقّقون فـي النهاية مكاسـب مواتية؛ إن لـم يكـن النصر.

هـذا لا يعنـي أنّهـم كانـوا يتوقعـون ذلك بمشـاعر مبتهجـة، فبقدر مـا كان الرؤسـاء الأمريكيـون يأملون فـي تحقيق هذا النصـر، فقد كان سيسـعدهم جميعًـا أن يخرجـوا مـن حـرب فيتنـام. لقد كانـوا يبحثون عـن طريقـة للفـوز فقـط؛ لأنهـم كانـوا فـي خِضَـمِّ القتـال بالفعـل. كانـت المشـكلة هـي أنّهم لم يكونـوا مسـتعدين لقبول الهزيمـة كثمنٍ للانسـحاب. يبـدو أن (جـورج بـال) قـد اعتـرف فـي النهاية بـأنّ هذا الثمـن قـد يكون مُجزيًـا، لكن مُدخلاته جـاءت متأخـرة للغاية، بحيث لـم تؤثـر علـى قـرار إرسـال قـوات قتاليـة فـي عـام 1965. وحتـى أولئـك الذيـن عارضـوا بشـدّة تصعيـد الحرب كانـوا ينتظـرون ظهور «طريقـة ثالثـة»، مثل حكومة عـدم انحياز، أو تسـوية مُتَفَـاوَض عليها، يمكنهـا أن تنهـي الحـرب دون أن تسـمح للشـيوعيين بالانتصـار. بيد أن الفكـرة القائلـة بَإمكانيـة تجّنـب الحـرب مـع ضمـان وجـود فيتنام جنوبيـة خاليـة مـن الشـيوعية فـي الوقـت نفسـه كانـت فكـرة وهميّـة بقـدر وهميّـة الفكـرة التي تقـول بإمكانيـة انتصـار الولايـات المتحدة فـي الحرب.

## أثَرُ ذَلِكَ على سِيَاسَةِ الوِلايَاتِ المُتَّحِدَة

إن تصعيد الحرب على الرغم من الأدِلّة الوافية، والمَنْهَجِيّة (بما في ذلك القادمة وقتها من الجيش، ووزير الدفاع، ووكالة الاستخبارات المركزية، والمستشارين المدنيين، والدبلوماسيين) على أنّ النصر فيها متعذّر يشير إلى أنه كان لدى صُنّاع القرار أوهامٌ إيجابيةٌ بأن الولايات المتحدة ستنتصر في نهاية المطاف. وتجدر الإشارة إلى أنّ حجّتي لا يؤثر فيها ما إذا كانت حرب فيتنام «يمكن كسبها» أم لا. كل ما أناقشه هنا هو أن صُنّاع القرار رَأَوْها كذلك. ربما يكون (جونسون) قد تخلّى عن هذا الأمل في السنة الأخيرة من فترة رئاسته، كما كانت أهداف (نيكسون) بالتأكيد محدودة أكثر في نطاقها، ولكن مع ذلك، صعّدت كل إدارة الحرب كما لو أنها كانت تسعى وراء نصرٍ سيأتي بلا شك في النهاية. يتّسق هذا مع الأوهام الإيجابِيَّة في عملية صنع القرار. يُرجع (جيفري ريس) مثابرة الحكومة الأمريكية، الذي يتناقض بشكل صارخ مع الكثير من المعلومات الاستخباراتية التي كانت سائدة، إلى «تغييرٍ غير واع في تقدير الاحتمالات». وجد (إيرفينغ جانيس) في دراسته للتحيُّزات في صنع القرار الجماعي أنّه في حالة فيتنام، كان صُنّاع السياسة في الولايات المتحدة، على حَدِّ تلخيص (جاروفانو)، «متفائلين تفاؤلًا بهيجًا بشأن فرص النجاح».

لا أقصد هنا التلميح إلى أنّ توقع فوز الولايات المتحدة في فيتنام كان غير مبرّر بالمرة في جميع مراحل الحرب. في الواقع، تخبرنا (توكمان) بأنه في بداية الولاية الثانية لـ (جونسون) «لم يكن أحد ليشكّك» في قدرة الولايات المتحدة على «تحقيق هدفها من خلال القوّة المتفوّقة». كما أنني لا أزعم أن المعلومات الاستخباراتية والتحليلات كانت تشير - بما لا يدع مجالًا للشكّ - إلى الهزيمة. في الواقع، كان بمقدور المحللين الأمريكيين في معظم الأحيان تحديد مكاسب عسكرية ملموسة؛ لذا كانت القيادة تستقي، في بعض الأحيان، ثقة منطقية من النجاحات العسكرية (سواء أكانت حقيقية أم لا) بأن نصرًا من نوعٍ ما سيكون ممكنًا في المستقبل.

ومع ذلك، وحتى (جون جاروفانو) الذي يؤمن بأن الحرب كانت ناجمة عن «مزيج من الضغوطات الهيكلية، والعقليات المترسّخة، والمعلومات المحدودة»، يلاحظ: «وجود شعور عام - إن لم يكن بالتفاؤل - فبعقيدة القدرة على الفعل can-do-ism، الذي ميّز أكثرية النصائح العسكرية في ربيع عام 1965 وصيفه». وبالتالي، وحتى إذا ما فُسّر الانخراط الأمريكي في فيتنام إلى حَدٍّ كبير باعتباره أقلّ البدائل المطروحة سوءًا عن تكاليف عدم اتخاذ أي إجراءات، بحيث يُعتبر صناع القرار في هذه الحالة مجبرين على التدخل العسكري، فإن الأوهام الإيجابِيَّة قد تساعد

في توضيح سبب استعدادهم لتحمّل هذه المخاطر. يفيد (كايزر) بأن المحادثات الهاتفية «تُظهر بما لا يدع مجالًا للشَّكِّ [أنّ] (جونسون، وروس، وماكنمارا، وبندي) قد اضطلعوا بالحرب، وتجاهلوا الشكوك المُبرّرة لدى بعض المرؤوسين المهمِّين لمجرّد أنهم كانوا يؤمنون بلزوم فعل هذا الأمر، وواثقين في قدرة الأمة على تحقيقه». كان العديد من الخبراء المقربين من (كينيدي، وجونسون) قد ذكروا وجود «شعور بالقدرة الكلّية المطلقة» بين أعضاء الإدارة قبل غزو خليج الخنازير، ومرة أخرى بعد انتخابات (جونسون) عام 1964؛ الأمر الذي دفعهم للاعتقاد بأنه كانوا يتمتّعون بـ «لمسةٍ ذهبيّة».

ليس لزامًا أن تُفضي الأوهام الإيجابِيَّة إلى توقعات صريحة بالنصر. ويمكنها أن تؤدي - عوضًا عن ذلك - إلى توقعات بتحقيق مكاسب، أيًّا يكون شكلها، تفوق ما تتنبّأ به الأدلّة. وأشار (جينيس) إلى أنّه حتى «احتماليّة الهزيمة» لا تستبعد عنصر تَمَنٍّ قويّ، بل وجرعة كبيرة من التفاؤل المُفرط بشأن آمال محدودة، كأنْ يتمكنوا من النفاذ بجلودهم سالمين، وتأجيل الهزيمة إلى أجل غير مسمًّى، والصمود لفترة طويلة بما يكفي لحدوث ضربة حَظٍّ تقلب الموازين لصالحهم». ومع أنّ هناك الكثير من الدلائل على تجاهل صُنّاع القرار للتكهنات السلبية، «فإنه لا يمكننا بالطبع القول إنهم احتفظوا بأوهام مُفرطة في التفاؤل بشأن الأمن العام

للمشروع العسكري في فيتنام. لكن ربما كان هناك أحيانًا نوعٌ أكثر محدودية من الوهم قد جعل صنّاع القرار ميّالين لعمل رهانات ذات فرصٍ ضئيلة. تشير العديد من الملاحظات إلى أنَّ المجموعة شهدت بعض الهفوات المؤقتة في الواقعية بشأن المخاطر الماديِّة، والسياسية، والأخلاقية الجسيمة [والتشبث بالنظرة التي تقول]: «إنَّ كلَّ شيءٍ سيسير على هوانا، وإنّ المخاطر، أيًّا تكون ماهيتها، لن تؤثر علينا بشكل كبير». يعزو جانيس هذه النظرة إلى التفكير الجماعي، لكنها تُعدّ أيضًا مؤشرًا على أوهامٍ إيجابية أكثر جوهريّة، ومن شأن هذين العاملين المساهمة في وجود شرحٍ شامل. إن الهفوات في الواقعية، والتباين في التوقعات وفقًا لردود الفعل، والتنبؤات الأكثر كآبة القادمة من أولئك الأقرب لميدان المعركة، وعدم مراعاة المخاطر أثناء مرحلة التنفيذ في الحرب؛ كلّها تتوافق مع الظروف السابقة للأوهام الإيجابِيَّة (الوارد وصفها في الفصل الثاني).

وبالإضافة إلى الإفراط في التفاؤل بالأهداف العسكرية، كانت هناك أوهامٌ أعمقُ حول طبيعة النّزاع، فكما كشف الكثير من الكُتّاب؛ كان صُنّاع القرار قد أخطؤوا بمعاملة ما كانت في الأساس حربًا ثورية على أنها حرب تقليدية، وركّزوا على الوسائل العسكرية في خوضهم لها. كان (كينيدي) يعتقد أن الولايات المتحدة قادرة على تحفيز الفيتناميين الجنوبيين على

الفوز؛ لأنّهم كانوا يحاربون في سبيل حرّيتهم، لكن وفقًا لـ (توكمان) «فإن الافتراض بأن الإنسانية عمومًا تتشاطر الفكرة الغربية الأمريكية عن الحرية كان نوعًا من الضلالات الأمريكية». وقد جُسّدت هذه الفكرة في الملاحظة البارعة الساخرة على لسان العقيد في فيلم فُل ميتال جاكيت Full Metal Jacket للمخرج ستانلي كوبريك: «نحن هنا لمساعدة الفيتناميين؛ لأنه في داخل كل آسيوي هناك أمريكي يحاول الخروج». ويجادل (جون لويس جاديس، ومارك برادلي) في أن أشكال سوء التفاهم الثقافي بين الولايات المتحدة وفيتنام، وبالأخصّ إيمان الأميركيين بتفوق الحضارة الغربية ومؤسساتها، ينتشر عبْر كامل تاريخ العلاقات بين الولايات المتحدة وفيتنام، كما أنه ساهم بشكلٍ كبير في اندلاع الحرب. كان الجنرال (ماكسويل تايلور) أحد الأشخاص الذين أبدوا في بعض الأحيان وعيًا بمثل هذه الافتراضات الإشكاليّة؛ حيث ذكر في تقرير عام 1965 أن: «الفيتناميين يمتلكون القوى البشرية، والمهارات الأساسية للفوز بهذه الحرب. ما يفتقرون إليه هو وجود دافع».

يعتقد (إرنست ماي) أن الاستدلال التاريخي المُبسّط للرؤساء، ومَستشاريهم كان له تأثير مُضلِّل حاسم على إيمانهم بالحرب.

إنَّ أوجهَ التشابه الرئيسية التي استندوا إليها لم تكن ذات صلة موضوعية بفيتنام، ويشير إلى أنهم لو كانوا قد درسوا تاريخ فيتنام

وثقافتها، «لربّما اكتشفوا في البداية بعض الحقائق التي تعلّموها لاحقًا بالطريقة المؤلمة... ولربّما أدّى ذلك أيضًا إلى إدراك أن النزاع في فيتنام كان في كثيرٍ من نواحيه، إن لم يكن معظمها، حربًا أهلية، التي كانت القوى الحاسمة فيها امتدادات للماضي الفيتنامي، وسيكون تأثير الأجانب عليها مَحْض تأثيرٍ هامشيٍّ».

لم يكن الأمر أنّ المعلومات ذات الصلة كانت شحيحة، فتُعفى بالتالي قرارات الولايات المتحدة من الذنب. لقد كانت المعلومات متاحة كفلق الصبح - شكّل تقرير (تايلور) الذي كان يرثي فيه افتقار الفيتناميين الجنوبيين للإرادة اللازمة للقتال «واحدًا من أطول البرقيات في تاريخ الممارسات الدبلوماسية الأمريكية» - لكن التحذيرات لم تلقَ آذانا صاغية. وفيما بعد، كتب (ماكنمارا): «لم أعتقد قطّ أن بمقدور أولئك الأشخاص القتال على هذا النحو. لو أنّه كانت لديَّ فكرة عن أن بمقدورهم تلقّي مثل هذه العقوبات والقتال على هذا النحو؛ عن تمتّعهم بمثل هذه القدرة القتالية، لكنت فكّرت على نحوٍ مختلف منذ البداية». لقد اعتقد هو وآخرون أنهم يحاربون الشيوعية، بينما كانوا في الواقع يحاربون القوميّة. كان الأفراد المتواجدون على الأرض مدركين لهذا الأمر، ويذكرونه في تقاريرهم، لكن السياسة الأمريكية لم تعكسه. ويشير (روبرت بيب)، في تحليله لحملات القصف الأمريكية، إلى الأهمّية الحاسمة لمراعاة دوافع العدو الأساسية:

لَمْ يولِ كلّ من القادة المدنيين، والعسكريين الأمريكيين اهتمامًا كبيرًا للعلاقة بين العمل العسكري الأمريكي، وأهداف العدو. كان مؤيدو نظريات (شيلن ودوهيه) ينظرون في الوسائل الكفيلة بمهاجمة معنويات المدنيين، لكنهم فشلوا في الأخذ بعين الاعتبار حجم الصّلابة التي يمكن أن تتميز بها المعنويات الفيتنامية الشمالية في الحقيقة. وبالمثل، خطّط مؤيّدو استراتيجيات الحجر خلال الفترة من عام 1965 إلى عام 1968 لعمليات تهدف لمهاجمة أهداف عسكرية، لكنهم لم يأخذوا بعين الاعتبار مقدار الفرق الذي سيُحدثه تدمير هذه الأهداف في استراتيجية هانوي العسكرية. وكنتيجة لذلك، فشل القادة الأمريكيّون في إدراك أنّه ما من استراتيجية قسرية تستخدم القوّة الجوية ستنجح خلال 1965-1968.

بعبارة أخرى، لم يكن تحقيق النصر ممكنًا باستخدام الوسائل العسكرية، سواء أكانت جوّية أم برّية.

وعلى حَدِّ تعبير (جاروفانو): «لقد بالغ المدنيّون، والعسكريّون على حدٍّ سواء في تقدير فعاليّة القوّة الجوية... وأهملوا أهمّية الدعم المحلّيّ للتمرّد». يوافقه (كايزر) الرأي، ويقول: «لم تنجم الهَزيمة الحربية عن فشل العلاقات المَدَنِيّة العسكرية، بل عن فشل القيادة المدنية، أو العسكرية في فهم طبيعة النزاع، وفي تحديد أهداف، واستراتيجيات أمريكية واقعيّة». وكنتيجة لذلك، وكما

يشير (ستوسنجر)، كانت إحصائيات (ماكنمارا) الشهيرة غير ذات صلة: «لقد تجاهلوا حقيقة أنه حتى إذا فاق عدد القوات الفيتنامية الجنوبية قوات «الفيت كونغ» بنسبة عشرة رجال إلى واحد، فإنَّ ذلك لم يكن ليجدِ أيّ نفع؛ لأنَّ الرجل الواحد كان على استعداد للقتال والموت في سبيل قضيته، في حين أنّ العشرة لم يكونوا كذلك» (وذلك كما صرّح هو). ويؤكد (تي. إل كوباج)، الذي خدم في المخابرات الأمريكية في فيتنام، هذا الرأي فيقول:

إذا كانت الحرب في فيتنام قد انطوت على فشلٍ استخباراتي، فإنّه كان فشلًا عامًّا، ويتمثّل في عدم القدرة على فهم طبيعة حرب العصابات الحديثة.

لقد استمرّ الجيش الأمريكي في تفكيره من منظور أنه يقاتل في حرب عالمية ثانية تقليدية، أو يحارب كوريّةً أخرى. لقد أسيء فهم دوافع العدو واستراتيجيته، تمامًا كما أسيء فهم العلاقة بين ما حدث في ساحة المعركة، وبين السياحة الداخلية في الوطن. لقد فشل الجيش، ومجتمع المخابرات الأمريكيين... في فهم التَّبِعَات السياسية الإجمالية لخوضِ حربٍ يتعذّر النصر فيها بالوسائل العسكرية.

لقد أخطأ كلٌّ من (هو تشي منه)، و(جونسون) في تقديره لنوايا الآخر، إذ لم يعتقد أيٌّ من الطرفين أن الآخر سيقاتل بتلك الضراوة، وطول النفس الذي قاتل بهما. وكما كتب (غاري

هيس)، فإنَّ «وهم القيادة الأمريكية بأن ارتفاع عدد القتلى يمكنه تحقيق النصر قد أدّى إلى الاستهانة بعزم فيتنام الشمالية وقدراتها... وكانت المصادر الاستخباراتية قد تنبّأت، على نحو صحيح، بأن الفيتناميين الشماليين قادرون على أن يستبدلوا - إلى ما لا نهاية - الخسائر البشرية التي أوقعتها عليهم استراتيجية البحث، والتدمير الأمريكية. وهذا ليس بغريب على الحرب الفيتنامية؛ إذ غالبًا ما كانت الحركات القومية الصغيرة تنتصر في الصراعات حتى عندما تكون الاحتمالات ضدّهم تمامًا. تميل مثل هذه الحركات إلى أن يكون لديها عزمٌ وإصرار شديدان للغاية يمكنهما الاستمرار إلى أجلٍ غير مسمى، وتُعد استراتيجيات القتال التقليدية غير فعَّالة أمام عدوٍّ متبعثرٍ بقاعدة دعم غير مرئية إلى حدٍّ كبير. وينطبق هذا على الهجمات الجوية كذلك؛ فخلال سنوات (جونسون)، كانت « فيتنام الشمالية منيعةً إلى حَدٍّ كبير ضد الإرغام التقليدي». ويشير (ماي) إلى أنه «بقدر ما يمكن للمرء تبيُّنه من الوثائق، والمذكرات المتاحة، فإنَّ أحدًا لم يستفسر عن الآثار المحدّدة التي يمكن أن يحققها القصف الجوي في تغيير سياسة فيتنام الشمالية». لقد توقّع صُنَّاع القرار أن تنجح الاستراتيجية وحسب.

لو أن النظريات المتنافسة التي أوجزتُها هنا كانت قد قدّمت تفسيرًا مُرْضِيًا لانخراط الولايات المتحدة في حرب فيتنام لما أصبحت مثيرة للجدل على هذا النحو. يحتدم النقاش؛ لأنَّ بعض

أجـزاء الأحجيـة مفقـودة، لكـن يمكننـا سَـدُّ هـذه الثغرات مـن خلال إدراك أنّ صُنَّـاع القـرار فـي الولايـات المتحـدة كانوا متحيّزيـن لتوقّع النصـر. لكـن مـن أيـن أتى هـذا التحيُّـز؟ ولِمَ اسـتمرّ علـى الرغم من المعلومـات الاسـتخباراتية المناقضـة لـه؟ أقتـرح هنـا إمكانيـة عَـزْو هـذا التحيُّـز الجزئـيّ إلـى الأوهـام الإيجابِيَّة لـدى صُنّاع القـرار، التي أدّت بهـم إلـى المبالغة في تقدير قـدرات جانبهم والاسـتهانة بقدرات العـدو، وإهمـال المعلومـات الاسـتخباراتية، وتضخيـم احتماليـة النصـر. تتمثـل مشـكلة النظـر إلى الماضي مـن خلال عدسـة الحاضر فـي أنه لو كانـت الولايات المتحدة قـد انتصرت لما صُنّفـت قراراتهم - علـى الأرجـح - علـى أنها مفرطة فـي التفـاؤل. لكن فائدتـه تكمن فـي معرفتنـا - في النهايـة - أن قـادة الولايات المتحدة كانـوا متفائلين للغايـة فـي توقعاتهـم. وحتـى وإن كانـوا ربحـوا الحـرب، فـإن الأدلة المعروضـة نفسـها هنـا سـتثبت أنهـم بالغـوا فـي تقديـر قدراتهـم واسـتهانوا بصعوبـة الأمـر، وبالتالـي أصبحـت الحـرب أكثـر تكلفـة بكثيـر ممَّـا كانـوا يتوقعـون. تُعـدّ الأوهـام الإيجابِيَّـة مصـدرًا مُحتملا لهـذا التفـاؤل المفـرط.

## معلوماتٌ مُبْهَمَة

لقد قدّمتُ دلائلُ على وجود توصيات كثيرة في ذلك الوقت تنصح بعدم التصعيد في فيتنام. قد يجادل الناقد في أنه على الرغم من أن هذه التقييمات السلبية كانت موجودة بالفعل، فإنّ المعلومات العامة التي وصلت إلى البيت الأبيض كانت غامضة، وليست سلبية بوضوح. إذا كانت هذه هي الحال حقًّا، فربَّما يكون كلّ رئيس قد توصَّلَ ببساطة إلى نتيجة خاطئة من البيانات الضعيفة. والحقيقة أن التحليلات الاستخباراتية كانت غامضة في بعض الأحيان. من ذلك مثلا أنّ مستشارًا لرؤساء الأركان، وآخر لوزارة الخارجية قد قدّما، بعد أن ترأسا بعثة أرسلها (كينيدي) إلى فيتنام، تقاريرَ متباينة تباينًا كبيرًا لدرجة أن الرئيس سألهما: «أنتما الاثنان كنتما في البلد نفسه، أليس كذلك؟» وفي وقتٍ لاحق، واجه (جونسون) هو الآخر تقييمات متباينة لقوة العدو قدّمتها وكالة المخابرات المركزية، وقيادة المساعدات العسكرية الأمريكية، حيث «كان الفرق بين التقديرات كبيرًا للغاية كما لو كان كلّ واحد منهما قد قاتل عدوًّا مختلفًا». في ظل هذا الغموض، كان من الممكن أن رؤساء الولايات المتحدة قد اضطرُّوا ببساطة إلَى اتّخاذ خياراتٍ مختلفة على أساس معلومات غير واضحة.

ومع ذلك، هناك أدِلّةٌ كبيرةٌ على أن الناس يفسرون بشكلٍ انتقائِيٍّ الغموض على أنه تأكيدات لمعتقدات يؤمنون بها

بالفعل. بالإضافة إلى ذلك، وكما يشير روبرت جيرفيس، فإنّهم «لا يعرفون أنهم يفعلون ذلك. وعوضًا عن ذلك، فإنهم يرون العديد من الأحداث على أنها تقدّم تأكيدًا مُستقلًّا لمعتقداتهم، بينما في الحقيقة يمكن لشخصٍ آخر قد انطلق من أفكارٍ مختلفة أن يرى هذه الأحداث على نحوٍ مختلف. وهكذا، يرى الناس الأدِلّة على أنها أقلّ غموضًا ممَّا هي عليه، ويعتقدون أن آراءهم تتأكّد على نحوٍ متزايد، وبالتالي يشعرون بأنّ لديهم ما يبرّر تمسّكهم بها على نحوٍ أكثرَ رسوخًا... تتعرض المعلومات المُبهمة، أو حتى المتضاربة للتجاهل أو إساءة الفهم، أو إعادة التفسير». وبالتالي، إذا كانت المعلومات الغامضة تمثّل مشكلة لزعماء الولايات المتحدة خلال حرب فيتنام، فاحتمالية ما حدث أنّه بدلًا من إضعافها للأوهام الإيجابِيَّة، فإنَّها قد عزّزتها في اتجاه إيجابي مُمنهج.

## حَجْبُ الْمَعْلُومَاتِ

لا يمكن للاستخبارات، سواء أكانت المعلومات التي تُنتجها غامضة، أم واضحة التأثير على السياسة إلَّا إذا وصلت لمسامع صنّاع السياسات، أو وقعت تحت أعينهم. وفي حرب فيتنام، جرى جمع قدر كبير من المعلومات وتحليلها، ويبدو أن معظمها كان يتدفق بحرّية إلى قادة الولايات المتحدة. ومع ذلك، كان هناك في واشنطن عقبات كبيرة أحيانًا، وهذا ما أعاق علنيّة النقاش.

والأنكى من ذلك أنّه حتى المعلومات التي جرى إيصالها بصورة صحيحة كانت تُعبَّأ في بعض الأحيان بتفاؤل الرسول. كان (روبرت ماكنمارا) أحد أهم العناصر الأساسية في جعل النقاش مغلقًا بهذه الطريقة. ووفقًا لـ (جون هيوز ويلسون):

بحلول عام 1968، لم يكن هناك أي شخص في التسلسل القيادي العسكري الأمريكي نحو الأسفل مخوَّلًا باتّخاذ أيّ قرارات حقيقية. لقد كانت طريقة (روبرت ماكنمارا) في التعامل مع الجيش بسيطة: كان أولئك الذين يختلفون معه يتعرضون للفصل على يده في حال أمكنه ذلك، أما في حال لم يكن بإمكانه ذلك، فقد كان يهمّشهم، ويلغي وصولهم إلى الرئيس؛ ككاردينالٍ من عصر النهضة. وفي ظل النفوذ المؤذِي لوزير الدفاع، كان تعذّر وصول الرئيس (جونسون) إلى أيِّ مرؤوس عسكري يملك وجهة نظر مختلفة عن تلك التي لدى (بوب ماكنمارا) يعتبر عاملًا رئيسِيًّا في الهزيمة التي ستعقب ذلك.

وربّما يكون (ماكنمارا) أيضًا قد تعمّد اختيار الجنرال (ويستمورلاند) كقائد متوافق مع قيادة المساعدات العسكرية الأمريكية، بما أنها - وفقًا لزملائه في الجيش - كانت ترقية غير متوقّعة، وكذلك ترقيته اللّاحقة لرئاسة هيئة الأركان المشتركة.

وكما تكشِف (توكمان)؛ لم يكن (ماكنمارا) الشخص الوحيد الذي مارس السيطرة على المعلومات:

لقـد بـذل المسـؤولون الميدانِيُّون الذيـن رافقوا وحـدات الجيش الفيتنامـي فـي القتـال، وتعلّمـوا بـكل مـرارة أن الأسـلحة، والتدريب الأمريكييـن لـم يكـن بمقدورهما إمدادهم بـالإرادة للقتـال، بذلوا كل مـا بوسـعهم للتحايل على قمـع الجنـرال (هاركينز) للتقارير السـلبية، وأدلـوا بشـهاداتهم علـى الأداء المؤسـف فـي عمليـة اسـتخلاص للمعلومـات فـي البنتاجـون... وقـد كشـفت معركـة Ap Bac التـي وقعـت فـي ينايـر مـن عـام 1963... إخفاقـات الجيـش الفيتنامـي الجنوبـي، ولا جـدوى البرنامـج الأمريكـي، وخـواء تفـاؤل مقـر القيـادة، علـى الرغـم مـن أنـه لـم يكـن مسـموحًا لأحـد قـول ذلـك. كان الكولونيـل (جـون فـان) المسـؤول الأمريكـي الرفيـع فـي معركة Ap Bac، قـد عـاد إلـى البنتاغـون فـي صيـف عـام 1963 لمحاولـة إبـلاغ هيئـة الأركان العامـة [للجيش] بالوضـع. وبمـا أنّ (ماكسـويل تايلـور) كان الراعـي الخـاص بالجنـرال (هاركينـز) والمعتنـق لآرائه، فـإنّ رسـالة (فـان) لـم تتمكـن مـن شـقّ طريقهـا نحـو الأمـام. وقـد أعلـن متحدث باسـم وزارة الدفـاع أنّهم «اجتـازوا المرحلـة الخطرة، وأنهـم متّجهـون لا محالة نحـو النصر»، كما توقّـع مقر CINCPAC الهزيمـة «الحتميـة» للفيـت كونغ.

مـن غيـر الواضـح مقـدار الضـرر الـذي ربّمـا يكـون قـد ألحقـه هـذا التلاعب بقـدرة (كينيـدي) و(بالأخـصّ) قدرة (جونسـون) على اتِّخـاذ قـراراتٍ مسـتنيرةً، لكـنْ مـن الواضـح أن المعلومـات لـم تكن

تمرّ بالسهولة التي كان ينبغي لها أن تمرّ بها. وقد كانت الرسائل السلبية تتعثّر عند قمة سلسلة صنع القرارات كذلك، ففي واشنطن، كشف فريق العمل المشترك بين الوكالات المَعْنِيّ بمسألة فيتنام عن عددٍ من المشكلات المتعلقة بالسياسة الأمريكية. دفعت هذه المشكلات برئيس الفريق ( بول كاتنبرج) من وزارة الخارجية، إلى التنبُّؤ بأنّ الحرب ستتطلب نصف مليون جندي، وتستغرق من خمس إلى عشر سنوات. كما قال في اجتماع (كان يضم راسك وماكنمارا، وتايلور، وبندي، ورئيس وزراء جونسون) إنَّ الدعم المتناقص لـ (ديم) يعني ضمنًا أنه يتعيّن على الولايات المتحدة الخروج. على ما يبدو أن كلامه لم يُعجب أحدًا من الحاضرين، وصرّح (راسك): «لن ننسحب من فيتنام حتى ننتصر في الحرب». بعد ذلك، أزيل (كاتنبرج) من الفريق وعُيّن في منصبٍ آخر.

وبالتالي، إذا كان لدى القادة الأمريكيين أوهامٌ إيجابِيّة، فيبدو أنّ هذه الأوهام كانت مَحْمِيَّةً بالنقاش المنغلق، وانتهاكات العملية الديمقراطية. يجادل (كايزر) في أن «ماكنمارا والبنتاغون قد ساعدا في إخفاء الوضع الحقيقي عن الرئيس، وعن بقية الحكومة، والشعب الأمريكي، الأمر الذي أدّى إلى تأجيل بروز الحاجة لإعادة تقييم السياسة الأمريكية».

أدّى هذا التحكّم إلى تقويض المسؤولية الدستورية لهيئة الأركان المشتركة بتقديم التقارير للكونجرس، وليس فقط لقائد

الجيش ووزير الدفاع. وبالتالي، ربّما تكون قرارات (جونسون) قد تأثرت بالتفاؤل التزايدي الذي أضيف إلى تقارير الاستخبارات أثناء انتقالها من الميدان إلى سايغون، فواشنطن، فالبيت الأبيض، فالرئيس. ربَّما تكون المعلومات المشوَّهة بتفاؤل الآخرين قد منعت (جونسون) من التقييم الواقعي لاحتمالية النصر الأمريكي؛ لذا فربَّما يكون قد وقع، إلى حَدٍّ ما، ضحية لأوهام صُنّاع القرار الآخرين الإيجابِيَّة.

إذا لم تكن فيتنام مستنقعًا، فقد جعلتها الأدبيات المتعلّقة بها تبدو كذلك في معظم الأحيان. لكن بعض الجوانب باتت الآن واضحة بما يكفي لتكشف أنّ الروايات عن أسباب الحرب ما تزال تفتقر إلى شيءٍ ما. وبالاستناد إلى جميع الأسباب التي ناقشتُها آنفًا، فإنه يمكننا رفض الفكرة القائلة إنَّ شُحّ المعلومات الاستخباراتية عن الوضع في فيتنام قد أدَّى إلى اتِّخاذ قراراتٍ غير مستنيرة، لكنها بدت في ذلك الوقت معقولة. ووفقًا لـ (إرنست ماي)، فإنه «لا يمكننا اتهام (كينيدي)، أو (جونسون)، كما اتُّهِم (ترومان) عام 1950، باتّخاذهما لقرارات متسرّعة، بل على النقيض من ذلك؛ كان الرئيس قد أَذِن للموظّفين بأشهُرٍ من العمل الدقيق والمتأنّي، وأوكل الإشراف على هذه المهمة لمجموعة من أكثر العقول براعة واقتدارًا حينئذ». وقد ادّعى (دانيال إلسبرغ)، الذي سرَّب أوراق البنتاغون إلى الصحافة، أنَّ «تعاقب الرؤساء

الأمريكيين على مدار 20 عامًا... كان مدعومًا بالمعلومات، بيد أنهم اختاروا - رغم ذلك - تجاهلها». لم يفتقر قادة الولايات المتحدة إلى المعلومات التي يحتاجونها لاتِّخاذ القرارات؛ تتمثل الأحجية في أنهم تصرّفوا بما يتناقض مع هذه المعلومات. لقد استمروا في توقُّعاتهم بالنصر، على الرغم من وجود أدِلَّةٍ قويّة على أنّ هذه التوقّعات كانت مَحْضَ أوهام إيجابية.

إنّ وصف (باربرا توكمان) لتصرُّفات الولايات المتحدة في فيتنام بـ «الحماقة» (التي تُعرّفها بأنها السلوكيات التي تتعارض مع المصلحة الذاتية) لا يفسّر سبب خضوع صُنّاع القرار في هذه الحالة - أو في غيرها من الإخفاقات الذريعة التي توردها في كتابها - لمثل هذه «البلاهة». وبالفعل، يبدو أن قرارات السياسة الرديئة المتعلقة بفيتنام تتناقض - كما رأينا - مع المعلومات الاستخباراتية الوفيرة، لكنّها كانت أكثرَ اتساقًا مع قناعة راسخة بأنّ النصر (أو على الأقل المكاسب الملموسة) كان مُمكنًا؛ كما تنبَّأتْ نظريّة الأوهام الإيجابِيَّة. يبدو هذا التفسير معقولًا أكثر من فكرة أن القادة ارتكبوا ببساطة سلسلةٌ من الأخطاء الحمقاء.

هناك أيضًا فَرْضِيَّة مفادها أن زخم الحرب - بكلِّ تعقيداته المؤسّساتية والاجتماعية - أبقى على الحرب مستمرّة بالرغم من الجهود الرئاسية لوضع حدٍّ لها. قد يساعد هذا في توضيح سبب اتّخاذ الرؤساء المختلفين، على الرغم من تباين نواياهم المبدئية،

لقراراتٍ مُماثلة بمواصلة الحرب. تقترح الفَرْضِيَّة كذلك سببًا لاستمرار الحرب حتى وإن كان صُنَّاعُ القرار يعتقدون أن النصر قد لا يكون حليفهم. لكن كل رئيس لم يواصل الحرب فحسب، بل صعّدوها واحدًا واحدًا. وكانت التصعيدات أكبر بكثير من اللَّازم بما أنّ الهدف كان إظهار استمرارية الالتزام وحسب. لقد أعلنوا عن نيتهم بالفوز، وعن أن الفوز كان ممكنًا، وعلاوة على ذلك، فقد كان الرؤساء يعملون في سياقاتٍ شديدة الاختلاف. واجه اثنان منهم مشاكلَ متطابقة، أو خيارات متطابقة. كان الرؤساء المختلفون يعملون كمتغيّرٍ وهمِيٍّ لسياقاتٍ سياسيةٍ متنوِّعة، تلك التي ظلّ الإيمان بالنصر فيها جميعًا ثابتًا، وليس كمجموعة من الحمقى الذين يقومون بالتصرُّفات نفسها؛ بغضِّ النظر عن السياق. لقد كانوا جميعًا واثقين من أنّ الولايات المتحدة ستربح الحرب في النهاية.

حتى أولئك الذين ينتقدون وجهة النظر القائلة إنّ صُنّاع القرار في الولايات المتحدة كانوا بالفعل يتوقّعون النصر قد يجدون أن الأوهام الإيجابِيَّة تسهم في فهم بعض حالات التفاؤل الرئيسية. إذ يوافق كلٌّ من (ليزلي جيلب، وريتشارد بيتس) مثلًا على أن الحكومة الأمريكية كانت تضمّ كلًّا من المتفائلين والمتشائمين «الحقيقيين»، لكنهما يجادلان في أن معظم التفاؤل كان افتراضًا واعيًا؛ وذلك لتعزيز معنويّات الجماهير المحلية، والحلفاء، والجيش، والقوات

المسلحة؛ كي «يعملوا ويقاتلوا بجدّ». ويتمثّل تفسيرهما لسبب استمرار الولايات المتحدة في الحرب في أنّ صنّاع القرار قد استمعوا بالفعل للمشورة، وتفكّروا فيها، لكنَّ صياغة قرارات السياسة كانت تتمُّ وفقًا لأهمية - في أعين كل من المسالمين والمتحمّسين للحرب - احتواء الشيوعية، والتوصّل لتسوية سياسية داخلية. بعبارةٍ أخرى، يمكن فهم التصعيد (سواء أكان مبرّرًا، أم لا) حتى وإن لم يكن القادة يتوقعون الفوز.

بيد أن من المهم - كما يشير (بيتس) - التمييز بين آمال صُنّاع القرار، وتوقّعاتهم. ففي حين أن قادة الولايات المتحدة قد لا يكونون توقّعوا أيّ نصرٍ صريح، إلَّا أنّهم كانوا يأملون في تحقيق بعض النتائج المفيدة. لكن حتى وإن قبلنا بهذا الرأي، وافترضنا أنه لم يكن هناك توقّعات بالنصر، فإن الأمل غير المبرَّرِ ما يزال يتطلّب تفسيرًا. وكما يوضّح بيتس لي: «فإن حجة الأوهام الإيجابِيَّة قد تساعد في توضيح سبب تجاوز الأمل للتوقعات، لكن توقّعات الرؤساء نادرًا ما كانت تأتي بقدر آمالهم. كانت هناك فترات من التفاؤل، لكنّها كانت أقلّ من فترات التشاؤم. لقد كانوا يأملون في أن يحالفهم الحظ، لكنهم نادرًا ما كانوا واثقين». ربَّما أسهمت الأوهام الإيجابِيَّة - على الأقل - في فترات التفاؤل هذه، التي رافقت العديد من أكبر عمليات التصعيد التي تُظهر التزام الولايات المتحدة بالحرب.

جادل (فريدريك لوجيفال) مؤخّرًا في أن العديد من صنّاع السياسة الأمريكية توقّعوا حدوث كارثة في فيتنام، لكن الرؤساء لم يأخذوا بنصيحتهم؛ وتؤيد هذا الرأي بقوة (باربرا توكمان)، التي ترى أنّه كان ينبغي على صنّاع القرار إدراك أنّ التصعيد سيجلب كارثة. لكن وكما يشير (جون جاروفانو)، فإنَّ هذه الحجة «ما تزال لا تعطي تفسيرًا لسبب عدم أخذ الرئيس (جونسون) بنصائحهم». يشير هذا إلى وجود فجوة متبقية في التفسيرات الحالية لسياسة الولايات المتحدة بشأن فيتنام، وأعتقد أن نظرية الأوهام الإيجابِيَّة توفّر طريقة مُقنعة لسدّ هذه الفجوة. ربما كان لدى القادة الأمريكيين أوهامٌ إيجابيةٌ حول القدرات الأمريكية، وحول قدرتهم على السيطرة على الأحداث، وحول المستقبل. وقد أشار (غاروفانو) نفسه إلى أن مراجعته للأدبيات الحديثة حول فيتنام «تشير إلى وجود أوجه قصور خطيرة في النظرة المنطقية للحرب، التي ينبغي أن تجعلنا نفهم العقليّات التي أدار بها صنّاع القرار مهامهم فهمًا أفضل». يجب علينا بالطبع ألّا نتجاهل التأثير الواسع للأوهام الإيجابِيَّة، وبالأخصّ الجوانب الأكثر صلة بفيتنام، مثل الدليل على أن الأوهام الإيجابِيَّة في المرحلة التنفيذية للمشروع قد «تعمي الناس عن المخاطر على نحوٍ خاصّ».

ومثل قنبلة موقوتة؛ فقد تعامل كلُّ رئيس من رؤساء الولايات المتحدة بين عامي 1946 و1972 مع الوضع في فيتنام بقلقٍ

وتـردّد، بأصـوات يصيـح بعضهـا مطالبًـا بالتراجـع بينمـا يصيـح البعـض الآخـر مطالبًـا بتعطيلها باسـتخدام القـوة السـاحقة. ولخوف الرؤسـاء مـن تَبِعـات التصرّفيـن، فإن أحـدًا منهم لم يسـتجب لأي من الطلبيـن؛ لقـد ألقـى كلٌّ واحـد منهم المشـكلة علـى خليفته ببسـاطة، حتـى انفجـرت فـي النهاية في وجه شـخصٍ مـا. لكنها أحرقـت أيدي الجميـع فـي أثنـاء ذلـك، وكَـوَت كُلًّا مـن مصداقيـة أمريـكا، وهيبتها بشـدّة. أصبحـت سلسـلة مـن الإدارات مهووسـة بالحـرب؛ فتضـع كلّ إدارة سياسـةً حربِيّـةً دون أن تهتـمَّ بالدلائـل التـي تنـذر بوقـوع الكارثـة، وكما يقول (جون ستوسـنجر)، فقد «اسـتند خمسـة رؤسـاء أمريكيّـون فـي سياسـاتهم المَعْنِيّـة بالهنـد الصينيـة، لا علـى الحقائـق الآسـيوية، بـل علـى مخاوفهـم، وفي نهايـة المطـاف، علـى آمالهم». والنتيجـة التـي حصلـت عليهـا الولايـات المتحـدة كانـت 59,000 قتيـل، و303,000 جريـح، وفيتنام شـيوعيّة. لقد ظلّ جميع الرؤسـاء مقتنعيـن- بطريقـة مـا - بإمكانية الانتصـار في حرب فيتنام باسـتخدام تدابيـر نصفيـة (دون اللجـوء إلـى حـربٍ شـاملة). بيـد أن ذلـك كان - كمـا توقّعـه العديـد مـن معاصريهـم، وحاجَـجَ بشـأنه العديـد مـن المؤرخيـن، وأثبتـه التاريـخ - مَحْـضَ وَهْمٍ.

# الفصل السابع
# الْغُرُورُ الْمُسْتَمِيتُ

«تُعدّ ثقـة المرء المُفْرِطَـة في قدرته الشخصية أصلًا للكثير من الشرور. إن الغرور، الأنانيـة، لهو أكثر الخصائص البشريّـة فتكًـا. وعندمـا يجتمع هذا الغرور مع الجهل الشديد بالظروف... ينتجُ لنا مزيدًا من الخراب، والأوجاع أكثر ممَّا ينتج عن أيِّ جزءٍ آخرَ من تراكيبنا العقلية.»

[أليس فوت ماكدوغال]

«الأمـل؛ إنـه الوهم البشـريّ المثالـي، فهو مصدر أعظم نقاط قوتـك، وأعظم نقـاط ضعفـك في آنٍ واحد.»

[شخصية المهندس المعماري، فيلم الماتريكس 2]

توفـر نظريّـة الأوهـام الإيجابِيَّـة - كمـا رأينـا - حـلًّا للُّغـزِ الـذي يجعـل الـدول عدوانيّـة تُجاه بعضهـا بعضًـا فـي معظـم الأحيـان، لدرجـة خوضهـا للحروب فيما بينها على حسـاب الكثيـر من الأرواح والأمـوال، وحتـى عندمـا تكـون احتمـالات النصـر غيـر مؤكـدة، أو ليسـت فـي صالحهـا. وقـد وجدتُ فـي دراسـات الحالـة أدِلّة على وجـود أوهـام إيجابية بين القـادة من كلا الجانبين فـي الحرب العالمية الأولـى، ومـن الجانـب الأمريكـي خـلال حـرب فيتنـام. كان تفـاؤل

(تشامبرلين) المُفْرِط بشأن نوايا (هتلر) قد أدّى إلى تفاقم أزمة ميونيخ، وكذلك فعل تفاؤل (خروتشوف) المُفْرِط بأن الولايات المتحدة ستسمح بوجود الصواريخ النووية السوفييتية في كوبا. لكنْ بحلول نهاية الأزمتين، كانت الأوهام الإيجابِيَّة قد اختفت. وتدعم هذه العناصر مُجتمعة التوقّع بأن الأوهام الإيجابِيَّة ترتبط بظروف يمكنها أن تتغير، فتُفاقمها (أي الأوهام) وتُسبّب الحرب، أو تقلل منها وتُجنّب اندلاعها.

هذا بالإضافة إلى توافقها مع نتائج (ريتشارد ليبو): «بل لقد تثبت ضروريّة وقوع الأزمات في بعض الحالات من أجل حدوث التقارب، حيث إنّ صدمة المواجهة الحادّة، أو الهزيمة تكون مطلوبة لتبديد الأوهام الخطيرة... عندما يُدرك المُبادرون الأحكام الخاطئة المبدئية التي أطلقوها ويصححونها، فإنهم عادة ما ينجحون في تجنّب وقوع الحرب. لكن في حال وجود القليل من التعلم، أو عدم وجود تعلم على الإطلاق، يظلّ الزعماء على المسار المؤدي للتصادم».

لم تكن الأوهام الإيجابِيَّة جليّةً لدى كلِّ جانب في جميع الحالات، بيد أنّ هذا ليس بالضرورة غير متوقع. وحتى وإن كانت موجودة في جميع الحالات، فهناك حالات تضاءلت فيها الأوهام أمام عوامل أخرى، أو تخفّت وراءها. وكما هو موضّح في الفصل الثاني، فقد تعمّدتُ اختيار دراسات حالة صعبة كان يفترض أن

تكـون فيهـا آثـار الأوهـام الإيجابِيَّـة محـدودة، التـي نجد وفـرة كبيرة فـي تفسـيراتها المَبنيّة علـى نظريـات بديلة.

يُعتبـر إيجاد دلائـل على الأوهـام الإيجابِيَّة في مثل هـذه الظروف نجاحًـا كبيـرًا للنظريـة، ويشـير إلـى أنّهـا تلعـب دورًا مهمًّـا فـي إثارة الحرب.

ويشـير توزيـع الأوهـام الإيجابِيَّـة عبـر الحـالات (وداخـل كلّ حالـة) إلـى أن نـوع النظام، وعلنيّـة النقـاش يعتبران عاملين حاسـمين فـي تحديـد مـا إذا كانـت الأوهـام الإيجابِيَّـة تتسـلّل عبر عمليّـة صُنع القـرار للتشـجيع علـى الحرب.

سـيكون هـذا التوزيـع محـطّ تركيـز رئيسـيٍّ لاسـتنتاجاتي، كونـه يقـدّم فرصـة لفهـم سـبب نشـوء الأوهـام الإيجابِيَّـة، ووقت نشـوئها، وكيـف يمكـن الحـدّ منهـا. نجـد هـذه المقارنـة مُبيّنـة فـي الجـدول رقم 5، الذي يلخّص نتائجي من دراسات الحالة.

الجدول 5 – ملخص لنتائج الدراسات الحالية (يشير التظليل إلى الدلائل على الأوهام الإيجابِيَّة

| نقاش مفتوح | | نقاش مغلق | |
|---|---|---|---|
| ديمقراطي | غير ديمقراطي | ديمقراطي | غير ديمقراطي |
| المستوى المُتوقع للأوهام الإيجابِيَّة | | | |
| منخفض | متوسط | متوسط | مرتفع |

| الحرب العالمية الأولى | الوفاق الثلاثي | قوى المركز |
|---|---|---|
| حرب فيتنام | الولايات المتحدة | فيتنام الشمالية[1] |
| أزمة ميونخ (قبل اندلاعها) | الحلفاء[2] | هتلر |
| أزمة ميونخ (عند نهايتها) | الحلفاء | هتلر |
| أزمة الصواريخ الكوبية (قبل اندلاعها) | الولايات المتحدة[3] | الاتحاد السوفييتي |
| أزمة الصواريخ الكوبية (عند نهايتها) | الولايات المتحدة | الاتحاد السوفييتي |

## نتائج دراسات الحالة

توقّعتُ أن تزداد احتمالية تأثير الأوهام الإيجابِيَّة على السياسات في الأنظمة غير الديمقراطية التي يكون النقاش فيها مُغلقًا؛ حيث تكون المعارضة المُوجّهة نحو ثقة الزعماء المُفْرِطَة قليلة للغاية. وقد تأكد هذا الأمر في حالة قوى المركز في الحرب العالمية الأولى، بيد أنه لم يكن واضحًا في حالة فيتنام الشمالية.

(1) بعض الأوهام الإيجابِيَّة المحتملة حول هجوم تيت.

(2) بعض الأوهام الإيجابِيَّة المحتملة حول نوايا الخصم، ولكن ليس حول القدرات النسبية

(3) بعض الأوهام الإيجابِيَّة المحتملة حول تأثير الردع، وفعالية الضربة العسكرية .

ويستند التوقُّع الذي يقول بوجود أوهام إيجابية عالية لدى (هتلر) في أزمة ميونيخ ولدى (خروتشوف) في أزمة الصواريخ الكوبية على أهدافهما الطموحة في البداية، التي أدّت إلى وقوع الأزمات.

كان من المتوقّع أن تُظهر الولايات المتحدة في حرب فيتنام مستوًى متوسطًا من الأوهام الإيجابِيَّة (نظرًا لأن النقاش كان مغلقًا نسبيًّا، لكنه كان في ظلّ نظام ديمقراطي). كانت الأوهام الإيجابِيَّة جليّةً بالتأكيد، لكنّها لم تكن غامرة. ويبدو أنها تساعد في تفسير بعض الألغاز المتبقية، غير أنّ القادة لم يكونوا متفائلين على نحو أعمى بالنصر المباشر والتام.

أما على الطرف النقيض، فقد توقعت أن تكون احتمالية تأثير الأوهام الإيجابِيَّة على السياسة في الأنظمة الديمقراطية التي تتمتع بعلنية النقاش ضعيفة. وقد تأكد هذا الأمر من خلال تقييمات القدرات بواسطة الحلفاء في أزمة ميونيخ، وبواسطة الولايات المتحدة في أزمة الصواريخ الكوبية، لكنه كان يتناقض مع الدلائل على وجود أوهام إيجابية لدى قادة الوفاق الثلاثِيّ في الحرب العالمية الأولى (على الرغم من أنّ أوهامهم الإيجابِيَّة كانت أضعفَ من أوهام القادة في قوى المركز). ومع ذلك، فإن حقيقة تجلِّي الأوهام الإيجابِيَّة حتى في بعض أقلّ الظروف توقُّعًا لظهورها يشير إلى أنّها قد تلعب دورًا مُهِمًّا حتى في الحالات التي يتعيَّن أنْ تتضافرَ فيها العوامل السِّياقِيّة لكَبْحِها.

## التباين مع الحرب والسلام

يكشف تحليل التطابق من النوع الأول (الوارد وصفه في الفصل الثاني) ارتباط المستويات العالية من الأوهام الإيجابِيَّة بمستوياتٍ عاليةٍ من الحرب: في حين كانت الأوهام الإيجابِيَّة جليّةً في كلتا الأزمتين الدوليّتَيْن اللَّتَيْنِ تسبَّبَتا بالفعل بنشوب حرب، فإنها لم تكن واضحة بحلول نهاية الأزمتين اللَّتَيْنِ تمّ حلّهما بطريقة سلمية. أضِف إلى ذلك أن مستوى الأوهام الإيجابِيَّة يتوافق تقريبًا مع تلك المُتوقَّعة. ومع أنّ هذه النتائج تشير إلى وجود دعمٍ عام لنظريّتي، فإن هناك جوانب محددة من هذه الحالات قد حادت عن التوقّعات. قد تُلقي هذه الاستثناءات بالضّوء على العمليّات السببيّة.

وعلى الرغم من أن الولايات المتحدة دولة ديمقراطية، فإنَّ الأوهام الإيجابِيَّة كانت واضحة في سياستها تُجاه فيتنام. هذا ليس بالأمر المفاجئ من منظور نظريتي؛ كون عمليّة صُنع صناعة القرار المعنيّة بفيتنام في الولايات المتحدة كانت مُغلقة نسبِيًّا؛ لذا فإن كان لدى القادة أوهامٌ إيجابِيّة، فمن المتوقع أن تصمد كمّية معقولة من تلك الأوهام عبر النقاش، وتؤثّر على السياسة. وفي هذه الحالة بالذات، عزّزت بعض الظروف الإضافية مثل هذا الصمود.

**أوّلًا**: وكما أوضَحَت أوراق البنتاغون، فقد أخفت الحكومة الأمريكية إلى حدٍّ ما واقع الوضع عن الجمهور، ووسائل الإعلام.

ثانيًا: تلقى الرؤساء تقاريرَ عسكريةً إيجابِيّةً دون مسوِّغ من الميدان، وعمل مسؤولون مدنيّون على فرز المعلومات المتناقضة؛ لذا فمع أنهم جمعوا معلوماتٍ جيِّدةً، فقد ظلّ التفاؤل يتراكم مع مرور المعلومات عبر سلسلة القيادة نحو الأعلى، ولم تخضع تلك المعلومات لتدقيقٍ واسع بما فيه الكفاية.

من الصعب تقييم عملية اتّخاذ القرارات في فيتنام الشمالية كونها أجريت في سِرِّيَّة، ولم تخلّف وراءها الكثير من الأدِلّة التوثيقيّة. ومع ذلك، يمكننا القول إنه على الرغم من النظام غير الديمقراطي مُغلق النقاش، فعلى ما يبدو أن فيتنام الشمالية لم تظهر الكثير من التفاؤل المُفْرِط بشأن الفوز. كان (هو تشي منه) مؤمنًا بـ «جيشه» بكلِّ تأكيد، حتى أنه توقع أن يموت عشرة من مقاتليه مقابل كل قتيلٍ واحد من الغُزاة، لكن هذا كان انعكاسًا لقناعةٍ متأصّلة، لا لفرطٍ في التفاؤلِ. لقد عكس استمرار الإرادة القتاليّة عزمًا مُمتدًّا، ومتجدِّدًا، وهو ما يُعدُّ سمةً من سِمات الحركات القوميّة. ولربّما يشي أكثرُ عملٍ عسكري طموح قام به الشمال - الذي كان هجوم تيت في عام 1968 - ببعض عناصر التفاؤل المُفْرِط، لكن يبدو أن صُنّاع القرار كانوا مُدركين للمكاسب السياسية التي يمكن تحقيقها، على الرغم من الفشل المحتمل في المعركة.

من الحالات الأخرى التي كان يُتوقّع فيها أن تكون الأوهام الإيجابِيَّة عالية بسبب النظام غير الديمقراطي، والنقاش المغلق: حالة (هتلر) أثناء أزمة ميونيخ. ومع ذلك، فإنه لم يظهر دائمًا سلوكًا مُتّسقًا مع الأوهام الإيجابِيَّة. من الواضح أن أفعاله المُتعالية هي ما أدَّتْ إلى وقوع الأزمة في المقام الأول، لكن أيّ أوهام إيجابية قد تكون لديه حينها بشأن القدرات العسكرية قد تبدَّدَتْ تدريجِيًّا. عند تلك المرحلة، كان (هتلر) يستشير جنرالاته، ومستشاريه كثيرًا، ويُحدّث تقييماته بناءً على نصائحهم؛ لذا يُحتمل أن عمليّة صُنع القرار في ألمانيا خلال أزمة ميونيخ كانت مُنفتحة تمامًا، ونجحت في كبح أيّ فرطٍ في التفاؤل. (حقيقة أن الأوهام الإيجابِيَّة المُتزايدة بشكل كبير قد تزامنت مع الحرب في عام 1939 تدعم الفَرْضِيَّة؛ وسأعود إلى هذه النقطة بعد قليل).

و(خروتشوف)، الذي كان هو الآخر على رأس نظام غير ديمقراطي، وعملية صنع قرار منغلقة بشدة، لم يُظهر أوهامًا إيجابِيّة قرب نهاية أزمة الصواريخ الكوبية. وعلى الرغم من أنه كان على ما يبدو مُفْرطًا في التفاؤل بأمله في أن تتسامح الولايات المتحدة مع نشر الاتحاد السوفيتي للصواريخ النووية في كوبا (وبالتالي التسبُّب في حدوث الأزمة)، وفي أمل الحصول على المزيد من التنازلات من إدارة (كينيدي) تفوق ما كانت الإدارة مستعدة لتقديمها (وبالتالي إطالة أمَدِ الأزمة)، فإنّ الحوادث،

وسياسة حافة الهاوية التي ضاعفت من خطر نشوب حرب نووية سرعان ما دمّرت أيّ أوهام إيجابِيّة قد تكون لديه بشأن احتمالية انصياع الولايات المتحدة.

## التَّبايُنُ مَعَ التَّغْييراتِ في الحَرْبِ وَالسَّلَامِ

أشار تحليلُ التّطابق من النوع الأول إلى أنَّ الأوهام الإيجابِيَّة ترتبط بحالات الحرب والسلام. كما يكشف تحليل التطابق من النوع الثاني (انظر الفصل الثاني) أيضًا عن وجود ترابط داخل الحالة بين التغيّرات في الأوهام الإيجابِيَّة والتغيُّرات في الحرب. إنّ الإبقاء على السياق العام ثابتًا - أي التركيز على صراع واحد مع مرور الوقت - يقلّل من احتمالية أن يكون هناك عامل ثالث غير معروف مسؤول في نهاية المطاف عن الصلة بين الأوهام الإيجابِيَّة والحرب (بما أنه سيتعيّن على ذلك العامل الثالث أن يتباين، في تزامنٍ متقن، مع كلٍّ من المُتغيّرات المستقلّة، والتابعة).

وكما هو موضَّح في الجدول 6؛ يبدو أن التصعيد الأمريكي في فيتنام كان مرتبطًا بمستوى الأوهام الإيجابِيَّة: كانت الإدارات التي أظهرت أعلى مستوى من الأوهام الإيجابِيَّة هي نفسها الإدارات التي صعّدت الحرب. ويُقدّم الجدول مقارنة أوَّلِيّة إلى حَدٍّ ما بين المستويات النسبية لكلٍّ متغيّر، لكن يبدو أنه يُفيد ضِمنًا بأنّه على الرغم من ثبات العديد من الخصائص عبْر مختلف الملاحظات

المرصودة للحرب نفسها، فإنّ التصعيدات قد تباينت بالفعل تبعًا لتباين الأوهام الإيجابِيَّة. ربّما كانت الأوهام الإيجابِيَّة مؤثِّرةً على نحوٍ خاصّ في صراع فيتنام، وذلك بالنظر إلى النتائج التجريبية التي تفيد بأن الأوهام الإيجابِيَّة قد تُعمي الناس تمامًا عن المخاطر عندما يحاولون تنفيذ مُهمّةٍ ما، وبالنّظر إلى الارتباط التجريبي بين التصميم، أو التعهد بتنفيذ مشروعٍ ما وبين وهم السيطرة الذي يختبره الناس.

وعلى الرغم من أن (هتلر) لم يكن زعيم حكومة ديمقراطية، ولا قدوة يحتذى به في اتِّخاذ القرارات غير المتحيّزة، فإنَّ النقاش حول السياسة الخارجية الألمانية كان مفتوحًا نسبِيًّا في وقت أزمة ميونيخ عام 1938، لكنه أصبح منغلقًا أكثر، فأكثر بعد ذلك. يتباين هذا التغيير تباعًا مع تجنُّب الحرب عام 1938 وتعبير (هتلر) عن ثقته المُفْرِطَة في نهاية المطاف واندلاع الحرب عام 1939. في الأشهر التي سبقت ميونيخ، كان مستشارو (هتلر) يكبحون جماح طموحاته النّهِمة بشكل مؤقت، أولئك الذين جادلوا في أنه إذا بدأت ألمانيا حربًا في عام 1938 فإنها ستخسر. ويبدو أن (هتلر) استجاب لنصيحتهم، لكنه وبحلول العام الثاني كان قد بدأ يثق في رأيه أكثر من آراء الآخرين، كما استهان بشدّة بالحلفاء الذين سيتآلفون ضدّه. وفي النهاية، تفجّر التفكيك التدريجِيّ لطموحات هتلر في شكلٍ واحدٍ من أعظم الأمثلة على الإطلاق على الثقة

المُفْرِطَـة. فـي النهاية، «كان سـقوط الرايـخ الثالث يعود إلـى حدٍّ كبير إلـى عجـز (أدولف هتلـر) عـن إدراك أنه مـن الناحيـة الاسـتراتيجية، فـإنّ الطريـق إلـى كلِّ مـكان هو طريـق لا يوصِّـلُ إلـى أيِّ مكان».

الجـدول 6. التباين فـي الأوهـام الإيجابِيَّة، والتصعيدات النسـبية للولايـات المتحـدة فـي حـرب فيتنـام. يشـير الاقتـراح إلى أنـه عندما كانـت عمليـة صنـع القـرار أقـلّ انفتاحًـا، كانـت الأوهـام الإيجابِيَّـة، وفـرط الثقـة المُصاحـب لها يمرّان دونمـا رادعٍ أو ضابـط؛ الأمر الذي أدّى إلـى تكثيـف الحـرب، أو تصعيدها.

| عَوَامِلُ تَفْسِيرِيَّة مُحْتَمَلَة | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|
| الإدارة | مصدر الأوهام إيجابية | أوهام إيجابية | التصعيد النسبي | عملية صنع القرار | التوقع |
| ترومان | تفوق الولايات المتحدة | غير علنية | صغير | أكثر انفتاحًا | غير مؤكد - الذي لا جدال فيه |
| أيزنهاور | تفوق الولايات المتحدة | غير علنية | متوسط | أكثر انفتاحًا | غير مؤكد - الذي لا جدال فيه |
| كينيدي | تفوق الولايات المتحدة والدائرة المقرّبة | بعض منها | كبير | أقل انفتاحًا | مكاسب سياسية |

| جونسون | تفوق الولايات المتحدة والدائرة المقرّبة | نعم | كبير | مغلقة نسبِيًّا | مكاسب سياسية؛ إن لم يكن النصر |
|---|---|---|---|---|---|
| نيكسون | الدائرة المقرّبة، أفضل وهو نفسه | بعض منها | كبير (لكن مُختلف)[1] | مغلقة نسبِيًّا | سلام مُشرّف وموقف تفاوض |
| فورد | غير واضح | لمحة منها | مُقترح | أكثر انفتاحًا | مكاسب سياسية |

**ملاحظة**: تُعدّ المستويات النسبية مهمة؛ لأن كينيدي مثلًا لم يُلزم سوى عددٍ قليل من الجنود الأمريكيين بالحرب، لكن ذلك مثّل زيادة كبيرة في التزام الولايات المتحدة بالحرب.

## أهَمِّيَّةُ السَّياق

تُشير الأبحاث المستفيضة إلى أن غالبية الناس يكونون عُرْضَةً للأوهام الإيجابِيَّة. ولكن كما هي الحال مع جميع التحيُّزات النفسية، فإنَّ هذه النتيجة تعني أنَّ لدى الناس ميلًا لاختبارها، ولِيس أنها ستظهر حتمًا عند كلّ شخص، أو في جميع الأوقات. وبالإضافة إلى التباين الفردِيّ، يعمل السِّياق الذي تُتّخذ فيه القرارات عمل الوسيط بالنسبة للأوهام الإيجابِيَّة. وهناك ستة

(1) حملات قصف جوي أكثر كثافة.

ظـروف سـابقة أساسِـيّة (مسـتويات التحقّـق، والعمومية، والإبهـام، والتهديـد، وجـودة ردود الفعـل والإفـادات، ومسـتوى المهمـة؛ انظر الفصـل الثانـي) تؤثـر فـي احتمالية ظهـور الأوهـام الإيجابِيَّـة، لكـنَّ الأهـمَّ منها بالنسـبة لنتائج السَياسـة همـا جانبان من جوانـب بيئة صنع القـرار التـي أخذتهـا بعيـن الاعتبـار فـي دراسـات الحالـة خاصتي:

الحكومـات الديمقراطيـة مقابـل الحكومـات غيـر الديمقراطيـة، والنقـاش المفتـوح مقابـل النقـاش المُغلـق، وتـزداد أهمّيـة هذيـن الجانبيـن عـن غيرهمـا؛ نظـرًا لأنه بغـضِّ النظر عـن مسـتوى الأوهام الإيجابِيَّـة التـي يحملهـا صُنَّـاع القـرار فـي بدايـة العمليـة السياسـية، فينبغـي أن تعمـل عمليـة اتِّخـاذ القـرارات الفعَّالـة علـى إلغائهـا، أو تقليلهـا قبـل أن تُترجم إلـى أفعال. سـأنظر الآن في كيفيـة تعزيز هذين العامليـن للأوهـام الإيجابِيَّـة، أو تقليلهـا.

يفتـرض بالأوهـام الإيجابِيَّـة التأثيـر علـى السياسـة فـي الأنظمـة غيـر الديمقراطيـة بطريقة أسـهل من الأنظمـة الديمقراطيـة. وبالفعل، بَـدَتْ الأنظمـة غيـر الديمقراطيـة فـي دراسـات الحالـة خاصّتـي أكثر عُرْضـة علـى نحوٍ خـاص لأنْ تسـتمر فيهـا الآراء المتحيّـزة. من ذلك مثـلًا: عـدم تأثّر طموحـات (هتلـر) العسـكرية بحقيقـة أن الحرب لـم تكن شـعبية بيـن الجماهيـر الألـمانية، في حين سـاهم الـرأي العام في الولايـات المتحـدة بكبـح جمـاح السياسـة الأمريكية في فيتنـام. لكن وكمـا أظهـرت حالة فيتنـام، فحتـى الديمقراطية قـد لا تضمن خضوع

المعلومات للتمحيص، أو الطعن. في الواقع، يمكن أن يؤدِّيَ التنازعُ السياسيُّ الداخلي الذي يمثّل السِّمة المُميِّزة للديمقراطية إلى إخفاقات صريحة في الاتّخاذ الفعّال للقرارات؛ وكما تشير (باربرا توكمان)، فإنَّ هذا قد ينطبق على نحوٍ خاصّ على الحكومة الأمريكية: «إنّ تأثير الرئاسة الأمريكية بسلطة التعيين التي تتمتَّع بها داخل الجهاز التنفيذي لهو تأثيرٌ مُتغطرسٌ. لقد كان من الصعب على المستشارين رفض طلبات الرئيس، أو الطعن في السياسة العامة؛ كونهم يعلمون أنّ مكانتهم، ودعوتهم لحضور الاجتماع التالي للبيت الأبيض، متوقّفين على عدم خروجهم (على رأي الرئاسة). وإذا كانوا من أعضاء مجلس الوزراء، فليس لديهم في النظام الأمريكي مقعدٌ برلمانيّ يمكنهم العودة إليه، والاحتفاظ بصوتٍ في الحكومة من خلاله».

لكن بالرَّغم من عيوب الديمقراطية، فإنها تعدُّ أفضلَ في تبديد الأوهام الإيجابِيَّة من الأنظمة غير الديمقراطية. ويجادل (سوميت جانجولي) في أن الإفراط في التفاؤل العسكري، على الرغم من تجلّيه في تاريخ كلٍّ من الهند وباكستان، قد انخفض كثيرًا لدى الجانب الهندي تحديدًا؛ وذلك لأنَّ المؤسسات الأكثر ديمقراطية في الهند عملت على ضبط فرط الثقة غير المبرّر. ويحذّر كذلك من أن اتجاه الهند الحالي المُبتعد عن المُثُل الديمقراطية قد يسمح ببزوغ التفاؤل الخاطئ على السطح على نحوٍ خطير.

ويمكـن للفَرْضِيَّـة القائلـة إنَّ احتماليـة تحطّـم الأوهـام الإيجابِيَّة غيـر المبـرَّرة فـي الأنظمـة الديمقراطية تعدّ أكبر أن تسـاهم في تفسـير ما يُسـمّى بالسّـلام الديمقراطـي: ظاهرة عـدم خـوض الديمقراطيات لحـروب ضـد بعضهـا بعضًـا. وقـد تسـاعد هـذه الفَرْضِيَّـة أيضًـا فـي تفسـير ظاهـرة أخرى تشـير إليها الأدِلّـة التجريبيـة؛ وهي أنّـه في حالة خـوض الديمقراطيـات للحـروب (ضـد البلـدان غيـر الديمقراطية)، فإنهـا تميـل فـي العـادة إلـى تحقيـق النصـر. يُعتقـد أن هـذا ناتـجٌ عـن تقييمهـا (أي الـدول الديمقراطيـة) الأكثـر تعقّـلًا، وحصافـة للأوضـاع، واختيارهـا لمحاربـة الأعـداء التـي تعلـم أنهـا قـادرة على إلحـاق الهزيمـة بهـم وحسـب. مـن الواضـح أنَّ هنـاك اسـتثناءات تاريخيـة، مثـل فيتنام، لكـن وكما يلاحـظ (فيكتور هانسـون)، فيُمكن للديمقراطيـة أن تكـون مفيـدة بشـكلٍ عـام حتى عندما تفشـل سياسـة خارجيّـة مُعينة بسـببها: «يمكـن للمؤسسـات القادرة علـى إعاقة تقدّم المعـارك اليوميـة للأسـلحة الغربيـة أن تضمـن أيضًا النصـر لقضيتها. إذا كان الالتـزام الغربـي بالنقـد الذاتـي قـد تسـبّب جزئِيًّـا فـي الهزيمة الأمريكيـة فـي فيتنـام، فـإنَّ تلك المؤسسـة كانـت أساسـية كذلك في تفجّـر التأثيـر العالمـي الغربـي فـي العقـود التـي تلـت الحرب».

## عَلَنِيَّةُ النِّقَاشِ

كشـفت دراسـات الحالة أنّ (عَلَنِيَّةَ النِّقَاشِ) قـد لعبت كذلك دورًا مُهِمًّـا فـي مفاقمـة تأثيـر الأوهـام الإيجابِيَّة علـى السياسـة، أو التقليل منهـا. على سـبيل المثـال؛ أصبحـت عمليّة اتّخـاذ القـرارات المتعلقة بالسياسـة الخارجيـة لــ (هتلـر) أقـلّ انفتاحًـا بصـورةٍ كبيرة بعـد أزمة ميونيـخ، وقـد أثر ذلـك التغيير على قـرار الحرب في عـام 1939. في الحقيقـة، يبـدو أن الأوهـام الإيجابِيَّـة قد تباينـت عبْر أشـكال النقاش بنحـوٍ يفـوق تباينهـا عبْـر أنـواع النّظـام. وبالفعـل، وجدنـا أن الأوهام الإيجابِيَّـة كانـت أحيانًـا ما ترتبط بتغيّـرات في مسـتوى الانفتاح داخل النظـام نفسـه، وقد كانـت الحـالات الأمريكية مفيدة علـى نحوٍ خاصّ فيمـا يتعلّق بهـذه النقطة.

وفـي أزمـة الصواريـخ الكوبيـة، كان مـن الواضـح أن البحـث المكثّـف، والموسّـع عـن الخيـارات الأمريكيـة والنقـاش بشـأنها قد دحـر، أو منـع، أيّ أوهـام إيجابيـة بشـأن الحلـول العسـكرية. علـى النقيـض مـن ذلـك، أصبحت عمليـة صنع القـرار بشـأن فيتنـام مُغلقة على نحـوٍ خاص فـي إدارة (جونسـون)، وأصبح تعرُّض (جونسـون) لوجهـات نظـر بديلـة أقـلّ، فأقـل. لقـد جـادل بعـض المفكريـن فـي أنـه لـو طـال الأمـد بـ(كينيـدي) لمـا صعّـد الحـرب كمـا صعّدهـا (جونسـون) فـي عـام 1965، ويعـود ذلـك إلـى حَـدٍّ كبيـر إلـى أنـه، حسـب تعبير (جـون جاروفانو): «كان سيُصغي للنصيحـة التي تقترح

أنّ فيتنام الجنوبية غير مستعدّة لإنقاذ نفسها». كان (كينيدي) قد أثبت في وقت سابق أنه قادر على مقاومة التوقعات المتفائلة بِنَيْلِ فوزٍ سريعٍ فيما يتعلق بالتدخل المُقترح في لاوس، وكان متشكّكًا في النصائح العسكرية بعد نكبة خليج الخنازير وأزمة الصواريخ الكوبية. وفي نهاية المطاف، كانت بيئة صنع القرار الأكثر انغلاقا الخاصة بجونسون عاملاً رئيسًا في الحفاظ على التفاؤل. لقد كان يعتقد، كما لاحظ جيمس ناثان في عام 1975، أنّ «النجاح في الأزمات الدولية كان إلى حدٍّ كبير مسألة شجاعةٍ وطنية، وأن الخصم سيخضع لقوّةٍ متفوقة، وأن السيطرة الرئاسية على القوة يمكن أن تكون «مناسبة»، و«انتقائية»، و«سريعة»، و«فعّالة»، و«سريعة الاستجابة» للسلطة المَدَنِيّة، وأن إدارة الأزمات، وتنفيذها أمران في غاية الخطورة، وأن الأحداث تتحرك بسرعة كبيرة لدرجة تجعل أي شيء آخر غير تشديد السّرية لأقصى درجاتها أمرًا مُتعذّرًا. ومن وجهة نظر (بول كويرت)، فإن (جونسون) قد «عانى كثيرًا من الناحية السياسية من اتِّباع سياساتٍ أقرّها كبار المستشارين المتحدين أيديولوجيًّا، لكنّها غير خاضعة لتدقيق أوسع». كما عانى أيضًا من إخفاء آخرين للمعلومات عنه؛ مُغلقين بذلك النقاش قبل بلوغه الرئيس، أضف إلى ذلك حجب (روبرت ماكنمارا) الكبير للمعلومات (الوارد وصفها في الفصل السادس). وخلال العام الأخير من إدارة (جونسون)، وجّه (والت روستو)

المعلومات السلبية والمعارضين في اتِّجاهٍ بعيد عن البيت الأبيض.

كان النقاش حول حرب فيتنام مُقيَّدًا إلى حَدٍّ ما في الكونغرس أيضًا. كانت المعارضة للسياسة السائدة المُتمثّلة في الاستمرارِيّة، والتصعيد أمرًا غير مقبول سياسِيًّا، إذ كانت تُفسّر على أنّها قِلّة دعم للجنود المقاتلين في الخارج، واعتراف ضِمْني بالفشل الأمريكي. بعبارةٍ أخرى، كان أيُّ معارضٍ في الكونجرس يخاطر بأن يُوسم بالشخص الذي لا يدعم الأمن القومي. وعندما اجتمع أعضاءٌ جدد في الكونغرس في عام 1965، قال لهم نائب الرئيس (هوبير همفري): «إذا شعرتم بحاجة مُلِحَّة للوقوف، وإلقاء خطابٍ يُهاجم السياسة الفيتنامية، فلا تفعلوا ذلك». لم يكن يطلب منهم التستّر على الأخطاء الحكومية، بل يقدم لهم مشورةً مهنيّة بشأن ما إذا كانوا يرغبون في أن يُعاد انتخابهم في الانتخابات التالية.

وكما أوضحت دراسات الحالة، فإن الحصول على معلوماتٍ جيّدة لا يمثل سوى خطوة واحدة في طريق تحقيق قراراتٍ جيّدة. والأمر الأكثر أهمية من ذلك بكثير هو علنيّة النقاش؛ أي درجة تشجيع القادة والمؤسسات للآراء المتنوعة وغير الحزبيّة، والنظر في خياراتٍ متعددة، واستغلال تحليلات الاستخبارات، والتشجيع علَى جمع المزيد من المعلومات الاستخباراتية، والتعاون مع أجهزة الاستخبارات، والاستماع للنصيحة. وفي حالة لم يكن النقاش مفتوحًا، نجد الأوهام الإيجابِيَّة في ازدهارٍ مستمرّ.

مـن الأمثلـة البـارزة على ذلـك، حالة إسـرائيل قبل غـزو لبنان في عـام 1982. يلاحـظ (جون جاروفانـو) أنَّ قادة إسـرائيل أصبحوا أقلّ انفتاحًـا للنصيحـة المَدَنِيّة والعسـكرية، وأن أرييل شـارون (الذي كان حينئـذ وزيرًا للدفاع) ومستشـاريه «قـد بالغوا في تقديـر الوقت المتاح أمامهـم، واسـتهانوا بتكلفـة الأرواح المطلوبـة لتحقيـق أهدافهـم». يتوسّـع (مايـكل هانـدل) فـي شـرحه لأسـباب ذلـك (ويستشـهد بالرئيس السـابق للمخابرات العسـكرية الإسـرائيلية شـلومو غازيت):

كان [رئيـس الـوزراء مناحيـم] بيجـن وشـارون يعرفان مـا يريدان فعلـه، واختـارا عـزل أنفسـهما عن مستشـاريهما فـي الاسـتخبارات، ولـم يُظهـرا قطّ أيـة ذرة شـكّ فـي قدرتهما علـى تحقيـق أهدافهما... أصبحـت قـوات الدفـاع الإسـرائيلية غارقـة فـي حـربٍ تشـبه حـرب فيتنـام، وهـي حـربٌ لـم يكـن الانتصـار فيهـا ممكنًـا... الأمـر الأكثر مأسـاوية هـو حقيقـة أنـه «لـم يكـن هنـاك أيّ خطـأ فـي تحليـلات الاسـتخبارات، وتقييماتهـا المتعلقـة بلبنـان. لقـد كانـت البيانـات الضروريـة جميعهـا موجـودة، وأثبتـت التوصيـات أنها كانــت رصينة وواقعيـة». لكـن حتّـى نصيحـة أفضـل مُنظّمة استخباراتية فـي العالم تكـون بلا جـدوى عندما يكون من المسـموح لصُنَّاع القرار الرئيسـيين فـي أيّة دولة تجاهـل المعلومات المهمـة، والانغماس فـي التَّمَنِّي غير المقيَّـد بضوابـط وتوازنـات قانونيـة، أو سياسـية، أو أخلاقيـة.

## الآثارُ المُتَرَتِّبَةُ عَلَى النَّظَرِيّة

كما أكّدنا في الفصل الأول، فإن فَرْضِيَّة الأوهام الإيجابِيَّة تضيف عنصرًا جديدًا ومهمًّا في فهم المسائل الرئيسية في نظريّة العلاقات الدولية. ويحتمل ألَّا تؤثر الأوهام الإيجابِيَّة، وفرط الثقة الذي يتمخَّض عنها على الحرب فحسب، بل وعلى العلاقات الدولية عمومًا. ويتعلق جانبٌ كبيرٌ من السياسة الدولية بالدبلوماسية، والتحالفات، والتفاوض، والتلاعب والتهديدات ذات المصداقية أكثر ممَّا يتعلق بالحرب نفسها، وقد يكون للأوهام الإيجابِيَّة المُنتشرة لدى القادة تأثير كبير - سواء أكان جيِّدًا، أم سيِّئًا - على هذه الجوانب من العلاقات الدولية. قد تؤدِّي هذه الأوهام في بعض الحالات إلى تعزيز الالتزام والقوة، الأمر الذي قد يزيد من القدرة على المساومة، ويجذب الحلفاء، ويخدم في النهاية المصلحة الوطنية. وفي أوقات أخرى، ومن خلال رفع التصوُّرات، والتوقُّعات حول القوة والتأثير، فإنّها قد تُقوّض التعاون، والاتفاقيات المفيدة. هناك أيضًا تساؤلات بشأن كيفية تأثير أوهام التفوق الأخلاقي والأيديولوجي على مواقف الدول تُجاه قوانين الحرب (ونظرية الحرب العادلة) أو تُجاه التدخّل بين الدول؛ سواء أكان ذلك في سبيل أهداف أنانية أو إنسانية. تعتبر تلك الآثار مفتوحة على مصراعيها أمام التدقيق المستقبلي؛ وأتناول بعضًا منها هنا باختصار.

## ■ مُقَـامَـرَةُ الْحَـرْبِ

قـد يُجادل المرء فـي أنّ صُنَّاع القـرار يختارون الحـرب، لا لأنهم يشـعرون بثقـةٍ مُفْرِطَـةٍ إزاء فُرصهـم فـي النصـر، بـل لأنهـم ببسـاطة مسـتعدّون للمقامـرة. إن الحـرب بطبيعتهـا غيـر قابلـة للتوقّـع، ووفقًا لــ (كلاوسـويتر)، فإنـه: «مـا مـن نشـاطٍ بشـريٍّ آخـر مرتبط بشـكلٍ مسـتمرّ، أو عالمـي بالصدفـة علـى هـذا النحـو (كالحـرب)». بيـد أنّ هـذا يثيـر التسـاؤل التالـي: مـا العوامـل التـي تجعـل النـاس علـى اسـتعداد لتحمُّـل مثـل هـذه المخاطـر؟ بـل إنَّ محاولـة فهمنا لسـبب اختيـار النـاس خـوض الحرب، وهـم يعلمـون أن نتيجتها غيـر مؤكدة تعـدّ أصعـب مـن محاولـة فهمنـا لسـبب اختيارهـم خوضهـا وهـم يؤمنـون، علـى نحو خاطئ، بأنهم سـيحققون النصر؛ لـذا فحتى عندما لا تشـجّع الأوهـام الإيجابِيَّة علـى توقّعات غيـر واقعيّة بالنصـر، فإنها قد تسـاهم فـي اتّخاذ القـرار بأن القتـال يسـتحقّ المخاطرة.

فـي الواقـع، قـد تـؤدّي الأوهـام الإيجابِيَّـة إلـى تصـوّراتٍ تجعل مقامـرة الحـرب تبـدو جذّابـة، حتـى وإن بـدا النصـر غير مرجَّـح. من ذلـك مثـلًا أنها قـد تؤدّي إلـى التقليل من شـأن التكاليـف، أو المبالغة فـي تقديـر قـدرة الفـرد علـى التحكـم بالأحـداث فـي حـال سـاءت الأمـور؛ وهـو توقّـع بـأن يتمكّـن الأداء العسـكري المثيـر للإعجـاب مـن فـرض تنـازلات، أو تفـاؤل غيـر واقعـي بـأن الأمـور قد تتحسّـن فـي النهايـة؛ لـذا فحتى عندمـا يكون مـن الواضـح أن القائد لـم يتوقع

الفوز، لكنه رغم ذلك قرّر القتال، أو كان يأمل في أن يحقق النصر بضربة حظ، فإنه يمكن للأوهام الإيجابِيَّة تفسير السبب. وكما أشار (كلاوسويتز): «فعندما تصوّر فريدريش العظيم [ملك بروسيا] عام 1756 أن الحرب حتميّة، وأن مصيره الخسارة ما لم يمنع أعداءه، بات من الضروريّ بالنسبة له أن يبادر بالأعمال القتالية؛ لكن في الوقت نفسه كان ذلك تصرُّفًا جريئًا، فقلّةٌ من الرجال الذين في منصبه كانوا ليجرؤون على التصرُّف على هذا النحو». (أشعلت جرأة فريدريش حرب السبع سنوات، مُورّطة معظم أوروبا في حربٍ مُكلفة وطويلة تركت بروسيا مدمّرة، وانتهت في نهاية المطاف باتفاقيّة أعادت بشكلٍ أساسِيٍّ الوضع إلى ما كان عليه قبل الحرب).

وفي حالة فيتنام، جادلتُ في أنه كان ينبغي بالأدلّة الجوهرية حول الأوضاع العسكرية والسياسية والاجتماعية أن تنصح بعدم تدخل الولايات المتحدة. لكن ما مقدار المخاطرة في القتال؟ خلال الحرب، كان المحللون الأمريكيّون «دائمًا ما يذكرون أن توقّع تحقيق الأهداف الأمريكية ليس سوى اقتراح لا تتجاوز احتماليّته 50%». وفي مثل هذه الحالة، يبقى أن نفهم السبب الذي دفع القادة إلى الاعتقاد بأن هذا المخاطرة كانت تستحقّ المجازفة (إذا كانت النسبة مناصفة حقًّا، فإنهم قامروا فعلِيًّا بالأرواح، والثروات ضد سياسة أجنبية مُبهمة بناءً على قرعةٍ بعملة معدنيّة).

يمكـن للأوهام الإيجابِيَّة أن تسـاعد في توضيح سـبب اسـتعداد صُنّاع القـرار لقبـول المخاطـر والتكاليف.

اقتـرح العديـد مـن الباحثيـن أن نظريـة الاحتمـالات prospect theory- التـي تفتـرض، كمـا يقـول (روبـرت جيرفيـس)، أن «الأطـراف الفاعلـة تكـون عُرْضـة لقبـول مخاطر كبيـرة عندمـا تعتقد أنهـا سـتتكبّد خسـائر مـا لـم تتصـرّف بجـرأة» - تفسّـر العديـد مـن القـرارات المحفوفـة بالمخاطـر المُتّخـذة فـي إطـار اتفـاقٍ دولـيٍّ (مثـل أزمـة الصواريخ الكوبيـة، وقرار اليابـان بالحرب عـام 1941). لكـن فـي حيـن أن نظريـة الاحتمالات قـد تتـلاءم بالفعل مـع الطريقة التـي تتصـرّف بهـا الـدول (أو قادتها)، فإنها لا تفسّـر سـبب اسـتعداد الأشـخاص علـى نحـو أكبـر لقبـول المخاطـرة أثنـاء موازنتهـم بيـن الخسـائر المُحتملـة. يقـدّم تحفيـز الأوهـام الإيجابِيَّـة لديهـم تفسـيرًا ممكنًـا لذلك.

## ■ الـرَّدْعُ

حتـى فـي عالـم مـا بعـد الحـرب البـاردة، كانـت القـوة الرادعـة لـكلٍّ مـن الحربيـن التقليديـة، والنوويـة مـا تـزال تمثـل تحدِّيًـا كبيـرًا للسياسـة الخارجيـة، كمـا هـي الحـال مـع احتـواء الـدول المارقـة؛ ونظـرًا لأنَّ نظريـة الـرَّدْع قـد افترضـت - علـى نحـوٍ تقليـديٍّ - بـأنَّ الجهـات الفاعلـة عقلانيـة، فـإنَّ فهـمَ التحيُّـزات النفسـية يعـدُّ أمـرًا حاسـمًا فـي تطوير اسـتراتيجيات ردعٍ جيّـدة، ومن المرجَّـح أنَّ تكون

للأوهـام الإيجابِيَّـة أهمّية خاصـة في هذا الأمـر. لقد رأينـا في الفصل الخامـس أن أوهـام (خروشـوف) الإيجابِيَّـة بشـأن تنصيـب صواريخ نوويـة فـي كوبـا قـد قوّضـت اسـتراتيجية الـرَّدع الأمريكيـة فـي ذلك الوقـت. ويمكـن لمشـكلاتٍ مُماثلـة أن تقع فـي العديد مـن الحالات الأخـرى، قـد يـؤدِّي وجود الأوهـام الإيجابِيَّـة علـى كلا الجانبين إلى جعـل الـرّدع أصعب بكثيـر ممَّا كان متوقعًـا. وكان (جيرفيـس)، الذي كتـب فـي ثمانينِيّـات القرن الماضـي، قد حذّر مـن احتماليـة أن تؤدِّيَ التّصـورات المُنحـازة إلـى ذلـك النـوع من الفشـل فـي الـرَّدْع، الذي سـيكون ضرورِيًّـا لحـدوث الحـرب العالميّـة الثانية:

بالنظـر إلـى الدمـار الهائل الـذي يتوقع الطرفـان أن تجلبـه حربٌ كهـذه، يبـدو مـن الصعـب أن نـرى كيـف يمكـن أن ينشـبَ هـذا الصـراع في غيـاب التصـوُّرات الخاطئـة. سـيكون الأمر خطيـرًا على نحـوٍ خـاصّ إذا كانـت الولايـات المتحـدة، أو الاتحـاد السـوفييتي [أو الصيـن، أو الهنـد، وباكسـتان اليوم] أو كليهما يعتقـدان أن الحرب كانـت حتميـة، وأن القيـام بالضربـة الأولـى كان مفضلًا بدرجـة كبيرة علـى السـماح للجانـب الآخـر بالهجـوم أوّلًا؛ ونظرًا لوجـود عددٍ من العمليـات النفسـية التي قد تـؤدِّي بالناس إلـى المبالغة فـي تقدير هذه العَوامـل، فـإن مـن الأهميـة بمـكان أن يُـدرك رجـال الدولـة الطـرق التـي يُمكـن مـن خلالهـا للعمليـات الإدراكيـة الشـائعة أن تسـفر عن اسـتنتاجاتٍ ليسـت خاطئة وحسـب، بل وفـي غاية الخطـورة كذلك.

من المحُتمل أن يفشل تأثير الرَّدْع في حال استهان الخصوم بالتهديد، وبالغوا في تقدير قدرتهم على الانتصار إذا اندلعت الحرب، أو اعتقدوا أن الأمر يستحق المخاطرة باحتمالية الهزيمة (يحتمل أن يكون كل واحد من هذه الأوهام قد أسهم في سلوك صدام حسين في الفترة التي سبقت غزو العراق عام 2003، وذلك كما سنرى في الفصل التالي).

## ■ الْوَاقِعِيَّة

يفترض فرع النظريّة المعروف بالواقعية أن جميع الدول في «حالة طبيعية»؛ أي أنها تتنافس مع بعضها بعضًا لتحقيق أهداف أنانية، والحفاظ على قوتها النسبية، وأنّ هذا ما يدفع الطبيعة التنافسية للعلاقات الدولية. لكن على الرغم من أن السلوك الأناني يمثّل افتراضًا أساسِيًّا للنظرية الواقعيّة، فإنَّ أصله لم يتحدّد على نحوٍ مُرْضٍ. هذه الواقعية «الكلاسيكية»، كما يشير (برادلي ثاير)، «ترتكز بشكلٍ أساسيّ على واحد من اثنين من الأسباب النهائية المنفصلة، أو المؤسسات الفكرية». تتمثل المؤسسة الأولى في حجة (رينهولد نيبوهر) بأن الشرّ أصل البشر. أما الثانية، فترتكز على عمل (توماس هوبز) و(هانس مورغنثاو)، الذي يقول إنَّ البشر يملكون رغبة فطرية في استحواذ القوة، أو «animus dominandi» بتوصيفه. بيد أن كلتا المؤسستين الفكريتين تُعتبران ضعيفتين على نطاقٍ واسع، فهما تعتمدان إمّا على قوّةٍ لاهوتية،

وإمَّا على مبدأ «ميتافيزيقي» لشرح سلوك الدولة. وكنتيجةٍ لهذا الضعف، تحوَّل معظم الباحثين في العلاقات الدولية عن الواقعية الكلاسيكية إلى الواقعية الجديدة، التي تقبل نفس السلوك التنافسي الملحوظ للدولة، لكنها تعزوه بدلًا من ذلك إلى ضغوط «البِنْيَة الأناركية للنظام الدولي»، التي يتعيَّن بموجبها على جميع الدول أن تسعى جاهدة لامتلاك القوّة من أجل حماية نفسها؛ وذلك لعدم وجود سُلطةٍ عُليا لحراستها. وقد جادلت في الفصل الأول في أن الأوهام الإيجابِيَّة تضفي إضافة مفيدة للإطار الواقعي الجديد من خلال أخذ المفاهيم الخاطئة المسبِّبة للحرب بعين الاعتبار.

كان هناك إحياءٌ للواقعية الكلاسيكية في السنوات الأخيرة، ويمكن للأوهام الإيجابِيَّة أن تُعزِّزَ هذا الإطار كذلك. وقد جادل (فينسنت فالجر) في أن افتراض (مورغنثاو) عن وجود شهوة إنسانية من أجل السلطة قد يكون خاطئًا، لكن النظرية الناتجة لا يلزم أن تكون كذلك. ويؤكد (فالجر) في رفضه للواقعية الكلاسيكية على أنّ مُنظّري العلاقات الدولية أهملوا «أبسط أسس التفاعل الإنساني، والأساس البيولوجي للسلوك الاجتماعي، وتطوّره التاريخي». أقترح هنا أن بمقدور الأوهام الإيجابِيَّة الفردية والجماعية إعادة بناء هذا الرابط المفقود. وقد جرى تعزيز تحيّز الأفراد في نظرية الهويَّة الاجتماعية للمجموعة الداخلية وضدّ المجموعات الخارجية in-group /out-group bias باعتباره

أساسًا مُحتملًا لتفسير السلوك الأنانِيّ للدول. وتتميّز هذه النظرية بعدد مُريديها الهائل، وبأنها مدعومة بأدلّة تجريبية واسعة وشاملة، وبأنها على ما يبدو أكثر النظريات بساطة، أو اقتصادًا[1] في تفسيرها للبيانات المرصودة. ويقترح (جوناثان ميرسر) بأنّها توفّر آليّة مُحرّكة معقولة للسلوك الأنانِيّ كانت تفتقر إليها الواقعيّة الكلاسيكية: فـ «لتوضيح الطبيعة المتشدّدة والمُتمركزة عرقيًّا للمنافسة [بين المجموعات]، تفترض نظرية الهوية الاجتماعية وجود رغبة عالمية لتقدير الذات». لكن هذا مجرد افتراض ضبابي آخر لا يقدم أيّ تفسير لأصل «الرغبة العالمية» المطروحة. قد تتمكن المزايا التكيّفية للأوهام الإيجابِيَّة من سَدّ هذه الفجوة، حيث توفّر آلية تطوُّرِيّة لشرح سبب تطوير البشر لمثل هذه السِّمة النفسية الجوهريّة.

من الثّابت أن التحيُّزات النفسية المُتأصِّلة بعُمق تؤثّر على عملية صنع القرار الإنساني، بما في ذلك صُنع القرار في السياسة الدولية. بيد أن الأوهام الإيجابِيَّة ليست مجرد تحيُّز آخر يضاف إلى القائمة. إذ تعتمد النظرية المُقدّمة في هذا الكتاب على التقارب

(1) وفقًا لمبدأ الشح/ الاقتصاد، أو البساطة principle of parsimony في النماذج التحليلية، وفكرته أنه ينبغي شرح الظواهر بأكثر طريقة اقتصادية ممكنة، ممَّا يعني أنه في الوقت الذي يحتاج البحث فيه إلى تفسير الظاهرة بطرق مختلفة، فإنه يجب عدم تكرار، أو زيادة مداخل شرح الظاهرة، ممَّا يؤدِّي إلى اللغو، والحشو في الكلام. (منقول بتصرّف، المصدر: كتاب المنهج العلمي وتطبيقاته في العلوم الاجتماعية، إبراهيم أبراش، ص 39).

الواسع، والمتعدّد التخصصات في الأبحاث حول الطبيعة البشرية، وعلم النفس والحرب.

كما أنها تنتفع من تفسيراتٍ صريحة تُبيّن سبب تكيُّف هذه التحيّزات في التطوُّر البشري، وسبب تباينها في الوقت الحاضر، ولماذا ترتبط ارتباطًا محدَّدًا بالنزاع. يجعلها هذا نظرية اقتصاديّة، وقابلة للاختبار على نحوٍ استثنائيٍّ.

وقد اشتملت مهمَّتي في هذا الكتاب على ثلاثة عناصر:

**أوَّلًا**: ناقشت، بناء على أساس العمل الرائد الذي قام به كلٌّ من (ريتشارد ورانجهام، وروبرت تريفرز، ودانييل نيتل)، أن الأوهام الإيجابِيَّة كانت سِمَة تكيُّفيَّة في ماضينا التطوُّرِيّ، وكنتيجة لذلك، أصبحت جزءًا لا يتجزَّأ من النفس البشرية.

**ثانيًا**: قدّمتُ أدلّة من عمل (شيلي تايلور) والعديد من علماء النفس الآخرين بأنّ الأوهام الإيجابِيَّة منتشرة على نطاق واسع بين الأشخاص الطبيعيين، وأنها تظلّ موجودة وتتضاعف كذلك نتيجة التحيُّزات النفسية الشائعة، وأن لديها مصادر محدّدة للتباين.

**ثالثًا**: جادلت في أنَّ الأوهام الإيجابِيَّة تُسبّب الحرب. ولاختبار هذه الفَرْضِيَّة، درستُ أربع أزمات دولية من أزمات القرن العشرين. وتتفق نتائج دراسات الحالة خاصتي مع وجهة النظر العريقة، التي أكد عليها كلٌّ من (جيفري بلّيني) في السبعينيات، و(ستيفن فان إفيرا) في الوقت الحاضر، بأنَّ الإفراط في التفاؤل يُعدّ سببًا رئيسيًّا

للحـرب؛ وهـي نتيجـة لـم يكـن لها حتـى الآن أي تفسـيرٍ مُـرْضٍ. وقد أظهرت دراسـات الحالـة أنه عندما استُؤصلتِ الأوهـامُ الإيجابِيَّةُ من عمليـة صنـع القـرار، تُجُنِّبَـتِ الحرب، لكـن عندما استمرت الأوهام الإيجابِيَّـة فـي تواجدهـا لـدى صُنَّـاع السياسـة، اندفعـت الأمـمُ نحـو العنـف. ومن ثـمَّ، فـإنّ نظرية الأوهـام الإيجابِيَّـة والحرب قد تسـاعد في حَـلّ أحْجِيَـةِ الحرب.

تبـدو الأوهـام الإيجابِيَّة في العالـم الحديث ضارّة؛ كونها تشـجّع علـى الحـرب. لكن فـي حال مكّنـت حامليهـا من القتـال، أو الـرَّدْع، أو الدفـاع ضـد الأعداء بطريقـة أفضل، فربَّمـا يظلّ للأوهـام الإيجابِيَّة لـدى صُنّـاع القـرار السياسـيين والعسـكريين (وكذلك لـدى الجنود) دورٌ فـي خدمـة مصالـح الأمـن الوطنـي: حتـى وإن كنـا نعيـش فـي عالـمٍ أناركـيّ تتسـبّبُ فيـه الأوهـام الإيجابِيَّـة فـي نشـوب الحـرب، فإنهـا قـد تسـاعدنا علـى النجـاة فيـه. لكـن فـي الحـرب الحديثـة، تـزداد احتماليـة أن تُخلّـف الأوهـام الإيجابِيَّـة الخراب والدمـار. كان المبـادرون بالحـرب يميلـون فـي الماضـي إلـى تحقيـق النصـر، لكن منـذ عـام 1900؛ لحقـت الهزيمـة مـا يقرب علـى النصف منهـم. لقد باتـت عمليات القيادة، والسـيطرة، والاتصـالات اليوم تُـدارُ بعيدًا عن سـاحات المعـارك، ومن ثـمَّ، فـإن احتماليّة خضـوع الآليات النفسـية للتحديـث بواسـطة الإشـارات البيئيـة والسـلوكية علـى النحـو الـذي هيّأهـا لـه التطـور تكـون أقـلّ. ويمكـن أن تنطلـق الأوهـام الإيجابِيَّـة

دون ضابطٍ، أو رابطٍ في غياب الإفادات التي من شأنها أن تبقيها في العادة تحت السيطرة. وهناك عدَّة أسباب تجعلنا نعتقد بأنّ الأوهام الإيجابِيَّة، مثلها مثل غيرها من الأمور الأخرى التي ورّثها لنا التطور، أصبحت مُنذ فترة طويلة جزءًا لا يتجزّأ من مؤسّساتنا ومُجتمعنا، وأنّنا لا نملك في معظم الأحيان وسائل لرصدها، ولا حوافز تشجّع على تصحيحها.

نجد الأوهام الإيجابِيَّة مُتجلِّية اليوم كتجلِّيها في الحرب العالمية الثانية وفيتنام، حيث تجسّدتْ في التحدِّي المُميت لكلٍّ من طالبان و(صدام حسين) للتحالفات الغربية. من المؤكد أن قادة أفغانستان، والعراق لم يتوقّعوا أن تكون خساراتهم بتلك الفظاعة، أو أن تحدث بتلك السرعة التي حدثت بها. ما تزال القوى الغربية تعاني هي الأخرى من التفاؤل المُفْرِط في السياسة الخارجيّة. وربَّما يعود ذلك إلى أن السياسات الخارجية - بالمقارنة مع عملية صنع السياسات المحلّية - تقلّ إمكانية التحقُّق منها، وتكون أكثرَ تجريدًا في التصميم، وتُنتج إفادات أبطأ وأكثرَ تعقيدًا، وتتضمَّن عناصر أكثر غموضًا، وتنفيذًا لأهداف طويلة الأمد بدلًا من التداول بشأن الأهداف، وعادة ما تُوضع تحت ظروف ينظر إليها على أنها تهديديّة. وفي مثل تلك الظروف، يكون للأوهام الإيجابِيَّة السّيادة. وكما سنرى في الفصل الثاني، فقد ساهمت مثل هذه الأوهام في استهانة صُنّاع السياسة الأمريكيين بصعوبة خلق ديمقراطيّة مستقرة

في العراق؛ على الرغم من تحليلات ما قبل الحرب التي أشارت إلى العقبات المستقبليّة.

لكنّني، ورغم ذلك متفائلٌ حيال المستقبل، فهناك عمليات صُنع قرار سابقة كانت بمثابة منارات تسطع وسط ضباب الأوهام، الأمر الذي يوحي بأنّ تفاؤلي قد لا يكون مفرطًا. في الوقت الذي كان فيه العالم أقرب ما يكون إلى حرب نووية؛ في أزمة الصواريخ الكوبية عام 1962، كنّا كذلك الأقرب إلى حلّ المشكلة. لكن الغرور لا يموت بسهولة، وسرعان ما ننسى دروس الماضي. ووفقًا لـ(ريتشارد ليبو)، فإنّ «العلاقة الشخصية» التي طوّرها (كينيدي، وخروشوف) خلال الأزمة كانت أحد العوامل الرئيسية التي سهّلت التوصّل إلى حلٍّ سلمي في عام 1962. «فبحلول نهايتها،» يؤكد ليبو، «كانا قد أصبحا حليفين بقدر ما كانا خصمين؛ يكافحان ضدّ المتحمسين للحرب لديهما، وضد الضغوطات المتصاعدة التي تدفع بهما نحو خَوْضِ مواجهة عسكريّة. وليس من المغالاة القول إنّه من خلال آليّة الصفقة بين القطاعين العام والخاص، فإنه قد وصل بهما الحَدُّ إلى التآمر ضدّ الخصوم الداخلية لكل واحد منهما». كان هذا التحالف الغريب ضروريًّا لهزيمة العدو الحقيقي؛ الخراب الذي تدفعنا نحوه الثقة المُفْرِطَة المُتفلّتة بكلِّ حتميَّة: الحرب نفسها.

# الفصل الثامن

# العراق 2003

**«إنَّ أهداف (بوش) طموحة على نحوٍ استثنائِيّ، إذ إنها لا تقتصر على إعادة تشكيل السياسة الدولية فحسب، بل والمجتمعات المتمرّدة كذلك، وهو ما يُنظر إليه على أنّه غايةٌ في حَدّ ذاته، ووسيلة للأمن الأمريكي. وفي مطلق الأحوال، جيّدة كانت أم (و؟) سيئة، فإن الولايات المتحدة قد وضعت على عاتقها مهامّ تتجنّبها الدول الحصيفة.»**

**[روبرت جيرفيس]**

**«اتّضح أن بعضَ الافتراضات كانت تقلّل من شأن المشكلة.»**

**[بول وولفويتز، 23 يوليو 2003]**

لا يبدو أن النزعة البشرية القديمة قِدَم الدّهر إلى الحرب تُظهر أيّة علامات على التراجع. والحقيقة أنّ هناك «استمرارية مُقلقة لحالة الحرب»، مع اقتراب عدد القتلى في ساحات المعارك من مليوني قتيل تقريبًا في كلّ عقد منذ الحرب العالمية الثانية، وقد كان عقد التسعينيات «واحدًا من أسوأ العقود في التاريخ الحديث»؛ مع نشوب 31 حربٍ جديدة. وتشمل الحروب الأخيرة دولًا مختلفة حول العالم؛ من الكونغو إلى كشمير، ومن الشيشان

إلـى أفغانسـتان والعـراق. تُعـدّ هـذه الصراعـات حديثة للغايـة بحيث لا يمكـن تحليلهـا علـى نطـاق واسـع كمـا هـي الحـال في دراسـات الحالـة خاصّتـي، كمـا أن المشـاعر المرتبطـة بهـا مـا تـزال قويـة جِدًّا بحيـث لـم يتطـوّر بعـد أيّ إجمـاع بيـن المؤرخيـن، أو الباحثيـن فـي العلاقـات الدوليـة. لكننـي أعتقد أنـه ليس من السـابق لأوانـه التحقّق ممَّـا إذا كانـت الأوهـام الإيجابِيَّة والثقـة المُفْرِطَة مسـتمرّين في التأثير علـى العلاقات الدولية، أو بشـكلٍ أكثر تحديدًا، ما إذا كانتا مسـتمرّتين فـي التشـجيع علـى الحـرب. ولفعـل ذلـك، فإنني سـألقي نظـرة على أحدثهـا: حـرب العـراق التـي بـدأت في مـارس من عـام 2003.

ووفقًـا لمعايير دراسـات الحالـة في الفصـول السـابقة، فينبغي أن تتضمَّـنَ حـرب العـراق بعضًـا مـن الأوهـام الإيجابِيَّة، فعلـى الجانب العراقِـيّ، كانـت هنـاك سـنوات عديـدة مـن التفاعـل مـع الولايـات المتحـدة، وكانـت هنـاك خيـاراتٌ أخـرى غير الحـرب (مثـل التعاون مـع مفتّشـي الأسـلحة)، وكان ينبغـي أن تكـون التقييمـات المتعلقـة بالنتائـج المحتملـة للحـرب بسـيطة؛ نظـرًا إلى كـون العراق قد خسـر فـي حـرب الخليـج عـام 1991، وكان النموُّ الهائـل للقوة العسـكرية الأمريكيـة فـي العقـد التالـي، مقابـل تراجـع القـوّة العراقيّـة، أمـرًا معرَوفًـا علـى نطاقٍ واسـع.

أمـا علـى الجانـب الأمريكي، فقـد كانت هنـاك فترة طويلـة لتقييم السياسـة تُجـاه العـراق، وكانت هنـاك بدائل للحـرب، وكانت قدرات

الاستخبارات الأمريكية (بصرف النظر عن جودة تفسيرها) في أعلى مستوياتها.

ومع ذلك، توجد دلائل تثبت إظهار الجانبين لأوهامٍ إيجابية، وبالأخصّ؛ الزعيم العراقي (صدام حسين) الذي أظهر فرطًا استثنائِيًّا في ثقته بأن بوسعه المخاطرة بخوض حرب. وحتى وإن لم يكن يتوقع النصر، فمن الجَلِيِّ أنّه استهان بالتحالف الذي كان خصمًا له. وفيما يبدو أنه اعتقد أن الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) كان يخدعه فحسب، وأن ضغوطات السياسة الداخلية للولايات المتحدة، أو المجتمع الدولي ستمنع وقوع الحرب، أو تُحجّمها قبل أن يطال بغداد أيّ تهديد حقيقي، أو حتى وإن فشل كل ذلك، فإنه سيكون قادرًا، بطريقةٍ ما، على التشبّث بالسلطة. وإلّا فلِمَ عساه أن يقود بغداد بكلّ هذا التعنت، والتهور في مسار التصادم نحو الحرب؟ من غير المعقول افتراض أنّه قد هيَّأ نفسه وحسب لحقيقة تعرُّضه للهزيمة، وخسارته لأفرادٍ من أسرته، وتعريض حياته للخطر، ورؤية بلاده تُحتلّ على يد جنود أمريكيين. كان (صدّام) قد عبّر لعقود عن رغبته في البقاء على قيد الحياة وتمسّكه بمقاليد الحكم، ووفقًا لأحد التحليلات، فقد «كان هذان الهدفان في غاية الأهمّية» بالنسبة له. لقد كان بمقدوره تجنّب الحرب من خلال تقديم المعلومات حول حالة برامجه لإنتاج أسلحة الدمار الشامل، وتوفير الوصول الكامل لها.

يمكن للأوهام الإيجابيَّة تبيين سبب قيامه بهذه المخاطرة الكارثية، وبالأخصّ نظرًا لأنَّ احتماليّة تصحيح معتقداته الخاطئة في ظلّ نظامه الاستبداديّ، والذي كان يفتقر إلى جميع مظاهر النقاش المفتوح، كانت ضئيلة.

أمَّا على الجانب الأمريكي، فقد استغرقت الدوافع الأساسية وقتًا طويلًا في الظهور، وكانت في أصلها عقلانيّة (أما كونها مبرّرة أم لا فهي مسألة أخرى). ففي نظر (بوش) ومستشاريه، الذين أعلنوا الحرب على الإرهاب بعد تفجير بُرجي التجارة العالميين في سبتمبر من عام 2001، فقد كان رفض العراق الامتثال لقرارات الولايات المتحدة يتطلب اتِّخاذ إجراءات؛ حتى وإن كانت تلك الإجراءات تشمل الحرب. كان وزير الدفاع الأمريكي (دونالد رامسفيلد)، قد قال للجنة القوات المسلحة بمجلس الشيوخ: «لم يتّخذ التحالف إجراءات في العراق؛ بسبب وجود أدِلّة جديدة مُثيرة تشير إلى سعي العراق للحصول على أسلحة قتلٍ جماعي، بل لأننا رأينا هذه الأدِلّة من زاوية جديدة، وعبْر منظور تجربتنا في الحادي عشر من سبتمبر». لقد اعتقد القادة الأمريكيون أنَّ (صدام)، الذي استخدم أسلحة كيماوية في الماضي، لن يتوانى عن استخدام أسلحة الدمار الشامل، أو تزويد الإرهابيين بها في المستقبل. وعلى المستوى القريب، كان بمقدور صُنّاع السياسة في الولايات المتحدة اعتبار سياسة الحرب خيارًا قابلًا للتطبيق، نظرًا

لإيمانهم المتأصّل بتفوّق دولتهم العسكري. كان التفوق الأمريكي التقني، والتنظيمي جليًّا، وكما نعلم الآن، فقد كان الغزو نفسه انتصارًا عسكريًّا ساحقًا.

لكن دائمًا ما كان يمثّل الغزو أسهل مراحل التدخّل في العراق. كانت الحرب لتكون خيارًا منطقيًّا فقط في حال تكلّل البِناء اللَّاحق للأمة بالنجاح كذلك. لقد كانت هذه المهمة الأوسع، التي حتى كتابتي لهذا الكتاب أبعد ما تكون عن التحقّق، تعاني من المصاعب والعراقيل. وبينما يجب على المرء الحرص على عدم إطلاق الأحكام على الماضي من منظور الحاضر؛ فمن الواضح أنّ سياسة الولايات المتحدة قد عكست توقّعاتٍ وافتراضاتٍ مُفْرِطة في التفاؤل - بشأن الحرب نفسها، وعلى الأخصّ؛ بشأن الاحتلال الذي سيتبع الحرب - التي تعارضت مع عدد من التقييمات المعاصرة وقتئذ.

وعلى ما يبدو أن تلك الافتراضات المتفائلة قد أسهمت بشكلٍ مباشرٍ في اتّخاذ قرار الحرب (أو على الأقلّ في الاعتقاد بأن الحرب تستحق المخاطرة). أضف إلى ذلك أن الأخطاء الناجمة عن فرط الثقة قد فاقمت من تكاليف مسعاهم ذلك؛ وهي تكاليفُ شملت الأوقات والأرواح، والأموال، والعلاقات الدبلوماسية، والحماس للديمقراطية. وعلى حَدِّ تعبير الصِّحَافِيّ (جوشوا مارشال)، فإنَّ «إدارة بوش قد بالغت إلى حَدٍّ كبير في حجم

الخطر الذي يشكّله (صدّام) وفي قُرب وقوعه، بينما استهانت استهانة بالغة بالتكاليف والأعباء التي تأتي مع الاحتلال الذي يعقب الحرب». كيف يمكن للولايات المتحدة الديمقراطية، بكلِّ ما لديها من ضوابط وتوازنات، أن تنساق هكذا وراء ضلالات المعلومات الاستخباراتية التي سبقت الحرب؛ ومن ثمَّ تفشل في التخطيط لضروريات الاحتلال التي تنبّأت بها دراسات عديدة؟

قد تبدو الاتهامات بالإفراط في الثقة، وكأنها انتقاداتٌ نمطِيّة لإدارة (بوش)؛ لكنَّ اتهاماتي ليست جدالًا سياسِيًّا. لقد كان لصقور اليمين المتحمسين للحرب مصلحة في إقناع الدول الأخرى بالتعاون دون وجود خيار الحرب بقدر ما كان للمسالمين اليسار من مصلحةٍ فيه. وعندما يكون الهدف احتواء «الدول المارقة» على نحوٍ فعّال، والحفاظ على تهديدٍ رادع ذي مصداقية، تكون نتائج الإخفاقات في تلك الحالة كارثيّة. وعندما تأتي الحرب حقًّا، يُظهر كلا الطرفين السياسيين رغبة في شَنِّ الحرب بالطريقة الصحيحة. ويعدُّ وجود الثقة المُفْرِطَة في حالة حرب العراق؛ في حال كانت موجودة، أمرًا سيِّئًا للولايات المتحدة (ككُل) وللعالم بأسره، وليس فقط للرئيس (بوش) وأعضاء إدارته. وينبغي أن يشعر الأشخاص الذين ساندوا الحرب بخيبة الأمل بسبب صعوبة مرحلة ما بعد الحرب وتكاليفها، بقدر الخيبة التي شعر بها أولئك الذين لم يساندوها؛ إذ كانت الوعود بالنجاح، وبالتكاليف

الاقتصاديـة، والعسـكرية المنخفضـة عناصـر أساسـية فـي تبريرهـا. أضِـفْ إلـى ذلـك أن نجاح الحـرب لـم يكـن ليُقَـدّم سـوى فرصـة ضئيلة لخلق ديمقراطية في الشـرق الأوسـط، وأن فشـلها كان سـيعني فُرصـة مهـدرة، وتجربـةً لـن تتكـرّر لوقـتٍ طويـل جِدًّا.

## فَرْطُ الثِّقَةِ العِرَاقِـيّ

يعتبـر اسـتعداد (صـدام) الجَلِـيّ لخـوض حـرب جديدة فـي عام 2003 مفاجئًـا للغايـة؛ نظـرًا للهزيمـة التـي لحقت به في عـام 1991. ربَّمـا كنّـا لِنعتبـر قـراره بالقتـال منطقيًّـا لـو أنـه كان ينـوي شَـنّ هجـومٍ مُضـادٍّ واسـع النطـاق بأسـلحة الدمـار الشـامل؛ لكـن مـا من دليـلٍ يُذكـر علـى أنـه كان يمتلك أيّ أسـلحة من هـذا القبيـل؛ ناهيك عـن انتشـارها، وجاهزيتها للعمل (علـى الرغم من احتماليـة أن يكون هنـاك مـن قـاده، علـى نحـو مضلّـل، للاعتقـاد بذلـك). كنـا سـنعتبر القـرار منطقيًّـا كذلـك لـو أنـه كان يتوقَّع حـرب عصابـاتٍ تُطـوّل أمَدَ الحـرب بمـا يكفي لجعل الجهـات الفاعلـة الأخرى تُطالـب بإنهائها؛ ولكـن مـرة أخـرى، يبـدو أن المقاومـة القويـة بمـا يكفـي لتسـمح له البقـاء فـي السـلطة كانت مَحْـضَ توقّـع مُفْـرِط فـي التفاؤل.

ويشـير ماضـي (صـدام) إلـى أنَّ إطـلاق توقّعـاتٍ مُفْرِطَـة فـي التفـاؤل بالنصر كان من شِـيَمه. ووفقًـا لـ ( لورنس فريدمـان) من كلية الملـك في لنـدن، فـإن «الحـروب الوحيدة التـي انتصر فيهـا (صدام)

كانت تلك الموجّهة ضدّ شعبه. لقد أخطأ في تقديره عندما غزا إيران عام 1980، ثمّ مرة أخرى عام 1990 عندما غزا الكويت».

ومع ذلك، فقد نجا في كلّ مرة كي يعيد كَرّته بخلق مثل هذه العداوات. يبدو من المحتمل، كما يشير (فريدمان)، أن (صدامَ) كان يخطط بتفاؤل في عام 2003 لخوض الحرب بطريقة تجعلها مُكلفة للغاية، بحيث لا تكون السياسات الداخلية الأمريكية قادرة على تحمّلها؛ الأمر الذي كان يأمل بأن يفعله عام 1991: «كانت الفكرة تتمثل في جَرِّ الأمريكيين لتكبُّد خسائر في أرض المعركة تكون فادحة، وغير محتملة سياسِيًّا، لكنه لم يكن يملك أيَّ رَدٍّ على القوّة الجوية الأمريكية التي دقّت قواته حتى لاذت بالفرار، وتدهورت معنوياتها، كما كان يفتقر إلى قدرة الجيش الأمريكي على المناورة بقوّاتٍ كبيرة؛ لذا كانت الهجمات البرِّيَّة تأتي من جهاتٍ غير متوقّعة. من الأخطاء التي ارتكبها كذلك أمله في أن ينقسم الائتلاف الجوهري ضده، مُستخدمًا صواريخ سكود لتخويف السعوديين، في الوقت نفسه الذي كان يحاول فيه استفزاز إسرائيل للقيام بردٍّ فعلٍ تأديبيٍّ.

ربَّما كان يتوقع (صدام) أن تنجح هذه الاستراتيجية على نحوٍ أفضل في عام 2003 من عام 1991؛ نظرًا لأن جند العدو سيضطرون لدخول مُدنٍ مثل بغداد، التي ربما تكون حالة الحرب قد حولتها إلى ستالينغراد حديثة، فتلحق به خسائر فادحة. وفيما

يبدو أنه كان يتوقع تخريب خطوط الاتصالات والإمداد الأمريكية كذلك، وهو تكنيك نجح إلى حدٍّ ما، لكن وكما أشار لاحقًا (فريدريك كاجان) من الأكاديمية العسكرية الأمريكية في ويست بوينت، فإن صدام «كان قد استهان بقُدرة [الولايات المتحدة] على الرَّدِّ حتى على هذا المستوى شبه التكتيكي؛ بقواتٍ في مقابل قوّات». وكما أشار مراسل صحيفة الواشنطن بوست لدى البنتاغون (توماس ريكس)، فإن العراقيين «قد ذُهلوا من سرعة التقدّم الأمريكي، إذ لم يكونوا يعتقدون بأن ذلك مُمكنٌ حقًّا. لقد سبق أن شاهدوا القتال الأمريكي. كانوا يعلمون أنهم ماهرين للغاية. لكن في الوقت نفسه، أعتقدُ أنهم فوجئوا حقًّا من سرعة ظهور القوات الأمريكية عند حدود بغداد». وكان الجنرال (رعد الحمداني)، قائد الحرس الجمهوري لصدام في جنوب العاصمة، قد ادّعى أن لدى قوّاته ما يكفي من الذخيرة للاستمرار في القتال من ستة أشهر إلى سنة، وأنه يتوقع شخصيًّا أن يستمرَّ النزاع من شهرين لثلاثة أشهر، و«أن يتحوّل العراق إلى فيتنام أخرى. كنتُ أعتقد أن القوات الأمريكية غير قادرة على الاقتحام، والقتال وجهًا لوجه، وأن لدينا كفاءات للتأثير على العدوّ على نحوٍ يفوق ذلك الذي رأيناه بالفعل».

ومهما كانت استراتيجية (صدام)؛ فينبغي أن يكون واضحًا أنه لم يكن يتوقع الخسارة بهذه السهولة؛ إن لم يكن على الإطلاق.

لـمَ عسـاه أن يسـتمرَّ فـي تحـدِّي مطالـب الولايـات المتحـدة إن كان يتوقّـع الدّمـار لنظامـه؟ في السـنوات الأخيـرة، كانت العقوبـات التي فرضتهـا الأمـم المتحـدة قـد تخفّفـت نتيجـة برنامـج النفـط مقابـل الغـذاء، وكانـت احتماليّـة رفعهـا بالكامـل فـي ازديـاد. وفـي الوقـت نفسـه، كانـت عمليـات تفتيش الأسـلحة قـد انتهـت فعليًّـا (والحقيقة أن صـدام، وكمـا نعلـم الآن، لـم يكـن يخفـي الكثيـر؛ إن كان لديه ما يخفيـه أصـلًا). كانت الأمور تسـير على ما يرام بالنسـبة لــ (صدام)، وكان بمقـدوره الحفـاظ علـى تعافي العـراق. وكتب (كينيـث بولاك) - المحلـل السـابق بوكالـة الاسـتخبارات المركزية - يقـول: «لم يكن هنـاك مـا يضطـر (صـدام) لتغييـر وجهـة النظر هذه سـوى فـي 2002 عندمـا صبّـت إدارة (بـوش) اهتمامهـا فجـأة علـى العـراق. وبعدهـا، ووفقًـا لمجموعـة متنوعـة مـن المصـادر العراقيـة، رفـض (صـدام) ببسـاطة تصديـق جدِّيَّـة الأمريكييـن، واسـتعدادهم للغزو»؛ لـذا يبدو أنـه كان مفرطًـا فـي ثقتـه؛ أوَّلًا بشـأن أنـه لن يتعـرض للهجـوم، وثانيًا بشـأن أنـه حتـى وإن تعـرض للهجـوم، فإنـه لـن يتأثـر كثيـرًا، وذلـك لمجموعـةٍ مـن العوامـل؛ كالمقاومـة العراقيـة، والسياسـة الداخليـة الأمريكيـة، والغضب فـي الدول العربيـة الأخرى، والسـخط الدولي، وخـوف المخططيـن العسـكريين مـن أنّ لديـه أسـلحة دمـار شـامل، وأنـه يعتزم اسـتخدامها.

# فُرْطُ الثِّقَةِ الأَمْرِيكِيّ

لا يتمثل اللغز الرئيسي لدى الجانب الأمريكي في أنّ صُنَّاع القرار كانوا مفرطين في ثقتهم بشأن هزيمة العراق عسكريًا (قلَّة من الناس كانوا يشكّكون في قدرتهم على القيام بذلك)، بل في أنهم كانوا مفرطين في ثقتهم بشأن الهدف العام، الذي كان يتضمن إعادة بنائه (أي العراق) مرة أخرى بعد ذلك. هذه هي المهمة التي يتعيَّن علينا أن نحكم على سياسة الولايات المتحدة بسببها. كانت مجموعة من التحليلات التفصيلية (بما في ذلك مشاريع من: وزارة الخارجية، والكلية الحربية التابعة لجيش الولايات المتحدة، والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، ولجان الكونغرس، والباحثين المُستقلّين) قد حذّرت من التكاليف السياسية والعسكرية والاقتصادية للحرب على العراق. حتى إن كانت بعض التحليلات تنزع إلى المبالغة نحو الاتجاه المعاكس، وكان بعضها الآخر خاطئًا، فإن حجمها وتوافقها وتبصّرها يجعل من الصعب أن نجادل اليوم في أنّ الإدارة الأمريكية لم تكن مُفرطة في الثّقة إلى حدٍّ ما، وكانت التقارير الحكومية ومناورتها الحربية نفسها قد أبرزت المُشكلات، ونصحت عمومًا بالحذر، بيد أن الإدارة قلّلت من أهمية هذه التقارير ونصحت عمومًا باتّخاذ إجراءات.

كان جزءٌ من الثقة الظاهرية بأن الولايات المتحدة قادرة على تحقيق أهدافها عبارة عن تكتيك لحشد التأييد في أوساط الرأي

العام والصحافة الغربية، ولإقناع الجماهير الأخرى - لا سيما العراقيين - بأن نظام (صدام) لم يكن لديه أمل في النجاة. ومع ذلك، وعلى الرغم من أن التصريحات العامة قد عكست مراوغات، لا محتوًى جوهريًّا، تظهر عدّة حقائق بأن ثقة القادة الزائدة كانت اعتقادًا أصيلًا كذلك. وتشي هذه الحقائق الموضّحة أدناه بتوقّعات كبيرة يستحيل أن تكون مَحْضَ نتيجة للضجة الإعلامية، أو المراوغة السياسية.

إنّ عملية النقل الهائلة لقوات التحالف، والمُعدّات إلى الشرق الأوسط قبل بدء الحرب تعني أن المشاحنات الدبلوماسية المتزامنة في الأمم المتحدة كانت إلى حَدٍّ كبير مسرحية؛ أن الولايات المتحدة كانت تنوي غزو العراق سواء أوافقت الأمم المتحدة على ذلك أم لا. كان يمكن اعتبار ذلك النشر مجرّد خدعة تهدف إلى معاونة الجهود الدبلوماسية، لكن النطاق الهائل للحشد يشير إلى أنّ الحرب كانت لتحدث؛ ومن طرفٍ واحد إذا لزم الأمر. وكما قال (روبرت جيرفيس): «في النظام الأمريكي المَسَامي... يستلزم الاستعداد للحرب حشدًا عسكريًّا، وسياسيًّا ونفسيًّا مكثّفًا لدرجة أنّه وحده القائد العازم على تنفيذ التهديد هو من سيكون مستعدًّا عَلى الأرجح لحشد الجهود اللازمة». إن الاستعداد المُحدّد مسبقًا للولايات المتحدة (والمملكة المتحدة) للدخول في الحرب، على الرغم من اعتراض فئات كبيرة من الرأي العام والرأي

العالمـي، يعنـي أن قـادة الدولتيـن كانوا واثقيـن من أن الحـرب مُبرّرة وفقًـا لمعاييرهـم ( أنَّ تدميـر أسـلحة الدمـار الشـامل العراقيـة، ونظام (صدام) كانت أسـبابًا مشـروعة لشـنّ الحرب)، وأنهم سـينجحون في إنشـاء عـراقٍ آمـن، ومسـتقرّ، وديمقراطـيّ. كان ذهابهـم إلـى الحرب دون إيمانهـم الأصيـل بهـذا الأمر سـيكون بمثابـة انتحارٍ سياسِـيٍّ.

إن الافتـراض بـأنَّ تنصيـب ديمقراطيـةٍ علـى النمـط الغربـي، وسُـوقًا حـرًّا فـي العـراق يسـتحق التكاليـف الهائلـة، كمـا يذكـر (جيرفيـس) فـي مقـال حـول «مذهـب بـوش» الأوسـع، «لهـو اعتقاد سـائد بيـن الـدول القوّيـة، ومفـاده أن قيـم تلـك الـدول عالميـة، وأن انتشـارها سـيعود بالفائـدة علـى العالم أجمـع». ووفقًا لـ (جرفيس)، فـإنّ التجارب السـابقة «تجعلنا نُشـكّك فـي الروابط بيـن الديمقراطية والأسـواق الحـرة، إذ يمكـن لـكلّ واحـدة منهـا أن تقـوّض الأخـرى بسـهولة. لكـن هـذه الشـكوك لا تحجـب التصريحات الملموسـة، أو حتـى التعليقـات غير الرسـمية لكبـار المسـؤولين. يبـدو أن الولايات المتحـدة لديهـا الآن سياسـة خارجيـة قائمة علـى الدِّين». وقـد اقترَح عـددٌ مـن الكُتَّـابِ أنّ مثـل هـذه الاسـتراتيجية الأمريكية سـتجلب في النهاية الدمار على نفسـها. ويجادل الفيلسـوف السـلوفيني (سـلافوي جيجـك) فـي أن مذهـب (بـوش) يتضمّـن أهدافًا غير متوافقـة جوهريًّا (نشـر الديمقراطيـة، وتأكيـد الهيمنـة الأمريكيـة، وتأميـن إمـدادات النفـط)، وسـيجعل عـدم الاتّسـاق هذا مـن النجـاح مُتعذّرا.

أبدت إدارة (بوش) كذلك فرطًا في الثقة بشأن الحلفاء المحتملين؛ إذ توقّعت حصولها على دعم الدول في أوروبا الغربية، وفي أماكن أخرى. كما أنهم اعتبروا تعاون تركيا تلقائِيًّا تقريبًا؛ فقبل فترة وجيزة من الغزو، ذكر (ديفيد سانجر) في صحيفة النيويورك تايمز أن أعضاء الإدارة «لم يبدو أيّ شَكٍّ في أنّ الدبابات والقوات الأمريكية ستتَّخِذُ مواقعها على طول الحدود التركية مع العراق خلال بضعة أيام». يتذكّر (ريسك) «الناس وهم يقولون لي في البنتاغون لا تقلق، سينضمّ الأتراك إلينا في نهاية المطاف... تمامًا كما انضموا إلينا عام 1991... أظن أن الحكومة الأمريكية كانت تعتقد حقًّا بأن الأتراك سيغيّرون رأيهم في نهاية المطاف». وعندما صوَّتَ البرلمان التركي ضد السماح للقوات الأمريكية بعبور الأراضي التركية، اضطروا إلى إلغاء ذراعٍ كامل من جيش الغزو.

من الواضح أن هذا الأمر نشر القلق بين عدد من المخطّطين العسكريين والمدنيين، ومع ذلك؛ انطلقت الحرب. نعلم الآن أن مشاركة تركيا لم تكن ضرورية لتحقيق النصر العسكري، لكن غيابها وضع عبئًا ثقيلًا على عاتق قوات الغزو المُتبقية، وربّما كان سَببًا في بعض المشاكل التي وقعت في وقتٍ لاحق. لو أنّ تركيا وافقت على الانضمام، لتمكّنت قوات التحالف التي تهاجم من الشمال من المرور عبر «المثلث السنّي»، وهو معقل المتمردين

الـذي تُـرك بدلًا مـن ذلـك ليتفاقـم، ويُصبـح أكثـر المناطق عنفًـا بعد انتهـاء القتال الرئيسـي.

كان القـادة المَدَنِيّـون للولايـات المتحدة، والمملكـة المتحدة قد صرّحـوا بـأن العراق يمتلـك أعدادًا كبيرة من أسـلحة الدمار الشـامل، وأن تلك الأسـلحة تشـكل تهديـدًا وشـيكًا. بات من الواضـح الآن أن هـذه المزاعـم كان مبالغًـا فيهـا بشـكلٍ كبيرٍ؛ علـى الرغم من اسـتمرار الجـدل حـول مـا إذا كانت المبالغـة مُتعمّـدة، كطريقـة للحصول على الدعـم للحـرب، أو غير متعمّدة، وكانـت مجرّد تعبير عـن المعتقدات الحقيقيـة للقـادة. لا يمكـن أن يُعْـزَى عـدم التوافـق هذا إلـى خلل في الاسـتخبارات وحسب.

كانـت المعلومـات الاسـتخباراتية قاصـرة فـي بعـض النواحـي، لكـن المشـكلة الأعظـم كانـت قـراءة صُنّـاع القـرار لهـا علـى نحـوٍ متحيِّـز، وانتقائـي. وبالنظـر إلـى أن الحـرب ستكشـف - بمـا لا يـدع مجـالًا للشَّـكِّ - وجـود أسـلحة الدمـار الشـامل مـن عدمـه فـي العـراق، فـإن التكاليـف السياسـية للمبالغـة المتعمـدة فـي حجم هـذا التهديـد سـتكون مُكلفـة للغايـة (حسـبما كان موضّحـا منذُئِـذٍ). وبالتالـي، وكمـا يُلخّـص (مايـكل إليـوت) مـن مجلـة التايمـز: فإنـه «ما من شـكّ في أنّ العديد مـن الخبراء البريطانييـن والأمريكيين كانوا يعتقـدون حقًّـا بـأن (صـدام) كان يمتلك على الأقـل أسـلحة كيميائية وبيولوجيـة؛ مـن المؤكـد أنّ الحكومـة البريطانية لـم تكـن لتخاطر قط

بشنٍّ حرب ليس لها بشعبية لو أنها لم تكن تعتقد فعلًا بإمكانية العثور على شيء مميت في العراق». ويتفق (جيرفيس) مع هذا الرأي، حيث يقول: «في حين تبقى أمور كثيرة غير واضحة، فإنّ الولايات المتحدة وبريطانيا لم تبالغا في العلن فقط، بل بالغوا كذلك فيما بينهم في تقدير حجم أسلحة [صدام] للدمار الشامل، ووفقًا لـ (ريكس)، فقد كان لدى القوات الموجودة في الجبهة، التي كانت تعدّ العدة دائمًا لحرب كيميائية، «عقيدة راسخة منتشرة بين أفرادها بأن [أسلحة الدمار الشامل] ستُستخدم بالفعل»، و«كان الضبّاط يؤمنون بذلك حتى النخاع».

وبعد وصول الاحتلال لمرحلة متقدّمة، ظلّ بذل الكثير من الجهود والأموال في سبيل تحديد موقع الأسلحة المفقودة مستمرًّا. من الواضح أن قادة التحالف كانوا مُفْرطين في ثقتهم بوجودها. ويعدُّ هذا أوضح مثال على إهمال القادة للمعلومات الاستخباراتية لصالح الافتراضات المُسبقة، لكنه ليس المثال الوحيد؛ إذ تصادمت السياسات مع الاستخبارات في مجالات أخرى كذلك. وكان (رامسفيلد) قد صرَّحَ في سبتمبر من عام 2002 بأنّ هناك أدِلَّة «متينة» على صلة العراق بالقاعدة. يُنظر الآن إلى أيّ رابط من هذا القبيل على أنّه خيالي تمامًا؛ وهذا ما قاله كثير من الخبراء الاستخباراتيين حينئذ. ما كان يبدو متينًا بحقّ هو ميل قادة الولايات المتحدة للتأكيد على دقَّة التقارير الاستخباراتية

التي تدعم افتراضاتهم، في حين يعتبرون تلك التي لا تدعمها غير دقيقة.

بل إن إدارة (بوش) أنشأت وكالتها الخاصة المعنيّة بهذا الشأن في البنتاجون (مكتب الخُطط الخاصة) لإجراء تقييمها الخاص للمعلومات الاستخباراتية. ويجادل بولاك بأن التقييم تضمّن «اختيار التقارير التي تدعم موقف الإدارة السابق، وتجاهُل البقية». ونتيجةً لذلك، قضى محَلِّلو الاستخبارات الذين لا يعملون في مكتب الخطط الخاصة «قدرًا هائلًا من الوقت في محاربة المعلومات الخاطئة، ومحاولة إقناع مسؤولي الإدارة بعدم وضع السياسات بناء عليها». وكان مكتب الخطط الخاصة يُرسل تحليلات تجريميّة ( التي تضمنت أحيانًا معلومات أوَّلِيّة غير مؤكّدة) إلى أعضاء مجلس الوزراء مباشرة. والأسوأ من ذلك أنّ هذا التدفُّق غير المعتاد للمعلومات قد أدَّى في بعض الأحيان إلى الإدلاء بتصريحات علنية حول «حقائق» كان الخبراء الاستخباراتيون يعلمون أنها خاطئة، أو مشكوك فيها. كانت هذه العملية المعيبة تنطبق على المعلومات المتعلقة بكل من أسلحة الدمار الشامل، والمشكلات المُحتملة للاحتلال. ويخلص بولاك إلى قوله: «على حَدٍّ علمي، فإن أولئك الخبراء [من الإدارة] كانوا مذنبين، لا بالكذب، بل بالإغفال المُبتكر. لقد اقتصرت نقاشاتهم على تلك العناصر من التقديرات الاستخباراتية التي تخدم قضيّتهم».

ومن الأمثلة على ذلك الادِّعاء بأن العراق قد يمتلك سلاحًا نوويًّا خلال عام. كان هذا القلق قد ظهر في التحليلات الاستخباراتية كاحتمالية؛ ولكن فقط في حال تمكن العراق من الحصول على مادة انشطارية من الخارج، وهو سيناريو كان يُعتبر مُستبعدًا للغاية. ويعيدنا هذا الاستخدام التمييزي للمعلومات إلى عمل عالم النفس (ديفيد دونينج) الذي يُظهر أن خلق الأوهام الإيجابيَّة، والحفاظ عليها، وتعزيزها يكون من خلال انتقاء المعايير، والمواضيع التي تخدم مصالح الفرد الشخصية. ويشير (كاجان) إلى أنّنا «قد صببنا جامّ تركيزنا على الأمر الوحيد الذي نعلم أن بمقدورنا فعله؛ وهو تدمير الجيش العراقي، ولم نفكر كثيرًا في الشيء الوحيد الذي كان سيشكل فعله مهمة صعبة حقًّا؛ وهو الانتقال إلى الديمقراطية».

## كيف أدَّتْ خُطّة الحربِ إلى تقويضِ الاحْتِلال؟

أدَّى التفاؤل المفرط في التخطيط للحرب - حول عدد القوات اللازمة والأمور التي يُحتمل مواجهتها بعد النصر العسكري - إلى التسبّب في العديد من إخفاقات مرحلة الاحتلال. وكان مذهب (رامسفيلد) المُتمثّل في استخدام قوات صغيرة ذات قدرة عالية على المناورة، إلى جانب قصفٍ جَوِّيٍّ ساحقٍ، قد أثبت نجاحه في تحقيق انتصارات عسكرية سريعة (في أفغانستان والعراق على حَدٍّ سواء)، لكنه تضمّن إفراطًا خفيًّا في التفاؤل بشأن ما ستواجهه

تلك القوات نفسها في اليوم التالي للانتصار. وفي مرحلة التخطيط، كان المسؤولون يقلّلون من شأن المشكلات التي يحتمل مواجهتها بعد الحرب، ويرجع ذلك جزئِيًّا إلى الرغبة في حشد الدعم لشَنِّ الحرب. ويلاحظ (جيمس فالوز)، الذي قام بتحقيقٍ مُفصّل في عملية التخطيط، بأن الموظفين في مكتب (رامسفيلد) قد رَأَوْا على ما يبدو أنّ «التخطيط لما بعد الحرب يشكل عقبة أمام الحرب؛ وذلك لأن التفكير المُفصّل حول الوضع بعد الحرب يعني مواجهة التكاليف والمشاكل المُحتملة... ويمكن أن يُعتبر هذا الأمر مسعًى مُناهضًا للحرب»؛ لذا كان التمني أمرًا حتمِيًّا تقريبًا؛ فأولئك الذين كانوا عازمين على خوض الحرب (بغضِّ النظر عمَّا سيحدث في الأمم المتحدة) كان عليهم افتراض أن عواقب الحرب ستكون إيجابية.

ووفقًا لـ (كاجان)، فقد « كانت المشكلة في الساعات والأيام الحاسمة التي تلت انتهاء القتال الكبير تتمثل ببساطة في عدم امتلاكنا لما يكفي من القوّات، وفي كون القوات التي كانت لدينا غير مُدرَّبة على الانتقال من حالة الحرب إلى حالة حفظ السلام، وفي عدم وجود خطّة واضحة لكيفية تطبيق حفظ السلام». وقبل الحرب، أدرك الكثيرون في الجيش الأمريكي أن أعدادًا كبيرة من القوّات ستكون ضروريّة لضمان سيادة القانون والنظام بعد النصر. وقد عبّر الجنرال (إريك ك. شينسكي)، رئيس أركان الجيش، عن

هـذه الحاجـة إلـى لجنـة تابعـة لمجلـس الشـيوخ فـي فبرايـر 2003، مسـتندًا إلـى تقاريـر كلية الحـرب الوطنيـة، وغيرهـا من التقاريـر التي تشـير إلـى أنه سـتكون هناك حاجـة إلى مئـات الآلاف مـن الجنود في أعقـاب النصر مباشـرة.

وردًّا علـى ذلـك، صـرّح نائـب وزيـر الدفاع (بـول وولفويتـز) أنه كان «مـن الصعـب تخيّـل» وجود حاجـة لمزيد من القـوات الأمريكية لواجبـات مـا بعد الحرب يفـوق عددها القـوات اللازمة للغزو نفسـه. ووفقًـا لـ (ريكـس)، فقد كان لـــ (وولفويتـز) «نظرة في غايـة التفاؤل بشـأن العـراق، وعراق ما بعـد الحرب. لقـد كان يعتقد فعـلًا أن تقدير (شينسـكي) بعيـدٌ عن الواقـع... أن احتـلال العراق لـن يتطلب وجود مئـات الآلاف مـن الجنـود؛ لأننـي أظـن أنّ (وولفويتـز) كان يعتقد أن العراقييـن عمومًا سـيرحّبون بنا».

كان هـذا الأمـر مذهـلًا؛ نظرًا لأنـه وعلى حَـدِّ تعبير (فالـوز)، فإنّ «أيًّـا مـن مجموعـات العمـل الحكوميـة التي أخـذت التسـاؤل بجَدِّيّة لـم تتخيـل قـطّ أن احتلال العـراق سـيكون أصعـبَ من هزيمتـه. لقد قدّمـوا ما يسـاوي سـنوات من الخبـرة لإثبـات أن هذا سـيكون الواقع الرئيسـي للمهمّة».

وبعد سـقوط بغداد، كانـت أعداد قـوات التحالف الصّغيرة نسـبيًّا غيـر قادرة على منـع عمليات النهـب، والهجمات الانتقامية، وتشـتّت الجنـود العراقييـن، وتدفّـق الإرهابييـن الأجانـب؛ وهـو وضـع - كما

سنرى - كانت قد توقعته تحليلات أمريكية قبل الحرب، لكنها قُوبلت بتجاهل صنّاع السياسة.

سوف تتسبب هذه الإخفاقات الأوَّلِيّة في تقويض الأمن بعد ذلك بوقتٍ طويل. وقد ألقى العديد من النّقاد باللوم على (رامسفيلد) لدفعه المتهوّر لقوّة غزو صغيرة للغاية، على الرغم من أنه تجدر الإشارة إلى أنّ القوة الأصغر كانت قد عكست خطّة وزارة الدفاع طويلة الأجل للاعتماد بشكل أكبر على التكنولوجيا، وبدرجة أقلّ على الأعداد الكبيرة من القوات. كانت هناك أيضًا دوافع سياسية مختلفة لاستخدام قوّة غزو أصغر في العراق؛ مثل تقليل التأثير على المدنيين، وتجاوز المدن الجنوبية بغية الإطاحة ببغداد، وإنهاء الحرب بسرعة، وإبقاء كثافة القوات المتحالفة التي كانت تمرّ عبْر الكويت في أدنى حَدٍّ ممكن لها (في حال ثبت استهدافهم بأسلحة دمار شامل).

لكن القضية الأساسية تظلّ هي القوّة العسكرية الضرورية لما كان يلزم فعله بعد ذلك. يقول أحد مؤلّفي تقرير كلية الحرب العسكرية، (كونراد كرين): «في حين أن قواعد تحقيق النصر العسكري بجيشٍ حديث ضدّ قوة غير كفؤة كقوة العراقيين قد تكون تحوّلت بالفعل، فإن القواعد المتعلقة بالحفاظ على الاستقرار وإعادة بناء الأنظمة لم تتحول». ولم يكن هذا مجرّد تخمين، بل درسًا من التاريخ: أظهرت دراسة (كرين) أنَّ الاحتلالات

النّاجحة في الماضي كانت قد نشرت قوّات بَرِّيّة شاسعة، ثم سارعت بعملية نقل السّلطة.

كشفت مصادر وزارة الدفاع أن (رامسفيلد) خفَّضَ عددَ القوات ستّ مرات على الأقل قبل الحرب، «في مواجهة تحذيرات مُتكرّرة من مستشاريه العسكريين بأن مثل هذه الخُطّة كانت خطرة ومتهورة».

يذكر (فالوز) «أنّ الحجة الأساسية للجيش لحشد ما اعتبره (رامسفيلد) قوّةً كبيرة بشكل مبذّر أنه... بعدد قليل جِدًّا من الجنود، فإن الولايات المتحدة ستربح الحرب لتكون بعد ذلك محاصرة في وضع لا تُحسد عليه أثناء الاحتلال. وقال قائد قوّات المُشاة البحرية (أنتوني زيني)، وهو الرئيس السابق للقيادة المركزية الأمريكية (CENTCOM)، لـ (فالوز) إن المناورات الحربية في العراق في التسعينيات كانت تميل إلى استخدام المزيد من القوات: «كان السبب في وجود هاتين الكتيبتين الإضافيتين هو الوضع الأمني. عمليات القتل الانتقامية، والجريمة، والفوضى، كل هذا كان متوقعًا».

كان (رامسفيلد) شخصية أساسية في تشكيل السياسة الأمريكية، وأصبح معروفًا، كما قال مراسل لصحيفة لندن تايمز، بسبب «ثقته الجامحة الشبيهة بالتفلون[1]... في أفغانستان؛ وهي حرب انتصروا

(1) تفلون: مادة لدائنية عازلة عالية المقاومة، وصامدة للحرارة والرطوبة (المصدر: قاموس المعاني).

فيها بشنِّ غاراتٍ جوية بقيادة فرق صغيرة من القوات الخاصة، ومعارك برّية بقيادة الميليشيات، بدَت رؤية السيد (رامسفيلد) مبرّرة. وكذا كان التبرير من نصيب حماسه الجامح لسياسةٍ خارجيّة أمريكية وقائية وعدوانية». وقد قال وزير الجيش الأمريكي (توماس وايت)، في تعليقه على خلاف (رامسفيلد)، و(ولفويتز) مع الجيش بشأن أعداد القوات، إنه لا أحد منهما «يمكنني أن أقول عنه أنه كان رجلًا مُثقلًا بقدرٍ كبير من الشك بالنفس». لقد أقنعهم النجاح العسكري في أفغانستان بأنهم سيكونون «مُحقّين تمامًا» بشأن العراق أيضًا. لو أن تفضيلات (رامسفيلد) ظلّت دون ردع، لكان عدد القوات الأمريكية 75,000 جندي، لا الـ 400,000 جندي الذين طالب بهم الجيش. وفي النهاية، كان عدد الجنود المشاركين حوالي 200,000 جندي. وفي هذه الحالة، فقد يكون للمؤسسات المفتوحة إلى حدٍّ ما والتفاعلات المدنية العسكرية يدٌ في تحقيق بعض النجاح في الحدّ من تأثير الأوهام الإيجابِيَّة على السياسة.

لقد تسبَّبَ التركيز على المتطلّبات العسكرية للغزو، على الرغم من التحذيرات من المشاكل المحتملة لوضع ما بعد الحرب، في جعل الاستعدادات للاحتلال غير كافية، وتفتقر إلى التخطيط. وربَّما أدّى غياب القانون والنظام والمساعدات الإنسانية والخدمات المَدَنِيّة في البداية إلى ثَنْي الدّول الأخرى عن نشر

قوات حفظ السلام الخاصة بها في تلك الفوضى. وكان (بيتر غالبريث)، وهو السفير الأمريكي السابق في كرواتيا، قد قال للجنة تابعة للكونجرس في يونيو عام 2003: «عندما دخلت الولايات المتحدة بغداد في 9 أبريل، فإنها دخلت مدينة لم تتضرّر إلى حَدٍّ كبير من حملةٍ عسكرية نُفِّذت بعناية. لكن وفي الأسابيع الثلاثة التي تلت استيلاء الولايات المتحدة، التهمت عمليات النهب التي لم يواجهها أيُّ ردع، أو كبح أحشاء كل مؤسّسة عامة مهمّة في المدينة». لقد افتقر الجيش المُصغّر الذي فاز بمثل هذا النصر الحاسم إلى الحجم والاستعداد اللّازمين، اللّذَيْن أنذر كثيرون بأنهما سيكونان ضروريَّيْن لتعزيز نجاحه».

كان هناك الكثير من الحديث بشأن «قطع رأس» النظام، وكان من المتوقع بعد ذلك أن يستسلم العراق على الفور. لكن بدلًا من ذلك، وعلى حَدِّ تعبير أحد المُعلّقين: «أصبح العراق مثل دجاجة تركض في الأرجاء مقطوعة الرأس!

والحقيقة أن التعامل معها صار - في بعض الجوانب - أصعب؛ وصار إمساكها أصعب... لقد كانت خطّة مُتفائلة للغاية في جوهرها... وكل ما يمكنني التفكير فيه هو أنّ [إدارة بوش] قدَ صدّقت بالفعل ما كان يقال لهم على لسان المنفيِّين العراقيين؛ أن هذه المُهمّة ستكون في غاية السهولة بمجرد أن يطيحوا بصدام».

## افْتِراضاتُ ما قبلَ الحربِ ومشكلاتِ ما بعدَها

حتى وقت كتابة هذا الكتاب؛ أي بعد فترة طويلة من الحرب، كان عدد القتلى من الجنود الأمريكيين في عراق ما بعد الحرب (بعد النهاية المعلنة لـ «العمليات القتالية الكبرى» في الأول من مايو عام 2003) يفوق عدد أولئك الذين قتلوا خلال الغزو نفسه، والمجموع لا يزال في ارتفاع. كما خسر الآلاف من العراقيين أرواحهم أثناء كلٍّ من الغزو، ومن الاحتلال. لقد أدّت الهجمات المستمرة على الجيش الأمريكي، وقوات التحالف الأخرى، والمجنّدين العراقيين، والشرطة، والمدنيين (بمن فيهم موظفو الأمم المتحدة)، بالإضافة إلى التكاليف المرتفعة، والتقدُّم المثير للجدل نحو الديمقراطية، إلى أن يعتبر الكثيرون السياسة الأمريكية في العراق سياسةً فاشلة. لقد واجهت الولايات المتحدة بالتأكيد «تمرّدًا أكثر فتكًا ممّا كانت تتمنَّاه». ويعتقد الكثيرون ممّن كانوا يعارضون الحرب أنّ رأيهم في السياسة الأمريكية قد أثبت صحته: ربَّما يفوز الأمريكيون بالحرب، لكنهم لن يفوز بالسلام؛ أو على الأقلّ دون تكبّد تكاليف باهظة.

سيكون «الفوز بالسلام» أمرًا صعبًا حتمًا في بلد تضمّ ثلاث مجموعات عرقية تتَّسم بالقدر نفسه من العدائية، التي حُرِّرت فجأة بعد خضوعها لعقودٍ من الطغيان. ولا خلاف على قولنا إنّ صُنّاع السياسة في الولايات المتحدة قد استهانوا بصعوبة هذا الأمر.

وكما يشير (كاجان): «من الواضح جِدًّا - إذا عدت ونظرت إلى تصريحات قادتنا قبل الحرب - أنهم اعتقدوا بأنّها ستكون سهلة نسبِيًّا». ويكشف التمديد غير المُتوقّع لجولات العمل لعشرات الآلاف من قوات الحرس الوطني وقوات الاحتياط أن مهام الاحتلال، وإعادة الإعمار تجاوزت ما كانت الولايات المتحدة قد خطّطت له. وكما هو مشارٌ إليه في بداية هذا الفصل، فإن (وولفويتز) نفسه قد اعترف في يوليو من عام 2003 بأن «بعض الافتراضات المهمة كانت قد [قلّلت من شأن] المُشكلة».

ولا يمكن عَزْوُ هذا الأمر إلى وجود نقصٍ في المعلومات. يقدم (فالوز) شرحًا تفصيليًّا لتقارير عديدة من داخل حكومة الولايات المتحدة كانت قد وفّرت تنبُّؤات دقيقة لما يمكن أن يحدث في عراق ما بعد الحرب. أحدها كان مشروع «مستقبل العراق» التابع لوزارة الخارجية، الذي اعتمد على موظّفي الوزارة، ومنظمات المنفى العراقية، والخبراء الخارجيين. كان لبعض المنفيين مصلحة راسخة في الترويج للحرب، لكنهم كانوا مهتمين كذلك بإنتاج عراقٍ مستقرٍّ بعد الحرب. ويتضمّن التقرير المكوّن من 2500 صفحة تفاصيل المهامّ الرئيسية لضمان نجاح الاحتلال، مثل: «استعادة إمدادات الكهرباء، والمياه في أقرب وقت ممكن بعد تغيير النظام»، وكذلك طرق حلّ الجيش العراقي وإعادة استخدامه، وسبل تجنب الفوضى، والنهب، والاقتتال في أعقاب

الحـرب. وقـد شـدّد التقريـر على أنـه ينبغي علـى الولايـات المتحدة مقاربـة إعـادة إعمـار العـراق باعتبـاره مشـابهًا لإعـادة بنـاء ألمانيـا واليابـان بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة؛ أي أنه سـيتطلب سـنوات من الاسـتثمار وتواجـد القـوات.

كمـا اسـتعرض تقريرٌ آخرُ مـن كلية الحـرب العسـكرية الأمريكية فـي فبرايـر 2003 الاحتـلالات الأمريكيـة السـابقة، وحـدَّد الحلـول الناجعـة للمشـاكل الشـائعة. وبالإضافـة إلـى ذلـك، فقـد وفّر شـرحًا تفصيلِيًّـا لمهـامّ مُحـدّدة يُحتمـل أن تظهـر الحاجـة لهـا فـي العـراق، مشـيرًا إلـى أن التواجـد الأمريكـي المُطـوّل سـيكون موضـع اسـتياء؛ لـذا يجـب تثبيـت قـوّة متعـددة الجنسـيات فـي أسـرعِ وقـتٍ ممكن. يوفّـر مُلخـص الاسـتنتاجات مـادة قـراءة مذهلة:

لكـي يكـون ناجحًـا؛ يتطلـب احتـلالٌ كذلـك المُتصـوّر بعـد أيّ أعمـال عدائيـة فـي العـراق تخطيطًـا تفصيليًّا مشـتركًا بين الـوكالات، ووجـود العديـد مـن القـوات، والتزامًـا عسـكريًّا مُتعـدّد السـنوات، والتزامًـا وطنيًـا ببنـاء الدولـة... ولكـي تـؤدّي نصيبهـا مـن المهـام الأساسـية التـي يتعيّـن إنجازها لإعـادة بناء دولـة عراقية، فـإن القوات العسـكرية سـتتحمل أعبـاءً ثقيلـة للغايـة فـي الشـرطة العسـكرية، والشـؤون المَدَنِيّـة، والهندسـة، ووحـدات النقـل، بالإضافـة إلـى الصعوبـات الأمنيّـة الشـديدة المُحتملة... سـوف تتطلب اسـتراتيجية الخروج إرسـاء الاسـتقرار السياسـي، الذي سـيكون تحقيقه صعبًا في

ضوء التشتّت السُّكاني العراقي، والمؤسسات السياسية الضعيفة، والميل للحكم بواسطة العنف.

من المؤكد أن هذا التقرير قد شوهد بواسطة كلٍّ من القيادة المركزية الأمريكية CENTCOM والولايات المتحدة للتعمير والمساعدة الإنسانية (ORHA). لا ندري لِمَ لَمْ يترك تأثيرًا كبيرًا على السياسة، لكن ما نعلمه أنه لا يمكن عَزْوُ انعدام التخطيط الكافي للاحتلال إلى وجود نقص في المعلومات. ويلخّص (فالوز) الأمر على هذا النحو:

سوف تنال إدارة [بوش] الإعجاب والتقدير عند استعراضنا لمقدار المعرفة التي أوجدتها حول التحديات التي ستواجهها. لقد أثبتت تنبّؤات الحكومة الأمريكية بشأن مشاكل الوضع العراق بعد الحرب دقّتها كما أثبتت تقييمات التهديد الاستراتيجي للعراق أنها معيبة. لكن الإدارة ستُدان لما فعلته بالمعرفة التي كانت لديها. لقد كانت المشكلات التي واجهتها الولايات المتحدة هي نفسها المشكلات التي سبق أن حذّرت منها وكلات الخبراء الخاصة بها... وكانت التكلفة المالية، والدبلوماسية، والبشرية المُستمرة للاحتلال العراقي التكلفة الأبشع بالنظر إلى التحذيرات المُسبقة التي كانت لدى الحكومة.

من الواضح أنَّ الإدارة كانت مُفْرِطةً في التفاؤل بشأن مستوى المقاومة المسلّحة؛ أثناء الغزو، وبعده. وبعد فترةٍ وجيزة من بدء

الحـرب، أقـرّ مسـؤولو البنتاغـون بأنهـم «قلّلـوا مـن شـأن المقاومـة التـي سـيواجهونها فـي [بعـض] أجـزاء البـلاد»، و«اسـتهانوا بضعف خـط الإمـداد الأمريكي، وبقـوة المقاومة بأسـلوب حـرب العصابات التـي قادتها ميلشـيا الفدائيين المواليـن لصدّام، والتي يبلـغ قوامها 40 ألـف شـخص». وكان الجنرال ويسـلي كلارك (الذي سـيصبح لاحقًا مرشّـحًا ديمقراطيًّـا للرئاسـة) قـد أشـار فـي وقـت مبكـر مـن الحرب إلـى أنـه على الرغـم من أن وجـود الموالين لصـدام كان «مذكـورًا في تقاريـر كثيرة فـي الخـارج»، وأنّ محللي وكالـة المخابـرات المركزية « أخبـروا صُنّـاع السياسـة بشـأن هـذا التهديـد»، فإنـه قوبـل مـع ذلك «بالاسـتهانة»، و«لـم يؤخـذ، بطريقـة مـا، بالاعتبـار فـي تخطيطـات التحالـف». وكتـب المـؤرخ العسـكري (جـون كيجـان): «مـن المحتمـل أن يكـون هنـاك عـددٌ قليلٌ جِـدًّا من القـوات، وذلـك نتيجةً لتقليـل أشـخاصٍ مـن البنتاغون مـن حجم المشـكلة العسـكرية» التي تفاقمـت بسـبب «فشـل الجيـش العراقـي فـي الهـرب بأعـدادٍ كبيـرة، كمـا كان يفتـرض بهـم، وفقًـا للتوقعـات المتفائلـة للغاية».

كانـت هنـاك توقعـات متفائلـة مماثلـة بشـأن الانتفاضـة الشـعبية خـلال الغـزو. كان نظـام (صـدام) وحشـيًّا ومُحتقـرًا علـى نطـاق واسـع، لكـن وكمـا افتَتحـت مقالـة فـي التايمـز (لنـدن)، فـإن الأدلة السّـابقة والمعلومـات الاسـتخباراتية التـي توصّلـوا لهـا قبـل الحرب لـم تقـدّم الكثيـر مـن الأسـباب لتوقّـع تمرّدٍ سـريع ضـده: «لـم يفعل

الشيعة، الذين انتفضوا ضد النظام في الجنوب عام 1991، وذُبحوا بسبب وقفتهم، لم يفعلوا شيئًا كبيرًا هذه المرة... كان ينبغي على المخابرات الغربيّة أن تعرف ذلك».

استمر التمرد بعد انتهاء الحرب بفترة طويلة. وفي صيف عام 2003، ادَّعى (رامسفيلد) أن الهجمات ارتكبت على يد عددٍ صغير من «البعثيين». وبحلول نوفمبر من عام 2003، حذّر تقرير لوكالة المخابرات المركزية (CIA) من أن حرب العصابات كانت «تواجه خطر الإفلات من السيطرة الأمريكية». أيّد هذا التقرير (بول بريمر)، رئيس الاحتلال الأمريكي في العراق، وهو ما تكهّن البعض بأنه كان «علامة مُمكنة على سعيه لتجاوز رؤسائه في البنتاغون، وإرسال رسالة مباشرة إلى الرئيس (جورج بوش) حول مدى السوء الذي آل إليه الوضع». ويشير تسارع الخطط عام 2003 لتحويل حكم البلاد إلى العراقيين إلى إدراك قويٍّ في إدارة (بوش) بأن الوضع كان أسوأ بكثير ممَّا كان متوقّعًا، وإلى رغبةٍ في الخروج في أقرب وقت ممكن؛ وحبّذا لو قبل الانتخابات الأمريكية لعام 2004.

وسواءٌ أكانت هناك أوهام إيجابية حول الجوانب الأمنية للاحتلال أم لا، فإن العديد من مسؤولي الإدارة قد «قللوا بصورة مؤسفة من شأن تكلفة إعادة بناء العراق». كانت تقديرات الميزانية التي أعدَّها من هم خارج الإدارة مرتفعة للغاية (ودقيقة؛

كما ندرك الآن). ولم يُعلن عن أيّ تقديرات للمسؤولين إلَّا بعد الحرب بفترة. (كان أحد المطَّلعين، وهو المستشار الاقتصادي للبيت الأبيض (لورانس ليندساي)، قد اقترح قبل ذلك لصحيفة وول ستريت جورنال، مبلغًا يتراوح بين 100 و200 مليار دولار، وكما يذكر (فالوز)، فإنه قد أُجبر على الاستقالة بعد ذلك بفترةٍ وجيزة». قد يُنظر إلى تأجيل الاعتراف بتكاليف الحرب على أنها استراتيجية بارعة من جانب الإدارة: فبمجرد التزام الولايات المتحدة في العراق، سيكون من الصعب على الكونغرس رفض تخصيص الأموال اللَّازمة لتجنّب الفضيحة الوطنية. لكن بالنظر إلى أنه كان على (بوش) خوض الانتخابات في عام 2004، فإن المخاطر السياسية للاستخفاف كانت مرتفعة بما يكفي لإضفاء مصداقيةٍ على فكرة أن أعضاء الإدارة كانوا يعتقدون فعلًا أن التكاليف ستكون منخفضة.

يبدو أن الأوهام الإيجابيَّة حول العبء المالي قد تعزّزت بافتراضين متفائلين للغاية: أن البِنْيَة التّحتِيّة العراقية ستكون سليمة نسبيًّا بعد الحرب؛ وأن النفط العراقي سيدعم إلى حدٍّ كبير عملية إعادة الإعمار، وكلاهما كانا خاطئين تمامًا. لقد تعرّضت شبكة الكهرباء، والعديد من العناصر الأساسية الأخرى في البِنْيَةِ التَّحْتِيّة للعراق، بما في ذلك قدرات إنتاج النفط، للدمار أو الضرر الفادح. وكان (وولفويتز) قد أخبر الكونجرس أنّه ينبغي بنفط العراق أن

يـدرُّ عائـدات تتراوح مـن 50 إلى 100 مليـار دولار مـن المواقع على مـدى سـنتين إلـى ثـلاث سـنوات. بينمـا تبـدو القيـم الحقيقيـة أقرب إلـى الصفـر في العـام الأول، وإلـى 12 مليـار دولار في الثانـي، وإلى 20 مليـار دولار بعـد ذلـك؛ طالمـا ظلّت أسـعار النفط مرتفعـة. وكما جـاء فـي تقريـر صـادر عـن مجلـس العلاقـات الخارجيـة وجامعـة رايـس فـي ديسـمبر 2002: «كان هنـاك قـدرٌ كبيـر مـن التمنّـي بشـأن النفـط العراقي».

فـي سـبتمبر مـن عـام 2003، وفـي جلسـة استماع للجنـة الخدمـات المسـلحة بمجلـس الشـيوخ للنظـر في مبلـغ الـ 87 مليار دولار الإضافـي المطلـوب لتعزيـز إعـادة الإعمـار بعـد الحـرب، ألقـى السـيناتور الديمقراطـي (كارل ليفيـن) باللّـوم علـى (وولفويتز) لأوهامـه الإيجابِيَّـة: «لقـد أخبـرتَ الكونغرس فـي العـام الماضي أننا نتعامـل مـع دولـةٍ قـادرة بالفعـل علـى تمويـل عمليّـة إعـادة الإعمـار الخاصـة بهـا، وفـي وقـتٍ كبيـر نسـبِيًّا. حدّثنـي عـن السـيناريوهات الورديـة». كمـا صـرّح السـيناتور الجمهـوري (جـون ماكيـن): «مـن الواضـح أننـا قلّلنـا مـن حجم التحـدِّي الـذي سـنواجهه». وقبل ذلك بيـومٍ واحـد، قـال السـيناتور الديمقراطـي فـي مجلـس الشـيوخ: «قد لا تكـون هـذه فيتنـام، ولكـن ربّاه، كـم تبدو مثلهـا. وفـي كلّ مرة أرى فيهـا هـذه الفواتيـر المتدفقـة للحصـول علـى المـال، أجدهـا كذلـك بتكلفـة فيتنام».

وعند مواجهته بخطط العراق في فترة ما بعد الحرب، كان بوش، وفقًا لـ (ديفيد سانجر)، «متفائلًا بلا هوادة... كان يتحدث عن احتلال سيكون شبيهًا بالتحرير الأمريكي لألمانيا واليابان». بيد أن إدارته لم تقبل فيما يبدو العواقب التي ترتّبت على تلك السوابق المُستشهد بها: أن الاحتلال سيكون طويلًا ومُكلفًا للغاية. يتمثل مبدأ التخطيط الحصيف في استخدام الافتراضات المُحافظة (أو على الأقل المعتدلة) بدلًا من الافتراضات المثالية. ومع ذلك، وعلى حَدِّ الوصف الحديث للرئيس السابق لهيئة الأركان المشتركة، الجنرال (جون شاليكشفيلي)، فإنه مهما كان التخطيط الذي أجرته الإدارة لعراق ما بعد الحرب، فقد كان مستندًا على أكثر التنبّؤات وردية». كما حذّر تقرير كلّية الحرب الوطنية بشكل مسبق من «أنّ احتماليّة فوز الولايات المتحدة بالحرب، وخسارتها للسلام في العراق حقيقية وخطيرة. وبالتالي ستكون إعادة تأهيل العراق تحدِّيًا مهمًّا يهدّد باستهلاك كميات هائلة من الموارد دون نتائج مضمونة».

## هل ساهمت الأوهام الإيجابِيَّة؟

قبل الحرب، كان العراق والولايات المتحدة في حالة من العداء المتبادل لأكثر من عقد من الزمان. ما الذي تغيّر ليؤدّي إلى الحرب في عام 2003؟

لسبب واحد: لقد تضمّن مذهب (بوش) الجديد تحمّل مخاطر أكبر من أيّ وقت مضى في سبيل سحق التهديدات المُتصوّرة للأمن الأمريكي. لم يعد يُنظر إلى ردع العراق، أو احتوائه كخيارٍ عمليّ (استُبعد هذان الخياران نتيجة الفشل الملحوظ للرّدع في التسعينيات والتهديد الوشيك المُتصوّر). وكان أحد العوامل المساهمة يتمثل في مبالغة الولايات المتحدة في تقدير مدى سهولة تغيّر النظام. من المهمّ كذلك أن نتذكر أن الطرف الآخر كان سببًا في نشوب الحرب: كان (صدام) في غاية الثقة بأن الأمريكيين لن يحاولوا الإطاحة به، أو أنهم إذا حاولوا، فسيجدون المهمّة مُكلفة للغاية، وسيفشلون. إذا كانت محاباة الرجال من حول (صدام) قد جعلته يصدّق هذا الأمر، فإن المُتغيّرات المُتوقّعة شكّلت بيئة خصبة لبقاء الأوهام الإيجابِيَّة: القيود المفروضة على المعلومات؛ بسبب نوع النظام، والنقاش المُغلق.

وبغضِّ النظر عن رأي المرء فيما إذا كان الغزو مبرَّرًا أم لا، فإن تعامل صنّاع السياسة الأمريكيين مع العراق يشي بوجود أوهامٍ إيجابية بشأن جميع مراحل النزاع: مرحلة ما قبل الحرب (كانت قضيتهم عادلة، وكان لدى العراق أسلحة دمار شامل، ويمكنهم تحقيق أهدافهم من جانب واحد، وتكاليف إعادة الإعمار ستكون مُنخفضة)، ومرحلة الحرب نفسها (ستكون القوات الأمريكية موضع ترحيب؛ كونها جاءت بهدف التحرير، وسيثور العراقيون

ضد «صدام»، وستتلاشى المقاومة بسرعة)، ومرحلة ما بعد الحرب (ستكون المقاومة محدودة، وستتولى القوات العراقية مهمة حفظ الأمن والحراسة، وستكون البِنْية التَّحْتِيَّة العراقية سليمة إلى حدٍّ كبير، وسيغطي النفط تكاليف إعادة الإعمار، وسيتبنى العراق الديمقراطية).

كانت المعلومات الخاطئة جزءًا من المشكلة، لكنّها لم تكن وحدها المسؤولة عن سياسة الإدارة. وكما حذّر السيناتور (إدوارد كينيدي) - وهو ديمقراطيٌّ بارز - في أوائل عام 2004 قائلًا: «إذا نظرنا إلى هذه الأحداث على أنها مجرد فشل استخباراتي - بدلًا من فشل أكبر في عملية صنع القرار والقيادة - فستتعلّم الدروس الخاطئة... لقد قوبلت تحذيرات محدّدة من مجتمع الاستخبارات بالتجاهل المستمر، بينما سارعت الإدارة نحو الحرب». كما كتب (بولاك)، الذي اعتبر الحرب أمرًا مؤسفًا لكنه ضروري: «يجب علينا على أقلّ تقدير أن ندرك أنّ اندفاع الإدارة الأمريكية نحو الحرب كان متهوِّرًا حتى على أساس ما اعتقدنا أننا نعرفه في مارس 2003». لقد أسهمت الأوهام الإيجابِيَّة، رغم أنها كانت غير متوقعة وفقًا للأسباب الموضحة في بداية هذا الفصل، مساهمة كبيرة في نشوب الحرب: استهانة (صدام) بالتهديد الأمريكي، واستهانة الولايات المتحدة بالتكاليف وبصعوبة الهدف ككُلّ». وكما وصفها (مايكل إليوت)، فقد كانت «سلسلة من

الافتراضات، والقرارات المعيبة التي اتُّخِذت قبل بدء الحرب؛ بعضُها مبنيٌّ على تفاؤلٍ عازم، وبعضها على السذاجة، وبعضها كان له عواقب وخيمة غير مقصودة... لقد ساهمت البيروقراطية في القتال، والتفكير المفعم بالتمنِّي، و... التأثير غير المبرَّر لـ[المنفيّ العراقي] (أحمد الجلبي) في واشنطن... كل ذلك أسهم في عمليّةٍ أخطأت بها إدارة بوش في فهم العراق».

من المرجّح أن تكون أيّ أوهام إيجابية بين الأفراد داخل زمرة (بوش) المنعزلة إلى حَدٍّ ما قد تفاقمت، وهي زمرة كان أعضاؤها بحاجة إلى الاتحاد للدفاع عن سياسة واستراتيجية أمنية وطنية جريئة وجديدة تخصّ العراق ضدّ الخدمة المدنية العدائية في كثير من الأحيان، والكونغرس، والرأيين العام والعالمي. تُمثّل هذه بيئة تفكير جماعي تقليدية. وكما اقترحتُ في الفصل الأول، فمن المُرجّح أن تُعزّز الأوهام الإيجابِيَّة، والتحيّزات في التفكير الجماعي بعضها بعضًا بشكلٍ كبير. ووفقًا للعالمة السياسية (كارين ألتر)، فإن سياسة فريق (بوش) الخارجية لفترة ما قبل الحرب قد «أظهرت كلّ أعراض» التفكير الجماعي التي حذر منها (إيرفينج جانيس):

- أوهام بالحصانة ينتج عنها تفاؤل مُفْرِط، وتحمّل لمخاطر شديدة.
- جهود جماعية لإيجاد المبرِّرات لكبار صنَّاع القرار؛ كي يتجاهلوا التحذيرات التي قد تجبرهم على إعادة النظر.

- آراء نمطِيّة بشأن قادة العدو تظهرهم على أنهم أشرار للغاية، بحيث لا تجدي معهم أية محاولات حقيقية للتفاوض، أو تُظهرهم على أنهم ضعفاء، أو أغبياء للغاية لدرجة أنهم لن يواجهوا أيَّ هجومٍ يُشنّ ضدَّهم؛ الأمر الذي يؤدِّي إلى إساءة الحكم والتقدير.
- إيمان راسخ بالأخلاق المتأصّلة في المجموعة، وهو ما يدفع أعضاء المجموعة إلى تجاهل العواقب الأخلاقية، أو المعنوية لقراراتهم.
- ممارسة الدّاعين إلى الإجماع في الرأي لضغوطاتٍ مُباشرة على من يعبّرون عن حِججٍ قوية تخالف أيًّا من الصور النمطية للمجموعة، أو أوهامها، أو التزاماتها؛ موضحين بذلك أن أي انشقاق يعدّ مخالفًا لما هو متوقّع من جميع الأعضاء المخلصين.
- ظهور أشخاص عيّنوا أنفسهم حرّاسًا لعقول أفراد المجموعة لحمايتهم من المشورة والمعلومات، والآراء التي قد تحطّم الرضا المشترك بينهم عن مدى فاعليّة قراراتهم أو أخلاقيّتها.
- الرقابة الذاتية التي يمارسها أشخاص يملكون وجهاتِ نظرٍ منحرفةً عن الإجماع الظاهر للمجموعة، وهو ما يخلق وهمَ الإجماع داخل المجموعة.

ويجادل (روبرت جيرفيس) في أنّه كان هناك أيضًا «اتّساق معرفيّ» واسعُ الانتشار في النقاش الدائر حول ما إذا كان الغزو ضروريًّا أم لا. كما أن أولئك الذين ظنّوا أن التراجع سيكون كارثِيًّا كانوا يميلون كذلك إلى تصديق عدد كبير من الأفكار الأخرى المؤيدة للتدخّل، على الرغم من كون كل واحدة منها مستقلة منطقيًّا؛ مثل أنّ (صدّام) يمتلك أسلحة دمار شامل، وأنّ النصر العسكري سيكون سريعًا، وأن تحقيق عراقٍ آمن ومُستقرّ وديمقراطي لهو أمرٌ مُمكن. أما أولئك الذين اعتقدوا أن الحرب ليست ضرورية، فقد كانوا يميلون إلى تصديق جميع الادّعاءات المعاكسة.

من السهل علينا بالطّبع توجيه النقد في الوقت الحالي، ولا شك في أن وسائل الإعلام قد أثارت ضجة شديدة حول الانقسامات في واشنطن، والمشاكل في العراق. وفي أثناء الحرب، ووفقًا لما قاله العالم السياسي، والباحث الإعلامي (روبرت إنتمان)، فإن (رامسفيلد) «قد تذمّر، على نحو معقول تمامًا، من المطالبات الجَلِيَّة للصحفيين بالنجاح الفوري». ما الذي سيقوله أعضاء إدارة (بوش) للدفاع عن أنفسهم؟ يتمثل الموقف الرسمي الرئيسي في التصريح بأنّه نظرًا إلى أنّ كلّ شيءٍ غير مؤكد، فلا يمكننا إذن أن نفاجأ من النتائج. صحيح أنّ هناك أمورًا سارت على نحو سيِّئ - لكن في المقابل - هناك أمور أخرى سارت على ما يُرام.

وبشكل عام، فقد بات العراق والعالم أفضل حالًا بدون (صدّام حسين). كما أن الوضع في العراق سيُحلُّ في النهاية. وغالبًا ما كان يركّز (رامسفيلد) على حالة عدم التيقُّن بشأن المستقبل، وعلى محدودِيّة المعلومات. وقد قال ذات مرّة متأمّلًا: «هناك حقائق معروفة؛ أشياء نعرف أننا نعرفها. كما نعلم أيضًا أنّ هناك مجاهيل معروفة؛ وهذا يعني أننا نعرف أن هناك بعض الأشياء التي لا نعرفها. لكن هناك أيضًا مجاهيل مجهولة؛ وهي الأشياء التي لا نعرف أننا لا نعرفها». لكن (سلافوي جيجيك) يشير إلى أن (رامسفيلد) قد نسي مُركّبًا رابعًا حاسمًا، ويتمثل في الحقائق المجهولة؛ وهي الأشياء التي نجهل أننا على علمٍ بها، وهذا ما يمثل بالتحديد «الوعي الفرويدي»... ومن نواحٍ عديدة، فإن هذه الحقائق المجهولة؛ هذه الاعتقادات، والافتراضات المتنكّرة التي لا ندرك حتى تشرّبنا لها، قد تشكل تهديدًا أخطر بكثير. وهذه هي الحال بالنسبة لأسباب الحرب». تعدّ حُجّة (جيجيك) مذهلة عندما يتذكّر المرء أن الأوهام الإيجابِيَّة مبنية على خداعنا لذواتنا، حيث تخضع العمليات الواردة للفرز، والغربلة كي تتناسب مع ما نودّ تصديقه. وفي حالة عدم اليقين بشأن ما يمكن أن يحدث في العراق؛ يبدو أن صنّاع القرار الرئيسيين قد انخرطوا في مثل هذا التفكير الانتقائي.

وفيما يتعلق بتحدِّي الوضع بعد الحرب (بخلاف مسألة أسلحة الدمار الشامل)، فقد كان هناك ما يكفي من الأمور المعلومة لوضع تنبُّؤات واقعية؛ لقد أنشأت الحكومة الأمريكية نفسها المشاريع، وفوّضت التقارير للحصول على هذا النوع من المعلومات. ومع ذلك، احتفظ صُنَّاع القرار بتوقّعات مُفْرِطة في التفاؤل حتى مع مواجهتهم لأدلّة تُناقض توقّعاتهم. وكما يتساءل (فالوز): «كيف يمكن للإدارة أن تعتقد أنه من الآمن مواصلة الابتهاج دون اكتراثٍ منها بالتحذيرات التي أطلقها كلُّ شخصٍ تقريبًا ممّن يتمتّعون بالخبرة العمليّة في الاحتلالات العسكريّة الحديثة؟»

تساعد النظرية التي قدَّمتها في هذا الكتاب على توضيح السبب الذي جعل الأوهام الإيجابِيَّة تصبح عاملًا سببيًّا في تعزيز الحرب عام 2003. وعلى كلا الجانبين، أسهمت خصائص اثنين من المتغيِّرات التنبُّؤِيّة الرئيسية - نوع النظام وعلنيّة النقاش - في تخفيف القيود المفروضة في العادة على تقييمات المخاطر. كان هذا واضحًا بالنسبة لعراق (صدام)؛ حيث ترأس حكومة استبدادِيّة تقتل أصحاب وجهات النظر المخالفة، وبيروقراطية خنقت النقاش وتنوّع الآراء؛ لذا إن كان لدى (صدام) أوهام إيجابية، فإن أحدًا لم يكن ليحاول ثَنْيه عنها. الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أنّ العملية الديمقراطية في الولايات المتحدة كذلك قد تقوّضت في إطار قرار الحرب، كما أصبح النقاش مغلقًا نسبِيًّا في وجه الآراء الخارجية.

يقـول ( لويـس فيشـر) مـن دائـرة أبحـاث الكونجـرس بمكتبـة الكونغـرس إن العمليـة الديمقراطيـة فشـلت فـي ممارسـة الضوابـط، والتوازنـات المعتـادة علـى السـلطة الرئاسـية (فـي مصطلحاتـي: تحـوّل مسـار «نـوع النظـام» الفعّـال الـذي يعمـل فـي واشـنطن بعيدًا عـن الديمقراطية). لـم يحدث قـرار موافقة الكونجـرس على الحرب نتيجـة توافـق الآراء بعـد نقاش صارم، ولا حتى بواسـطة قرار حاسـم. وفـي النهايـة، يشـير (فيشـر) إلـى «أنّ التشـريع لـن يقـرر لا لصالـح الحـرب ولا ضدهـا. ذلـك الحكم - الـذي يضعه الدسـتور بيـن يَدَيِ الكونغـرس - سـيُترك الآن بيـن يَـدَيِ الرئيس». وقد نشـأ هـذا المأزق نتيجـة الفشـل في تحـدِّي سياسـة الإدارة، وأهـداف الحرب بالشـكل الكافـي، والفشـل فـي إجـراء تقييـمٍ كاف للمعلومات الاسـتخباراتية، والضغوط السياسـية الناجمـة عن انتخابات التجديـد النصفي القادمة، وكذلـك، ويا للسـخرية! إلـى الاعتقاد بـأن إعطاء صلاحيـات الحرب للرئيـس سـيوحي لـ(صـدَّام) بـأن احتمالية الحـرب حقيقيـة، وبالتالي تشـجيعه علـى التفـاوض، وتقليـل احتماليـة الحـرب. لـم يكـن هـذا العامـل الأخيـر مَحْـض اعتقـاد بيـن الصقـور المتحمسـين للحـرب؛ فحتـى الرئيس الفرنسـي (جـاك شـيراك) تبنّى هـذا الرأي واسـتخدمه لإقنـاع السـوريين بالتصويـت لصالـح قرار الأمـم المتحـدة الأصلي.

ويبـدو أن هـذا القصـور فـي العمليـة الديمقراطيـة كان واضحًـا لـدى العامـة. وردًّا علـى سـؤال اسـتطلاعات الـرأي فـي صحيفـة

نيويورك تايمز في 7 أكتوبر من عام 2002 (أي قبل ثلاثة أيام من إقرار الكونغرس لقرار الحرب) - «هل يطرح الكونجرس ما يكفي من الأسئلة حول سياسة الرئيس بوش تجاه العراق؟»- 51% من المُجيبين قالوا لا، بينما 20% فقط قالوا نعم. ويشير (بولاك) إلى أن العملية الديمقراطية قد أُعيقت إلى حدٍّ كبير بسبب أولئك الذين في السّلطة: «كان للسلطة وحدها حقّ الوصول إلى جميع المعلومات المتاحة لدى مُختلف وكالات الحكومة الأمريكية، ويمثّل حجب بعض تلك المعلومات، أو التقليل من شأنها لأهدافها الخاصة خيانة لتلك المسؤولية». وهكذا يحقّ للسيناتور (كينيدي) التصريح بأن «الكونجرس لم يكن ليصوِّت أبدًا على السماح بالحرب لو كنّا مُلمِّين بالحقائق».

بالإضافة إلى ذلك، كان النقاش حول ما إذا كانت الحرب ضرورية أم لا (حول مسألة أسلحة الدمار الشامل إلى حَدٍّ بعيد) وحول الاحتلال مغلقًا نسبيًّا. ويشير (بولاك) إلى أن إحدى المشكلات كانت في أن مفتشي الأسلحة التابعين للأمم المتحدة تعرضوا للمضايقة حتى خرجوا من العراق في ديسمبر من عام 1998؛ حتى ذلك الحين، كانوا «معتدلين في تأثيرهم عَلى وكالات الاستخبارات الغربية: ساعدت المعلومات التي قدّموها، ومجرد تواجدهم في العراق، ساعد تلك الوكالات على الالتزام بافتراضاتٍ معقولة، وإبقاء المخاوف التي لا أساس لها

من الصّحة تحت السيطرة. لكن بعد عام 1998، كان العديد من المحلّلين ينظرون - على نحوٍ متزايد - في أسوأ السيناريوهات؛ السيناريوهات التي أصبحت بالتدريج تقديرات سائدة». وكانت هناك مشاكل أخطر في واشنطن: تعمّد ( رامسفيلد) وموظَّفوه منع التواصل بالكامل بين البنتاغون، والمنظمات الأخرى التي تخطّط لعراق ما بعد الحرب: على سبيل المثال: يذكر (فالوز) أنّ مسؤولي البنتاغون تعرضوا «للحظر» من قبل مكتب (رامسفيلد) من حضور تدريبات وكالة المخابرات المركزية على مشكلات ما بعد الحرب، وأن كبار العسكريين كانوا يُستبعدون في بعض الأحيان من اجتماعاتٍ رفيعة المستوى.

وبشكل أعمّ، فإنّ الإدارة تمسّكت بالحجج، ومصادر الاستخبارات ذات الدوافع السياسية والنفسية. وقد منع موقفها الرسميّ بشكلٍ مُسْبَق النقاش، والتحضيرات التي ربّما كانت ستؤدِّي إلى سلامٍ أكثرَ فاعليّة، مع أنها قد جعلت احتمالات الحرب أقلّ جاذبية. ونقل (كينيدي) عن المدير السابق لمكتب الاستخبارات، والبحوث بوزارة الخارجية (جريج ثيلمان)، قوله: «يكمن جزء من الخطأ في أداء مجتمع المخابرات، ولكن معظمه يكمن في الطريقة التي أساء فيها كبار المسؤولين استخدام المعلومات المُوفَّرة لهم... لقد كانوا يُجرون المسوحات للبيانات، وينتقون منها ما يعجبهم». كانت الإدارة تميل إلى البحث عن

المعلومات الاستخباراتية التي تخدم أغراضها الخاصة، وتصديقها ونشرها. وفي معظم الأحيان، كان المحللون يعلمون أن هذه المعلومات الاستخباراتية غير موثوقة، لكنهم لم يتمكنوا من الحفاظ على تدفّقٍ مُتوازن للمعلومات، وواجهوا بدلًا من ذلك تحدِّيات تستهلك الوقت في سبيل التغلّب على تحدِّياتهم الخاصة. وبحسب (بولاك)، فقد وجد كثيرون في مجتمع المخابرات أنّ «مسؤولي الإدارة كانوا يردّون بقوة، وسلبية، وعنف عندما تقدم لهم معلومات، وتحليلات تُناقض ما يؤمنون به بالفعل بشأن العراق».

يُذكّرنا نوعا الإخفاق اللَّذَان ناقشتهما للتو - في العملية الديمقراطية وفي النقاش - بسنوات فيتنام، إذ يُعدُّ قرار «خليج تونكين» عام 1964 موازيًا لقرار حرب العراق: الكونغرس الذي يأمل في تجنب الحرب من خلال تسليم سُلطةِ شنّها للرئيس، ونقاش مغلق على نحوٍ مُتزايد يمنع تقييمات الاستخبارات من تحديث سياسة الإدارة. وعلى حد تعبير (فيشر): «تعدُّ القرارات متطابقة تقريبًا في نقلها للقرار الوحيد بخوض الحرب، وتحديد نطاقها، ومدّتها للرئيس.

وفي كلتا الحالتين، اختار المشرّعون أن يثقوا في الرئيس، لا في أنفسهم. وبدلًا من القيام بدورهم كممثّلين عن الشعب، والحفاظ على الشكلِ الجمهوريّ للحكومة؛ أعطوا الرئيس سلطة لا حدود

لهـا... لقـد كان وضع سـلطة بـدء الحرب في يـد شـخصٍ واحد فقط هـو بالضبـط مـا كان يأمـل واضعـو الدسـتور في تجنّبـه عندمـا عملوا علـى صياغته».

وأشـار (كونـراد كرين) إلى أنـه «ينبغـي بالتحليل العـادل للحرب أن يشـرح السـبب الذي جعـل الافتراضـات حـول العمليـات القتالية تبـدو صحيحـة في الأسـاس... في حيـن كانت تلـك الخاصـة بإعادة الإعمـار خاطئـة للغايـة». أقتـرحُ أنّ التغيّـرات المُتوقَّعـة فـي الأوهام الإيجابِيَّـة قد تفسّـر هذا الاختـلاف. لقد خاض الأفراد، والمؤسسـات الأمريكيـة تجـاربَ حربيـةً حديثـةً - ليـس فقـط ضـد ذات العـدو في العراق نفسـه عـام 1991 - بل ضد قـوّات في الصومال، وأفغانسـتان كذلـك. بيـد أنّـه لـم يكـن للولايـات المتحـدة خبـرات حديثـة فـي مجـال الاحتـلال، وبنـاء الديمقراطيـة فـي العـراق (رغـم أنهـا كانت قـد حظيـت ببعـض منهـا مـن البوسـنة والهرسـك ومـن أفغانسـتان). وكمـا هـو موضّح في الفصـل الثاني، فـإن الأوهـام الإيجابِيَّة تنخفض مـع ارتفـاع الإفـادات وردود الفعـل ذات الصلـة. وبالنسـبة للحـرب، فقـد كان الجيـش الأمريكـي يتمتـع بحصولـه علـى إفـاداتٍ حديثـة، وذات صلـة ومباشـرة. أمـا بالنسـبة للاحتـلال، فقـد كان نصيبهم منها أقـلّ. ولأسـبابٍ مماثلـة، فقـد كانـت القدرة علـى التحقق أقـلّ، وكان الغمـوض أعلـى بالنسـبة لمهـام مـا بعـد الحـرب، مقارنـة بالمهـام فـي الحـرب نفسـها؛ لـذا نتوقـع أن يكـون التخطيـط لمرحلـة مـا بعد

الحرب قد تضمَّن كمِّيّة أقلّ من المعلومات المُحدّدة التي يمكنها تحجيم الأوهام الإيجابِيَّة.

من الممكن أيضًا أنه أيًّا كانت مستويات الأوهام الإيجابِيَّة التي كانت موجودة في المرحلتين، فإنها قد تمظهرت على نحوٍ مفيد في الحرب، وعلى نحوٍ كارثيٍّ في الاحتلال. وكما سبق ورأينا، فإنه يمكن للأوهام الإيجابِيَّة، وفرط الثقة أن يجلبا كلًّا من المجد والخراب. وفي العراق، لعل نفس التفاؤل والثقة اللَّذَيْن أبدتهما الولايات المتحدة، واللَّذَيْن أدَّيا إلى النصر الحاسم، يكونان قد أدَّيا كذلك إلى وقوع المشاكل في الاحتلال. ربّما تكون الثقة المبالغ فيها بين الجنود والقادة قد أسهمت في الفعاليّة العسكرية، في حين ربّما يكون وجود الصفة نفسها بين موظفي البنتاغون قد أسهم في سوء التخطيط. وكمثال على ذلك، فإن العقيد (ديفيد بيركنز)، وهو قائد اللواء الثاني في فرقة المشاة الثالثة، كان قد قاد «حملةً تتميّز بالمناورات الجريئة، وتحمّل المخاطر»، بما في ذلك غارتي «ثندر رن Thunder Runs»، حيث شقّت قوافل مدرَّعة عالية السرعة طريقها إلى قلب بغداد قبل فترة طويلة من استعداد أيّة قوة كبيرة للدخول. كانت الفكرة هي إرسال رسالة بسيطة إلى المقاومة العراقية؛ مفادها أن الولايات المتحدة قادرة على التحرُّك كما تشاء، والاستيلاء على المواقع الرئيسية في المدينة، وبالتالي فإنه لا جدوى من المقاومة. كان الهدف عقلانِيًّا، بيد أنّ

تصرف كان محفوفًا بالمخاطر. دُمِّرت عِدّة مركبات وذخائر، وكان الوقود في انخفاض، كما تعرّض مقرّهم الرئيسيُّ للقصف. وقد قال العقيد (بيركنز) في وقتٍ لاحق: «إذا وضعتَ مخطَّطًا لعملية صنع القرار، لقال لك على الأرجح: يجب أن تخرج حالًا». لكن التكتيك الجريء نجح، وانهارت المقاومة العراقية في وقتٍ أبكرَ بكثير ممَّا كان يتوقعه أيُّ أحد.

ربَّما تكون القوة الصغيرة، والجريئة، والقادرة على المناورة التي دافع عنها (رامسفيلد)، التي جسَّدتهما غارتا «ثندر رن» قد حققت المجد العسكري على نحوٍ أسرع ممَّا كان يمكن أن تحقّقه قوّة أكبر وأبطأ. وعلى حَدِّ تعبير (بوب وودوارد): «كانت هناك ثقة، بل ثقة مفرطة، جعلت [رامسفيلد] الشخص الذي تريده أن يُمسك بزمام الأمور». ومع ذلك، فإنَّ فلسفة القوة الصغيرة الجريئة نفسها القادرة على المناورة هذه هي بالتحديد - وكما جادل العديد من المسؤولين العسكريين وغيرهم قبل الحرب - السبب وراء انهيار عراق ما بعد الحرب مباشرة وتحوّله إلى خراب.

وإلى جانب الثقة المُبرّرة بأنّ قواتهم ستحقق النصر العسكري؛ أبدى صُنّاع السياسة في الولايات المتحدة ثقة مُفْرِطة بشأن المُهمّة الأوسع المتمثّلة في الاحتلال، وتغيير النظام. يبدو أن مثل هذه الثقة المُفْرِطَة - والأخطاء التخطيطية التي نجمت عنها - قد نشأت عن افتراضاتٍ أوَّلِيَّة مُفْرِطة في الإيجابِيَّة (وأهمّها أن

القوات الأمريكية ستكون موضع ترحيب، وأن المقاومة ستتلاشى بسرعة، وأن الجنود العراقيين السابقين سيوفّرون الأمن، وأن النفط سيموّل إعادة الإعمار). سمحت هذه الافتراضات الخاطئة للإدارة بإهمال التقارير والتوصيات التي تُعارضها. ويعلّق (فالوز): «لا بُدَّ من أن الرئيس كان يعلم أنه مهما كانت السيناريوهات مُشرقة، فإن واقع العراق بعد ثمانية عشر شهرًا من الحرب سيؤثر على إعادة الانتخابات المقبلة. لقد كانت المخاطرة السياسية هائلة، وواضحة. لا بُدَّ من أن الاعتقادات الراسخة لدى مسؤولي الإدارة لم تكن مقتصرة على ضرورية الحرب، بل شملت إيمانهم بنجاح الاحتلال، وبعدم حاجته لمزيد من التفكير المسبق يفوق ما منحوه إيّاه بالفعل». تكمن المأساة في أن المشكلات التي واجهتها الولايات المتحدة في عراق ما بعد الحرب «ليست بالتحديد المشكلات التي كانت تُقلق جميع هيئات الخبراء في الحكومة الأمريكية وحسب، بل في أنه كان يمكن تجنّبها جميعًا إلى حدٍّ كبير». ويقترح (فالوز) وجود علاقة بين الأخطاء وبين «سلوكٍ سائد في الإدارة»، ويمكن القول إنه يتمثّل في «اعتياد أولئك الأشخاص على الإيمان باحتمالية أن يكونوا على صواب، مقابل احتمالية أن يكون منتقدوهم على خطأ».

أودُّ الإشارة إلى أنَّ الأوهام الإيجابِيَّة لا تزال مهمّة اليوم بقدر ما كانت مهمَّة في العصر الجليدي (عندما ساعدت البشر

في البقاء على قيد الحياة)، وفي 1914 و1965 و2003 (عندما لم تساعدهم). والحقيقة أنه كلما أبعَدتنا مُجتمعاتنا، وتقنيتنا عن جذورنا التطوّرية، فإنه ينبغي أن ترتفع توقّعاتنا بأن يقودنا إرثنا التطوُّري نحو إغراءات مُضلّلة، بل قد تكون هناك جوانب من الحرب الحديثة تجعل التقييمات للخصوم عُرضة للخطأ على نحوٍ خاصّ. يقول أنتوني بيفور إنه كان هناك في الماضي اعتمادٌ أكبر على «الذكاء البشري»، أي المعلومات التي جمعها أشخاصٌ على أرض الواقع (وهي ممارسةٌ قديمة قِدم اللغة). أما في أيامنا هذه، فقد استُبدل كثير من تلك الممارسات بالأقمار الصناعية، واستخبارات الإشارات التي يُتحَكّم فيها عن بُعْد. ويشير (بيفور) إلى التوقّعات الأمريكية المُفْرِطَة في التفاؤل بشأن الانتفاضة الشيعيّة ضد (صدام) كمثال على خطأ يمكن أن يكون قد حدث، إلى حَدٍّ كبير، نتيجة نُدرة الذكاء البشري.

وعلى النطاق الأوسع للاستراتيجية الكبرى للولايات المتحدة، فإنَّ سابقة مذهب (بوش) في شنّ حربٍ استباقية من جانب واحد، وتبنّي دولة بكاملها في الشرق الأوسط قد تعكس أوهامًا إيجابيّةً حول التفوّق الأيديولوجي للولايات المتحدة، وقُدرتها على السيطرة على الأحداث العالمية، وأمنها المستقبلي. وتتوافق هذه الفئات الثلاثة توافقًا وثيقًا مع أشكال الأوهام الإيجابِيَّة التي أوجدها علماء النفس: التحيّزات التي تخدم المصلحة الذاتية،

وأوهـام السـيطرة، والتوقعـات المُفْرِطَة في التفاؤل بشـأن المسـتقبل.
وكمـا حـذر (روبـرت جيرفيس)،

فـ «قـد تكـون الولايـات المتحـدة الدولـة الأحـدث في سلسـلةٍ طويلـة مـن البلـدان غيـر القـادرة علـى وضـع قيـودٍ معقولـة علـى مخاوفهـا وتطلّعاتهـا».

# الـملحق

## 1- الأصول البديلة لفرط الثقة بالنفس:

لا تعـدُّ الأوهـام الإيجابِيَّـة المنبع الوحيـد لفرط الثقـة بالنفس، بل هنـاك عـددٌ مـن المنابع الأخـرى التـي لا تتعـارض مع بعضهـا بعضًا، ويمكـن لاثنيـن منهـا أو أكثـر أن يكوّنا معًا مصـدرًا للثقـة المُفْرِطَة.

■ **التعلـم**: قـد تنشـأ الثقـة المُفْرِطَـة بالنفـس مـن سلسـلة مـن الانتصـارات السـابقة، ففـي العاميـن 1938 و1939 مثـلًا، وبعـد نجـاح (هتلـر) فـي الوصـول بسـقف طموحاتـه العالـي إلـى نقطـة لا يُبـارَى عندهـا، ازدادت ثقتـه مع كل نجـاح. ومن قبلـه كانت هزيمة (نابليـون)، التـي «لـم تحـدُث لعـدم كفاءتـه الحربيـة، وإنمـا لثقتـه المُفْرِطَـة فـي سياسـة بـلاده. لقـد جعلـه نجاحـه يقتـرف سـلوكيّات مختلّـة، كأوهـام العظمـة ولعب القُمـار، وسـوء الفهـم، وفقدانـه الثقة فـي أتباعـه، وسـعيه الحثيـث نحـو الكفـاءة؛ الأمـر الذي أرهـق جنود جيشـه وضبّاطـه»، فمـا كان مـن كل المجـد الـذي صنعه عبر مسيرته إلّا أن «ضـاع بسـبب فـرط ثقتـه غيـر المحـدود فـي نفسـه». يمكن أن تُفضـي النجاحـات المتعاقبـة إلـى تزايـدٍ فـي مسـتويات الثقـة، الـذي يمكـن تبريـره حتـى مرحلـة معيَّنة، لكـن الثقة قـد تتحوّل بكلٍّ سـهولة إلـى ثقـةٍ مُفرطة.

■ **القناعـة الدينيـة**: لقـد حملـت المعتقـدات الدينيـة النـاسَ عبْـر التاريخ على الإيمـان بخيرية الحـروب التي يخوضونهـا، وبأنهم سـيظفرون بالنصـر، وبـأنّ الـرب سـيمكّنهم مـن القتـال علـى نحـوٍ أفضـل مـن خصومهـم، وبأنهـم سـينالون ثوابًا حتـى وإن لـم ينتصروا علـى أعدائهـم. مـن الأمثلـة المتطرّفـة علـى ذلـك كان إيمـان الكثيـر مـن الأوروبييـن بأن حملـة الأطفـال الصليبية التي شُـنّت عـام 1212 (كانـت تتألـف فـي معظمها مـن مئـات الأطفـال، والفقراء من فرنسـا وألمانيـا) سـتتمكن مـن اسـترداد فلسـطين مـن جيـوش المسـلمين. وقـد بعـث الديـن الثقـة كذلـك فـي نفـوس بعـض الجماعـات الدينيـة، فجعلهـا تؤمـن بتفوّقهـا علـى غيرها مـن الجماعـات. ووفقًا لــ (مـات ريدلـي)، فإنـه «غالبًا مـا تشـدّد التعاليـم الدينية علـى الفرق بيـن مـن هـم داخـل الجماعـة ومـن هـم خارجهـا: نحـن مقابـل هم؛ الإسـرائيلي والفلسـطيني، واليهـودي وغيـر اليهـودي، والمرحـوم والملعـون، والمؤمن والكافر، والآريوسـي والأثناسـي، والكاثوليكي والأرثوذكسـي، والبروتسـتانتي والكاثوليكي، والهندوسـي والمسلم، والسـني والشـيعي. إن الديـن يعلـم معتنقيـه أنهم شـعبٌ مُختـار، وأن ألـدّ خصومهـم من معتنقـي الأديان الأخـرى حمقى ضالّـون، أو حتى فـَي منزلـة أدنى مـن البشـر. ولا عجب فـي هـذا البتة، فأصـول معظم الأديـان كانـت عبـارة عـن طوائـف مذهبيـة محاصـرة فـي مجتمعات متناحـرة تسـودها العصبيـة القبليّـة والعنف».

■ **الشخصية**: قد يكون لدى بعض أنماط الشخصية ميلٌ إلى الإفراط في الثقة أكثر من غيرها. ففي حرب فيتنام مثلًا، ادَّعى العديد من الكُتَّابِ أنه كان للأنا، والاعتداد بالرجولة دورٌ في قيادة الرئيس (جونسون)، بل إنه «نظر إلى الحرب باعتبارها اختبارًا لرجولته هو». وعادة ما تُشخَّص الشخصيات المتطرّفة، مثل (هتلر وستالين)، بإصابتها باضّطرابات في الشخصية، كالنرجسية، والميول السيكوباتية، والهوس، وقد يثير عددٌ من هذه الاضّطرابات فرط الثقة المتطرّف.

■ **الكيمياء العصبية**: تتعدّد المنشِّطات الكيميائية التي تُبدِّل السلوك من فورها، ويمكن للكثير منها التأثير على مستوى الثقة. يمكن للكحوليات مثلًا التقليل من أثر المثبّطات، وتعزيز السلوك الصاخب، والمبالغة في تقييم الذات، والعنف. كما يتمثّل أحد أكثر الهرمونات أهمية، تلك التي تُفرَز طبيعيًّا في جسم الإنسان، في هرمون الذكورة (التستوستيرون) الذي يتّضح أثره على الثقة في النفس، والسلوك المُهيْمِن، والنزعة التّصادميّة. ففي طبقيات الرُّتب؛ أو التسلسل الهَرَمِيّ للهَيْمَنَة dominance hierarchies، تميل مستويات (التستوستيرون) لدى الأفراد ذوي المراتب العالية إلى أن تكون أعلى من تلك التي لدى الأفراد في المراتب المنخفضة، لكن إذا بات لدى أفراد المراتب المنخفضة المزيد من (التستوستيرون)، فإنهم يصبحون أكثر عدوانية، ويتحدّون أعضاء

المرتبـة العليـا، بـل ويتمكّنـون مـن هزيمـة الأفـراد الـذي يفوقونهـم جسـديًّا في القـوة. وكما اكتشـف (جيمس دابـس)، فإنَّ قـدرة هرمون الذكـورة تبلـغ ذروتهـا فـي التأثيـر علـى الهيمنـة والسّـيطرة «إمّـا فـي المواجهـات القتالية بين الأشـخاص (كتلـك التي تقع بيـن المجرمين العنيفيـن، أو المحاميـن فـي المحاكمـات)، وإمّـا فـي المشـهد العـام الأوسـع نطاقًـا (كتلـك التي نشـاهدها بيـن الممثليـن، أو السّاسـة).»

## 2- سببُ تغلّب الثقة المُفْرِطَة على الدِّقَّة:

أظهـر عالـم النفـس التطـوّري (دانييـل نيتل) وزمـلاؤه أنّـه عندما تكـون نتائـج الأحـداث غيـر مؤكـدة، فيمكـن للمبالغـة فـي تقديـر احتماليـة النجاح أن تتفـوّق على العقلانية المثاليّة. والفكرة الأساسـية أنـه، ورغـم أنّ ثقـة الفـرد بنفسـه قـد تكـون ضعيفـة، أو مُفرِطـة، فـإن تكاليـف هذيـن الخطأيـن، ومنافعهمـا ليسـت متكافئـة؛ إذ يُمكـن أن يتمخَّـضَ عـن الثقـة المُفْرِطَـة فوائـد أعظـم مـن فوائـد كلّ من ضعف الثقـة والدّقـة معًا.

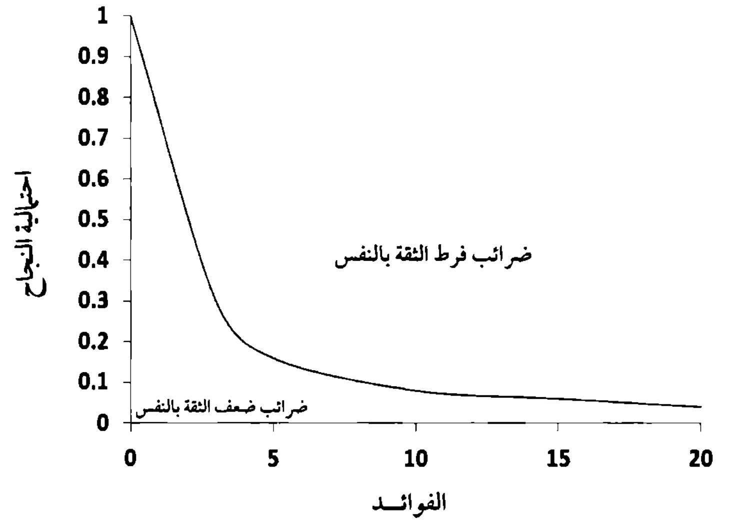
تخيّـل أنّـك تواجه لعبةً مصيرهـا إمَّا النجاح، وإمَّا الفشـل. يمكنك أن تختـار اللعـب، فتحصـل علـى بعـضٍ من فوائـد النجـاح، وتتحمل بعضًـا مـن تكاليـف الفشـل، أو يمكنك أن تختـار عدم اللعـب، حيث لاَ ربـحَ ولا خسـارة. سـيكون الانسـحاب مُكلّفًـا فـي حالـة أنّـك لـو كنـتَ لعبـتَ ونجحـت، لجنيـتَ ثمـار النجـاح. ومـن ثَـمّ، فالوضـع المثالـي هـو أن تلعـب دومًـا عندمـا تكـون علـى يقيـن بأنك سـتفوز،

وألّا تلعب مطلقًا عندما تكون متأكِّدًا من الخسارة. بيد أنّ النتيجة مجهولة، ففوزك ليس سوى احتمالية؛ لذا فلكي تقرّر ما عليك فعله؛ يجب عليك تقدير «الفائدة المتوقعة» لكل اختيار (صافي الربح لكلِّ نتيجة مضروبٌ في احتمالية حدوث تلك النتيجة)، وإذا كانت الفوائد، والتكاليف متساوية، فينبغي عليك اللعب متى ما فاقت احتمالية النجاح نسبة 50%.

أما عندما تتباين الفوائد والتكاليف، فإنّ احتمالية النجاح المطلوبة ليصبح اللعب هو الخيار الأفضل سرعان ما تتناقص (على نحو غير خطِّيٍّ) بتزايُد نسبة الفوائد إلى نسبة التكاليف، بحيث يكاد يكون الوضع دائمًا جديرًا باللعب؛ حتى وإن كان احتمال النجاح ضئيلًا. وعندما تصبح نسبة الفوائد إلى نسبة التكاليف أكبر، تزيد ميزة اللعب زيادة غير متكافئة؛ لذا ينبغي عليك السّعي نحو الفائدة الكبيرة حتى وإن بَدَتْ محفوفةً بالمخاطر. وعلى الطرف الآخر، تقلّ مَيْزَة اللّعب على نحو غير متكافئ مع ازدياد التكاليف مقارنةً بالفوائد، ومن ثَمّ فينبغي عليك اللعب بحذر حتى وإن كان ثمّة فرصة معقولة للفوز. يوضح الشكل (أ) ما أقول.

في عالمٍ مثاليٍّ، سيكون اللّاعب العقلانيّ على علمٍ دومًا بالقيم الحقيقية للفوائد، والتكاليف واحتمالية النجاح. لكن المعرفة نادرًا ما تكون مثالية. وفي ظلِّ هذا الشكِّ، سيتعيَّن على كل اللاعبين تقدير احتمالية النجاح، وسيتضمَّن هذا بالطّبع درجة

ما من الخطأ؛ فحتى تقدير اللعب العقلاني لاحتمالية النجاح سيكون مرتفعًا قليلًا في حين، ومنخفضًا قليلًا في حين آخر. ولن يكون قرار اللعب من عدمه مثاليًّا إلَّا في حالة وجود الاحتمالية المُقدَّرة على الجانب «الآمن» (المُتحفّظ) من المنحنى المرسوم في الشكل (أ).




شكل (أ). في اللعبة البسيطة، يجلب الفوز بعض الفائدة، وتُحمّل الهزيمة بعض التكاليف. يصف هذا المنحنى الحَدَّ الأدنى لاحتمالية الفوز المطلوبة لجعل اللعب خيارًا أفضل من الاِمتناع عن اللعب. عندما يكون اللَّاعب العقلانِيّ غير متيقَّن من الاحتمالية الصحيحة للفوز، فإنه يهدف إلى تقدير القيمة الحقيقية، لكنّه يرتكب بعض الأخطاء؛ كالاستخفاف بنصف هذه

الاحتمالات، والمبالغة في تقدير نصفها الآخر. وكلّما تعدّتِ الفوائدُ التكاليف، صار الانحياز للتفاؤل متفوِّقًا على التقديرات الدقيقة؛ وذلك لأنّه حتى الأخطاء ستميل إلى الوقوع في الجانب «الآمن» أعلى المنحنى (عوضًا عن أن يكون نصفها في أعلاه، ونصفها الآخر في أسفله). أما العلاقة المُنحنية، فتعني أنه مع زيادة الفوائد بالنسبة للتكاليف، يكاد يكون قرار اللعب جديرًا دائمًا بالاتّخاذ. في هذا الرسم، نجد التكلفة ثابتة بقيمة 1؛ لذا فما يزيد من فائدة بعد الواحد سيكون دائمًا مضافًا للأرباح، ودائمًا ما تتعدَّى الفوائد التكاليف. هذا الشكل مستوحى من فصل دي. نيتل «الأوهام التكيفية: التفاؤل، والسيطرة، والعقلانية البشرية» في كتاب العاطفة، والتطوّر، والعقلانِيّة، نسخة دي. إيفانز وبي. كروز (أكسفورد: دار نشر جامعة أكسفورد، 2004).

إنَّ أداءَ اللَّاعب الذي يبالغ في تقدير احتمالِيّة نجاحه سيكون أفضلَ منْ أداءِ ذلك العقلانِيّ الذي يقدّر الاحتمالية الصحيحة. لماذا؟ لأنَّ اللَّاعِبَ العقلانِيّ يهدف إلى الاحتمالية الصحيحة، ومعها نسبة من الخطأ؛ لذا ستندرَّج بعض تقديراته تحت الاحتمالِيَّة الصحيحة، وسيندرج بعضها فوق هذه الاحتمالية، وفي المتوسط فإنّ نحو نصف اختياراته كلّها سيقوده إلى اتِّخاذ قراراتٍ خاطئة. لكن إذا اتَّبع اللاعب أسلوبًا منهجيًّا في المبالغة في تقدير احتمالية النجاح، فستقلّ احتمالية ميل عنصر الخطأ

إلـى إنـزال التقديـرات تحـت مسـتوى الاحتماليـة الصحيحـة: تتباين مثـل هـذه التقديـرات بقدر تبايـن تقديـرات الطـرف العقلانـي تمامًا، ولكـن لتحـرّك الهـدف قليـلًا نحـو الأعلـى، حتى مـع وجـود الخطأ، فـإن احتماليـة بقـاء المبالغـات فـي التقدير فـي أعلى المنحنـى تصبح أعلـى؛ وهـو ما ينتـج عنه الاختيـار الأمثل؛ لـذا فعندما تتعـدَّى الفوائد التكاليـف، ينـدر اتِّخـاذ الطرف الذي يملـك أوهامًا إيجابِيّـة للقرارات خاطئـة، ومـن هنا يخسـر الطـرف العقلانِيّ أمـام الطرف الـذي يملك تحيّـزات إيجابيـة في الأسـاس.

كان (نيتـل) وزمـلاؤه قـد اسـتخدموا محـاكاة حاسـوبية لاختبـار هـذه المَيْـزَة التفاؤليـة. وعبْـر المئـات مـن التفاعـلات، وجـدوا أنّـه يمكـن فعـلًا للانحيـاز المُتفائـل أن يتفـوَّق علـى فاعـل عقلانـيّ فـي الظـروف (الحدسـيّة) الآتيـة: عنـد وجود نسـبة شَـكٍّ مرتفعة إلـى حَدٍّ كبيـر فـي تقييـم احتمالية النتيجة، ونسـبة شَـكٍّ منخفضة إلى حَـدٍّ كبير فـي تقييـم التكاليـف، والفوائد. عندما تنخفض نسـبة الشـكِّ في تقدير النجـاح بدرجـة كبيـرة، تتضـاءل نسـبة الخطـأ التـي يمكـن للأوهـام الإيجابِيَّـة التعويـض عنهـا. أمَّـا عندمـا ترتفـع نسـبة الشَّـكِّ فـي تقدير النجـاح، فمـن الأفضـل المبالغـة فـي تقديره.

ويـرى فريـق (نيتـل) أن هـذه الظـروف معقولـة للغايـة بالنسـبة للتطـوّر البشـرِيّ. وتميـل التكاليـف والفوائـد المتراكمـة مـن معظـم أحـداث الحيـاة إلـى أن تكـون متكـرِّرة، ويمكـن تعلُّمهـا مـن خـلال

الخبرة والملاحظة. ولو أنَّ هذه الأحداث كانت شائعةً بما يكفي عبْر التاريخ الإنساني، فلربّما أصبح تطوّرها فطريًّا (مثل الفوائد الواضحة لتحقيق مكانة اجتماعية عالية). على النقيض من ذلك، يعتبر تعلّم احتمالية النجاح عملية أصعب بكثير، كونها تعتمد على طوارئ الزمن والسياق - وتفاعلاتهما - مثل العوامل الخارجية غير المتوقعة، وما إذا كان هناك آخرون قد قرّروا التنافس على الهدف نفسه.

وقد أظهرت التجارب العملية أن الناس يميلون إلى إيلاء اهتمام أكبر بالتكاليف والفوائد يفوق ما يولونه لاحتمالية النجاح، وهي استراتيجية قد تُنتج عددًا أقلّ من الأخطاء. لكن يبدو من المرجَّح أنّ الأوهام الإيجابِيَّة حسّاسة تجاه التباين في التكاليف والفوائد، بحيث تَخِفُّ المبالغة في التقديرات بعض الشيء عندما تصبح التكاليف مرتفعة للغاية. ويحظى هذا الادِّعاء بدعم تجريبي كذلك: تخضع الأوهام الإيجابِيَّة لدى الناس لتحكم الإفادات وردود الفعل؛ وذلك كي تظلّ ضمن الحدود المعقولة.

لكن بالنظر إلى كون الحياة الحديثة مختلفة في معظم الأحيان عن بيئة تكيُّفنا التطوُّرِيّ، فربّما يصبح تجاوب الأوهام الإيجابِيَّة أقلّ ممّا ينبغي أن يكون عليه، بل وقد تظل موجودة حتى عندما تكون التكاليف في غاية الارتفاع، ولعلّ هذا يعود إلى أنها لا تُحفّز بواسطة المثيرات البارزة تطوريًّا (فكّر في القائد السياسي

أو العسكري الذي يرسل أوامر عبْر القارات بالزَّجِّ بآلافِ الغرباء في الحرب).

وتشير نتائج (نيتل) بقوة إلى أن الأوهام الإيجابِيَّة تعدّ مَيْزةً في تصميم النفس البشرية، لا عيبًا فيه. إذ تتفوق الأطراف التي لديها أوهامٌ إيجابِيّةٌ على تلك العقلانِيّة في الظروف المعقولة. وربَّما كانت لتحظى هذه الأوهام بمزايا أخرى في تطوُّرنا لو أنها كانت أسرع من الناحية المعرفية (أي قادرة على التفوق على الحسابات العقلانية في مواقف الحياة، أو الموت سريعة الوتيرة)، أو إذا كان تطويرها أسهل معرفيًّا (أي قادرة على التفوق على الحسابات العقلانية المعقدة على المدى البعيد، كون الدماغ قد كلّف التطورَ كثيرًا ليتمكّن من تشكيله).

ووفقًا لاستنتاجات (نيتل)، فإنَّه «في القرارات السلوكية، حيث تفوق فائدة النجاح إلى حَدٍّ كبير تكلفة المحاولة والفشل؛ يمثل حينها التفاؤل بشأن فرص النجاح في ظل عدم التيقّن فعلًا تكيُّفِيًّا».

من المهم أن نتذكر أنه ليس من الضروري دائمًا أن يكون التحيُّز للثقة المُفْرِطَة بالنفس وسيلة أفضل لتحقيق النجاح على المدى البعيد من التقديرات الدقيقة. سوف يفضّل التطوُّر - أو أيّة عمَلية انتقاء طبيعيّ أخرى - التحيُّزات التي «قلَّلت من إجماليِّ الخسائر، أو زادت من إجماليِّ الفوائد على مَرّ التاريخ». وقد يكون انكشاف خدعة المرء بين الحين والآخر أفضل من عدم الخداع

علـى الإطـلاق. ومـن ثَمَّ، فـإنّ فـرط التفـاؤل الطبيعـي قد «ينشـأ عن تحيُّـزات تكّيفيَّـة موجـودة فـي الوقـت الحاضـر؛ لأنهـا أعطت البشـر مميِّـزات تسـاعدهم علـى البقـاء، والتكاثـر فـي الماضـي». أدّى هـذا الإدراك إلـى نشـوء ما يسـمَّى بـ «نظريـة إدارة الأخطاء» التـي تفترض أن «الآليّـات النفسـيّة مصمَّمـة لتكون متحيِّـزة على نحو يمكـن توقُّعه عندمـا تكـون تكاليف الأخطـاء الإيجابِيَّـة الزائفـة، والأخطاء السَّـلْبِيّة الزائفـة غيـر متكافئة علـى مرّ تاريـخ التطوُّر البشـري». وفـي مثل هذه الحـالات، تطـوّر المخ ليسـتفيد مـن عـدم التماثل.

### 3- طَرَفَا الأوْهَام الإيجابِيَّـة:

نحـن نعلـم أنّ الأوهـام الإيجابِيَّة تتباين من شـخصٍ لآخـر. أحدِّد هنـا بعـض العوامل الأساسية المسـؤولة عـن هـذا التبايـن، بداية من الاكتئـاب (الـذي تـكاد تجـد فيـه أيّ أوهـام إيجابيـة) وصـولًا إلـى حـبِّ الـذات (حيـث يجـد فيـه المـرء أعظـم الأوهـام الإيجابِيَّـة على الإطلاق).

■ **الاكتئـــاب**: تشـير الأبحاث إلى أن الأوهام الإيجابِيَّة عنصرٌ أساسِـيٌّ للعقـل السـليم نفسـيًّا. وعلـى النقيـض مـن ذلـك، تنخفـض الأوهـام الإيجابِيَّـة انخفاضًـا كبيـرًا، أو تغيـب تمامًـا فـي أوسـاط المكتئبيـن، ويُطلـق علـى هـذه الظاهـرة اسـم «الواقعيـة الاكتئابيـة». بالإضافـة إلـى ذلـك، يُعـدّ «الاكتئـاب أحـد صـور المـرض النفسـي القليلـة المُرتبطة بمسـتويات متدنِّية مـن العدوانية والعنـف». وإذا كان

للأوهـام الإيجابِيَّـة تأثيـرٌ على العلاقـات الدولية، فينبغـي علينا كذلك توقّـع أن يكـون للاكتئـاب لـدى صُنَّـاع القـرار تأثيـرٌ علـى العلاقـات الدوليـة. ويمكـن أن يتحفّز الاكتئاب بعـددٍ من الأحداث الشـائعة بين الأشـخاص في السـتينيات والسـبعينيات من أعمارهـم، وهي الأعمار المعتـادة للقـادة المحليين.

يعـدُّ المـرض واحـدًا مـن تلـك الأسـباب، ويحـذّر (هيربـرت أبرامـز) مـن العواقـب قائـلًا: «يرتبـط الاكتئـاب، بوصفـه أثـرًا شـائعًا للمـرض، بالتشـكيك فـي الـذات، وتجنُّـب اتّخـاذ القـرارات، أو قبول المسـؤولية. وعندمـا يمكـن حـثّ الأفـراد المكتئبيـن علـى اتّخـاذ القـرارات، تنخفـض قدراتهـم، فيضعـف لديهـم الانتبـاه والتركيـز والتذكـر، كما يصيـب القصور قواهـم التحليلية، وربّما يعطـون أهمّية أكبـر مـن الـلَّازم للمعلومـات السـلبية». وتشـيع الإصابـة بالاكتئـاب عقـب النوبـات القلبيـة، ومجـرد التشـخيص بالأمـراض القلبيـة، والسـكتات الدماغيـة، والصدمات النفسـية، أو الجسـدية، والخضوع للجراحـة، والسـرطان، وارتفـاع ضغـط الـدم، وتناول بعـض العقاقير الموصوفـة مـن الطبيـب؛ لـذا يرجّـح بـأن الاكتئـاب كان سـائدًا لدى الرؤسـاء الأمريكييـن فـي القـرن العشـرين؛ حيـث عانـى ثلاثـة عشـر رئيسًـا من الرؤسـاء السـبعة عشـر في أثناء فتـرات حكمهم مـن واحدةٍ مـن المشـكلات التـي سـبق ذكرهـا، أو أكثر (وهـم: مكينلـي، وتيدي روزفلـت، وتافت وويلسـن، وهاردينـج، وكووليـدج، وفرانك ديلانو

روزفلت، وترومان، وأيزنهاور، وكينيدي، وجونسون، ونيكسون، وريجان).

أقدم لكم هنا مثالًا يدعو للتأمُّل. ربّما يمثل الاكتئاب عنصرًا مهمًّا لدى القائدين اللَّذَيْن ورثا هزيمة الولايات المتحدة الأمريكية في فيتنام؛ وهما (جونسون، ونيكسون). أما (جونسون)، فقد قوّضت خسائر الحرب هدفه العزيز الذي سعى جاهدًا لتحقيقه، والمتمثّل في تأسيس «المجتمع العظيم». أضف إلى ذلك أنّ مصرع عشرات الآلاف من الجنود الأمريكيين كان يُثقل كاهله. وكان المتحدث الرسمي باسمه قد كتب ما مفاده: «كان الجنود الأمريكيون الذين لقوا حتفهم يعودون بأعدادٍ كبيرة لدرجة أنّ الرئيس (جونسون) أصابه الغمّ والأسى، وأحيانًا ما كان يخلد إلى النوم، وهو يضع غمامةً على عينيه، كما لو أن ذلك سيمكّنه من الهرب من أشباح الشباب السائرين في رأسه»). هل كان الاكتئاب عاملًا من عوامل قراره بالانسحاب من حملة الترشح للانتخابات الرئاسية من جديد؟ أما عن (نيكسون)، فقد تولّى مقاليد الحكم وهو يحملُ آمالًا عريضة بإنهاء الصراع، لكنّه واجه كلّ الإحباطات، والتعقيدات المصاحبة لعملية تخليص الولايات المتحدة من حربٍ كانت شعبيتها في انخفاضٍ مستمرّ. يبدو أنه أصيب بالفعل باكتئابٍ شديد؛ بعد فضيحة «ووترجيت» على الأقلّ. وبالفعل، اتّخذ (هنري كسنجر)، و(جيمس شليسنجر) الخطوة غير

المعتادة بالمطالبة (غير القانونية) بأن تأخذ هيئة الأركان المشتركة مشورتهما قبل تنفيذ أيّ أمرٍ رئاسي. كما واجه كلٌّ من (جونسون، ونيكسون) مشكلة السيطرة على الأحداث بالغة التعقيد، وكما ينوّه (دانييل نيتل) فإن «وهم السيطرة يختفي بين من يكونون في حالة اكتئاب، أو فتور، وانزعاج نفسيّ. إن [انخفاض] قوة الوهم بالسيطرة لدى الشخص ينبئ بأن يكون مزاجه سلبيًّا في أعقاب فشله في أداء مهمة ما، وبسهولة تثبيط هِمَّتِهِ عند مواجهة التحدِّيات الجديدة، وبأعراضه الاكتئابية كاستجابةً لأحداث الحياة».

وقد خلص (أبرامز) إلى أنه عند مرض رئيس ما، «فيجب أن يُجنَّب عبء اتّخاذ القرار وقت الأزمات؛ لمصلحته ولمصلحة الشعب». والحقيقة أنني أوافقه الرأي، لكنّي أتساءل عمّا إذا كانت القرارات ستنفع في بعض النواحي من غياب الأوهام الإيجابِيَّة، وهو ما قد يكون بشير خير للسلام، حتى وإن لم يكن كذلك دائمًا للحيوية والثقة بالنفس اللَّذَيْن يعزّزان الأمن القومي.

■ **النوع**: يميل الرجال إلى أن تكون لديهم أوهامٌ إيجابِيّةٌ أكثر ممَّا تميل إليه النساء. وتتناسب هذه النتيجة مع ما يصفه (روي بوميستر) بـ«الآراء المألوفة المتعلقة بالأنا الذكوريّة، والثقة المُفْرِطَة للذكور، وميل الذكور نحو أنماط الهروب (كالميل الأكبر لتعاطي المخدرات والكحول، وما إلى ذلك)، وكذلك زيادة شيوع الاكتئاب، وانعدام الأمن، وانعدام الثقة بالنفس بين النساء

التقليديات». وربّما تنبع هذه الاختلافات من المستويات الطبيعية لهرمونات الذكورة والأنوثة، فلدى الذكور مستوياتٌ أساسية من «التستوستيرون» أعلى بكثير ممَّا لدى النساء، وكما يشير (ريتشارد رانجام)، فإن «خُصيات الرجال توفر لهم القابلية لارتفاع أسرع في مستويات «التستوستيرون» أكثر ممَّا يمكن للنساء اختباره؛ لذا يُفترض بالنساء أن يكُنَّ أقل عرضة للإغراء العاطفي المتمثل في الانجذاب إلى الشجارات بناءً على الأوهام المؤقتة التي يسببها الستيرويد للرجال حول قدراتهم». ويشر (رانجهام) إلى أنّ هذا قد يكون أحد أسباب وجود الكثير من الرجال في السياسة في المقام الأوّل؛ فالمكانة الرفيعة والقوة تكافآنهم باندفاع منتظم لحساسياتهم التطوّرية. إذا كان للأوهام الإيجابِيَّة تأثير على العلاقات الدولية، فربّما نتوقع أن يكون للنوع تأثيرٌ كذلك.

وتجدر بنا الإشارة إلى أن القادة الإناث - القليلات نسبيًّا في التاريخ - غالبًا ما كُنَّ بثقة وعدوانية نظرائهنَّ من الذكور؛ فكّروا في (بواديكيا، ومارجريت تاتشر، وجولدا مائير). بيد أنّه قد تكون هناك عملية انتقاء لا تنجو من خلالها سوى أكثر النساء عنفًا في مهنة ما تزال حتى اليوم تحت هيمنة الرجال. فعندما قررت (إليزابيث دول) عدم الترشح للرئاسة في عام 2000، علقت (شيرلي تشيشولم) «التي سبق أن ترشّحت للرئاسة عام 1972» قائلة: «عندما تسعى لمكانة كبيرة كهذه، فعليك أن تتمتع بالطاقة

اللازمة لها. يجب أن تكون واضحًا وحازمًا، وألَّا تخشَى الإساءة إلى الناس. وهذا ليس من طباعها. إنها في غاية الحذر».

ما الأمور المختلفة التي ستفعلها النساء في حال حصلن على السلطة؟ أجرت (إلينور كليفت) مع (توم برازيياتس) دراسة مشوّقة عن النساء «اللّاتي كنّ في طليعة من اختبرن القيادة» في السياسة الأمريكية. هناك رأيٌ شائعٌ عن أهداف النساء، ونجده متمثلًا في حديث السيناتور تيد ستيفينز (وهو عضو الحزب الجمهوري من ألاسكا) الذي شكا في عام 1999 من أن «النساء لا يدعمن الإنفاق على الجوانب العسكرية... [و] يسألنه باستمرار: لماذا ترغبون بإنفاق المزيد من المال على الجيش؟ أليس لديكم ما يكفي؟» غير أنّ الأدِلَّة المَنْهَجِيّة التي تدعم أيَّ اختلافٍ جندريّ فيما يتعلّق بهذا الشأن قليلة. كانت عضوة الكونجرس عن ولاية مونتانا ( جانيت رانكين)، قد صوَّتت ضد تدخل الولايات المتحدة في كلٍّ من الحرب العالمية الأولى (بعد إعلان ألمانيا عن حرب غواصات مفتوحة ضد السفن في المحيط الأطلسي) والحرب العالمية الثانية (بعد بيرل هاربور؛ وكان الصوت الوحيد الذي قال «لا» في المجلس). حاول المدافعون عن حقِّ المرأة في الاقتراع حثّها على دعم الحرب لتجنّب ترك انطباع بأنّ النساء مسالمات على نحوٍ ميؤوس منه. لكن وعلى النقيض من ذلك، كانت (مارجريت تشيس سميث)، التي كانت أول امرأة تخدم في كلٍّ

من الكونجرس، ومجلس الشيوخ، التي ترشحت كذلك للرئاسة، «تصبُّ جامّ اهتمامها على مسائل الدفاع، وكانت تشتهر بكونها أحد أكثر أعضاء مجلس الشيوخ حماسة للحرب خلال الحرب الباردة».

في عام 2001، خطَّط عددٌ قياسِيٌّ من النساء الترشح لعضوية الكونجرس. لكن بعد هجمات الحادي عشر من سبتمبر، التي غيّرتْ معالم الشؤون البارزة تغييرًا جذريًّا، وغطّت على الجوانب التي أثبتت فيها النساء المرشّحات جدارتهنّ؛ انسحب الكثير منهن، أو خسرن الدعم. ويشير كلٌّ من (كلينت وبرازيياتس) إلى أنه « كان على النساء مواجهة الحقيقة المُرّة بأن الناخبين ربما لا يثقون بقيادتهنّ للبلاد في وقت الحرب». أظهرت استطلاعات الرأي أن النساء يُنظَر إليهنّ باعتبارهنّ «أقلّ قدرة على إدارة السياسة الخارجية، وقضايا القوانين والأنظمة، وكذلك الاقتصاد. كما كانت نقاطهنّ أقلّ بشكل ملحوظ فيما يتعلق بالقدرة على إدارة البلاد أثناء الأزمات، والقدرة على اتّخاذ قراراتٍ صعبة». ونتيجة لذلك، يتوقع المحللون السياسيون فيما يبدو أن تتمتع أول رئيسة للبلاد «بجسد امرأة، والسّمات الشخصية لرجل. ما هو أكثر احتمالًا أنها ستأتي من الشريحة المُعتدلة إلى المُحافظة من الطّيف الأيديولوجي.

إذا كانت النساء في العادة محبّات للسلام أكثر من الرجال، فيبدو أن النساء غير العاديات هنّ الأكثر احتمالًا للوصول لمناصب السُّلطة السياسية في الولايات المتحدة (وفي دول أخرى عديدة، للأسباب نفسها). يُحتمل أن يكون هذا مدفوعًا بتفضيلات الناخبين («يريد الناخبون النسخة الأمريكية من مارجريت تاتشر؛ امرأة لن تزعزعها الأزمات»)، أو بتأثيرات الاختيار الذاتي (تعدّ النساء اللَّاتي يتزعزعن في الأزمات أقلّ رغبة في ترشيح أنفسهنّ، كما هي الحال بين الرجال). والواقع أن النساء «غالبًا ما يتمادين كثيرًا في محاولة إثبات صلابتهنّ. وسعيًا منهنّ للمصداقية، نجدهنّ يعتنين بقضايا الرجال، كالدفاع العسكري والاقتصاد».

أظهرت دراسة أجرتها «منظمة التجمع السياسي القومي للمرأة» أن النساء يملن إلى الفوز بالانتخابات بقدر ما يفوز بها الرجال؛ عند ترشحهن لها. كل ما في الأمر أنه ليس هناك الكثير من النساء اللَّاتي يشغلن مناصب جنرالات، أو مُحافظات، أو أباطرة للنفط بحيث يُعتمد ويُستند إليهنّ في عملية الاختيار التقليدية (تُظهر الأدِلّة أن جمع الأموال للحملات الانتخابية يعدّ أصعب بالنسبة للنساء كذلك)، أضف إلى ذلك أنّ عدد النسوة اللّاتي يفضّلن الترشح أقلّ من عدد الرجال على أية حال. في بداية القرن الحادي والعشرين، كان هناك 13 عضوة في مجلس الشيوخ (من أصل 100)، و62 نائبة (من أصل 435). وبمعدل

الزيـادة الحالـي، فـإن أمامنـا 250 سـنة أخـرى قبـل أن يكـون تمثيـل النسـاء مسـاويًا لتمثيـل الرجـال!

وكانـت عالمـة السياسـية (روز مكديرمـوت) قـد أجـرت ألعابًـا حربيـة بيـن أزواج نوعيـة مختلفـة - ذكـر مـع ذكـر، وذكـر مـع أنثـى، وأنثـى مـع أنثـى - حيث لم يكـن الأفراد فيهـا يعرفون نوع منافسـيهم. كانـت الأزواج التـي يتألـف طرفاهـا مـن الإنـاث أكثـر تعاونـًـا بكثير، وكان لجوؤهـا إلـى قـرار الحـرب فـي النهايـة أقـلّ مـن لجـوء أزواج الذكـور؛ الأمر الـذي نتج عنه حصولهـا على مكاسـب إجمالية أعلى. أمـا فـي الأزواج التـي تتألَّـف مـن أنـواعٍ مُختلطـة، فقـد كانت النسـاء أكثـر تعاونـًـا فـي البدايـة، لكـن ردود أفعالهـن كانـت مشـابهة لـردود فعـل الرجـال، وذلـك بشـنّ الحـرب فـي معظـم الأحيـان كاسـتجابة للعـدوان. كان مـن الجَلِـيِّ كذلك أن النسـاء يقدّرن فرصهـنّ في الفوز علـى نحـوٍ أقلّ مـن التقديـرات التـي يعطيهـا الرجـال لفُرصهم.

ربَّمـا تعنـي الاختلافـات بيـن الجنسـين أنَّ العلاقـات الدوليـة مُعرَّضة بشـكلٍ خـاصّ لآثار الأوهـام الإيجابِيَّـة؛ نظرًا للهيمنـة الغالبة الرجـال على مناصب السـلطة. والحقيقـة أنَّ هناك عوامـل أخرى أهمّ مـن عامـل النـوع فـي السياسـة الدوليّة، لكـنّ الواقـع يقـول إنَّ الرجل العـادي يختبـر تأثيـراتٍ بيولوجيّـة علـى سـلوكه - التـي قـد تتضمَّـن الأوهـام الإيجابِيَّـة التي يحفزها التستوسـتيرون - علـى نحوٍ لا تختبره النسـاء؛ سـواء أدى ذلـك إلى نتائـج أفضل، أم أسـوأ.

■ **الثقافــة:** تُعـدّ الأوهـام الإيجابِيَّة سِـمةً بشـريةً مشـتركة بين جميـع الثقافـات، لكـن درجـة إظهـار أفـراد الثقافـات المختلفـة لهـا تتبايـن مـن ثقافـة إلـى أخـرى. مـن ذلـك مثـلًا مـا وجدتـه الأبحـاث مـن كـون الآسـيويين أقـلّ تعزيـزًا لذواتهـم مـن الغربييـن، وأكثـر اسـتنكارًا لهـا، ففـي التجـارب المُصمّمة لمقارنـة الأوهـام الإيجابِيَّة، أظهـر الكنديـون تفـاؤلًا غير واقعـيٍّ علـى نحوٍ يفـوق كثيرًا مـا أظهره اليابانيّـون. كمـا أظهـرت دراسـة أخـرى نتائج مشـابهة عندمـا قارنت الأمريكييـن الآسـيويين بالأمريكييـن القوقازييـن. يبـدو أن النظرة إلى الـذات فـي الثقافـات الشـرقية تتضمـن عنصـرًا جمعِيًّـا، لكـن وحتى عندما تسـتهدف الدراسـة الجماعة لا الفرد، تظلّ تقييمات الآسـيويين لجماعاتهـم أقـلّ إيجابِيّـة مـن تقييمـات جماعـات الأمريكييـن الشـماليين.

ويُعتَقـد أنَّ الاختلافـات في الأوهـام الإيجابِيَّة تنشـأ من الضغوط المختلفـة في البيئات الثقافيـة ذات الصلة، فتعزيز الـذات مقبول أكثر، ونفعـه أكبـر في الغـرب، ويـرى الكثير مـن الكُتّـاب أنَّ التفـاؤلَ مُعزَّزٌ فـي الولايـات المتحدة بالـذات، وله جذور فـي الثقافـة الأيديولوجية للرأسـمالية والماديـة والفرديـة. ووفقًـا للإخصائييـن النفسـيْن (ديفيـد آرمـور، وشـيلي تايلـور)، فالحقيقـة أن «كثيرون ينظـرون إلى الأمريكييـن باعتبارهـم أكثـر الشـعوب تفـاؤلًا على وجـه الأرض».

تدعـم هـذه الاختلافـات الثقافيـة فكـرة أنَّ الأوهـام الإيجابِيّـة

لا تمثّل «سِمَات ثابتة» في الطبيعة البشرية، التي ستكون عاجزة عن تفسير التباين في السياسة الدولية. والحقيقة أنَّ هذه الاختلافات توحي بأنّه على الرغم من أنَّ الأوهام الإيجابِيَّة قد تشكّل ميلًا فطريًّا في نفسياتنا، إلَّا أنها طيِّعة، ويمكن تعويدها على أن تتحفّز بصورةٍ مُختلفة. ومن ثمَّ، فإنّه يُحتمل أن يكون للثقافة تأثيرٌ على التعبير عن الأوهام الإيجابِيَّة.

■ **الأنا**: تختلف الأوهام الإيجابِيَّة كذلك باختلاف نمط الشخصية، ويمكن أن تكون قوية بالأخصّ لدى الأشخاص المصابين باضطرابات مُعيّنة في الشخصية. أما وسط الأشخاص العاديين، فقد وُجِد أن الأوهام الإيجابِيَّة ترتبط ارتباطًا إيجابيًّا بمستويات الأنا، وتقدير الذات، والنرجسيّة. أظهرت إحدى الدراسات أن الأشخاص الذين يرتفع لديهم تقدير الذات «كانوا عُرضةً على نحوٍ خاصّ للمثابرة في المهامّ المستحيلة». وفي مراجعتهما للأدبيات الخاصة بالعدوانية، يرى (روي بوميستر، وجوزيف بودن) أنه يمكن عَزْو كلٍّ من العنف الفردِيّ، والجماعِيّ إلى تلاقي طرفين: أنا مرتفعة، ووجود تهديد على تلك الأنا.

يعدُّ هذا وضعًا خطرًا؛ نظرًا «لأنَّ الأشخاص الذين يبالغون في تقدير ذواتهم سيكونون عُرضةً بشكلٍ مستمرٍّ لخطر تلقّي تقييمات تخبرهم بأنهم ليسوا بالكفاءة التي يظنون أنفسهم بها (لأنهم ليسوا كذلك في الواقع). وقد أظهرت مجموعة من الدراسات

أن مـن يملكـون «آراءً مُتضخّمـة بشـأن ذواتهـم قـد يكونـون ميَّاليـن للسـلوك العنيـف، أو العدوانـي». وممّـا يدعـو للاسـتغراب أن معظم ردود فعـل الأشـخاص ذوي التقديـر الذاتـي المرتفـع علـى الفشـل تكـون برفـع توقّعاتهـم بشـأن أدائهم فـي المسـتقبل؛ الأمر الـذي يُنبئ بكارثـةٍ مُحقّقـة. كما أظهرت دراسـات أخرى أن الأفـراد ذوي التقدير الذاتـي المرتفـع يميلـون إلـى وضـع التزامـات مبالـغ فيهـا، ومحبطة لذواتهـم. وبشـكل عام، فإنّ «الأشـخاص الذين يكوّنـون آراء مغرورة بشـأن أنفسـهم يميلـون إلـى الاسـتجابة غيـر العقلانيـة، والاندفاعية، والعاطفيـة عندمـا يطرح شـخص آخر تحديًـا حقيقيًّا لتلـك الآراء التي يحملونهـا لصالحهـم، وغالبًـا ما تقـود هذه الاسـتجابات إلـى العنف والعدوانية».

ويسـتفحل هذا الخطر وسـط الأشـخاص المصابيـن باضطرابات نفسـية، كالنرجسـيين (الذين يتّصفون بهَوَسِ العظمـة، وحبّ الظهور، والنظـرة المُبالـغ فيها إلى حَـدٍّ كبير لأنفسـهم) والسـيكوباتيين (الذين يملكـون صـورًا ذاتيـة مضخِّمـة لأهمِّيَّتهـم الشـخصية). ويرتبـط السـيكوباتيون بمسـتويات غيـر معتـادة مـن العدوانيـة. أمـا الذيـن يعانـون مـن الهـوس (المسـتويات المرتفعـة مـن اضطـراب الثنائـي القطـب)، فلديهـم كذلـك أوهـامٌ إيجابيـة مبالـغ فيهـا، التي رغـم أنها قـد تُعـزِّز في بعـض الأحيـان أعمـالًا إبداعيـة فَـذّة، إلَّا أنهـا يمكن أن تـؤدِّيَ كذلـك إلـى السـلوك التدميـري والمُختلّ.

لا يمكن للتهديدات الموجّهة للأنا أن تنتقل بسهولة من المستوى الفردي إلى أعمال الحكومات. غير أنّه يبدو أنّ كلًّا من رؤساءِ البلدان، والمؤسسات يُظهرون سلوكياتٍ أنانِيّة تؤثر في الغالب على السياسة الوطنية، وهذا ليس مفاجئًا لدى الطواغيت مثل (ستالين)، أو (هتلر)، لكنْ حتى البلاد العادية تميل إلى التصرف كما لو أنّ «أناها» على المحكّ. وللمنافسة الأنانية على المكانة بين الدول دورٌ أساسيّ في نظرية العلاقات الدولية (وتُمثّل كذلك فَرْضِيَّة أساسيّة في بعض فروعها). وعند وجود اعتقاد بأن دولة ما تنزلق نحو أسفل هرم المكانة، تزيد احتمالية حدوث العنف، ونشوب الحروب. أما البلدان التي يشعر فيها القادة والشعب بأن مكانتهم ليست معترفًا بها كما يجب؛ ترتفع احتمالية شنّهم للحروب من أجل الحفاظ على تلك المكانة (وقد وُجدت آثار مشابهة لهذا في العنف العِرْقي). فمثلًا، يرى ويليام وولفورث أن الأخطار التي كانت تهدّد مكانة بريطانيا هي التي أدّت إلى حرب القرم في 1854-1856، وحرب السويس عام 1956، ويرى كذلك أن الحرب الباردة كانت في البداية لعبة حول المكانة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي. وعلى ما يبدو أنّ هناك بالتأكيد روابط قويّة بين «الأنا»، والأوهام الإيجابِيَّة والعنف؛ ليست بين الأفراد فحسب، بل وفي أوساط الجماعات والأمم.

## 4- تكيُّفٌ فردِيٌّ، وسوءُ تكيّفٍ عالمِيّ:

إذا كانت الأوهام الإيجابِيَّة استراتيجية تكيّفٍ في الماضي، فمن المتوقع أن تكون منتشرة في كل مكان؛ وأن تتجلَّى لدى كلا جانبَيِّ الصراع. لكن ما الدَّاعي لامتلاك أوهام إيجابية إن كان خصمك هو الآخر يمتلكها؟ ألا يعني ذلك أن أيّة فائدة ستُصبح لاغية؟ يوضّح عالم الأنثروبولوجيا (ريتشارد رانجام) ذلك بقوله: إنّ الأوهام الإيجابِيَّة «غير قابلة للتكيف عالميًّا (بمعنى أن الخداع الذاتي يقلّل من كفاءة الفرد العادي.)؛ على غرار معظم الاستثمارات (التّطوُّرية) في التشريح، أو السلوك العدواني». بيد أنها تظلّ مفيدة للفرد؛ كونه غير قادر على الاستغناء عن امتلاكها إذا كانت موجودة لدى الآخرين. ويعطينا (رانجام) مثالًا:

تطوَّرَتْ أنياب ذكور حيوان البابون (الرباح الزيتوني) لتكون طويلةً وحادَّةً، وذلك نتيجةً لسباق التسلُّح التطوُّرِيّ بين ذكور البابون لحيازة الأسلحة الأكثر فعالية. وإحدى نتائج ذلك أن أنيابهم أصبحت كثيرًا ما تُسبّب جروحًا للإناث، ولغيرهم من الذكور. وفي هذا الإطار، نجد أن تطوّر الأنياب غير ملائم للفرد العادي مقارنة بأنواع البابون الافتراضية التي يكون للذكور فيها أنيَاب قصيرة غير حادَّةٍ.

وبطريقة مشابهة، أقترح أن خداع الذات قد اختير على نحوٍ إيجابي في النزاعات العسكرية، إذ إن الفرد سيكون أقلّ كفاءة

بدونـه (كأن يكـون متـردّدًا، أو تنطلـي عليـه الخِـدَعُ). بيـد أن النتيجـة المؤسـفة لذلـك هـي أن الصراعات أصبحت أكثـر تواتـرًا ودموية ممَّا كانـت لتصبـح عليه بـدون هذا الخـداع. ومن ثَـمَّ، فإن الخـداع الذاتي فـي الصراعـات يضرّ بمصلحـة الأنـواع ككُلّ.

قـد يقلـل أيُّ تكيّـفٍ خطِـر مـن متوسّـط الكفـاءة لمجموعـةٍ مـا، لكـن الانتقـاء الطبيعـي يعمـل على مصلحـة الفرد الشـخصية؛ لا على الشـعوب أو الفصائل. وسـيخلّف الأفـراد الناجحين في التكاثر نسـلًا يفـوق عدده نسـل أولئك الأقـل نجاحًا فيـه؛ لذا فـإن الاختيار سـيقع علـى أيّـة سِـمة تمنـح نجاحًـا أكبـر لأفرادهـا؛ دون اعتبـارٍ للمجموعة ككُلّ. إنَّ التطـوُّرَ أعمـى، والآليـة الجينيـة التـي يعمـل بهـا تعنـي أن المَيْـزَةَ الأنانِيَّـة لبـدءِ سـباق التسـلّح، أو اسـتكماله هـي مَيْزَة سـاحقة. والحقيقـة أنـه فـي عالـمٍ افتراضـي لا يخـدع فيـه أحـد خصمـه بشـأن القـوة؛ فـإن أول شـخص يفعـل ذلك سـيحوز ميزة، وسـيخلّف نسـلًا أكثـر ليـرِث هـذه السّـمة، وبهـذا ينتشـر السـلوك. إن فرصـة الغـش تحافـظ علـى السـلامة الفرديـة؛ بغـضّ النظر عـن المخاطـر المتزايدة علـى المجموعـة ككلٍّ. ويُعتقد أنـه كان للأوهام الإيجابِيَّـة أثرٌ إيجابيّ - فـي المتوسـط - علـى تاريخنـا التطـوّريّ، لكنهـا تزيـد مـن سـلوك تحمّـل المُخاطـرة، ومـن ثَـم فهـي تزيـد أيضًـا مـن احتماليّـة حدوث الصراع.

ولهذه العِلّة العالمية من الميزة الفردية موازٍ فيما يُسمّى بالمُعضلة الأمنيّة في العلاقات الدولية، حيث يتعين على الدول التسلّح من أجل الدفاع عن نفسها، وذلك لعدم وجود سُلطة عليا تحميها، لكن التسلّح يُخيف الدول الأخرى، فتُسارع هي كذلك إلى التسلّح. لكن ما فائدة مُراكمة الأسلحة لتعزيز الأمن إذا كان خصمك يفعل الأمر ذاته؟ إن المراكمة تزيد من الخوف في نفس الخصم، وتزيد من خطر الحوادث، وتزيد من فُرصة نشوب الحرب، وتزيد الدمار في حال وقعت الحرب، وفي النهاية؛ وفي حال تماثلت أسلحة الطرفين، فإنها لا تزيد من الأمن على أية حال؛ وهذه هي المعضلة. (ربَّما يكون الاستثناء عندما يكون لدى الطرفان إمكانية شنّ هجمة نوويّة مرة أخرى - أي عندما يتمكّن كلّ منهما من امتصاص هجوم نووي، ومواصلة شنّ هجوم نووي مضاد خاص به - وفي هذه الحالة، يمكن لكل منهما نسف حضارة الطرف الآخر نسفًا كاملا؛ بغض النظر عمّن يبدأ الحرب. وفي مثل هذا العالم من «الدّمار المؤكد المتبادل»، تُتفادى هذه المُعضلة الأمنية في بعض نواحيها. غير أنه يظل بمقدور الحوادث والمفاهيم الخاطئة أن تُسبّب الحرب).

وفي العديد من أنواع ألعاب المعضلات الاجتماعية، ينتهي الأمر بالأطراف العقلانيّة في حالة من الارتداد المتبادل (عدم التعاون)، حتى وإن كانت هذه النتيجة «غير مثالية من وجهة نظر

أمثليــة باريتو[1]»، ممّا يعني أنّه كان بمقــدور الجميع تقديم أداء أفضل. بعبــارة أخرى: مــع أن الارتــداد قد يبدو أحمــقَ بعد فــوات الأوان، إلَّا أنــه يحــدث بالرغــم مــن كونــه مُكلّفًــا ويأتــي بنتائــج عكســية. وتعدل الأطــراف العقلانيــة عــن النتائــج التعاونية؛ لأنهــا لا تســتطع التأكد من أن الآخريــن ســيتصرفون بحســن نية؛ لذا فإنها تنشــقّ لتجنــب تعرّضها للاســتغلال. وحتــى إن رأى الجميــع التكاليــف المُتضمّنــة، وفهموها حــقَّ الفهــم، فــإنَّ المعلومات الناقصــة عن نوايــا الجانــب الآخر تعني أن كلا الجانبيــن يقعــان فــي هاويــة غيــر مثالية (مــن وجهة نظــر أمثلية باريتــو) من الارتــداد المُشــترك الذي يصعــب الهروب منــه. وإذا رأى المــرء تهديــداتٍ مُحتملــة وفشــل في الــرَّدِّ عليهــا، فإنَّه بذلــك يضخِّم المشــكلة وحســب؛ لأن الخطــر يُصبح أشــدّ. ولهذا الأمــر عاقبة مثيرة للاهتمــام: قــد يكون مــن الأفضــل افتــراض أن التهديد حقيقــيّ دائمًا، بحيــث يتســنَّى عمــل رَدٍّ فعــل ملائــم لتفــادي الخطــر؛ لــذا ففــي نظام أناركــي دولــي مليء بالــدول التــي تتدافــع لحمايــة أمنها؛ ربّمــا يكون مــن الأفضل ارتــكاب الأخطــاء إلى جانــب امتــلاك أوهــام إيجابيّة.

---

(١) أمثليــة باريتــو Pareto efficiency: وتســمى أيضًــا (كفــاءة باريتــو) وهــي مصطلــح اقتصادي اســتحدثه العــالم الاقتصــادي الإيطالي (فيلفريــدو باريتو)، ويطلــق عــلى حالــة الكفــاءة الاقتصاديــة التــي تحــدث عندمــا لا يمكــن زيــادة منفعــة مســتهلك، أو ســلعة مــا إلَّا عــن طريــق الإضرار بمســتهلك، أو ســلعة أخــرى، وهــي تختلف عن حالــة أفضلية باريتــو؛ إذ إنَّ حالــة الأمثلية لا تتحقق إلَّا عند اســتنفاد التفضيلات كافــة. (ويكيبيديا).

دعوني أقتبسْ هنا كلام (رانجام) مجدَّدًا وهو يلخِّص كلًّا من الجوانب الإيجابِيَّة والسلبية لسباق التسلُّح هذا:

في عالم تنافسيّ؛ يُبلي حسنًا أولئك الذين لديهم أوهامٌ إيجابيّة. ولكن كالأسلحة النووية، التي - وبالمثل - تساعد الخصم الذي يمتلكها، فإنها [أي الأوهام الإيجابِيَّة] تعدّ مسؤولية، كونها تفاقم الضرر الناجم عن القتال... وعلى الصعيد العالمي، فربَّما تفاقم هذه السِّمَات من خطر القتال، ناهيك عن أنها تزيد بالتأكيد من حجم التكاليف. ولكن لأنَّ البقاء للأقوى، فإنه لا يمكن خفضها إلَّا من خلال اتفاقيات تلزم جميع الاطراف بتركها.

## 5- ملخّص الفَرْضِيَّاتِ والتَّنَبُّؤَاتِ:

| جدول (أ) فرضيات وتوقعات نظرية الأوهام الإيجابِيَّة (انظر الفصل الثاني) | |
|---|---|
| **الفَرْضِيَّة** | **التوقّع** |
| الفَرْضِيَّة الرئيسِيَّة | |
| الأوهام الإيجابيَّة تثير الحرب (الفَرْضِيَّة الرئيسِيّة) | الأوهام الإيجابيَّة، مثل تضخيم الذات والسيطرة المبالغ فيها على الأحداث والتفاؤل المفرط، تسبق الحرب، وتُثيرها. |

| تزيد الأوهام الإيجابيِّة من الثقة المُفْرطة بالنفس (الفَرْضِيَّة التفسيرية أ) | تؤدي الأوهام الإيجابيِّة إلى فرط الثقة بشأن القدرات، والذكاء، واحتمالية النجاح (مشروطة بستة ظروف سابقة). |
|---|---|
| الثقة المُفْرطَة بالنفس تثير الحربَ (الفَرْضِيَّة التفسيرية ب) | تدفع الثقة المُفْرطَة بالسياسات نحو طريق الحرب (مشروطة بظرفين سابقين) |
| ظواهر طارئة | |
| الثقة المُفْرطَة بالنفس تثير الحربَ (الفَرْضِيَّة التفسيرية ب) | تدفع الثقة المُفْرطَة بالسياسات نحو طريق الحرب (مشروطة بظرفين سابقين) |
| مبالغة الطرف في تقدير نفسه (حلفائه) | يبالغ صُنَّاع القرار في تقدير قدراتهم (وقدرات حلفائهم) |
| التقليل من شأن العدو (والحلفاء) | يستهين صُنّاع القرار قدرات أعدائهم (وقدرات حلفائهم) |
| إهمال المعلومات الاستخباراتِيَّة | لا يستجيب صُنّاع القرار للمعلومات الاستخباراتية استجابة ملائمة |
| مجموع تقديرات النصر للأطراف المتعارضة >1 | يُفرط صُنَّاع القرار في التفاؤل بشأن فرص النجاح |

| جدول (ب) المستويات المتوقعة للأوهام الإيجابيَّة بوصفها دالَّة على الشروط الستة السابقة (انظر الفصلَ الثاني) | | | |
|---|---|---|---|
| | المستوى المتوقَّع من الأوْهام الإيجابيَّة | | |
| الشرط السابق | منخفض | مرتفع | التوقُّع |
| إمكانية التّحقُّق | إمكانية مرتفعة | إمكانية منخفضة | تتراجع الأوهام الإيجابيَّة بالاقتراب من التقييمات التي يمكن التحقق من صحتها |
| العموميّة | مستوى معيَّن | مستوى عام/ مجرد | تتراجع الأوهام الإيجابيَّة من الخطط طويلة الأمد الأكثر تجريدًا إلى الخطط اليومية على أرض المعركة |
| ردود الفعل والإفادات | انتهاء الفترة | بداية الفترة | تتراجع الأوهام الإيجابيَّة بتراكم ردود الفعل والإفادات، أو اقترابها |
| الغموض | صفات واضحة | صفات غامضة | تتراجع الأوهام الإيجابيَّة من التقييم الاستراتيجي للأشياء الغامضة (نوايا العدو، وعزمه، وردود فعل الأطراف أخرى) إلى التقييمات التكتيكية للأشياء المادِّيَّة (الجيوش والدبابات، إلخ). |

| مرحلة المهمة | عند التداول | عند التخطيط، أو التنفيذ | تتزايد الأوهام الإيجابيَّة من التداول بشأن مهمةَ ما إلى تنفيذ تلك المهمة |
|---|---|---|---|
| مستوى الخطر | لا يوجد خطر | يوجد خطر | تتزايد الأوهام الإيجابيَّة في الظروف المهدِّدة |

| جدول (ج) المستويات المتوقعة من فرط الثقة بالنفس بوصفه دالَّةً على الشرطين السابقين: نوع النظام، وعلنيّة النقاش (انظر الفصل الثاني). | |
|---|---|
| الفَرْضِيَّة | التوقـع |
| يزيد مَيْلُ الأنظمة الأكثر ديمقراطِيَّةً إلى تمييز الثقة المُفْرطَة، والتخفيف منهَا. | تقل الثقة المُفْرطَة في الأنظمة الأكثر ديمقراطِيَّةً (عَلْنِيَّة القوم، والإعلام، والبرلمان، والخدمة المَدَنِيّة، وتدقيق مجلس الوزراء للسياسة). |
| يزيد ميل النقاش الأكثر انفتاحًا إلى تمييز الثقة المُفْرِطَة، والتخفيف منها. | تقل الثقة المُفْرطَة عندما يكون النقاش أكثر شمولِيَّة (منفتحًا وغير متحيّز)، وتوسّعية (بحيث يأخذ الكثير من الآراء، ووجهات النظر بعين الاعتبار). |

تمـــت



# الثقة المفرطة والحرب

**في هذا الكتاب، أقوم بثلاثة أشياء:**

**أوَّلًا:** أجادل في أن الإفراط في الثقة في أوقات النزاع كان سِمةً تكيُّفيّة في ماضينا التطوّري، وكنتيجة لذلك، أصبح جزءًا لا يتجزّأ من النفسية البشرية.

**ثانيًا:** أجادل في أنه سواء أكان له أصل تطوّري أم لا، فإن الإفراط في الثقة يعد ظاهرة منتشرة لا يمكننا غضّ الطرف عنها في محاولتنا لفهم النزاع.

**ثالثًا:** أجادل في أن الإفراط في الثقة يساهم في التسبّب في الحرب. يعدّ كلّ واحدٍ من هذه الادّعاءات الثلاثة قائمًا بذاته، لكنّ مهمتي تتمثل في إظهار أنها مترابطة، حيث أجادل في أن الانتقاء الطبيعي في التطوّر البشري كان يفضّل المَيْزَة الاستراتيجية للروح الواثقة، وبالتالي فهي شائعة في سيكولوجيتنا اليوم؛ ولذا فهي تعزّز نشوب الحرب.

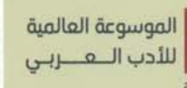
**(لكنني لا أجادل في أن الثقة المفرِطَة هي السبب الوحيد لاندلاع الحرب).**







الموسوعة العالمية للأدب العربي




ISBN 978-603-8317-12-9